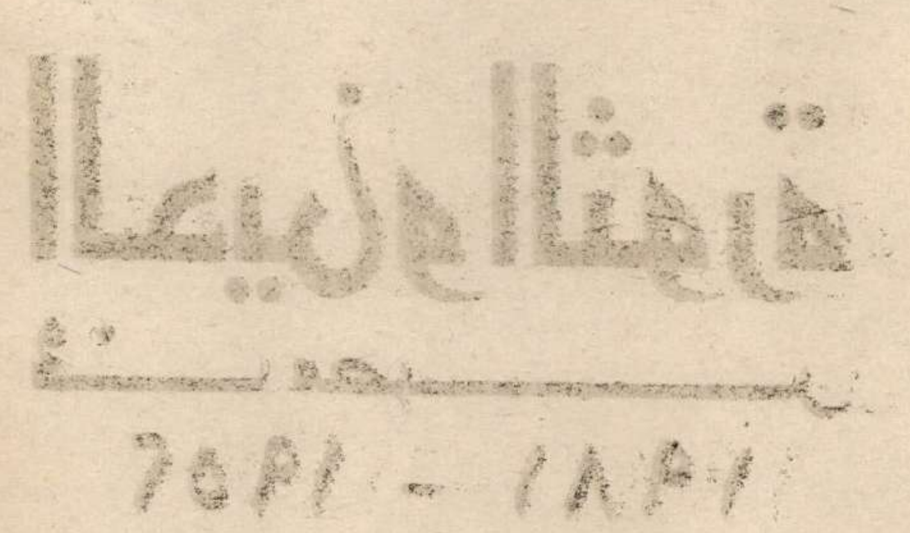


الدين والثورة في مصر ١٩٥٢ - ١٩٨١

١ - الدين والثقافة الوطنية

دكتور حسن حنفي

الناشر
مكتبة مدبولى
٧٥٦٤٢١

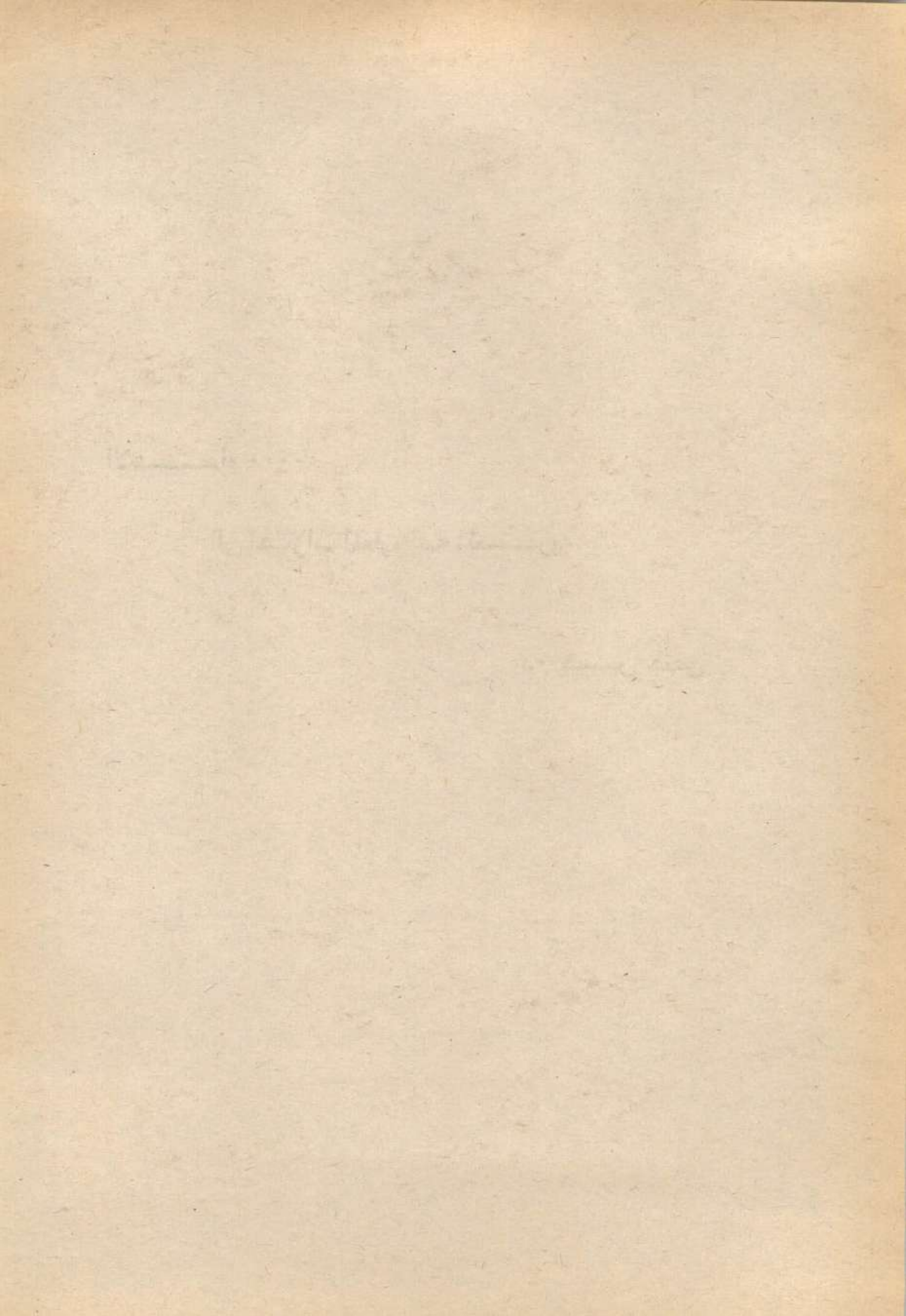


تصميم الغلاف : محمد عمر

الاهـــــداء .....

الى أحـــزاب المعارضـــة المصـــرية

د. حســـن حنفى



مقــدمة الطبعــة الأولى

« الدين والثــورة فى مصر ١٩٥٢ ــ ١٩٨١ » سجل لتاريخ مصــر الحديث عن الدين والثــورة ابان الفترتين الرئيسيتين فى عمر الثــورة المصرية • الأولى فترة الثــورة وحــلم الستينات (١٩٥٢ ــ ١٩٧٠) ، والثانية فترة الثورة المضادة وواقع السبعينات (١٩٧٠ ــ ١٩٨١) • لذلك كان من ضمن الاختيارات للعنوان « الثورة والثورة المضادة فى مصر ١٩٥٢ ــ ١٩٨١ » • وهو أقرب الى الكتاب الوثائقى يقص بداية الثورة ونهايتها فى مصر فى غمرة الأحداث التى عصفت بها • وقد كتب معظمه للصحافة داخل مصر وخارجها • وبالتالى غلب عليه الأسلوب الخطابى ، واتسم بالنبرة العالية • كانت الغاية مخاطبة الجماهير العربية فى مصر وخارجها والتوجه لها مباشرة بالنداء •

وقد كتب معظمه فى الفترة ١٩٧٦ ــ ١٩٨١ أى على مدى خمس سنوات فى عنفوان الثورة المضادة فى مصر ، وبعد قانون الاستثمار فى ١٩٧٤ وبداية الانفتاح الاقتصادى ، وبعد انتفاضــة يناير ١٩٧٧ ، والمعاهدة المصرية الاسرائيلية فى مارس ١٩٧٩ ، ومقــاومة التطبيع ابتداء من ١٩٨٠ ، ثم مذبحة سبتمبر ١٩٨١ ، وأخيرا اغتيال الرئيس فى أكتوبر من نفس العام • كتب فى غمرة الأحداث التى مرت بمصر ابان التحول عن ثورتها والتى هزت وجداننا القومى وقناعاتنا الأولى •

ويتكون الكتاب من جزأين : الأول « فى الثقافة الوطنية » ،والثانى « فى اليسار الدينى » • وكان قد أعلن عنهما من قبل انهما يمثلان قضايا معاصرة ، الجزءان الثالث والرابع • ولكنى لم أشــأ استبقاء العنوان القديم الذى صدر منه جزءان سابقان ، الأول « فى فكرنا المعاصر » ، والثانى « فى الفكر الغربى المعاصر » والذى يعبر عن الأحداث التى مرت بمصر بعد هزيمة ١٩٦٧ والى ١٩٧١ • وبالتالى أكون قد شهدت على عصرى مرتين : الأولى فى « قضايا معاصرة » فى الستينات فى فترة ما بعد

الهزيمة فى ١٩٦٧[١] ، والثانية فى « الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ — ١٩٨١ » فى السبعينات فى فترة الثورة المضادة فى مصر ١٩٧١ — ١٩٨١ .

وفى كلتا الفترتين ، حاولت الجمع بين العلم والوطن ، وأن أمارس دورى كعالم ومواطن كما كان يفعل الفقهاء القدماء . فلا فرق عندى بين الجامعة والوطن ، ولا بين البحث العلمى والالتزام السياسى . وقد استغرق ذلك من العمر ما يقرب من السنوات العشر على فترتين . فما كان يعقل والمنزل يحترق ، والأرض محتلة ، والاستقلال الوطنى ضائع ، والحريات منتهكة ، والتفاوت الطبقى بين الأغنياء والفقراء فى اتساع ، والأمة مجزأة يحارب بعضها بعضا ، والهوية مهددة ، والجماهير لا مبالية أن أواصل « التراث والتجديد » وهو مشروع العمر الذى يؤصل مآسى العصر ويتعرف على أسبابها وطرق مواجهتها فى التراث القديم باعتباره مخزونا نفسيا عند الجماهير والمكون الرئيسى لثقافتنا الوطنية[٢] .

ولما لم يكن فى العمر بقية ، وكان مشروع « التراث والتجديد » هو الابقى على المدى الطويل فقد آثرت أن أكتفى بهاتين الشهادتين على أحداث العصر والتى كلفتنى عشر سنوات من التوجه المباشر من خلال الصحافة الى جماهير الشعب . وأن أخصص ما بقى من عمر لمشروع « التراث والجديد » ، واصدار أجزائه تباعا بعد أن تأخر الجزء الأول « من العقيدة الى الثورة » أكثر من خمسة عشر عاما بسبب أحداث العصر [٣] وأصبح السؤال الآن : متى يتم انجاز هذا المشروع بجبهاته الثلاث : موقفنا من التراث القديم ، وموقفنا من التراث

---

(١) دار الفكر العربى ، القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٧٦ — ١٩٧٧ ، الطبعة الثانية ١٩٨٧ — ١٩٨٨ ، (الطبعة العربية الاولى دار التنوير ، بيروت ١٩٨٠) .

(٢) « التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم » ، الطبعة الأولى ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ١٩٨٠ ، الطبعة الثانية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٧ (الطبعة العربية الاولى ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١) .

(٣) « من العقيدة الى الثورة ، محاولة لاعادة بناء علم أصول الدين » خمسة اجزاء ، مدبولى ، القاهرة ١٩٨٧ — ١٩٨٨ .

الغربى ، وموقفنا من الواقع أو نظرية التفسير اذا ما استنفذ الجزء الأول من الجبهة الأولى رصيد العمر ؟

لذلك يصدر هذا الكتاب ولم يعد فى العمر بقية لشهادة ثالثة على أحداث العصر القادمة . وأترك ذلك لأجيال أخرى تقوم بها أكثر شبابا وحماسا ، بل أكثر وعيا وادراكا . وباصدار هذين الجزأين أقول وداعا للصحافة[1] .

وقد أهديته الى « أحزاب المعارضة المصرية » . فقد كتبت معظم مقالات هذا الكتاب وأنا أعمل معها خاصة مع حزب « التجمع » الذى تعلمت منه الكثير ، حوارا مع قيـاداته الفـكرية ، وعملا مع كوادره الحزبية ، واتصالا بجماهيره الثورية .

حسن حنفى

القاهرة نوفمبر ١٩٨٧

---

(١) نظرا لتضخم الفصول ، ورغبة فى الوصول الى الجماهير الواسعة ، وحتى لايستأثر وشياخنا الأجلاء بنواصى الطرق واكشاك الصحف ثم اصدار كل فصل فى جزء مستقل . فصدر الكتاب فى ثمانية أجزاء على النحو الآتى :

١ ــ الدين والثقافة الوطنية .
٢ ــ الدين والتحرر الثقافى .
٣ ــ الدين والنضال الوطنى .
٤ ــ الدين والتنمية القومية .
٥ ــ الحركات الاسلامية المعاصرة .
٦ ــ الأصولية الاسلامية .
٧ ــ اليمين واليسار فى الفكر الدينى .
٨ ــ اليسار الاسلامى والوحدة الوطنية .

ويصدر الكتاب عن (دار ثابت) التى نشرت اعمال المفكر الاسلامى الكبير خالد محمد خالد . فكتاب « الدين فى مصر ١٩٥٢ ــ ١٩٨١ » هو استئناف لروح « من هنا نبدأ » ، « مواطنون لا رعايا » ، « الديموقراطية ابدا » ، « الدين فى خدمة الشعب » ، « لله والحرية » ، « لكى لا تحرثوا فى البحر » ، « انه الانسان » ، « نحن البشر » .. الخ . فلها منا خالص الشكر

الجـــزء الأول

الـدين والثقـــافة الوطنيـــة

أولا : مقدمة : ماذا تعنى الثقافة الوطنية ؟

الثقافة الوطنية هى المكون الرئيسى لمزاج أى شعب يستمد منها تصوراته للعالم وبواعثه على السلوك ، تظهر سماتها فى الافراد وفى الشعوب على حد سواء ، فى الوعى الفردى وفى الوعى الاجتماعى وفى الوعى التاريخى • وقد حاول البعض ربط الثقافات الوطنية بأنماط الروح الانسانية وبنماذج مسبقة تتحكم فى بنيتها • فهناك روح أبوللو العاقل فى مقابل روح ديونيزيوس الانفعالى كما هو معروف عند نيتشة • ومع ذلك فهى تعبير عن أمزجة الشعوب وطبائعها وتاريخها على نحو استقرائى مكتسب ، وليست نمطا مثاليا مسبقا على نحو استنباط أولانى • وقـد يسميها البعض الثقافة « القومية » بدلا من « الوطنية » ، وهى أيضا تسمية صحيحة • فارتباط الثقافة بالوطن ارتباطها بالقوم • اذ لا وطن بلا قوم ولا قوم بلا وطن • وسيرد اللفظان مترادفين • الا أن لفظ « القومية » قد يدل على مذهب معين للقوميين فى حين أن لفظ « الوطنية » يشارك فيه الوطنيون جميعا قوميين أو ليبراليين ، ماركسيين أو اسلاميين •

وتتكون الثقافة الوطنية من عناصر عديدة فى مقدمتها الدين والتراث الدينى والحكم والأمثـال العاميـة وسـير الابطال والملاحم الشعبية وشواهد من تاريخ البطولة وحكمة الشعوب • فمازال الدين أهم روافدها لا العلم ولا التقنية ولا التصنيع ولا حتى الاصـلاحات الاجتماعيـة والانجازات الثورية والخدمات العامة الأخيرة • والتراث مخزون نفسى فى ثقافة الجماهير[1] • لا يختلف فى ذلك التراث الاسلامى عن التراث المسيحى أو التراث اليهودى • فهناك الدين الشعبى ، الدين الاشراقى الشعائرى ، كأساس واحد ومنبع متصل لها ، يوحد بينها من الأساس •

---

(١) أنظر كتابنا التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم ص ٩ — ١٨ ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ١٩٨٠ [اكتفينا فى معظم الاحالات بالاشارة الى دراساتنا السابقة اكمالا لموضوع تطرقنا اليه كثيرا وليس اغماضا لمساهمات الباحثين العرب فى هذا الميدان] •

أما الوافد المعاصر من مظاهر الحداثة فالعلم والتقنية والتصنيع وأساليب الحياة الحديثة فهى حديثة العهد على الثقافة الوطنية ، محاصرة فى طبقة محددة وان اتسع أثرها فى باقى الطبقات الشعبية بعد هجرة العمالة المصرية الى الخارج وزيادة قدرتها على الشراء بعد العودة خاصة فيما يتعلق بالاجهزة الكهربائية الحديثة . ويحدث أثرا مضادا تحت وطأة التغريب وذلك برفع الثقافة الوطنية نحو رافدها الأول وهو الدين . التراث حماية لها من الوقوع فى الثقافة الوافدة ، ودفاعا عن ثقافة الموروث ، وبالاضافة الى هذين المصدرين الرئيسيين للثقافة الوطنية ، الموروث والوافد ، هناك الواقع المباشر الذى منه نشأت بتشابكه ، وتضارب مصالحه ، واختلاف طبقاته ، وصراع قواه . الثقافة الوطنية اذن على مفترق طرق ثلاثة : الموروث الدينى ، والوافد العلمانى ، والواقع الحى المباشر[٢] .

وان اعادة بناء الثقافة الوطنية فى البلاد النامية يحل اشكالها الرئيسى وهو ازدواجية الثقافة بين المحافظة الموروثة والعلمانية الوافدة ثم انعزال كليهما عن الواقع الحى للناس ولصالح الجماهير وتحديات العصر . وهى أساس التحديث الشامل سواء التغير الاجتماعى أو نقل المجتمع كله من مرحلة تاريخية الى مرحلة تاريخية أخرى . ان اعادة بناء الثقافة الوطنية هو جزء من تحديث المجتمعات وضمان لاستمرار ثورتها حتى لاتصاب بالردة أو النكوص أو الانقلاب الى ثورة مضادة . ما أسهل وما أسرع من تغيير المجتمعات بقرارات ثورية من السلطة السياسية تنتهى بمجرد انتهاء القيادة الثورية ، وما أصعب وما أطول من تغيير المجتمعات باعادة بناء الثقافة الوطنية بحيث تكون هى الضامنة والحارسة لاستمرار الثورة والابقاء على التغيرات الاجتماعية ومكاسب الثورة حتى ولو تغيرت القيادة الثورية . وتلك اهم قضية لدى

(٢) انظر دراستنا : «موقفنا الحضارى » بحوث المؤتمر الفلسفى العربى الاول ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ وأيضا فى « دراسات فلسفية » ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨ .

الشعوب النامية على خلاف ما هو عليه الحال لدى الشعوب المتقدمة . فمازالت الشعوب النامية تمر بمرحلة انتقال من التقليد الى الحداثة ، من القديم الى الجديد ، من التراث الى المعاصرة . ومازال الاختيار لم يحسم بعد بين كافة البدائل : القطع مع القديم باسم الجديد ، رفض الجديد دفاعا عن القديم ، الجمع بين الاثنين عن طريق التجاور والتمييز بين المستويين ، قديم فى السلوك الشخصى وحديث فى السلوك العام أو حديث فى السلوك الشخصى ، قديم فى السلوك العام ، الجمع بين الاثنين عن طريق تطوير القـديم من داخله بأسـاليب الحداثة المطوية فيـه[٣] . وهو النمط المطروح أمامهـا الذى يلاقى موافقـة الأغلبية ، نمط « التغيير من خلال التواصل » . أما النموذج الغربى فانه يقوم على الانقطاع بين التراث والتجديد ، بين التقاليد والتحرر ، بين القديم والجديد . وبقدر ما يتم نقد القديم ورفضه يتم التحرر منه وابداع الجديد ، وبقدر مايتم التخلص من التراث والفك من اساره يتم اطلاق قيد العقل وممارسة حرية الفكر واستقلاله ، وبقدر التخلص من اللاهوت القديم يتم اكتشاف الطبيعة والانسان ، وبقدر مايتم الخلاص من المعارف الالهية المعطاة سلفا يتم الثقة بالعقل وبقدرته على اكتشاف مناهج جديدة ، توصله الى العلم ، وتساعده على كشف الحقائق . وبقدر مايتخلص من الشرائع الكنسية وسلطانها يتم اكتشاف الشرائع الانسانية والقانون الوضعى .

والثقافة الوطنية هى الأساس الذى منـه تخرج الايديولوجيات السياسية . وان أية أيديولوجية سياسية ترد من خارج الثقافة الوطنية يسهل حصارها وعزلها ثم استبعادها . وقد استطاعت الثقافة الوطنية كأية أيديولوجيات سياسية وهويات قومية تثوير الشعوب . فقد كان الأدب الروسى هو الوعاء الذى منه خرجت الثورة الروسية ، وكانت حلقات الأدباء نواة تخرج منها حلقـات الثوار . كمـا كانت الثورة

---

(٣) انظر مقالنا : « التراث والتراث والتغير الاجتماعى » فى دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨ وايضا ، التراث والتجديد ، ص ٣١ — ٣٤ .

الفرنسية ابنة حركة التنوير . وكانت الثورة الامريكية امتدادا للتنوير الفرنسي والتنوير الأمريكي عند توماس بين . وكانت الثورة الايرانية تحقيقا للاسلام كهوية قومية وايديولوجية سياسية فى مواجهة التغريب الفكرى والسياسى ابان حكم الشاه . وقد استطاعت الثقافة الوطنية فى تاريخنا الحديث أن تكون المهد الذى منه خرجت حركاتنا الاصلاحية وثوراتنا الحديثة منذ عرابى حتى عبد الناصر[٤] . الثقافة الوطنية هى جمع بين العلم والمواطنة ، وهما شرطان لتقدم كل شعب . فلا علم بلا التزام قومى ، ولا التزام قومى بلا علم[٥] .

واذا كانت الثقافة الوطنية تشمل كل « البناء القومى » من قيم وسلوك فأنها تكون مزاج الفرد وروح الشعب وتراث التاريخ . وبصرف النظر عن المدارس السلوكية ومدى ابرازها عامل الثقافات فى سلوك الافراد والجماعات فانه مما لاشك فيه أن الثقافة أحد مكونات السلوك . ليست المسألة فقهية صرفة ومماحكات نظرية لا حل لها ، فيها قولان ، ولا مخرج منهما : أيهما أسبق البناء التحتى أم البناء الفوقى ؟ أيهما علة وأيهما معلولا ؟ أن وضع الاشكال على هذا النحو من أجل حل أحادى الطرف وضع غير علمى وحل غير علمى ، خاضع لعقلية الثنائية المتعارضة التى سادت الوعى الأوربى ، تجزئة الحقيقة الواحدة الى عدة عوامل متنافرة متضاربة ثم رد الكل الى أحد أجزائه . ان الواقع كل متشابك ، جدل بين العلل ، أثر متبادل بين البنيتين . وهو ما يؤكده التفسير الجدلى . ويتم الجدل بين البنيتين فى طرف ثالث وهو الشعور الفردى والجماعى ، الوعى الانسانى والحضارى . ومن هنـــا تأتى أهمية ظاهريات هيجل وظاهريات هوسرل .

---

(٤) أنظر مقالاتنا : « الدين والثورة فى الثورة العرابية » ، « عبد الناصر والدين » ، « عبد الناصر والشاه » ، « عبد الناصر والحلف الاسلامى » . الفصل الرابع ، الدين والثورة الوطنية .

(٥) أنظر مقالاتنا : « الاصلاح الجامعى » ، « الجامعة والوطن ، « المصدر السابق ، الفصل الاول ، الدين والثقافة الوطنية وايضا « رسالة الجامعة » فى قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فى فكرنا المعاصر ص ٢٠٨ — ٢٢٦ .

والثقافة الوطنية ليست وحدة متجانسة تعبر عن نسق واحد ، عن مذهب محكم بل تضم مكونات عديدة متنافرة ومتناقضة ، بل الايجاب والسلب ، بها الأمثال العامية والحكم الشعبية بل والعقائد المذهبية التى تحث على العمل والجهد ، وترفض الظلم والقيم والاستكانة والخنوع ، وبها أمثلة مضادة تدعو الى ترك الأمور تسيرها المقادير والى الاستسلام للمكتوب • ويرجع هذا التناقض الى أن مكونات الثقافة الوطنية افراز لعديد من الظروف المتباينة ، وتعبير عن كافة الطبقات الاجتماعية بمصالحها المتعارضة • ويكون التحدى الأعظم هو كيف يمكن تحييد الجوانب السلبية وابراز الجوانب الايجابية من أجل تنشيط الذهن وتعبئة الجماهير • فاذا ما اعتمدت نظم القهر والطغيان على الجوانب السلبية تأكيدا لحق السلطان وواجب الطاعة فان فرق المعارضة تستطيع الاعتماد على الجوانب الايجابية تأكيدا لحق الشعب وواجب الثورة[6] •

وأخيرا ، تعبر الثقافات الوطنية عن خصوصيات الشعوب ضد ما يسمى بالثقافة العالمية التى ما تكون فى العادة الثقافة الغربية وضد شمولية العلم الذى هو فى العادة أيضا العلم الغربى نظرا لأن الثقافة المعاصرة والعلم الحديث قد ظهرا فى عصر الريادة الأوربية فى القرون الخمسة الأخيرة • وبالتالى فهى قادرة على حماية الشعوب من هيمنة ثقافة على أخرى • ان الثقافة الواحدة الشاملة والعلم الواحد الشامل انما هو أسطورة تروجها الثقافة الرائدة والعلم الحديث من أجل الهيمنة الثقافية ونقل العلم من المركز الى المحيط • كل ثقافة هى ثقافة محلية بالضرورة • وكل علم هو أيضا محلى بالضرورة نظرا لأن العلم هو أحد الأنشطة الذهنية ، يعكس البنية الثقافية للحضارة التى ينشأ فيها هذا العلم • ان خصوصيات الثقافة الوطنية لا تعنى وجود جزر منعزلة لا رابط بينها ولا اتصال • فهناك الترجمة والنقل بين الثقافات ، وتبادل الالفاظ واستعاراتها ، واكمال المعانى ورؤية الاشياء • وقد حدث ذلك

---

(٦) انظر دراستنا : « موقفنا من التراث الغربى » ، فى قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فى الفكر الغربى المعاصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة .

بين الثقافة الاسلامية والثقافة اليونانية والفارسية والهندية القديمة . كما أن تشابه الامثال العامية وترادف حكمة الشعوب التى تخترق كل الثقافات انما تدل على وجود طبيعة بشرية واحـدة وراء الوصـيد الانسانى المشترك . هناك اذن مسـتويات للروابط بين الثقـافات : مستوى المعانى والماهيات عن طريق الترجمة والنقل والتبادل الحضارى ، ومستوى التجـارب البشرية المشتركة ووحـدة الطبيعة الانسـانية وتجانسهما عبر الزمان (٧) .

ثانيا : الثقافة الوطنية والايديولوجيات المعاصرة فى مصر .

كان اغفال أهمية الثقافة الوطنية فى تاريخنا المعاصر أحد أسباب تعثر نهضتنا الحديثة وردة ثورتنا المعاصرة . فاذا كنا قد عرفنا خمس أيديولوجيات للنهضة فانها جميعهـا وعلى درجات متفاوتة لم تؤسس ابنيتها باحكام تام على مكونات الثقافة الوطنية للشعب . فجـاءت محاصرة مبتسرة ، معزولة عن ثقافة الجماهير على النحو التالى :

١ ــ لقد استطلعت « الليبرالية » الممثلة فى حزب الوفد والتى حكمت مصر حتى قبل الثورة المصرية الحديثة أن تؤسس نفسها على التراث الوطنى المصرى منذ ثورة ١٩١٩ وما بعدها . وخرج كتابها ، وبصرف النظر عن ولائهم الحزبى لهذا الجناح أو ذاك ، يدعون للحرية ، ويطالبون بأعمال العقل ، ويدافعون عن الدستور والنظم البرلمانية وتعدد الاحزاب . وظهر فى هـذا الاطـار « حياة محمـد » ، « فى منزل الوحى » .. الخ . ولكن ظلت الليبرالية محصورة فى طبقة الباشوات ، وظل التجديد أحد انجازاتها . أما ثقلفة الجماهير فظلت دينية تقليدية محافظة ترفض الانقطاع عنها والعنف معها كما حدث مع « الاسلام وأصول الحكم » ، « الشعور الجاهلى » ، « تحرير المرأة » ، « من

---

(٧) هذا بحث شامل من اجل ان يكون مظلة عامة لكل البحوث الموجودة فى هذين الجزئين من « الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ ــ ١٩٨١ » بأقسامهما التسعة . وقد القى فى الأصل كمحاضرة فى ندوة الخميس فى منزل صديقنا د. عبد المنعم تليمة عام ١٩٧٦ ، وقد [illegible] هذا البحث فى سبتمبر ١٩٨٧ من النقاط العلمية التى كونت هذه المحاضرة .

هنا نبدأ » •• الخ • ظلت الليبرالية أقرب الى الايديولوجية الوافدة منها الى الايديولوجية الموروثة ، تقليدا للغرب وليس بعثا للقديم ، أسوة بأوربا وليس احياء للمعتزلة • فلم ينجح تركيب الليبرالية الوافدة على الأشعرية والتصوف المكونين الرئيسيين للثقافة الشعبية • لذلك سرعان ما انهارت أمام المحافظة التقليدية والموروث القديم • كانت الليبرالية مجرد نتوء سطحى فى الحياة السياسية ، ولم تكن رافدا أصيلا فى ثقافة الجماهير •

٢ ــ ثم اعقبتها « الاشتراكية العربية » بعد تطورها من التمصير الى الاشتراكية الديمقراطية التعاونية ونهايتها فى الاشتراكية الديمقراطية ابان الثورة المصرية[٨] • وعلى الرغم من تعبيرها عن مصالح الجماهير الا أنها لم تنبثق من ثقافتها الوطنية بالرغم من أدبيات الاشتراكية والاسلام التى غلب عليها الطابع الدعائى الذى قام به جهاز الدولة لتبرير قرارات السلطة السياسية • ولو أن السلطة اختارت الرأسمالية طريقا للتنمية وعادت الاشتراكية لخرجت أدبيات الاقتصاد الحر فى الاسلام كما يحدث الآن فى البنوك الاسلامية وشركات توظيف الأموال واتهام الاشتراكية بالشيوعية والالحاد باسم الاسلام • لم ترتبط الأهداف القومية بالثقافة الوطنية ارتباطا عضويا ، وظلت فى مجموعها أهدافا علمانية أو على أكثر تقدير تعبيرا مباشرا عن مصلحة الجماهير مثل التحرر من الاستعمار ، تذويب الفوارق بين الطبقات ، تكوين القطاع العام ، اعطاء حقوق العمال ، الاصلاح الزراعى ، توزيع الأرض على الفلاحين ، التصنيع ، مجانية التعليم ، تحالف قوى الشعب العامل ، الوحدة العربية ، سياسة عدم الانحياز ••• الخ • بل تمت معادات كل محاولة جادة لتأصيلها عن اقتناع وصدق قبل الثورة وبعدها مثل « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » ، « معركة الاسلام والرأسمالية » « السلام العالمى والاسلام » •• الخ ، حرصا على السلطة ، واحتكارا للفكر والممارسة ، وخوفا من تحول الأصالة الفكرية الى تيار سياسى

---

(٨) أنظر دراساتنا : الدين والتنمية ، الدين وتوزيع الدخل القومى فى مصر ، الفصل الخامس ، الدين والتنمية القومية .

وتنظيم شعبى وحركة جماهيريه بديلة عن السلطة السياسية ، سلطة الضباط الأحرار . نشأ الصراع بين ممثلى المكون الرئيسى للثقافة الوطنية وهم الاخوان المسلمون وبين حاملى الاهداف القومية الجديدة وهم الضباط الأحرار وانتصر الضباط الأحرار فانزوى الاسلام فى القلوب ، وانحسر عن المشاركة فى الحياة العامة ، وتحول تحت وطأة التعذيب والحصار الى اسلام محافظ راغب فى الانتقام ، رافض لكل شىء . استشهد سيد قطب ، واستمر التعذيب بين جدران السجون ، ولم توجد جماعة اسلامية علنية تقوم بمهمة التربية الاسلامية مما نتج عنه اصابة المجتمع بالتفسخ والانحلال وبالتالى دفع الاسلام المحافظ الى التشدد والى مزيد من المحافظة . ولقد استعمل هذا المكون الرئيسى للثقافة الوطنية لضرب هذه الأهداف ذاتها بطريق غير مباشر نظرا لأن هذه الأهداف صورت على أنها خارجية وافدة مفروضة على الناس . وما أسهل ما تنشط الثقافة الوطنية فتجند الجماهير ، وتجرف أمامها كل ثقافة اعلامية وكل سلطة سياسية . وكان نتيجة لتقوقع الاسلام على ذاته دفاعا عن نفسه ضد مضطهديه أن اعتبرت الثقافة الوطنية غاية فى ذاتها وليست وسيلة لتحقيق الأهداف القومية . وحتى تزايد السلطة السياسية على أنصار الاسلام المضطهد أمام الجماهير كثر الحديث عن تأكيد الهوية وكأنها غاية فى ذاتها ، وتم تأسيس فرق الفنون الشعبية ولكن دون تسييس ودون أن تكون وسيلة عضوية ، لا اعلامية ، لتحقيق الأهداف القومية .

٣ ــ أما جماعة « الاخوان المسلمين » واستمرارها فى الجماعات الاسلامية الحالية فانها تمثل المكون الرئيسى للثقافة الوطنية وهو الاسلام . وبالرغم من أنها على حق من حيث المبدأ الا أن الثقافة الوطنية التى تمثلها ونظرا لتهميش الجماعة بقوة الطرد المركزى اما الى داخل السجن أو الى خارج البلاد لم تمتلأ بالدافع الذى تعيشه الأمة ، وظلت فارغة بلا مضمون متقوقعة على ذاتها وكأنها غاية فى ذاتها وليست وسيلة لتحقيق مصالح الناس تستعمل كشعار واعلان بعد أن تم

استئصالها من كافة أجهزة الاعلام . وقد عادت بعض الممارسات فى سلوك الجماهير على أساس أنها بدع مع أنها أصبحت جزءا من الدين الشعبى مثل الموالد والاعياد الدينية والطرق الصوفية مع أنها يمكن أن تتحول الى مهرجانات سياسية وخلايا حزبية قادرة على تجنيد الجماهير فى الزوايا كما حدث فى المهدية فى السودان والسنوسية فى ليبيا . كما تم اغفال خصوصية الشعوب من أجل عالمية الاسلام مع أن الاسلام ثقافة وطنية تختلف باختلاف الشعوب . الاسلام فى أندونيسيا متزاوج مع الهندوكية ، وفى افريقيا متزاوج مع الثقافات الزنجية ، وفى آسيا مع البوذية . فالاسلام الاسيوى والاسلامى الزنجى كلاهما ثقافات وطنية لشعوب آسيا وأفريقيا . وان أسطورة الثقافة العالمية التى يروجها الغرب كأحد وسائل الهيمنة الثقافية أولا ثم السياسية والاقتصادية والعسكرية ثانيا هى نفس أسطورة الاسلام العام الشامل الذى يغفل قضية الواقع من أجل المبدأ . كما ساد الرأى الواحد والمذهب الواحد على التعدد الفكرى والمذهبى الذى يميز الثقافات الوطنية مما يؤدى الى تسكينها ويفقدها القدرة على الحركة واثارة الاذهان والقدرة على الحوار الخلاق والنقاش الحر . ولما كانت الثقافة الوطنية ثقافة مضمون تلقائية خلاقة فان مايقتلها هو الوقوع فى التفسير الحرفى لمكونها الرئيسى وهو الاسلام ، والنزول من النص الى الواقع بدلا من الصعود من الواقع الى النص . وقد يستعمل الرافد الرئيسى للثقافة الوطنية للوصول الى الحكم عن طريق القفز على السلطة دون اعادة بناء للثقافة الوطنية وقبل تعبئة الجماهير ، واعتمادا على جدل الكل ولاشىء ، اما أن يؤخذ الاسلام كله أو يترك كله ، وبنوع من الغضب والتشنج وضيق الصدر دفاعا عن حق الله وليس دفاعا عن حقوق الانسان[٩] .

٤ ــ أما « الماركسية » فانها تبدو وكأنها تعتمد على الثقافة الوطنية ، وتشجع الفنون الشعبية ، وتكثر الحديث عن الشعب والثقافة الجماهيرية ،

---

(٩) انظر مقالاتنا : ماذا كسبت مصر من جماعة الاخوان ؟ ماذا خسرت مصر بالقضاء على جماعة الاخوان ؟ كيف يمكن تطوير فكرة الاخوان ، الجزء الثانى « فى اليسار الدينى » الفصل الثامن : اليمين واليسار فى الفكر الدينى .

وتنشأ المجلات باسم « الثقافة الوطنية » الا أنها ترى أن الايديولوجيا ليست علما ، وأن الثقافة الوطنية أشبه بالايديولوجيات ، وبالتالى فهى ليست علما . الماركسية وحدها فى العلم ، علم المادية التاريخية أو المادية الجدلية . وبالتالى فهى ترتفع على الثقافة الوطنية وتعتبرها أقرب الى الفن والتسلية منها الى العلم الاجتماعى . وتبتسر الماركسية من الثقافة الوطنية الفن والأدب باعتبارهما عنصران مكونان لأمزجة الشعوب ، وتترك السياسة للماركسية كعلم شامل مع أن الثقافة الوطنية أيضا مليئة بالرؤى السياسية ، وكأن الهدف هو اثبات المبدأ أى الالتزام بثقافة الشعب على مستوى الفنون الشعبية من أجل افساح المجال للعلم الشامل أو للايديولوجيا العلمية وهى الماركسية والتى هى فى الحقيقة أقرب الى الثقافة الغربية منها الى العلم الشامل . وكثيرا ما تعزو الماركسية الثقافة الوطنية الى ثقافة الطبقة . ولما كان الصراع بين الطبقات هو أساس الحراك الاجتماعى فان الثقافة الوطنية ماهو الا السلاح الايديولوجى الذى تستعمله كل طبقة لكسب هذا الصراع . وهنا تضيع وحدة الثقافة الوطنية كما تضيع وحدة الشعب . انه ممالاشك فيه أن الثقافة الوطنية افراز لكافة الطبقات الاجتماعية خاصة الطبقات الشعبية التى تعبر عن نفسها بالامثال والحكم اكثر مما تعبر عن نفسها بالفن الرفيع كما هو الحال فى الطبقات العليا . ولكن ذلك لايعنى عدم وجود ثقافه وطنية واحدة لشعب تظهر فيها روح الشعب من خلال تعدد الطبقات الاجتماعية وتضارب مصالحها .

٥ ــ أما عن الحزب الوطنى حزب « مصر الفتاة » الذى حاول الجمع بين الوطنية والاسلام فانه اعتمد بالفعل على الاسلام كأساس وطنى وليس كنظرية سياسية ، مجرد عاطفة دينية لتحميس الناس وليس كرؤية سياسية تحقق مصالحهم . كما ارتبط الاسلام بدولة الخلافة أكثر من ارتباطه بالثقافة ، وبسياسة المحاور أكثر من ارتباطه بالتراث . كان الارتباط بين الوطنية والاسلام على أساس خطابى وليس على أساس علمى عقلى عن طريق اعادة فهم الاسلام بناء على متطلبات

الأمة وفى مواجهة تحديات العصر • وكان يغلب عليه طابع الممارسة العملية أكثر من طابع التأصيل النظرى • ولا يستبعد العنف كأحد وسائل الممارسة مما قد يتعارض مع روح الشعب وبنية الثقافة الوطنية •

ثالثا : الثقافة الوطنية والمفاهيم الموازية :

وقد نشأ مفهوم الثقافة الوطنية من عدة مصادر فى تاريخ الفكر أصبحت كلها مفاهيم موازية ومتبادلة مع مفهوم الثقافة الوطنية • وتندرج كل ثلاثة مفاهيم تحت مجموعة واحدة فمثلا مفاهيم روح العصر Zeitgeist وروح الشعب VolKsgeist وروح الحضارة Kulturgeist تندرج كلها تحت مفهوم الروح فى الفلسفة الألمانية • أما مفاهيم الشخصية القومية National Character والايديولوجيا وتصورات العالم Weltanschauung فهى أيضا تندرج تحت الجانب النظرى والعملى ، العرفى والسلوكى للوعى الفردى والوعى الاجتماعى • أما مفاهيم الدين والتقاليد والتراث ، وقيم الطبقة ، والعادات والأعراف فانها أقرب الى علم الاجتماع الوضعى والى السلوك والعقل الجمعى • اما علم اجتماع المعرفة ، وأنثروبولوجيا الثقافة ، وعلوم التفسير فهى أهم العلوم التى تتطرقت لمفهوم الثقافة الوطنية وأصبحت مرادفة لها • وأخيرا كانت حركات التحرر الوطنى ، وايدلوجيات العالم الثالث ، وعلاقات الشرق والغرب الحضارية مفاهيم موازية حاملة لمفهوم الثقافة الوطنية •

١ ــ « روح العصر » • ويعنى المصطلح عند هيجل أن لكل عصر روحه وطابعه ومحوره وقصده وهدفه الرئيسى • ففى عصر الوثنية ينشأ الاتجاه الطبيعى ، وفى عصر الرومانسية ينشأ الاتجاه الدينى أو الذاتية الفردية • وفى كل فترة هناك روح غالبة : العقل عند اليونان ، والايمان فى العصر الوسيط ، والعلم فى العصر الحديث • كما أن روح العصر تعبر عن نفسها فى علم أو فى فن أو فى فلسفة وتكون فيه الأولوية لاحدى قوى النفس على قواها الأخرى • ففى عصر العقل وحضارته ينشأ

المنطق الصورى ، وفى عصر الصراع الاجتماعى ينشأ المنطق الجدلى ، وفى عصر العلم ينشأ المنطق التجريبى ، وفى عصر الرياضيات ينشـأ المطق الرياضى والرمزى ... الخ .

٢ — «روح الشعب» . ويعنى المصطلح عند هردر أن لكل حضارة روحا وقصدا وابداعا . هناك حضارة الواحد فى مقابل حضارة التعدد والكثرة ، وهناك حضارة الروح فى مقابل حضارة الطبيعة . وهناك حضارة يغلب عليها الطابع الصورى المجرد واخرى يغلب عليها الطابع المادى الملموس . وقد لاحظ ابن سينا ذلك من قبل فى تمييزه بين خصائص المنطق اليونانى والشـعر العربى ، الأول يقيس الاشباه بالاشـباه والنظائر بالنظائر بينما الثانى يصف الشخصيات والافراد . وقد اشتهر هذان المفهومان فى القرن الماضى وكانا المفهومين الرئيسيين حول أدبيات كثيرة عن « سيكولوجيا الشعوب » . Psychologie des Peuples

٣ — « روح الحضارة » وهو نفس المفهوم السابق مع تنوع جديد وتركيز على الحضارة اكثر من التركيز على العصر أى المرحلة التاريخية أو الشعب أى على الخصائص القومية . وقد استعمله اشبنجلر وتوينبى وريبيرو . Ribiero . نشأ هذا المفهوم من ثنايا فلسفة التاريخ وتتابع الحضارات . يطلق اشبنجلر على الحضارة الاسلامية « حضارة الكهف » أى نصف الخط الدائرى كالقبو مشيرا الى نشأة الدولة وسـقوطها كما فعل ابن خلدون . كما يطلق على الحضارة الأوربية « حضـارة السهم » أى الخط المستقيم المرتفع مشيرا الى مسار التقدم . ولكل حضارة عدة محاور رئيسية مثل الله والشعب والأرض فى اليهودية . والخلود فى مصر القديمة ، والرئيس فى حضـارات الشرق ، والدوله فى الصين ، والانسان والطبيعة فى الحضارة الغربية الحديثة . وكل حضارة لها شخصية وطنية تجسدها مثل جان دارك أو ديجول فى فرنسا ، وجوته أو بسمارك فى المانيا وسرفنتيس فى اسبانيا ، وشكسبير أوكرومويل فى انجلترا ... الخ .

٤ — « الشخصية القومية » هى أيضا احد المفاهيم الموازية لمفهوم الثقافة الوطنية • وقد كان هو المفهوم الرئيسى فى أوربا فى القرن الماضى بعد تفتت الامبراطوريات النمسوية والمجرية وبداية العصر الحديث، عصر القوميات • وقد حمل هذا المفهوم « علم نفس الشعوب » وبدايات الاستشراق والدراسات حول خصائص الشعوب وطبائعها لاحكام السيطرة على الشعوب اللاوربية ومعرفة عناصر القوة لدى الشعوب الأوربية • وعادة ما يصبح الافراد المتميزون ضحية التعميمات والانتقال من الملاحظات الجزئية الى الأحكام الكلية •

٥ — « الأيديولوجيا » ويعنى هذا المفهوم مجموعة العقائد والتصورات والقيم التى تعبر عن فترة تاريخية معينة عند شعب معين تحدد رؤاه للعالم وتعطيه بواعث للسلوك • تنبع من واقع كنظرية كى تعود اليه كممارسة هناك أيديولوجيا المانية ، ومن نقدها نشأت الماركسية • وهناك أيديولوجيا فرنسية عند الفلاسفة الفرنسيين الشبان • وهناك محاولات لابراز « الايديولوجيا العربية المعاصرة » • ومفهوم الايدلوجيا من المفاهيم التى راجت فى فكرنا المعاصر ، وانجذب اليها شباب المثقفين سدا للنقص النظرى واشباعا لحاجة ملأ الفكر اذا مانزوى الدين فى العقائد ، وغابت رؤية الطبيعة ، وعز التنظير الباشر للواقع • وبالرغم من المعركة التى دارت حول نهاية الايديولوجيا وبداية التكنولوجيا الا أن هذا الحكم ذاته حكم ايديولوجى صرف ، حكم على واقع لم ينته بعد • كما أن التكنولوجيا تحمل فى طياتها ايدلوجيا ضمنية تظهر فى التصميم والتخطيط والأثر الاجتماعى والثقافى والحضارى • تصميم السد العالى يكشف عن الايديولوجيا الباطنة (قناة واحدة كبيرة فى مقابل قنوات متعددة) والحسابات الآلية الصغيرة (اليابان) تكشف عن روح حضارة وخصائص شعب فى مقابل الحاسبات الآلية الضخمة (ألمانيا ، أمريكا) •

٦ — « فلسفات تصورات العالم » • وقد ساعدت على بلورة مفهوم الثقافة الوطنية • وهى الفلسفة التى وضعها دلتاى مؤسسا بها

الوعى التاريخى كرد فعل على النزعة التاريخية الصماء التى سادت القرن الماضى فى الغرب . فالفن والعلم والدين والفلسفة كلها تساهم فى تكوين تصورات العالم فى كل عصر . ومايظهر فى أحد فروع المعرفة يظهر فى فرع آخر بصورة أخرى . وتساهم علوم التفسير فى التعرف على تصورات العالم التى ترتكز على أسس نفسية وتعبيرية لغوية . تصورات العالم هى الوحدات الثقافية الأولى التى تجب مفاهيم الشعب والشخصية القومية .

٧ ــ « الدين والتراث » وقد يتخصص مفهوم الثقافة الوطنية ويصبح مرادفا لأهم مكوناته وهو الدين والتراث بمالهما من قدرة على الترسب فى الوعى القومى التاريخى . ويتضح ذلك فى ثقافتنا الوطنية التى ترسبت فيها قيم الصبر والتوكل والرضا والقناعة الموروثة من علم التصوف . كما سادتها عقائد القضاء والقدر وانكار العلل المباشرة الموروثة من علم أصول الدين وتخللتها قيم وتصورات مثل أولوية الفضائل النظرية على الفضائل العملية ، وسيادة التصور الهرمى للعالم ، وغياب الانسان الموروث من علوم الحكمة[١٠] .

٨ ــ « قيم الطبقة » وهو مفهوم ماركسى يخصص الثقافة الوطنية ويراها من خلال التركيب الطبقى للمجتمع . صحيح أن لكل طبقة قيمها . قيم الطبقة العليا فى الحرية والعقل والفردية والجمال والانسانية والعلم والتحضر والتمدن وكل مامن شأنه الاعلاء من شأن الفرد ومن مميزات الطبقة . وقيم الطبقة الوسطى تتركز فى القانون والنظام والآداب العامة « والاتيكيت » الاجتماعى وكل مامن شأنة الابقاء على الوضع القائم . وقيم الطبقة الدنيا تدور حول الرضا والقناعة والتوكل والصبر

---

(١٠) أنظر مقالاتنا : مخاطر فى فكرنا القومى ، مخاطر فى سلوكنا القومى ، مخاطر فى وجداننا القومى . الفصل الأول ، الدين والثقافة الوطنية . وأيضا لماذا غاب مبحث الانسان فى تراثنا القديم ؟ لماذا غاب مبحث التاريخ فى تراثنا القديم ؟ دراسات اسلامية ص ٣٩٣ ــ ٤٥٦ ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨١ .

والاستسلام للمقادير قبل أن تتحول الى قيم الحياة والنضال والفعل فى لحظات الثورة[11] •

٩ ــ « التقاليد والعـادات والاعراف » • وهنـا تتحول المفاهيم والمصطلحات الى مجرد لغة شائعة تشير الى أحد مكونات الثقافة الوطنية • فهذه جزء رئيسى فيها • ليست الثقافة فقط عقائد نظرية وقيم وتصورات مجردة بل هى أيضا مجموعة من الممارسات العملية تكشف عن أنماط محددة فى السلوك • لقد كتب كثيرا عن عادات الشعوب وأعرافها حتى أصبحت سمات مميزة لها : حديث الانجليزى عن الطقس ، واعجـاب الفرنسى بجمال المرأة وتذوقه للفنون التشكيلية خاصة الرسم ، قدرة الالمانى على الموسيقى والميتافيزيقا ، حب الروسى للأرض ، صوت الايطالى العالى فى حياته العامة وفى حبه للغنـاء الأوبرالى ، فظاظة الروسى ، نكتة المصرى ، طيبة السـودانى ، سـذاجة الأمريـكى • وقد جسدت الأداب شـخصيات قوميـة مميزة مثل جحـا العربى ، وماريوس الفرنسى ••• الخ •

١٠ ــ « علم اجتماع المعرفة » درس أيضا الثقافة الوطنية وان اختلفت اسماؤها • فان كان علم اجتماع المعرفة يدرس العلاقة بين المذاهب والأفكار والاراء والنظريات من ناحية وبين الظروف الاجتماعية التى منها نشأت هذه النظريات فان الثقافة الوطنية هى أيضا العلاقة بين الابنية النظرية وتصورات العالم وموجهات السلوك ومعاييره وقيمه عند شعب معين من ناحيـة وبين الظروف التى يعيشـها الآن ، وكيف يمكن أن تكون هذه الثقافة والمعتقدات والقيم أحد وسائل التغير الاجتماعى ايجابا أم سلبا ، باعثا أم عائقا • انما المهم عـدم الوقـوع فى الرد الاجتماعى Sociological Reductionism أى اعتبـار الثقافـة الوطنية مجرد انعكاس للظروف الاجتماعية وتعبير عنها دون أن تكون لها الأولوية عليها والاستقلال عنها والفاعلية والتأثير فيها • فالثقافة الوطنية هى

---

(١١) انظر مقالنا : التفكير الدينى وازدواجيـة الشخصـية فى قضـايا معـاصرة ، الجزء الاول ، فى فكرنا المعاصر ، ص ١١١ ــ ١٢٧ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ •

ثقافة سياسية Political Culture وان كان المكون الغالب عليها فى البلاد النامية هو الموروث الدينى .

١١ — « الانثروبولوجيا الحضارية » أو « انثروبولوجيا الثقافة » . وهى أحد العلوم مثل علم اجتماع المعرفة الذى يدرس موضوع الثقافة الوطنية بطريقته الخاصة عن طريق دراسة ثقافات الشعوب فى عصورها التاريخية المختلفة من أجل العثور على عناصر ثابتة فيها ثم قياس نسبة الثوابت من المتغيرات بصرف النظر عن الـــدوافع وراء التعرف على خصائص الشعوب من أجل سيطرة شعب واحد على باقى الشعوب ، ومن أجل هيمنة ثقافة واحدة على باقى الثقافات ، وبصرف النظر عن النتائج فيما يتعـــلق بالأحـــكام العـــامة وخلق موضـــوعات وهميـــة مثـــل العقليـــة البدائيـــة La Méntalité Primitive أو الفكر البرى La Pensée Sauvage

١٢ — « علم التفسير » Hermeneutics . وقد تعرض هذا العلم الى موضوع الثقافة الوطنية عن طريق الكشف عن البيئة الثقافية الشعبية التى منها خرج النص نشأة وتكوينا ، وصياغة وتقنينا والتى اليها يعود قراءة وتأويلا ، فهما وتفسيرا . فـــلا يفهم نص الانجيل الا بالرجوع الى البيئات الثقافية اليهودية واليونانية فى فلسطين . ولايفهم نص القرآن الكريم الا بالرجوع الى الثقافات العربية فى شبه الجزيرة . ولا يمكن فهم نص التلمود الفلسطينى أو البابلى الا بالرجوع الى البيئة الثقافية فى فلسطين وفى العراق[١٢] .

---

(١٢) لنا دراسات كثيرة فى علوم التفسير واهمها :

Les Méthodes d' Exégèse, Essai Sur La Science des Fondements de la Compréhension, ilm Usul al - Fiqh, Le Caire, Paris, 1965, L' Exégèse de la phénoménologie, L' état actuel de la Méthode phénoménogique et son application au phénomène religieux. Paris, 1966, Le Caire 1978 ; La Phénoménolgie de L' Exégése, Essai d'une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament, Paris, 1966. Le Caire. 1988 : Hermeneutics as Axiomatics, in : Religious Dialogue and Revolution, Le Caire, 1977.

انظر دراستنا : مدرسة الاشكال الادبية ، مجلة الف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

« قراءة النص » ، مجلة الف ، القاهرة ، ١٩٨٨ وأيضا فى « دراسات فلسفية » ، الانجلو المصرية ، القاهـــرة ١٩٨٨ ، « هـــل لدينا نظرية فى التفســـير ؟ » ، « ايهما اسبق : =

١٣ ــ « حركات التحرر الوطنى » • قامت هذه الحركات بفضل الثقافة الوطنية واعتمادا على اليهودية الثقافية باعتبارها هوية قومية ضد التغريب والفرنسية والتتريك والبلشفة • كما ساهمت هى نفسها فى خلق تيارات ثقافية جديدة تربط بين الثقافة والوطن فى الفكر والعلم والفن وتفسير الدين والقانون والتاريخ • وهى تدل على البعد العملى فى الثقافة الوطنية لايقل أهمية عن بنائها النظرى •

١٤ ــ « آيديولوجيات العالم الثالث » • وقد كثر الحديث عن الثقافة الوطنية فى أيديولوجيات العالم الثالث باعتبارها محاولة للاستقلال الفكرى والثقافى والحضارى عن المذاهب الفكرية والسياسية فى الحضارة الغربية آخذة فى الاعتبار قضايا الأوطان • وقد وضح ذلك فى : « الوجدانية » لنكروما ، « المعذبون فى الأرض » لفانون ، « مقال فى الاستعمار » لاميه سيزير ، « أوجاما » لنيريرى ، المقاومة السلمية عند غاندى ، « الاسيوية الافريقية » لمالك بن نبى ، « النظرية الثالثة » للقذافى ، « فلسفة الثورة » لعبد الناصر ، ايديولوجية البعث عند ميشيل عفلق ••• الخ • وهناك كثير من الكتابات الايديولوجية فى العالم الثالث تبدأ من الثقافة الوطنية كموضوع بديهى وواقع ملموس • بل انها استطاعت أن تتحول الى ايديولوجيات سياسية سواء فى التحديث الداخلى للمجتمعات مثل التجربة الصينية مثلا أو فى العلاقات الدولية بين الشرق والغرب مثل عدم الانحياز ، الحياد الايجابى ، تضامن الشعوب الاسيوية الافريقية ، القارات الثلاث ••• الخ •

١٥ ــ « ثقافات الشرق والغرب » • وأخيرا تمتد الثقافات الوطنية خارج حدود الاوطان الى ثقافات الشرق والغرب • وكما هو معروف من فلسفات التاريخ ومن الأدباء والشعراء يوجد تقابل بين الشرق الفنان والغرب العالم ، بين الشرق الروحانى والغرب المادى ، بين الشرق حيث بدأت الحضارات فيه حول انهاره العظيمة فى الصين والهند ومصر وبين الغرب الحديث الذى لا تمتد جذوره فى التاريخ أبعد من العصور

= نظرية فى التفسير ام منهج فى تحليل الخبرات ؟ » ، « عود الى المنبع ام عودة الى الطبيعة ؟ » قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فى فكرنا المعاصر ، ص ١٦٥ ــ ١٧٦ .

الحديثة • واذا كانت الحضارات قد بدأت قديما من الشرق وسارت نحو الغرب بما فى ذلك اللغات الهندية الأوربية فانها الآن ، وبعد عصر انتهاء الريادة الغربية ، قد تعود الى الشرق من جديد على ما هو معروف الآن باسم « ريح الشرق » • وعلى الرغم مما يكون فى هذا المفهوم الأخير من شوفينية شرقية أو رد فعل على العنصرية والهيمنة الثقافية الغربية الا أنه يمكن أن يتحول الى علم دقيق لتأسيس فلسفة جديدة للتاريخ تتجاوز عصر المركزية الأوربية •

رابعا : المادة العلمية للثقافة الوطنية •

الثقافة الوطنية ليست مفهوما ثقافيا عاما أو مفهوما فنيا أو مفهوما سياسيا بل تتكون من مادة علمية يمكن وصفها وتحليلها • هى ليست شعارا يطلق بل عملية تصنع ، وبناء يكتشف • ويتكون هذا الرصيد من الثقافة الوطنية من الآتى :

١ ــ الدين سواء كان الدين كما هو موجود فى الكتب المقدسة ، فى القرآن والانجيل والتوراة وكما هو مطوى فى كتب التراث أو كان الدين كما يلقن فى المساجد والكنائس والمعابد والمدارس وأجهزة الاعلام أو الدين الشعبى كما هو ممارس فى الاضرحة والمزارات والاعياد والموالد والطرق الصوفية • فلا يوجد حد قاطع بين الدين الرسمى والدين الشعبى ، بين دين النصوص ودين الممارسة ، بين دين الكتب ودين الشوارع •

٢ ــ العقائد السائدة التى ترسبت فى وجدان الشعب سواء العقائد الرسمية النمطية مثل التوحيد والنبوة والمعاد أو العقائد فى صياغاتها الموروثة من خلال الفرقة التى سادت وانتصرت على مدى ألف عام وهى الاشعرية أى تراث السلطة فى مواجهة تراث المعارضة الذى لم يعش طويلا ، ولم يترسب الكثير منه فى وجداننا القومى مثل تراث الخوارج (المعارضة المسلحة العلنية من الخارج) وتراث الشيعة (المعارضة السرية المسلحة من الداخل) وتراث المعتزلة (المعارضة العلنية الفكرية من

الداخل) • ويمكن أخذ نماذج أخرى من الكونفوشيوسية فى الصين ابان المسيرة الطويلة ابان حرب التحرير •

٣ ــ العلوم الدينية القديمة سواء ما ترسب منها فى الوعى القومى وبقى مثل العلوم النقلية ، علوم القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه ، أو العلوم العقلية النقلية مثل علوم التصوف الاشراقى أساسا وعلم أصول الدين الاشعرى ، وعلوم الحكمة الاشراقية ، وعلم أصول الفقه النصى الافتراضى • وهى العلوم التى تمتلأ بها المكتبات العامة وترددها أجهزة الاعلام وتمتلىء بها كتب التربية الدينية والتى تروج فى المطابع ، ويعظم منها الكسب ، ويكثر منها الاقتباس ، ويعتمد عليها فى التعالم ، وطلب السلطة ، وطاعة الجماهير •

٤ ــ التاريخ الحى للصحابة الأوائل والذين عاشوا قدوة فى وجدان الشعب مثل عمر ، وأبو بكر ، وأبو ذر ، وعمرو بن عبد العزيز ، وفقهاء الأمة الأجلاء مثل المعز بن عبد السلام ، ورموز الشهادة مثل الحسين وعمار بن ياسر • يقرأ تاريخهم الصغار والكبار بعد أن أصبحوا نماذج للسلوك ومثلا عليا للتربية • وفى حضارات أخرى يوجد هذا التاريخ الحى لدى آلهة اليونان وأبطالهم : جان دارك ، وبوليفار ، وجيفارا ، وتوريز (١٣) وداود ، وسليمان ، وابن عقيبة • ومن أدبائنا شعراء العرب وفرسانها • ومن تاريخنا الحديث المهدى ، السنوسى ، عمر المختار ، عبد الحميد بن باديس ، حسن البنا ، سيد قطب ، محمد باقر الصدر ، الامام موسى الصدر ، بن بلا ، علال الفاسى ••• الخ •

٥ ــ التاريخ الوطنى الحديث والزعماء الوطنيون الذين مازالوا روادا للحركة الوطنية • تملأ صورهم الحجرات ، وتعم تماثيلهم فى الميادين ، يقتدى بهم الطلاب ، ويذكرون بتخليد أسمائهم كأسماء للشوارع أو المؤسسات العامة وذلك مثل عرابى ، سعد زغلول ، عبد الناصر ، بن بلا • وفى ثقافات وطنية أخرى زعماء مثل ماوتسى تونج ، هوشى

---

(١٣) انظر دراستنا : « كاملبو توريز القديس الثائر » قضايا معاصرة ، الجزء الأول ص ٢٨١ ــ ٣١٨.

منه ، غاندى ، نهرو ، تيتو ، نكروما ، ومعظم قادة التحرر فى العالم الثالث الذين مازالوا يلهبون خيال عدة أجيال .

٦ ــ الأمثال العاميــة والأغانى الشعبية والحــكم المأثورة ، والحكايات والاساطير والسير والملاحم والمغازى ... الخ . وهى المصدر الدنيوى للثقافة الشعبية بعد مصدرها الدينى فى الدين والعقائد والعلوم الدينية . وتحفظ الشعوب تراثها الشعبى قدر حفظها تراثها الدينى . يغنى الناس للمطربين ، ويطربون لسماع القرآن . ولقد تكون الوجدان القومى والمزاج الشعبى فى كل حضارة وكما يظهر ذلك خاصة فى فنون الغناء والموسيقى وفنون الرسم والنحت والعمارة من اجتماع هذين الرافدين ، الفن الدينى والفن الشعبى وكما هو واضح فى تاريخ الفنون فى الغرب .

خامسا : الأهداف القومية والثقافة الوطنية .

ان التحدى الأعظم أمام المثقف السياسى وعالم السياسة هو كيف يمكن للثقافة الوطنية وهى العنصر الرئيسى فى التكوين النفسى للجماهير أن تكون حاملا للأهداف القومية ؟ كيف يمكن أن نجد فيها عناصر ثقافية قادرة على أن تكون أساسا نظريا للتحرر من الاستعمار ، وتحرير الأرض من الغزو الأجنبى ، والقضاء على الاحتلال وهو الهدف القومى الأول فى فلسطين وسبته ومليلية وأفغانستان وكشمير ؟ كيف يمكن أن نجد عناصر أخرى فى الثقافة الوطنية تكون أساسا لتحقيق الهدف القومى الثانى وهو التحرر من القهر الداخلى والقضاء على الطغيان السياسى ؟ ثالثا ، هل هناك دوافع فى الثقافة الوطنية قادرة على تحقيق أكبر قدر ممكن من العــدالة الاجتماعيــة ، وتقريب الهــوة الشاسعة بين الأغنياء والفقراء ، بين الذين يموتون بطنة وشبعا وبين الذين يقضى نحبهم جوعا وعطشا ؟ رابعا ، هل فى الثقافة الوطنيــة تصورات لقضايا الوحدة فى مواجهة التجزئة والتشرذم والفتن الطائفية ومعارك الحدود بين الاخوة الاعداء ؟ خامسا ، هل توجد عناصر فى الثقافة الوطنية قادرة على أن تدفع نحو تحقيق التقدم والتنمية فى مواجهة

شتى مظاهر التخلف ؟ سادسا ، هل تستطيع الثقافة الوطنية أن تحمى الهوية فى مواجهة الموجات المتتالية من التغريب ؟ سابعا ، هل فى الثقافة الوطنية مفاهيم قادرة على تجنيد الجماهير وتحويل الكم فيها الى كيف ، وتأسيس تنظيمات شعبية فعالة قادرة على الحركة وسط الناس ؟(١٤)

والرد على هذه الأسئلة كلها بالايجاب ، ففى الثقافة الوطنية مفاهيم وتصورات وبواعث يمكن أن تكون أسسا نظرية ودوافع سلوكية على تحقيق هذه الاهداف القومية التى مازالت تحدد معالم المشروع القومى منذ أن صاغه محمد على لأول مرة عمليا ثم حدده الأفغانى مرة ثانيــة نظريا ، وحاول عبد الناصر تحقيقه مر ثالثة عمليا • ومازال مطروحا حتى الآن بل ولعدة أجيال قادمة اذ لم يتحقق منه شىء بعد الا تحققا نسبيا جزئيا خاصة فيما يتعلق بالهدف الأول وهو تحرير الأرض • بل ان الأمور تزداد تعقيدا وتشابكا بالرغم من وهم الاستغلال • ويتطلب ذلك وعيا نظريا وجدية علمية بدونهما يقع المثقف السياسى فى الخطابة أو يتلمس الشعارات هنا وهناك مكتفيا بالاعلان دون بضاعة • وهو عمل يتم فى الجامعات وفى مراكز الابحاث قبل أن يتم فى مدارس الاحزاب وتثقيف الكوادر وأجهزة الاعلام • ويمكن أن يتم ذلك على النحو الآتى :

١ ــ التمييز بين الأهداف القومية الرئيسية التى لايختلف عليها اثنان • وهى ما زالت منذ فجر النهضة الحديثة سبعة : التحــرر من الاستعمار ، الحرية فى مواجهــة أنظمة القهر والطغيان ، العــدالة الاجتماعية حلا لمشكلة الغنى والفقر ، الوحدة القومية فى مواجهــة التجزئة والتشرذم ، التنمية والتقدم فى مواجهة التخلف ، الهــوية القومية فى وجه التغريب ، وأخيرا تعبئة الجماهير ضــد الســلبية واللامبالاة ــ وبين الاهداف الفرعية مثل التنمية القطرية اذ أنه لا تنمية قطرية الا فى اطار التنمية القومية حلا لمشاكل الغذاء والتجارة ، وتوفير رؤوس الأموال ، والعمالة ، والعلم والتكنولوجيا ، والتصنيع ، والامكانيات

---

(١٤) انظر دراستنا : الفكر الاسلامى والتخطيط لدوره الثقافى المستقبلى ، الكويت ، ١٩٨٣ ، دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ١٩٨٨ .

البشرية .. الخ . أما الأهداف الأخرى مثل السيطرة القطرية ، والزعامة القطرية ،ومعارك الحدود بدعوى الدفاع عن التراب الوطنى ، فهى كلها ليست أهدافا قومية بل نتيجة للتجزئة وحب الزعامة والرغبة فى التوسع والسيطرة ووهم الدولة ــ الشعب Nation - State بالرغم مما نسمع منذ الصبا عن الحدود المصطنعة التى وضعها الاستعمار للتفرقة بين أبناء الوطن الواحد وتجزئته وتقسيمه طبقا لمبدأ « فرق تسد » . الأهداف الرئيسية هى أهداف الأغلبية والأهداف الفرعية هى أهداف الأقلية . وان أهداف الأغلبية ، وهى أهداف الشعب الدائمة ، ليست بالضرورة هى أهداف القادة والأنظمة السياسية .

٢ ــ وحدة الأهداف واختلاف الوسائل . وذلك أن وحدة برنامج العمل وتعدد الأطراف النظرية تحقق أكبر قدر ممكن من شحن الطاقات الفكرية والعملية . فكل صاحب مذهب أو رأى أو عقيدة له دور فى تحقيق ما يستطيع من الأهداف القومية التى تمثل برنامج العمل الوطنى الموحد . وكل باعث أو دافع على الفعل شرعى ما دام يحقق الهدف المشترك . فقد يتم تحرير فلسطين دفاعا عن أرض الاسلام وذبا عن البيضة أو دفاعا عن حرية شعب فلسطين وتأسيسا للدولة الديمقراطية العلمانية التى يتعايش فيها كل المواطنون بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية والطائفية أو دفاعا عن الطبقة العاملة ضد استغلال أصحاب رؤوس الأموال أو تحقيقا للوحدة العربية . وهو درس من الأصوليين القدماء فى اعتبار النظر ظنا والعمل يقينا ، وأن الحق النظرى متعدد بينما الحق العملى واحد .

٣ ــ الانتقائية . وذلك أن الثقافة الوطنية تحتوى على الشىء ونقيضه ، على المثل العامى والمثل المضاد . ولا حل أمام المثقف الوطنى الا الانتقاء من اتجاهات الثقافة الوطنية ما يساعده على تحقيق الأهداف . فاذا كان الهدف القومى الأول هو التحرر من الاستعمار فله أن يختار من العقائد ما يساعده على ذلك مثل تلك التى تؤكد على علاقة

الله بالأرض وليس تلك التى تفصل بينهما[١٥] • واذا كان التحرر من القهر الداخلى هدفا قوميا فيمكن أن يختار من الامثال العامية والعقائد التى تدفع الى التحرر من الظلم ومقاومة الظالم لا تلك التى تدعو الى الاستكانة والاستسلام • الأهداف القومية اذن هى معيار الانتقاء ، وتحديات العصر هى مقياس الاختيار • الثقافة الوطنية اشبه بالوعاء العام الذى به كل شىء ، واحتياجات العصر ومتطلباته هى الأساس الذى يتم عليه اختيار هذا الجانب أو ذاك •

٤ ــ الوظيفية • ان الثقافة الوطنية بكل مكوناتها الدينية الشعبية وسيلة لاغاية ، طريق لا هدفا ، منهج لا موضوعا • طالما أنها فعالة وقادرة على اعطاء الجماهير الأساس النظرى والدافع العملى فهى صحيحة وشرعية • لا يوجد حق أو باطل على المستوى النظرى بل الحق والباطل بالنسبة الى ما يتحقق بالفعل • لا يوجد صدق فى ذاته بل الصدق هو مقدار الانجاز الذى يتم • وبهذه الطريقة يتم اخراج العقائد والثقافات من قوقعتها وانغلاقها على الذات والدفاع عنها أو الهجوم عليها متناسين الواقع ذاته الذى تدور فيه رحى القتال • ان الماهيات المستقلة ليست أحكاما مسبقة أو عقائد مذهبية تدعى الصدق المطلق والشمول الأبدى بل هى تحققات عيانية تأتى بعد الفعل ، وتثبت بعد الاستشهاد • فحقيقة المسيحية وصدقها ليست فى العقائد الظنية التى صاغها يوحنا أو بولس بل هى فى استشهاد مئات المسيحيين فى عصر الاضطهاد •

٥ ــ تحليل المضمون للعقائد والامثال من أجل معرفة اتجاهاتها الرئيسية والتى فى الغالب ما تتفق مع الأهداف القومية الرئيسية • ففى القرآن الكريم مثلا ، ذكر الله دائما مع الأرض فى « اله السموات والأرض » ، « رب السموات والأرض » ، « وهو الذى فى السماء اله وفى الأرض اله » • كما يظهر الله فى الاشباع بعد الجوع ، وفى الأمان بعد

(١٥) Hassan Hanafi : Theology of land ; God, Community and Land ; in : Religious Dialogue and Revolution ; pp 125 - 181

الخوف فى « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . وتنهار المجتمعات بسبب البون الشاسع بين الاغنياء والفقراء ، بين القصور المشيدة والآبار المعطلة « وبئر معطلة ، وقصر مشيد » . وفى حركاتنا الاصلاحية الحديثة يذكر الأفغانى مكررا قول أبى ذر « عجبت لرجل لا يجد قوت يومه ولا يخرج للناس شاهرا سيفه » . وفى الحديث « ليس منا من بات شبعان وجاره طاو » فلا يوجد هدف قومى رئيسى واحد الا ويجد فى العقائد الدينية وفى الامثال العامة ما يؤيده ويدعمه ويحث عليه وينادى به .

٦ — تجديد اللغة . ويتم ذلك بالانتقال من لغة العقائد الى اللغة الشعبية ، ثم من اللغة الشعبية الى لغة السياسة . فالثقافة الوطنية لها مصدران : المصدر الدينى وهو قادر على أن يعطى مضمونا متفقا مع الأهداف القومية والمصدر الدنيوى الحامل لأزمات الواقع ولحكمة الشعوب . وبلغة الامثال العامية تتحرك العامة أولاً ، وبلغة السياسة ثانيا يتأصل فكرها . فتصبح الثقافة الوطنية هى المنبع الأول للايديولوجية السياسية[١٦] . ان من أهم الأسباب التى تجعل الشعب لا مباليا ومحايدا وسلبيا بالنسبة للايديولوجيات السياسية هو دجماطيقية الايدلوجيات الدينية كما تظهر فى اللغة التقليدية من ثواب وعقاب ودنيا وآخرة ، وملاك وشيطان ، وجنة ونار .. وصعوبة الايديولوجيات العلمانية مثل الكم والكيف والايجاب والسلب ، والتناقض والنفى الى آخر ما هو معروف من مفاهيم المادية الجدلية كأساس نظرى للماركسية . ان اللغة المباشرة التى تستقى الفاظها من العرف اللغوى لأقدر على التعبير عن الثقافة الوطنية وتعبئة الجماهير .

٧ — عدم البداية بأية مسلمات عقائدية أو مذهبية بل البداية بالواقع ذاته وبرصد حاجاته الرئيسية ثم اعادة بناء الثقافة الوطنية طبقا لهذه الحاجات . الحاجات هى الغاية واعادة بناء الثقافة الوطنية هى الوسيلة لاتكون البداية بالنص بل بالواقع ، وليست بالنظرية

---

(١٦) « التراث والتجديد » منعلق التجديد اللغوى ص ١٢٣ — ١٥١

بل بالتجربة • تتم اعادة بناء الثقافة الوطنية بالمنهج الصاعد وليس بالمنهج النازل ، بالمنهج الاستقرائى وليس بالمنهج الاستنباطى ، بالمنهج الذى يبدأ من الاساس الى المؤسس • والفلسفه فى النهاية هى البحث عن الأساس Grund • ان العقائد أهواء ، والنصوص تقنين لهذه الأهواء وتشريع لها •

٨ ــ وتكون المهمة الرئيسية فى اعادة بناء الثقافة الوطنية الاعتماد على العناصر الايجابية فيها ثم تحويل العناصر السلبية الى ايجابية عن طريق تأويلها وبيان وظيفتها والغاية منها وأية طبقة أفرزتها ، وأية مصالح تدافع عنها • الدفاع عن الأرض يقتضى الاعتماد على عنصر ايجابى مثل علاقة الله بالأرض • وللدفاع عر الحرية يمكن تحويل القدرية ، وهى عنصر سلبى ، من المعنى الشعبى السلبى وهو الاستسلام للقضاء والقدر الى المعنى الايجابى الاصلاحى وهو الشجاعة اللازمة والطاقة المطلوبة لاداء الفعل كما قال الشاعر العربى واستشهد به الأفغانى :

واذا كان من الموت بد ∴ فمن العجز أن تموت جبانا(١٧)

وكما قال محمد اقبال أيضا داحضا احتجاج المسلمين بالقرآن فى القصور عن السعى

من القرآن قد تركوا المساعى ∴ وبالقرآن قد ملكو الثريا
الى التقدير ردوا كل سعى ∴ وكان زماعهم قدرا خفيا
تبدلت الضمائر فى اسار ∴ فما كرهوه صار لهم رضيا(١٨)

سادسا : نماذج لاعادة بناء الثقافة الوطنية •

ويمكن اعطاء نماذج عدة لاعادة بناء الثقافة الوطنية قد تختلف من بيئة ثقافية الى بيئة ثقافية أخرى ، ومن مجتمع الى مجتمع ، ومن

---

(١٧) جمال الدين الافغانى : رسالة القضاء والقدر فى الاعمال الكاملة ، ص ١٨١ ــ ١٨٧ نشر د. محمد عمارة ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٦٨ •

(١٨) محمد اقبال : ضرب الكليم ، الاستسلام للقدر ص ٩ ، ترجمة عبد الوهاب عزام ، جماعة الأزهر للنشر والتأليف ، القاهرة ١٩٥٢ •

عصر الى عصر حسب ظروف كل ثقافة وطبيعة كل مجتمع ونوعية المرحلة التى يمر بها • ويمكن اعطاء نماذج لاعادة بناء ثقافتنا الوطنية فى المرحلة الراهنة التى نمر بها عن طريق تغيير محاورها المركزية ، وتصوراتها للعالم ، ومناهجها فى المعرفة وانماط السلوك ، وأبعادها الانسانية ، ولغتها فى التعبير • وهى ليست مجرد تغيير محور بمحور أو استبدال تصور بتصور أو وضع منهج بدل منهج وقيمة بدل قيمة وترك بعد انسانى ايثارا لبعد آخر ، بل هى تغيرات جوهرية فى بنية الفكر ولغة تعبيره تجد مصداقيتها فى التجارب الوطنية وفى التفاعل المباشر مع الجماهير •

١ — تغيير المحاور المركزية • ويعنى ذلك ان كل ثقافة لها محاور رئيسية ترتكز عليها • وان اعادة بناء الثقافة الوطنية تبدأ بتعديل هذه المحاور وتغيير اتجاهاتها ومراكزها • وعادة مايؤدى هذا التغيير الى نقل الحضارة كلها من مرحلة الى أخرى • وقد يكون لنفس المحور أسماء عديدة ، وقد تنتج عنه محاور أخرى متداخلة معه ومع ذلك تبقى المحاور الرئيسية واضحة للعيان على النحو الآتى :

(أ) من الالهيات الى الانسانيات • ويقتضى تغيير هذا المحور الانتقال من التمركز حول الله الى التمركز حول الانسان باسم الوحى ، والوحى هو كلام الله الموجه الى الانسان • فالانسان هو القصد • وبالتالى فان موضوع الوحى أساسا هو علم الانسان Anthropology وليس علم الله Theology . الوحى يصف وضع الانســـان فى المجتمع وفى الكون • والله هو بعد الشمول والعموم فى الحياة الانسانية الذى على أساسه يمكن التعامل مع الآخرين على قدم المساواة بضمان وجود معيار شامل للحكم ومقياس عام للسلوك • وقد تم ذلك فى الغرب ابان عصر النهضة فى القرن السادس عشر • هذا التغيير فى الحوار ليس تعديلا بل هـــو تصحيح لوضع مقلوب وعود الى الشرعية الأولى بعيدا عن الاغتراب والوهم • فاذا كان الله يدافع عن الانسان ويأخذه موضوعا ومقصدا فكيف يأتى الانسان ويدافع عن الله ويأخذه موضوعا ومقصدا ناسيا

نفسه وخارجا عن الأمر الالهى ؟ ان فعل فانه يخرج عن القصد الالهى ويصبح موقفه لاشرعيا مغتربا[١٩] .

ويرتبط بذلك أيضا بمحاور فرعية مثل الانتقال من الله الى الطبيعة أو من الله الى الشعب . فالطبيعة وحى من الله بما تحمل من آيات أى دلالات عليه . والآية قد تكون كلمة أى لفظـــا وقد تكون ظاهرة طبيعية .فالوحى كتاب مغلق ولا يفتح الا عند القراءة . والطبيعة كتاب مفتوح دائما . ولاسبيل الى فهم كتاب الوحى المغلق أو تفسيره وتأويله الا بالرجوع الى كتاب الطبيعة المفتوح . وعند الأصوليين القدمـــاء الطبيعيات تسبق الالهيات ، والحدوث هو الطريق الى اثبات القدم ، والعالم فى الاستدلال سابق على الله .

(ب) من الأخرويات الى الدنيويات . وهذا يمثل بعد الزمـــان فى الثقافة الوطنية حيث تتركز فى كثير من جوانبها على مايحدث خارج العالم وفى نهايته خاصا ما كان منها افرازا للطبقات المحرومة حيث تجد فيه تعويضا عن حرمانها واشباعا لحاجاتها . ويتضح ذلك فى العقائد عندما تم خلق عوالم الجنة والنار ، وأحوال القبر ، وأهوال القيامة ، ومشاهدات الاسراء والمعراج عن طريق الخيال الشعبى وبأدق التفصيلات . ولما كانت الغاية من اعادة بناء الثقافة الوطنية قبول تحديات العصر فان العودة الى هذا العالم من المستقبل الى الحاضر يكون أكثر قدرة على تحريك الجماهير وتجنيد قواهم ، والعودة من الخيال الى الواقع ، ومن الوهم الى الحقيقة .

وكما يتم الانتقال من المستقبل الى الحاضر يتم أيضا الانتقال من الماضى الى الحاضر ، ومن تاريخ الانبياء والرسل فى الماضى الى اعمال القادة والابطال فى الحاضر . فالهدف من قصص الانبياء فى الرافد

---

(١٩) Hassan Hanafi : « Théologie ou Anthropologie » : dans : La Renaissance du Monde Arabe pp. 233 - 64, Bruxelles, 1972

وأيضا « الاغتراب الدينى عند فيورباخ » عالم الفــكر ، ابريل — يوليو الـــكويت ١٩٧٩ ، دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية القاهرة ١٩٨٧ .

الدينى للثقافة الوطنية هو اعطاء نماذج للبطولة وقيادة الشعوب ومقاومة الظلم والطغيان ، موسى وفرعون ، محمد وقريش .. الخ . نماذج الماضى قد تكون واقعا بل خيال . ليست هدفا فى ذاته للاستمتاع بها والترويح عن النفس بل وسيلة لشحذ الهمم والدخول فى معارك العصر . الابقاء على الماضى يحيل الحاضر الى ماضى وبالتالى تنشأ حركات العودة الى الماضى Primitivsm فى حين أن تحويل الماضى الى حاضر هو أساس الحداثة Modernism

٢ — تغيير تصورات العالم . وينشأ عن التمركز حول الله فى المحاور تصورات رأسية هرمية وتدرجية وثنائية للعالم . وكما تم الانتقال من الله الى الانسان والى الطبيعة كذلك يمكن الانتقال من التصورات الرأسية الهرمية والتدرجية والثنائية للعالم الى التصورات الأفقيــة الخطية والواحدية للعالم . فنظرا لأن المكون السائد فى الثقــافة الوطنية هــو التمركز حول الله اصبح المحور الذى ترتكز عليه هو المحور الرأسى نزولا من أعلى الى أسفل وتحديدا لعلاقة التبعية بين الطرفين ، تبعية الأدنى للأعلى ، وسيطرة الأعلى على الادنى . وطالما تقوم الثقافة الوطنية على هذا المحور فلن تنجح أية خطة للتنمية تقوم على الاعتماد الذاتى ، ولن تنفع أية محاولة للتنمية المستقلة أو للاســتقلال الوطنى طالما أن القاعدة تعتمد فى وجودها على القمة ، وأن الانسان ليس صاحب مصيره ولا سيده فى هذا العالم .

ويظهر المحور الرأسى فى التصور الهرمى للعالم الا أنه يتركز فى القمة ثم يتسع فى القاعدة . ومع ذلك تظل القمة هى المشرفة والمسيطرة على القاعدة كلها . وعلى هذا الاســاس قامت الدولة الهرمية التى يسيطر عليها القائد الأوحد دون ما رقابه عليه أو مراجعة من القاعدة . وهنا أيضا يعاد بناء الثقافة الوطنية عن طريق ضغط المسافة بين قمة الهرم وقاعدته ووصفهما معا على مستوى واحد فى الوجود والقيمة .

ويقترب من هذا أيضا التصور التدريجى للعالم والذى هو أشبه بهرم سقارة منه بالهرم الأكبر . فالقمة تتضمن أعلى مراتب القيمة والوجود

وتتناقص تدريجيا حتى نصل الى أخس المستويات • كلما نزلنا قلت مراتب القيمة ، وكلما صعدنا زادت مراتب الشرف • هذا التصور هو الأساس الذى تقيم عليه المجتمعات الطبقية والنظم البيروقراطية • ويعاد بناء ذلك التصور الى تصور خطى مستو للعالم تصبح فيه كل الدرجات على مستوى أفقى واحد وبالتالى يفسح المجال نظريا لبناء مجتمعات لا طبقية وادارات لابيروقراطية •

أما التصور الثنائى للعالم الموروث فى كل ثقافة وطنية تقليدية فهو من بقايا التصور الرأسى لأن علاقة الطرفين أيضا علاقة تبعية فوقية • وهو أيضا تصور هرمى ، قمة واحدة وقاعدة واحدة • وهو أيضا تصور تدريجى بدرجتين فقط ، علة ومعلول ، صورة ومادة ، أول وآخر ، قوة وفعل ، واحد وكثير ، سكون وحركة ، زمان ومكان ، نفس وبدن ، عقل وحس ، فضيلة ورذيلة ، ملاك وشيطان ، جنة ونار ، ثواب وعقاب ، اله وعالم •• الخ • ويعاد بناء هذا التصور الى تصور واحدى للعالم تكون العلاقة بين الطرفين فيه علاقة مساواة أفقية وليست علاقة تبعية رأسية •

٣ — تغيير مناهج المعرفة وأنماط السلوك • اذ عادة ما يغلب على الثقافة الوطنية سيادة المناهج التقليدية فى المعرفة وانماط السلوك مثل كافة أنواع المعارف الاشراقية من الهام ونبوة وطيرة وفأل وقراءة للمستقبل وخط للرمل وضرب للحصى وقراءة الكف وشتى أنواع النبؤات الشعبية • ويعادل ذلك فى التراث الدينى مناهج النص واستدعاء سلطة الوحى وطاعة الرسول • حينئذ تعاد بناء المعرفة الشعبية فى الثقافة الوطنية الى المعرفة العقلية والاعتماد على البداهة والى المعرفة الحسية بالاعتماد على شهادة الحس • وفى التراث الدينى بدلا من الاعتماد على سلطة النص ومصادره يمكن الاعتماد على سلطة العقل والثقة بمناهجه واستدلالاته ومنطقه • وعلى هذا النحو تتحول السلطة فى المجتمع من سلطة الاشخاص والكتب والنصوص الى سلطة العقل • وبدلا من أن يتم صراع فقهى بين التفسيرات المختلفة ، كل منها تكشف عن مصلحة يتم الحوار والنقاش بين كافة الآراء والاتجاهات • كما تسود الثقافة الوطنية التقليدية الحكايات

والأساطير والمغازى التى يقصد بهـا التسـلية والترويح عن النفس ، والاستمتاع بالرواية ، واثارة الخيال • ويمكن أن تتحول الى منطق محكم لنقل المعارف التاريخية وابراز الوعى التاريخى لدى الجماهير الشعبية كما • ورثنا مجموعة من القيم النظرية تجعل الفكر والنظر أعلى قيمة وأعظم شأنا من العمل والانتاج • ويمكن اعادة بناء الثقافة الوطنية بحيث تبرز قيمة العمل ، وتكون دافعا على الفعل ، وباعثا على الانتاج • كما تنتج عن المعارف الاشراقية أحكام التحليل والتحريم وتقييد السـلوك الفردى بقوانين وقواعد فى عالم كله شـبهات ، وتحوف به المخـاطر ، وتملؤه الغواية • وبالتالى يصبح الفعل فيه اقرب الى الخطأ منه الى الصواب نظرا لما يسود الطبيعة من أهواء ، وما تقوم عليه من غرائز • ويعاد بناء هذا الجانب السلوكى فى الثقافة الوطنية عن طريق التحول الى السلوك الطبيعى الفطرى • ويقوى ذلك أيضا مفاهيم الفطرة والبراءة الأصلية ، وبراءة الذمة ، وأن الاشياء فى الأصل على الاباحة • وبالسـلوك الطبيعى تتحرر الجماهير ، وتصبح الثقافة الوطنية عاملا من عوامل التحرر •

وفى الجوانب الصوفية فى الثقافة الوطنية توجد بعض القيم السلبية تمنع الجماهير من الحركة وتأتى فى مقدمتها قيم مثل الصبر ، والرضا ، والتوكل ، والورع ، والزهد ، والقناعة ، والخوف ، والحزن ، والفقد ، والفناء ••• الخ • بعضها من المقامات والبعض الآخر من الأحوال • وقد نشأت هذه القيم فى الأصل كنوع من المقاومة السلبية ضد مظاهر البذخ والترف والتكالب على الدنيا من أجـل ترك الدنيا بما فيهـا على من فيها • وقد استعملها الحكام كنوع من أيديولوجيات الاستسلام تربى عليها الشعوب من خلال أجهزة الاعلام وخطب المساجد وبرامج التربية الدينية فى المدارس • ولما كانت الظروف قد تغيرت ، ولم تعد المقاومة أيضا ميؤوس منها وبالتالى يمكن تحويل هذه القيم السلبية الى قيم ايجابية ، من الاستسلام الى التمرد ، ومن القناعة الى الثورة ، ومن الرضا الى الغضب ، ومن الصبر الى الخروج ، ومن التوكل الى الجهاد ، ومن الزهد الى العدالة الاجتماعية ، ومن الفقر الى المطالبة

بحق الفقراء فى أموال الأغنياء ، ومن الخوف الى الشجاعة ، ومن الحزن الى الفرح ، ومن الفقد الى الوجود ، ومن الفناء الى البقاء[٢٠] .

٤ ــ تغيير الأبعاد الانسانية . وفى الثقافة الوطنية فى المجتمع التقليدى وكما تبدو فى مكونها الرئيسى وهو التراث الدينى ، كثيرا ما تغلب العبادات على المعاملات . وفى الامثال العامية أيضا يغلب وصف أحوال الفرد على أحوال الجماعة ، وتطغى هموم الفرد على الأوضاع العامة . ولما كانت أحوال الفرد ما هى الا انعكاسات للأوضاع العامة فان التحول فى الثقافة الوطنية من الفرد الى الجماعة يجعلها قادرة على الدخول فى تحديات العصر .

ونظرا لأن الثقافة الوطنية فى أحد جوانبها تعبر عن علاقة الحاكم بالمحكوم ففيها عقائد وأمثال عامية فى وصف الحاكم تؤيد سلطانه المطلق ، وتدعو الى طاعته . وهناك عقائد وامثال عامية مضادة تدعو الناس الى الثورة عليه . لذلك تهدف اعادة بناء الثقافة الوطنية الى تخليصها من أيديولوجية الدولة الى أيديولوجية الشعب ، ومن سلطة الحاكم الى سلطة المحكوم ، ومن فكر السلطة الى فكر المعارضة ، ومن عقيدة الحزب الواحد الى آراء الأحزاب المتعددة ، ومن عقيدة الفرقة الناجية الى عقائد الفرق الهالكة ، ومن احادية الطرف والتعصب الى الاختيار بين البدائل وحرية الحوار . ان الانتقال فى المحاور من الله الى الانسان والطبيعة هو أيضا انتقال من الله الى الشعب والارض . فالشعب قضية قومية فى الحكم والتنمية ، فى السياسة والاقتصاد . والثقافة الوطنية ذاتها ممثلة فى تراثها الدينى تزاوج بين الله والأمة « ان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . « وان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

٥ ــ تغيير لغة التعبير . وفى الثقافة الوطنية عدة لغات يغلب عليها لغة العقائد أو التاريخ أو القصص أو التشريع . وهى لغة محددة مغلقة لاتحمل أية دلالات على أحوال العصر . ويمكن تغييرها الى لغة اجتماعية

(٢٠) Hassan Hanafi : Mysticism and Development, Unesco, Paris, 1985. Religion, Ideology and Development, Dar al - Thakafa, Cairo, 1988 .

سياسية بمصطلحات العدالة الاجتماعية والمساواة وهي اكثر دلالة على أحداث العصر . كما يمكن تحويل لغة القصص والرواية وحوادث الماضى الى لغة الوصف والتقرير للحوادث الحاضرة . وبالتالى لا يستعمل المستمع فقط خياله بل يرى بفعله . كذلك يمكن تحويل لغة الانشاء القديمة للتأثير فى السامع الى لغة الخبر عن طريق اعطاء احصائيات عن من يملك ماذا ومن يقهر من ، وعن صراع القوى ومدى التسليح ومقدار نهب الشركات بحيث تكون لغة الواقع الاحصائى أبلغ من لغة الشعارات وفنون الخطابة . ويحدث هذا الانتقال فى نفس الخطاب بحيث يحدث التحول فى نفس السامع من لغة الى لغة . فان الاقتصار على اللغة القديمة وحدها لايجعل الثقافة الوطنية حاملة لأية رسالة معاصرة . كما أن اللغة الجديدة وحدها تلغى الثقافة الوطنية وتعطى علما سياسيا محكما قبل الآوان .

سابعا : أدوات التغير الثقافى .

والسؤال الآن ؟ من الذى سيقوم بعملية اعادة بناء الثقافة الوطنية بحيث تكون قادرة على تحقيق الأهداف القومية ؟ هناك عدة أدوات أهمها ، بصرف النظر عن ترتيبها من حيث الأولوية والأهمية هى :

١ — المثقفون الوطنيون . وهم الذين يجمعون بين الثقافة والوطن ، بين مهمة العالم ومهمة المواطن ، بين حق العلم وواجب المواطنة . هم مثقفون أى أنهم على وعى تام بالثقافة الوطنية وبأهمية الاعداد الايديولوجى للناس ، وبضرورة التنظير . وهم وطنيون لأنه لاثقافة بلا وطن كما أنه لا وطن بلا ثقافة . ولو قيل : ان المثقفين الوطنيين ينتمون الى الطبقة المتوسطة وبالتالى يصعب عليهم تحقيق هذا البناء ، وسينظرون الى الثقافة من خل طبقتهم كما سيصوغون الأهداف القومية لصالح طبقتهم فالحقيقة أن هناك فرقا بين الطبقة والوعى الطبقى[٢١] . قد ينتسب المثقفون الى الطبقة المتوسطة ولكنهم بوعيهم قد ينتسبون

---

(٢١) G. Luckac : Histoire et Conscience de Classe, Trad. Ayelos D. J. Bois, De Minuit, Paris, 1960 .

د. عبد الله العروى : العرب والفكر التاريخى ، دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٣ .

الى الطبقة الشعبية العاملة ، طبقة العمال والفلاحين وصغار الموظفين • هذا بالاضافة الى أن الطبقة المتوسطة مازال لها دور فى التحديث • فهى الطبقة التى تعلمت وتخصصت واصبحت فى مراكز القيادة العلمية والتقنية فى البلاد • كما أنها تمتاز بالعقلانية واعمال العقل • لاتسودها أهواء الطبقة العليا وميولها • ولا تئن تحت ضنك الحياة وقسوتها كما هو الحال فى الطبقة الدنيا • وهى تعتنق الليبرالية ومثلها فى التمدن والتحضر ، وتقبل النقاش ، وتبادر بالحوار • ولها قدر من الذوق الجمالى والحس المدنى ممايجعلها أقدر على أن تكون عصب الدولة • قد يكون لها تطلعاتها ومكاسبها • ولكن المهم أن يكون ولاؤها للأهداف القومية وليس لمكاسبها الشخصية أو للسلطة ، وأن تخطط لصالح الجماهير ، وأن تعيد بناء الثقافة الوطنية بحيث تكون حاملا للأهداف القومية الرئيسية محققة لمصلحة الجماهير وليست مجرد ادوات اعلامية تبرر قرارات السلطة السياسية[٢٢] •

٢ ــ الجامعات الوطنية • وهى مؤهلة بطبيعتها للقيام بهذا الدور لأنها تجمع اكبر عدد ممكن من المثقفين ، طلابا واساتذة ، وفى نفس الوقت يحملون هموم الوطن وأحزان العصر • وقد ارتبط تاريخ جامعاتنا منذ نشأتها بتاريخ الحركتين الثقافية والوطنية للبلاد • خرج منها العلماء ، وسقط منهاالشهداء • والقادم الى جامعة القاهرة من على النيل الخالد يرى قبة الجامعة على مرمى البصر وقد احتوت أولا تمثال نهضة مصر (وسفارة اسرائيل على مقربة منه) ، وثانيا النصب التذكارى للشهداء قبيل الاسوار • لذلك كان قصر الجامعة على تكوين طبقة من المتعلمين التقنيين هو عزل لها عن الثقافة الوطنية • كما أن قصر دورها على العلم الذى لا وطن له بدعوى أنه لاسياسة فى الجامعة ولاجامعة فى السياسة هو أحد مظاهر تسلط النظام السياسى وخوفه من الجامعة • وقد استطاعت الجامعات الالمانية أن تكون أداة تحقيق للوحدة الالمانية • كما اندلعت الثورة الاسلامية فى ايران من حرم جامعة طهران • واستطاعت جامعة

---

(٢٢) انظر الدراسة التالية « مخاطر فى فكرنا القومى » .

سيول بكوريا الجنوبية أن تكون محورا للمعارضة الشعبية ضد القهر والطغيان . والجامعة المصرية جزء من تاريخ الحركة الوطنية المصرية ، نشأت باكتتاب أهلى ومصر فى صراعها مع الاحتلال . كما نشأت الجامعات العربية كأحد مكونات الدول الحديثة فى الحجاز وفى الخليج وابان النهضة العربية الكبرى فى سوريا والعراق . لذلك كان للجامعات حقها فى الاستقلال العلمى والحريات الأكاديمية . فحرية البحث العلمى لا تتجزأ عن حرية الوطن . كما أن الاتحادات والتنظيمات الطلابيه المستقلة جزء لايتجزأ من الحياة الجامعية . وهى قادرة بأنشطتها مثل نوادى أعضاء هيئة التدريس على المساهمة فى اعادة بناء الثقافة الوطنية بحيث تكون حاملا للأهداف القومية . ان الجمع بين العلم والوطن لايكون فقط فى دور الجامعات كمؤسسات علمية بل أيضا فى التصورات القومية للعلم خاصة العلوم الانسانية التى فيها تنشأ فلسفات التاريخ والتى فيها يتبلور الوعى التاريخى للأمة . ان العلم لاينفصل عن تاريخه بما فى ذلك العلوم الطبيعية حلا لأزماتها ، وكشفا عن مصادرها ، وقضاء على أسطورة العلم الابداعى الخالص الذى نشأ فى حضارة معينة وفى عصر معين ، خلقا عبقريا على غير منوال ! ان الصياغات القومية للعلم تقوم بها كل حضارة فى فجر نهضتها . ولكننا غالبا ما نأخذ العلم الغربى وهو قائم أيضا على تصور قومى غربى للعلم : بدايات العلم قبل العصور الحديثة ، وتطبيقات العلم بعدها ، وابداعات العلم احتكارها الخاص ، وانتشار العلم ونقل المعلومات منها الى غيرها ، من المركز الى المحيط . وعلى هذا النحو تكون اعادة بناء الثقافات الوطنية جزءا من التحرر الثقافى للشعوب . ويمكن صياغة تصورات قومية للعلم دون المساس بموضوعية العلم . بل يمكن اعادة كتابة تاريخ العلم والثقافة والحضارات من منظور قومى صرف وكجزء من بلورة الوعى التاريخى للشعوب[٢٣] .

---

(٢٣) لنا دراسات عديدة عن الجامعة منذ قضايا معاصرة « رسالة الجامعة » ، « مناهج التدريس والعلاقات الداخلية فى جامعاتنا » ، « الطلبة والمشاركة فى العمل الوطنى » ، « برنامج شباب اعضاء هيئة التدريس ، الجزء الأول فى فكرنا المعاصر ، ص ٢٠٨ — ٢٣٣ ، وايضا « الجامعة والوطن » ، « الاصلاح الجامعى » ، « رسالة الطالب » ، « وعلماؤنا بالداخل ايضا » .. الخ ، الجزء الأول ، الدين والثقافة الوطنية .

٣ ـ الجمعيات الثقافية • وهى الجمعيات والمنتديات الثقافية الأهلية مثل الجمعيات الأدبية والفنية والفلسفية والتاريخية والجغرافية والنفسية والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية •• الخ • والتى تجمع بين الثقافة والعلم ، بين الهم العام والتخصص الدقيق • وقد نشأت هذه الجمعيات ابان نهضة الأوطان مثلا فى مصر وفرنسا وألمانيا ، وبالتالى تكون مسؤولياتها فى الحفاظ على هذه النهضة وتأصيلها • كل جمعية تقوم باعادة بناء أحد جوانب التراث لنشاطها الدينى أو الأدبى أو الاجتماعى أو التاريخى •• الخ • فى حرية تامة دون حكر عليها أو تقييد لنشاطها • وان أى قانون يقلص مهمتها ويبعد عنها موضوع الدين أو السياسة أو الجنس ،وهى المحرمات الثلاثة فى فكرنا القومى ، انما يهدف الى وأدها ، ويقضى على دورها(٢٤) •

٤ ـ المساجد ودور العبادة • وهى الحزب الموجود سلفا بكوادره ونظمه وخلاياه وجماهيره وثقافته • فالدين هو المكون الرئيسى فى الثقافة الوطنية ، وبالتالى فليس فى حاجة الى منظر أو كتاب أو مذهب أو عقيدة كالماركسية أو الليبرالية أو الاشتراكية • كما أن جماهيره موجودة وهى جماهير الأمة التى تنتسب الى الدين بولائها لتراثها • وتنظيماته وخلاياه موجودة فى المساجد ودور العبادة والزوايا والمدارس والمعاهد والجامعات الدينية ودروس العصر والعشاء والجمعيات الدينية والشرعية • وبالتالى فلا يحتـــاج الى تنظيمات وخـــلايا وأماكن ومنـــازل ومقار كما تحتاج الاحزاب • وكوادره موجـــودة فى الأئمة والوعاظ ورجال الدين • وهم موضع ثقة من الناس • انما المهم هو تمثل الأهداف القومية والتوعية السياسية والاستقلال الفكرى دون توجيه من الدولة تبريرا لسياساتها ودون ارهاب منها فى حالة الخلاف بين الدولة وبين المؤسسة الدينيـــة المستقلة •

٥ ـ الحزب الثورى • ويتكون من مجموعة من المثقفين الوطنيين آثروا اعطاء الممارسة الثورية النصيب الأكبر ، وقبلوا المســاهمة فى

---

(٢٤) انظر « المحرمات الثلاث » الجزء الاول ، الدين والثقافة الوطنية .

تعبئة الجماهير كعمل رئيسى من أجل الوصول الى مراكز السـلطة عن طريق الانتخابات الشعبية الحرة • الحزب الثورى لا يعمل بالسياسة عملا مباشرا من أجل الوصول الى الحكم بوسيلة أو بأخرى بل هـو الحزب الـذى ينبع من ثقافـة الجماهير ويقـوم بتثويرها حتى تحمله الجماهير على الاعناق ، وتجعله معبرا عن روحها وجسدها ، مدافعا عن ماضيها وحاضرها ، حريصا على ثقافتها ومصلحتهـا • ويتم ذلك عن طريق مدارس الحزب من أجل تخريج الـكوادر ، وعن طريق جرائد الحزب ومجـلاته ونشراته وكتيباته ، وعن طريق الخـلايا والأسر الحزبية • وقد قام الشيوعيون والاخوان المسلمون بذلك خير قيام فى تاريخنا الحديث ، وكونوا كوادر ثقافية وسياسية على مستوى رفيع من الثقافة الوطنية والالتزام السياسى[٢٥] •

٦ — الفنون الشعبية • وهى خير معبر عن الثقافة الوطنية فى صور فنيـة مثل الرقص والغنـاء والملاحم الشعبية والزخرفية وطراز المعمار والامثال العامية •• الخ • صحيح أن هناك فنونا أسهل فى التثوير من غيرها مثل الغناء كما هو الحال فى الأناشيد الوطنية والتمثيل كما هو الحال فى مسارح الشوارع ، والشعر والقصة والرواية كما وضح ذلك فى الأدب الروسى الثورى ولدى الأدباء الشبان عندنا • ومع ذلك فان الفنان الثورى قادر على ملأ أى فن بمضامين ثورية من حيث اشكال التعبير ومن حيث المضامين الفنية • فالغناء والرقص عامل موحد للأمة بين مختلف أقطارها • ومهرجانات الشعر احتفالات وطنية ، ولسان حال للأمة ، تعبر فيها عن أحزانها ، وتبث همومها ، وتقدم شكواها • ان الفن أسهل على الجماهير فى التذوق وأكثر قدرة على التأثير فيها • وان الامسيات الفنية والحفلات الغنائيـة هى أكثر الامسيات متابعـة بين جماهير المشاهدين • تسمع الجماهير الأغانى الشعبية والقرآن الكريم على نفس الدرجة والحماس • ويقلب السائق محطات مذياعه بين هذا

---

(٢٥) انظر التنوير الدينى والتنظيم السياسى ، « مأساة الاحزاب التقدمية فى البلاد المتخلفة » ، الجزء الثامن : اليسار الاسلامى والوحدة الوطنية .

وذلك • كما أن الفنون الشعبية تبرز الشعب كقيمة ، وتثبته كقدرة خلاقة ، فلا تتنكر له سلفية ، ولا يقهره نظام • بل ان الفن الشعبى لقادر من خلال النكات والمسرح والشعر والقصة والرواية حتى الرسم والتصوير على نقد السلطة والسخرية منها[٢٦] •

٧ ــ التنظيمات الشعبية • اذا كانت بعض أدوات التغير الثقافى والاجتماعى أقرب الى العمل فى ميدان الثقافة الوطنية منها الى ميدان الأهداف القومية الملموسة مثل الجامعات فان بعض الأدوات الأخرى قد تكون أقرب الى العمل فى ميدان الأهداف القومية منها الى العمل فى مجال الثقافة القومية مثل التنظيمات الشعبية من نقابات واتحادات وهيئات ومؤسسات • وهى قادرة على التعبير عن حاجات الجماهير ومطالب الفئات • ولكنها فى حاجة ايضا الى بناء نظرى تعبر من خلاله عن حاجاتها كما أنها فى حاجة الى مزيد من الوعى بالأهداف القومية الرئيسية من أجل وضع المصالح الخاصة للفئات فى اطار المصلحة الوطنية العامة • وان الانتفاضة الشعبية فى السودان فى ابريل ١٩٨٦ لخير شاهد على قدرة التنظيمات الشعبية والنقابات واتحادات الطلبة والعمال على أن تكون نواة لثورة شعب بأكمله ضد حكم الظلم والقهر والنفاق والعمالة والطغيان •

٨ ــ أجهزة الاعلام • ويأتى دورها فى النهاية لأنها دائما فى يد السلطة فى بلادنا ، تأتمر بأوامر الدولة • ولأنها فقدت استقلالها بالنسبة للسلطة فانها أيضا فقدت مصداقيتها عند الجماهير • هى الآن أقرب الى أبواق الدعاية للنظم الحاكمة منها الى أدوات لتثقيف الشعوب بما فى ذلك الصحافة والاذاعة والتليفزيون • وهى أكثر أجهزة الثقافة الشعبية تأثيرا على الجماهير ، ولذلك فهى أشدها احتكارا من الدولة • هى أجهزة للدولة وليست منابر للشعب • وتدخل معها أجهزة وزارة الثقافة مثل الثقافة الجماهيرية باستثناء ما قد يفلت من نشاطها نظرا

---

(٢٦) التفكير الدينى وازدواجية الشخصية » ، « الفلاح فى الامثال العامية » ، « المثقفون والشيخ امام » ، قضايا معاصرة ، الجزء الأول فى فكرنا المعاصر ، ص ١١١ ــ ١٢٧ ، ص ٢٦٩ ــ ٢٨٠ ص ٢٣٥ ــ ٢٤٥

لتعاونها مع الأدباء الشبان وفنانى الأقاليم • وتدخل فى ذلك أيضا الهيئات العامة المستقلة مثل الهيئة العامة للكتاب والمؤسسة العامة للسينما والمسرح • لذلك يعجب المثقفون المستنيرون بنظام الاذاعة البريطانية B. B. C• وباستقلالها • وتحولت جماهير الشعب اليها والى غيرها لاستقاء الاخبار • اذ تعلم كافة جماهير الشعب أن أجهزة الاعلام لا تقول الحقيقة وانما تعرف الحقائق من الاذاعات والصحف الأجنبية ووكالات الأنباء العالمية ، فتهرب بذلك من زيف ، وتقع فى زيف آخر • ويبدو ذلك فى دولنا فى الخلط بين الاعلام والثقافة • فالاعلام ثقافة . والثقافة اعلام • كلاهما توجيه وارشاد قومى !

ثامنا : أهمية اعادة بناء الثقافة الوطنية •

ان اعادة بناء الثقافة الوطنية ليس ترفا فكريا أو عملا ثقافيا خالصا بل هو اعادة بناء لروح الأمة بعد أن توالت عليها الهزائم مرات عديدة ، وأجهضت نهضاتها الحديثة أكثر من مرة • بل انها مهمة ضرورية اذا ما أردنا ضمان ثورة دائمة ودرا أخطار الكبوة والردة والثورة المضادة • ويمكن تلمس نتائج ذلك مسبقا على النحو الآتى :

١ — تحقيق الوحدة الوطنية على أسس فكرية بدلا من الازدواجية القاتلة التى تشق صف الأمة بين الدينيين والعلمانيين ، بين القانون الالهى والقانون الوضعى ، بين حاكمية الله وحاكمية البشر • كما أنها قادرة على تحقيق الوحدة فى مناهج التعليم بدلا من ازدواجية التعليم التى نعيشها والتى هى أحد أسباب ازدواجية الثقافة الوطنية والشخصية القومية • هذه الوحدة الوطنية على مستوى الثقافة هى أساس الوحدة الوطنية على مستوى برنامج العمل الوطنى ثم على مستوى القيادة السياسية فى الجبهة الوطنية المتحدة •

٢ — تمهيد الجو الثقافى لتأسيس أيديولوجية سياسية تستند الى الثقافة الوطنية وتحقق أهداف الأمة ، ومنعا للازدواجية الايديولوجية بين الأيديولوجيات العلمانية الواردة والأيديولوجيات الدينية الموروثة •

وعلى هذا النحو يمكن تعبئة الجماهير ومشاركة الأغلبية الصامتة فى العمل السياسى وفى الدفاع عن مكتسباتها فى حالة انقلاب القيادة السياسية الثورية الى قيادة سياسية مضادة • وأغلبية الجماهير حتى الآن لا تجد فى الأيديولوجتين المطروحتين ، الدينية والعلمانية ، ما يجعلها تتحمس له وتعبىء نفسها دفاعا عنه • وتئن تحت وطئة الحياة اليومية وبؤس الحياة • وبالتالى فان الأيديولوجيية القادرة هى تلك التى تبدأ بواقع الجماهير تنظره تنظيرا مباشرا وتلقائيا بصرف النظر عن المداخل الثقافية وبالاعتماد على ما ترسب من ثقافة وطنية فى الوعى القومى •

٣ ــ سهولة تنفيذ برنامج العمل الوطنى الموحد على أساس من الثقافة الوطنية المشتركة والاتفاق على الاهداف القومية لأنه يجمع كل طوائف الشعب ، ويشرك كل مناهجه وعقائده ، ويسمح بأكبر قدر ممكن من تعدد الأطراف النظرية فى مقابل وحــدة العمل الوطنى • النظريات السياسية والمذاهب الاقتصادية المعدة سلفا والتى تحتاج الى تطبيق فى أى مكان ولدى أى شعب بصرف النظر عن ظروفه التاريخية وواقعه الثقافى هى أقرب الى المفترسات التى تبحث عن ضحايا ، صعبة الفهم ، حولها خلاف بين قبول البعض ورفض البعض الآخر ، يكفر بعضهــا بعضا • وبعد التطبيق لا يشفع النجاح النسبى أو الفشل النسبى لأحد منها ولا يغطيها شرعية أو صكا تاريخيا على بياض •

٤ ــ اتقاء شر الردة والنكوص والثورة المضادة التى تعتمد على الجوانب المحافظة فى الثقافة الوطنية وضعف ارتباط الأهداف القومية بالجوانب التقدمية فى الثقافة الوطنية من أجل ضرب هذه الأهــداف القومية ذاتها بدعوى الأصالة والمحافظة على التراث والدفاع عن الهوية الثقافية للأمة ضد التغريب الثقافى وضد المذاهب المستوردة التى تهدد ايمان الأمة وتنال من قيمها • ان جعل الجوانب التقدمية فى الثقافــة الوطنية حاملا للأهداف القومية يحفظ هذه الأهداف باعتبارها تحقيقا لمصلحة الأغلبية ضد أية أهداف مضادة لتحقيق مصالح الأقلية • كما أن ذلك يسحب البساط من تحت أقدام الثورة المضادة • وذلك باعادة تأويل

الجوانب المحافظة التى تعتمد عليها فى الثقافة الوطنية لتكسب نفسها شرعية تاريخية أمام جماهير متدينة ينقصها الوعى السياسى ، وجدل الثورة والثورة المضادة[٢٧] .

٥ — الحفاظ على الخصوصية والعمومية فى نفس الوقت . فالثقافة الوطنية تعبر عن وضع خاص لشعب خاص فى مرحلة تاريخية ومع ذلك هى منفتحة على باقى الثقافات متفاعلة معها ، تأخذ وتعطى ، وتتحول تدريجيا من ثقافة الى أيديولوجيا ثم من أيديولوجيا الى علم . تفترق عن المحافظة الدينية التى ترفض كل تعامل ثقافى مع الآخر ، كما تفترق عن العلمانية التى ترفض كل بداية فى الثقافة الوطنية بدعوى العموم والشمول والعلم الذى لا وطن له .

٦ — اثراء التجربة الثورية المعاصرة عن طريق تجربة فريدة فى التحديث بدلا من النظريات المسبقة والأيديولوجيات الجاهزة . فكل شعب له ثقافته ، ومرحلته التاريخية التى يمر بها ، وله قدرته على الخلق والابداع . وان التجارب الصينية والفيتنامية والفلبينية والسودانية والايرانية والعربية فى محاولات اعادة بناء الثقافة الوطنية لا ثراء للتجارب البشرية وتنويع على نماذجها المعروفة فى الثورة الفرنسية ، والثورة الأمريكية ، والثورة الروسية . وان خلق نماذج حاضرة ومستقبلة قد يكون أسهل بكثير وأكثر فاعلية وقبولا من تطبيق نماذج ماضية .

٧ — امحاء الفرق بين العلم والسياسة ، بين العالم والمواطن ، بين النظر والعمل ، بين النظرية والتطبيق . فالثقافة الوطنية تعطى الأساس النظرى لتحقيق الأهداف القومية . والأهداف القومية برنامج عمل وطنى يتم تحقيقه من خلال تنشيط الثقافة الوطنية واعادة بنائها من أجل تعبئة الجماهير . وطالما اشتكى قادتنا السياسيون ومثقفونا بل وجماهيرنا من عزلة الثقافة عن الحياة ، والجامعة عن المجتمع . كما

---

(٢٧) لذلك كان العنوان المقترح لهذا الكتاب « الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢ — ١٩٨٩ » فى الاصل هو « الثورة والثورة المضادة فى مصر ١٩٥٢ — ١٩٨١ » .

تحدث البعض عن الابراج العاجية التى يقبع فيهـا المثقفون ، وعن الجدليات المذهبية والمماحكات اللفظية والمناقشات البيزنطية التى تغلب على بضاعتهم وأسواقهم . تكسب البعض منا بالعلم فتكسب البعض الآخر بالسياسة . والثقافة الوطنية تشق طريقها بين الفريقين كالتزام ثقافى وطنى تتطلبه مصلحة الأمة .

٨ ــ قد تكون اعادة بناء الثقافة الوطنية مهمة مرحلية محصنة من أجل تحويل الثقافة الوطنية الى أيديولوجية سياسية حتى يتم تحويل الأيديولوجيا السياسية فيما بعد الى علم السياسة . ومع ذلك ، فهى مرحلة ضرورية حتى يتم انتقال كل شعب من مرحلة التقليد الى مرحلة الحداثة انتقالا طبيعيا دون انقطاع . فلا تحدث الردة والعـودة الى القديم كما هو الحال فى تركيا وبولندا والغرب المعاصر ودون ازدواجية ، فيقع الصراع الدامى بين الاخوة الاعـداء على ما هـو حادث الآن فى مجتمعاتنا الحالية . وان اغفال المرحلة الحاضرة لأحد الأسباب الرئيسية للعودة الى الماضى والحاق الحاضر به كما هـو الحال فى الحركات السلفية أو استباق المستقبل والحاق الحاضر به كما هـو الحال فى الدعـوات العلمانية .

تاسعا : خاتمة . اعتراضات وردود .

قد يقال ان اعادة بناء الثقافة الوطنية كحامل للأهـداف القومية مشروع له عيوبه ومخاطره ، وله حدوده وقدراته على التحو الآتى :

١ ــ لا يسـلم مثل هـذا المشروع من اتهام لـه بالعنصرية أو القومية أو « الشوفينية » نظرا لتأكيده على الهوية القومية والتحايز القومى والخصوصية القومية . وان هذه المغالاة فى النزعة القومية قد تؤدى الى صراع بين القوميات فى عالم يرنو الى السلام والى تبادل المصالح والحوار بين الأديان والحضارات . والحقيقة أن هذا الخطر يقل الى أقصى حد له نظرا لأن القومية هنا على المستوى الثقافى المحض وليست على المستوى العرقى . لذلك استعملنا لفظ « فكرنا » القومى ،

« سلوكنا » القومى ، « وجداننا » القومى ، و « النحن » هنا هوية ثقافية صرفة . والثقافة وطنية أى أنها تنتسب الى الوطن وليس الى القوم . والوطن قيمة ثقافية وليس مجرد حدود أو توسع أو غزو أو مجال حيوى . واعادة بناء الثقافة الوطنية تتم ليس فقط لتقدم شعب بعينه بل لنقل حضارة باكملها من مرحلة تاريخية الى مرحلة تاريخية أخرى فى اطار تطور عام لتاريخ البشرية كلها .

٢ — معاداة العلم لصالح الأيديولوجيا . وذلك لأن اعادة بناء الثقافة الوطنية هو عمل أيديولوجى صرف فى حين أن الاجتماع والسياسة والاقتصاد علوم انسانية تختلف بينها من حيث الدقة والاحكام ولكنها تبغى جميعا أكبر قدر من الموضوعية والشمول أسوة بالعلوم الطبيعية والرياضية . ولما كان أحد مقاييس التحول الاجتماعى واعادة بناء المجتمعات هو الانتقال من الأيديولوجيا الى العلم فان اعادة بناء الثقافة الوطنية سيبقى المجتمع فى نفس المرحلة أى الأيديولوجيا بصرف النظر عن نوعيتها دينية تقليدية وهو التيار الغالب على الثقافة الوطنية أو سياسية تقدمية وهو ما قد ينتج عن المشروع كله من مكاسب . والحقيقة أن هذا التقابل والتعارض بين الأيديولوجيا والعلم انما هو تقابل ماركسى تقليدى تأباه ماركسيات القرن العشرين ، وغير دال بالنسبة للشعوب اللا أوربية . فالأيديولوجيا حاجة ومطلب فى البلاد النامية وتثير فى أذهان الشباب حماسا وانتماء ربما أكثر مما يثيره العلم . والعلم فى الذهن الشعبى منقول عن الغرب ، دخيل وافد فى حين أن الأيديولوجيا تعبير عن الموقف الحالى ، وتأكيد للهوية الثقافية . كما أن العلم هو أخذ لكل مكونات الواقع فى الاعتبار . وفى البلاد النامية ، الثقافة الوطنية هى العنصر الرئيسى فى شخصيتها القومية قبل انماط الانتاج ووسائل الانتاج وفائض القيمة ، والسعر والأجر . والعلم ذاته له بعد انسانى وليس مجرد نقل للمعلومات . وهو أحد أبعاد الثقافة مثل الفن والدين والفلسفة . العلم جزء من كل هو الحضارة . وان اعادة بناء الثقافة الوطنية هو فى حد

ذاته علم الثقافة أو علم الحضارة أو علم الاجتماع الثقافى أو علم الأنتروبولوجيا الثقافية أو الحضارية .

٣ ــ قد تصبح اعادة بناء الثقافة الوطنية سلاحا ذا حدين . فكما يمكن توظيف الثقافة الوطنية بحيث تكون حاملا للأهداف القومية قد يجعلها نظام حكم حاملا لأهداف مضادة للأهداف القومية . وبالتالى يمكن استغلال الثقافة الوطنية على أية وجهة كانت طالما أنها تحتوى فى داخلها على الشىء ونقيضه كما هو واضح فى الامثال العامية واحيانا فى النصوص الدينية سواء كان هذا التعارض ظاهرا أو غير ظاهر ، وفى التراث الدينى القديم بعقائده ومذاهبه وفرقة المختلفة التى وصل الخلاف بينها الى حد الاحتكام للسيف . والحقيقة أن معارك الثقافة الوطنية كالدين والتراث جزء من صراع القوى الاجتماعية ، كل منها تؤولها لحسابها ولصالحها ضد القوى الأخرى . وان معارك الثقافة والتراث فى المجتمعات النامية باعتبارها مجتمعات تراثية لاخطر من معارك الصراع الطبقى . وان معارك الخيال والتصورات للعالم والثقافة والحضارة لأخطر بكثير من المعارك العسكرية وتضارب المصالح الاقتصادية بين القوى المتصارعة . وان اللجوء الى الثقافة الوطنية والتركيز على أخلاق القرية ، ورب الأسرة ، وكبير العائلة ، ومفاهيم الحب والايمان ، لاتقل أهمية عن اتفاقات الصلح مع العدو أو عقد اتفاقات عسكرية مشتركة ومناورات مشتركة مع احدى القوتين العظميين . بل ان هذا الاعداد الفكرى الثقافى النفسى هو مقدمة وتمهيد لهذه الاختيارات السياسية والعسكرية[٢٨] . والحقيقة ان الذى يحمى من ذلك كله هو تحديد الأهداف القومية باعتبارها معبرة عن مصالح الأغلبية لا مصالح الطبقة الجديدة التى وصلت الى السلطة السياسية بعد أن حصلت على القوة الاقتصادية . فاذا حاربت معارك الثقافة الوطنية واختارت من مفاهيمها وتصوراتها ما يساعدها على تفريغ

---

(٢٨) انظر « الدين والتنمية فى مصر » ، « الدين وتوزيع الدخل القومى فى مصر » . الجزء الرابع : الدين والتنمية القومية .

الوطنية واختارت من مفاهمها وتصوراتها ما يساعدهـا على تفريغ الثقافة الوطنية من مضمونها ، وربط مصالحها برأس المال الخارجى ، وربط سياساتها بسياسات احدى القوتين العظميين تنشأ معركة مضادة من أجل اعادة بناء الثقافة الوطنية بحيث تكون حاملا للأهداف القومية تعبيرا عن مصالح الأغلبية ودفاعا عن التنمية الذاتية واستقلال الارادة الوطنية .

٤ ـ اذا كانت الثقافة الوطنية كما هى ممثلة فى الامثال العامية وفى التراث القديم تحمل اتجاهات متعارضة ، مايتفق منها مع الأهداف القومية التى تمثل مصالح الأغلبية وما يتفق مع مصالح الأقلية المضادة للأهداف القومية فكيف يمكن ايجـاد مقياس للاختيار بينها اختيـارا مسبقا وكلاهما على نفس مستوى الشرعية النظرية والأثر العملى ؟ والحقيقة أنه لا يوجد مقياس نظرى لصحة احدى الاتجاهات دون الأخرى مادامت كلها مخزونا نفسيا عند الجماهير ، ومع الاعتراف بأن المخزون النفسى المضاد للأهداف القومية قـد يكون أقوى وأرسخ وأظهر من المخزون النفسى المؤيد لهذه الأهداف القومية . المقياس عملى صرف ، وهو مدى ثقل الأهـداف القوميـة التى تمثل مصالح الأغلبية على الأهداف المضادة التى تمثل مصالح الأقلية . هذا التناقض بين اتجاهات الثقافة الوطنية هو فى حقيقة الأمر صراع اجتماعى كامن ، وجـزء من صراع القوى ، وأسلحة ممكنة قابلة للاسـتخدام من كلا الطرفين . والسلاح الأقوى مع حسن الاستخدام والقدرة على ادارة المعـارك هو الذى يحسم الصراع لصالحه .

٥ ـ ألا توجد عناصر ثابتة ودائمة فى الثقـافة الوطنية تكون مرادفة للعناصر الدائمة والثابتة المكونة للشخصية القومية ؟ هل اعادة بناء الثقافة الوطنية طبقا للأهداف القومية تجعلها دائمة التغير والانقطاع ، وبالتالى تفقد ديمومتها واتصالها ؟ والحقيقة أن هناك عناصر ثابتة فى الثقافة الوطنية ولكن المهم هـو كيفية قراءتها وطريقـة تأويلها ووجه استخدامها . فالتوحيـد عنصر دائم ولكن تختلف تحققـاته من عصر

الى عصر طبقا لحاجات كل منها المتغيرة • كما أن اعادة البناء ليس انقطاعا فى الثقافة الوطنية بل هو مجرد قراءة لها طبقا للمتطلبات الحالية • فالتغيير فى المضمون لافى الشكل ، وفى التطبيق لافى الأصل • وبالتالى يحدث التغيير من خلال التواصل • هذا بالاضافة الى أن الأهداف القومية لاتتغير فى كل عصر • فمازال مشروعنا القومى الذى وضعه الأفغانى فى القرن الماضى هو مشروعنا الحالى • وقد يبقى كذلك لعدة أجيال •

٦ ـ ألا يوجد أثر للتغيرات الاجتماعية على الثقافة الوطنية ؟ الا تفرض التغيرات الاجتماعية المتلاحقة ثقافاتها بحيث يصبح المعلول علة والعلة معلولا ؟ الا يفرض التصنيع ثقافته وبالتالى لاحاجة الى اعادة بناء ثقافة المجتمع الزراعى وهو مازال فى مرحلة الزراعة والا كنا كمن يريد أن يصب ماء فى لا وعاء ؟ الا تتغير الثقافة بتغير البنية الاجتماعية والتركيب الطبقى للمجتمع حتى ولو كانت ثقافته التقليدية غارقة فى الفيض والاشراق ؟ الحقيقة أنه مهما كانت قوة التغيرات الاجتماعية بل والمرحلة التاريخية التى يمر بها شعب ما فانها تظل مجرد تغير فى تحققات الثقافة الوطنية وليست فى ماهياتها • وتظل الثقافة الوطنية عبر التاريخ تحتل عنصر الديمومة والاتصال مرادفة للشخصية القومية • انما الذى يتغير هو دورها وفاعليتها وتوجهاتها طبقا لصراع القوى الاجتماعية • صحيح أن التغيرات الاجتماعية تكسب عادات جديدة ولكن يظل السلوك العام تعبيرا عن الثقافة الوطنية • وغالبا ما يقع الصدام بين النمطين فى السلوك ، ويحسم لصالح احدهما على الآخر أو لتجاورهما معا كنوع من تقسيم العمل أو تداخلهما فى وحدة عضوية نابعة من ثقة الثقافة التقليدية بقدرتها على التأقلم والحداثة ، وبأنه لاخوف عليها من الحداثة الوافدة لأنها تتفق مع حداثة الموروث الحالة فيه •

٧ ـ أليست البداية بالثقافة الوطنية كمدخل لقضايا التغير الاجتماعى تصورا رجعيا غربيا رأسماليا أو على الأقل تصور الطبقة

المتوسطة التى اوتيت قدرا من العلم والثقافة بحيث تريد أن تجد لها دورا متجددا فى وقت تتأزم فيه القضية الاجتماعية بحيث تهــدد الطبقة المتوسطة ليس فقط فى دور مقابل أيضا فى وجودها ومستقبلها ؟ والحقيقة أن مفهوم الثقافة الوطنية ليس مفهوما برجوازيا تجد فيه الطبقة المتوسطة ليس فقط فى دورها بل أيضا فى وجودها ومستقبلها ؟ الرأسمالية دفاعا عن شرعيتها ضد الايديولوجيات الجذرية ، ولامثالية تجاوزتها المرحلة الحالية والتى اصبحت تمثل تحــولا نحو الواقعية الاجتماعية لأن الماركسية ذاتها انما بدأت عند ماركس الشاب كنقد للثقافة القومية كما مثلها الهيجليون الشبان • كما أن المشروع كله ، اعادة بناء الثقافة الوطنية بحيث تكون حاملا الأهداف القومية ، سحب للبساط من تحت اقدام المحافظة التقليدية ، وهو التيار الأقوى الذى يعتمد على التراث الدينى وكأنه غاية فى ذاته ، ودون أن يجعله أحد المكونات لثقافة أوسع ، ودون أن يجعله حاملا للأهداف القومية • وهو فى نفس الوقت دحض حجة العلمانية بأن الثقافة الوطنية تقليدية محافظة لاتقوى على أن تكون عاملا فى التغير الاجتماعى • وفى البلاد النامية يكون النقد الفكرى بلاشك بداية التحديث • فالعقلية النقدية ليست حكرا على حضارة دون حضارة • ولقد ثبتت تجارب التنمية الأخيرة صعوبة التنمية الاقتصادية دون أن تواكبها التنمية الثقافية من أجل تحييد عناصر المحافظة وتنشيط عناصر الحداثة فيها وحتى يمكن تعبئة الجماهير ومشاركتها فى عملية التنمية •

٨ ــ اليس ذلك كله مثالية ترى الواقع فكرا ، والمجتمع ثقافة ، ويحيل الصراع الاجتماعى الى معارك فكرية ، فكرة بفكرة ، ورأيا برأى ، وهى معارك وهمية ، ترف ثقافى لا يقوى عليه الا المثقفون ، ولا تدرى عنه الطبقات الكادحة شيئا ؟ والحقيقة أن الفكرة ليست وهما والثقافة ليست ترفا • الفكر واقع أكثر من الواقع الحسى الملموس ، والثقافة بنية لا مرئية تتحكم فى البنية المرئية • الفكرة دافع حى ، تصور عملى للعالم ، وباعث حركى على السلوك • وقــد يكون خطأ الاتجاهات

الجذرية فى جيلنا هو سرعة القفز اليها دون الرد بنقد الأفــكار ، أى الانتقال من هيجل الى ماركس دون المرور بمرحلة الهيجليين الشبان أى بمرحلة نقد المثالية التى استطاع هيجل أن يحول الدين اليها[٢٩] . ان ما قد يظنه البعض أنه مثالية قد يكون أشد أنواع الواقعية وهى واقعية الافكار . وما يظنه البعض الآخر أنه واقعية قد تكون أشــد أنواع المثالية لأنها مثالية الوهم والتجريد والادعاء .

٩ ــ قد يقال ان هذه هى حالة مصر والتى لاتجد لها مثيلا فى باقى الأمة . هو تعميم من الخاص الى العام واسقاط لحالة مصر على غيرها من الاقطار . والواقع أن هــذه حالة عــامة فى مصر وتونس والجزائر والمغرب والسودان وسوريا والعراق والأردن ولبنان والبحرين ، فى كل الاقطار التى يشتد فيها الصراع بين المحافظة الدينية التقليدية ، والتقدمية العلمانية الحديثة . ومصر هنا نظرا لتاريخها الثقافى فى المنطقة مجرد نموذج لما يحدث حولها فى المحيطين العربى والاسلامى . لذلك كان هذا التأرجح بين الثقافة الوطنية والثقافة « القومية » .

١٠ ــ وقد يقال ان هذه عموميات تحتاج الى تفصيلات ، واعلان نوايا تحتاج الى تحقيق ، وأمانى ورغبات لاتعبر عن واقع ملموس . والحقيقة ان اعلان النوايا يحتاج الى تحقق فعلى لاعطاء نماذج من اعادة بناء ثقافتنا القومية . وذلك عمل مشترك للجميع ، والاجتهاد مفتوح لكل المثقفين والمواطنين . ويمكن اعطاء نماذج للتنبيه على ذلك فى دراسات ثلاثة قادمة : « مخاطر فى فكرنا القومى » « مخاطر فى سلوكنا القومى » « مخاطر فى وجداننا القومى » .

---

(٢٩) أنظر دراستنا : « الاغتراب الدينى عند فيورباخ » عالم الفكر ، ابريل ــ يونيو الكويت ١٩٧٩ دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨ .

مخاطر فى فكرنا القومى

مقدمة : لقد حان الوقت لتحديد خصائص فكرنا القومى ، ما له وما عليه • وانه ليصعب علينا ان نوجد دون ان نعى تصورنا للعالم ، وان يكون لدينا العمق الشعورى الكافى لرؤيته والحكم عليه ، وقياسه على الواقع ورؤية توجيهه للسلوك • فالفكر القومى ليس مجموعة من المبادىء يمكن عدها ، ولكنه سلوك يومى يتحدد فى انماط فكرية ونماذج ثقافية ، وخبرات معاشة يمر بها الجميع ، ووصلت الى درجة من العمومية والوضوح حتى أصبحت نمطا للحياة الثقافية وأسلوبا فى الحياة العامة لا يخرج عنه أحد حتى ولو أراد بما لديه من بقايا فطرة ، وشجاعة أدبية ، ورغبة فى المخاطرة ، وحبا فى النزال وبراءة طفولية لا تخبو مهما كانت الظروف • وهذا لاننا نتحدث عن الغالب وليس عن النادر ، ونشير الى العام وليس الى الخاص ، ونتطرق الى المشهور وليس الى الشاذ ، ونتوجه الى الشائع وليس الى الاستثناء ، ونصف الخط الدائم المتصل وليس النتوء البارز المتقطع •

فهذه المخاطر العامة لا تعنى انها الخط الفكرى لكل فرد من أفراد الأمة ، فقد يخرج عن هذا الخط أو ذاك فرد أو أفراد يكونون حركة التاريخ ، ولكن السمات القومية تتحدد بالسمات الغالبة وليست بالسمات الفريدة ، وهى ما زالت مستمرة تفعل فينا وتتشكل فكرنا القومى ، وتحدد سلوكنا اليومى ، وتكون نظريتنا السياسية • فاذا كان

كتب النصف الأول من هذا المقال فى ١٩٧٤ فى غمرة الفرح والنشوة برجوع صديقنا د . انور عبد الملك بعد غربة دامت خمسة عشر علما فى فرنسا الى ارض الوطن ، وعودة مصر الى نفسها بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، ورغبته فى تأسيس مجلة « النهضة » للحوار بين المدارس الفكرية المختلفة وتأصيل الروح القومية . ولكن سرعان ما هبط الحماس لدى بعد تردد صديقنا خشية « الوفاق » فلم يكتمل المقال . وكتب النصف الثانى بعد ثلاث سنوات تقريبا فى ١٩٧٧ بعد القضاء على المجالات الثقافية فى مصر « الكاتب » و « الفكر المعاصر » و « الطليعة » و « روزا اليوسف » ، وبزوغ امل جديد فى المجلات العربية وانتقال الثقافة اليها وفى مقدمتها « مواقف » و « دراسات عربية » و « افاق عربية » و « قضايا عربية » . فالنية مازالت موجودة والامل مازال يراودنا . وقد اعطينا خلاصة هذا المقال فى ندوة صديقنا د . عبد المنعم تليمة فى الخريف الماضى . قضايا عربية ، ابريل ١٩٧٨ .

تبرير السلطة القائمة هو الطابع السائد فهذا لا يعنى عدم وجود فكر مناهض للسلطة ومعارض لها . وغلبة المنهج الاستنباطى النازل لا يعنى بالضرورة غياب كل فكر تحليلى علمى صاعد . وغياب المؤسسات الفكرية وتهرؤها لا يمنع من وجود بعض التنظيمات والجماعات الفكرية المؤثرة فى حياتنا القومية . وغياب البعد التاريخى فى فكرنا القومى لايمنع من وعى البعض منا بالتاريخ ومحاولته استكشاف فى أية مرحلة من التاريخ نحن نعيش ؟

وقد يبدو من الصعب تحديد مخاطر فى فكرنا القومى دون التعرف على هذا الفكر ذاته وتحديد خصائصه . والحقيقة أن هذه هى احدى المخاطر الأولى وهى غياب معالم لفكرنا القومى يصعب تحديده من خلالها . وقد ينفيه البعض كلية لأن الفكر لا يكون قوميا ، فالفكر لا جنس له ولا دين . وقد يثبته البعض الآخر على نحو لا شعورى فتكون مهمتنا اذن تحليل النفس واخراج ما تحت الشعور الى الشعور . وقد يثبته فريق ثالث على نحو شعورى ، ويحكم بوجوده ، بل ويحدد سمات دائمة له تقترب احيانا من الصفات الدائمة حتى نقترب فى النهاية من الفكر العنصرى الذى يحدد لكل فكر قومى صفات ثابتة عبر التاريخ لا تتغير بتغير الظروف أو بتوالى الفترات التاريخية .

ولكن بصرف النظر عن حجج كل فريق فان فكرنا القومى هو ما يعبر عنه الكثير باسم الثقافة الوطنية عندما تتحدد بصورة بارزة . فالفكر القومى هو الذى يحدد معالم الثقافة الوطنية ، والثقافة الوطنية هى تحقق للفكر القومى فى مجالات التربية خاصة تربية الجماهير من خلال الكوادر السياسية أو أجهزة الاعلام أو مناهج التربية .

وفكرنا القومى هو ما يعبر عنه أحيانا أخرى باسم الشخصة الوطنية التى كثر عنها الحديث فى هذه الأيام[1] أو الشخصية القومية أو

---

(1) نخص بالذكر جمال حمدان ، لويس عوض ، حسين فوزى ، نعمات احمد فؤاد ، أنور عبد الملك ، وليم سليمان ، وكثيرون غيرهم .

الشخصية فحسب • ولكن الشخصية هى تحقيق الفكر بطريق محسوس قائم على حب الذات والرغبة فى الحصول على وجود ملموس فى مواجهة الضياع • الشخصية تحقيق مبدئى وسريع للفكر القومى ، واحساس مرحلى بالوجود فى مواجهة العدم • ولكن سرعان ما ينحل هذا التجمد ، ويتول الفكر القومى الى وجود من خلال نشاط الجماهير وعمليات التغير الاجتماعى ، فتحل الثورة محل الشخصية وتذوب الشخصية المتجمدة فى الثورة • فالحديث عن الشخصية حديث متسرع يود الانتماء السريع ، ويعوض الاحساس بالفقد حتى ولو ضحى بالحركة والنشاط • ويغيب عن الاذهان ، من أجل المحافظة على الذات ، كل ما تحتويه الشخصية من عنصرية وتشخصية وأنانية وتوسع فى المجال الحيوى وغياب مقياس للتوفيق بين الشخصيات القومية ، فليس احدهما بأولى بالبقاء من الآخر •

وعلى كل الأحوال ، فكرنا القومى شىء موجود ، من الصعب أن يغيب فى عصر الايديولوجيات والمذاهب الفكرية حتى ولو كنا ما زلنا نعانى من غياب أيديولوجية واضحة المعالم متسقة المضمون • ولكن يصعب التمييز بينه وبين التراث • فالتراث مخزون نفسى لدينا ، وهو الذى شكل فكرنا القومى وطبعه بطابعه لدرجة انه يمكن القول بأننى لا أفكر تراثى بل تراثى هو الذى يفكر لى وفى • فالتراث هو الذى أمد فكرنا القومى بقوالبه الأساسية ، وحدد علاقاته بالسلطة وبالواقع وبالمنهج وبالمؤسسات وبالتاريخ • فكرنا القومى ما هو الا ناتج عن التراث ، أو هو التراث فى تفاعله مع واقع جديد • الفكر القومى ما هو الا تعبير خارجى عن شىء دفين هو الموروث ، وهو السطح لعمق آخر هو التاريخ •

والتراث هنا لا يعنى الدين وحده ، بالرغم من ان الدين هو الطابع الغالب ، ولكنه يضم الشعبى أيضا ، فنحن نفكر من خلال الغزالى والأشعرى كما نسلك من خلال أبى زيد الهلالى وسيف بن ذى يزن ، ونطرب من ترتيل للقرآن ، وننتشى من سماع شهر زاد وعلى بابا وجحا •

نستشهد بالقرآن والحديث كما نلجأ الى سلطة الأمثال العامية والأقوال المأثورة • ونعتمد على تاريخ الصحابة والخلفاء كما نتأسى بالتجارب والأزمات التى تمر بها البلاد • فالتراث هو الدينى والعلمانى كما يبدو فى الموالد التى يختلط فيها الالهى والشعبى ، الدينى والدنيوى والتى نمارس فيها الصلاة والفجور !

وكان يمكن بطبيعة الحال تحليل خصائص فكرنا القومى للتعرف على مكامن الخطر فيه بتحليل الاعمال الفكرية والأدبية والاستشهاد بالنصوص ورصد الوقائع واعطاء البيانات والاحصائيات وتأييد هذه المخاطر بالارقام ولكن فى الحقيقة لا يمكن الانتقال من الوقائع الى الماهيات أو من الأشياء الى المعانى • هذه الاستحالة هى احدى حدود النزعة التاريخية • ولكن يمكن تحديد معالم فكرنا القومى بتحليل تجاربنا الفكرية ومحاولة التعرف على ماهيات مستقلة لها يدركها كل من يشارك فيها ومن ثم تتحول الى حقائق موضوعية • فالموضوعية هنا لا تعنى خروج الماهيات من الوقائع المادية بل عموم الماهيات وتطابقها فى التجارب المشتركة • وبالتالى ، فالمنهج الفينومينولوجى هو أقرب المناهج لتحقيق هذا الغرض • فهو الذى يساعد على تحليل التجارب الشعورية التى يعيشها مفكر عربى فى عصرنا الراهن محاولا ادراك ماهياتها المستقلة • ويكون مقياس صدقها هو مدى اشتراك المفكرين الآخرين فى هذه التجارب المعاشة وفى آلماهيات المدركة • يمكن الاختلاف فى درجة عيش التجربة بين الحدة والبرودة ولكن لا يمكن الاختلاف على وصف الماهية • والاختلاف فى تعليل الظاهرة ووجودها لا يضير الباحثين شيئا ، ولا يطعن فى وجود الظاهرة نفسها وذلك لأن المنهج الفينومينولوجى لا يعنى بسؤال النشأة Genetic question ولنه يضع سؤال الماهية • ولا يهمه التفسير Explanation بل يهمه الفهم Understanding فتعدد التعليلات لسبب وجود الظاهرة لا تمنع من وحدة ادراك الماهية المستقلة • ان معركة البناء التحتمى والبناء الفوقى وأيهما علة وايهما معلولا ما زالت خاضعة للتصور العلى بين الواقعة والدلالة • والحقيقة

ان الجدل بين البنائين انما يتم فى الشعور الذى له أبنيته الخاصة • فالذى يحدد الظاهرة والذى يفسر نشأتها ليس هو البناء التحتى أو البناء الفوقى بل هو البناء الشعورى الناتج عن تجربة معاشه • هو ليس بناء صوريا ، ولو انه يخضع لتحليل العقل الخالص ، بقدر ما هو اتجاه وباعث ومحرك وسلوك • فالفكر القومى ظاهرة اجتماعية متشابكة • اذ ينشأ الفكر القومى نتيجة لظروف تاريخية وحضارية واجتماعية ثم يؤثر فيها بدوره ويوجهها • علاقة الفكر بالواقع اذن علاقة متبادلة ، ينشأ الفكر من الواقع ثم يوجه الفكر الواقع ويحدد مساره • ويتم ذلك كله فى الشعور من خلال التجارب الحية التى يعيشها الفرد وتحياها الجماعة • وقد خلقت الثورات العربية المعاصرة هذه الظروف على مدى ربع قرن وطبعت فكرنا القومى بطابع معين ما زال حتى الآن يؤثر فى مسارها الى الأمام أو الى الخلف (٢) •

ان التعرف على فكرنا القومى وعلى مكامن الخطر فيه هى احدى جوانب التعرف على الذات قبل أى شروع فى عمل أو اعطاء أنفسنا مهمة تاريخية • والقدرة على الحكم على الذات هى فى نفس الوقت تعميق لها اذ انها تصبح ذاتا وموضوعا فى آن واحد • والاشارة الى هذه المخاطر ، والتنبيه عليها ليس ادانة لانفسنا بقدر ما هو كشف عن أبنيتنا الثقافية وتحليل نفسى لوجداننا الحضارى ، وتشريح لاذهاننا ، وعملية ممارسة للنقد الذاتى الذى لا تقوم نهضة بدونه • كما انها ليست محاكمة فكرية

---

(٢) وقد بدأ النقاش فى حياتنا المعاصرة حول « اليسار المصرى والتجربة الناصرية » بالقضية التى فجرها د . فؤاد زكريا عن تبرير اليسار المصرى لكل التجربة الناصرية دون أن يأخذ موقفا نقديا منها . وبالرغم من نفاذ الآراء ووضوحها وتعبيرها عما يجيش فى صدور قواعد اليسار العريضة فقد ضاع النقاش فى متاهة الاسماء والاشخاص فى حين ان موضوع « تبرير السلطة » موضوع مستقل لا شأن له بالاشخاص ، وان تشخيص الفكر علامة دالة على موضوع اعظم واخطر وهى سمات فكرنا القومى الذى يند عن كل مرحلة سياسية نمر بها والتى تعمل من خلال الافراد عن وعى بها أو دون وعى ، والتى اثرت فى ماضينا ومازالت تعمل فى حاضرنا والتى تخيم بشبحها على مستقبلنا . ان موضوع النقاش حالة خاصة لموضوع اعم هو سمات فكرنا القومى فى لحظتنا التاريخية الراهنة وفى احد جوانبه وهو علاقة الفكر بالسلطة فلا تتغير السمات بوفاة شخص وخلافة آخر بل تمتد خلال تجربة الثورة على مدى ربع قرن ولم تكن موجودة قبلها أو على الاقل لم تكن موجودة بهذا الشكل الفاضح .

لتجربتنا الثورية ، فتلك محاكمة الجيل الحاضر والأجيال القادمة لا محاكمة فرد لفرد آخر أو محاكمة فرد لجيل بأكمله .

خلاصة القول ، ان هذه التجارب الذاتية التى سأصفها هى تجارب جيل بأكمله تكشف عن روح العصر ، فالذاتية هنا تكشف عن الموضوعية من خلال اشتراك الآخرين وعيشهم لها . لا يختلف عليها قطر عربى عن قطر عربى آخر ، وان كانت السمة الغالبة على تجربتنا الثورية فى مصر . وغايتنا هنا مستقبلية صرفة ، وهدفنا هو احداث دوى فى شعورنا القومى ، وطرح مسائل ، واثارة اشكالات ، وتأسيس فكر ، ووضع قضايا ، وتنشيط أذهان حتى نفكر جميعا فى المخاطر التى تهدد فكرنا القومى سواء كانت تلك التى نعددها أو أخرى غيرها . قد يرى البعض ان لا مخاطر على الاطلاق فنطمئن جميعا ، ونبدد أوهامنا ، ونقضى على شكوكنا ونصل الى بر الأمان .

ويتحدد فكرنا القومى فى خمس علاقات :

أولا : علاقة الفكر بالسلطة لمعرفة مدى استقلالية الفكر .

ثانيا : علاقة الفكر بالواقع لمعرفة مادة الفكر ومضمونه .

ثالثا : علاقة الفكر بالمؤسسات لمعرفة مواطن الفكر وقواعده .

رابعا : علاقة الفكر بالمنهج لمعرفة صورة الفكر ومنهجيته .

خامسا : علاقة الفكر بالتاريخ لمعرفة مسار الفكر وحركته .

أولا : علاقة الفكر بالسلطة .

ان علاقة الفكر بالسلطة القائمة هى أهم العلاقات التى يدخل فيها الفكر نظرا لأن الفكر هو تحليل الواقع ، وان المفكر هو الشاهد عليه ، وبالتالى كانت السلطة القائمة التى تفتقر الى شرعية كافية تنظر الى

الفكر على انه خصيمها الأول ، وتجعل مهمتها الأولى القضاء على استقلال الفكر وشراء المثقفين . فالفكر هو المناهض للسلطة ، الدافع لحركات الواقع ، المحرك للتاريخ . وطالما صرخ الأباطرة : لقد هزم القلم السيف . ولكننا فى فكرنا القومى نلاحظ الآتى :

١ — **التبعية لا الريادة** : دون الذهاب الى الماضى البعيد ، وتبعية الشعب لفرعون وتأليهه للحكام واعتبارهم مصدر الالهام والخير ، ودون الرجوع الى الطبيعة وجعل الشعب هبة النيل ، يعيش عليه ، ويتبعه فى فيضانه وتحاريقه ، يكفينا سبرغور واقعنا الحالى وأساسه النفسى الاجتماعى فى اللحظة التاريخية الحاضرة ، فنجد ان الفكر تابع للسلطة وليس رائدا لها . فالسلطة تبدأ والفكر يتبع ، وان شئنا أن نكون أقل تجريدا قلنا الحاكم يبدأ والمفكرون يتبعون ، السلطان يأمر والعلماء يباركون ، الأمير يقرر والفقهاء يبررون ، الملك يصدر والقضاة يشرعون . واتهم كل فكر يبدأ ولا يتبع بأنه فكر خارجى ، تحومه الشبهات ، وتلصق عليه لافتات العمالة والخيانة أو الطفولة والتطرف ، والمجتمع أصيل شريف ، معتدل وناضج ! ولا يقتصر الأمر على مظاهر التبعية الخارجية من فرض الرقابة على الصحف وعلى سائر وسائل الاعلام ، وضعا أو رفعا ولكن تعدى الأمر الى شعورنا القومى حتى فقد القدرة على كسر النطاق ، وأخذ زمام المبادرة ، وتحليل الواقع بصرف النظر عن موجهات السلطة . وقد ساعد الفقر على ذلك ، واحتار المفكر بين الحق والرغيف فآثر الرغيف وتغاضى عن الحق ، فالناس يعيشون أولا ويفكرون ثانيا الا الأنبياء والقديسين والشهداء ، وليس كل الناس كذلك . فاذا ما تحول هذا الرغيف الى أرغفة متنوعة المذاق وصحبه الشواء والمكان المرموق ومركز الصدارة يتوارى الحق كلية فيتحول الفكر الى تجارة ويصبح الكلام كما يقول أحد شعرائنا المعاصرين « عهر المفردات » ثم يفرض الشعور القومى على نفسه رقابة داخلية حتى فيما هو خارج عن وسائل الاعلام ، فى الجامعات والجمعيات العلمية والندوات الثقافية وأصبح شعورنا فى حاجة الى رائد كمشجب يعلق نفسه عليه ، ونشأ

بيننا وظيفة « الموظف الأيديولوجى » أو « مفكر السلطة » أو « داعية النظام » وهو المفكر الرسمى للنظام ، والمبشر بفلسفته ، والمبرر لاخطائه مثل « المبلغ » فى المسجد الذى يتبع الأمام بصوته حتى يسمعه باقى المصلين فيتبعون ! وشيئا فشيئا يتم تأليه الحكام ويصبح الحاكم هو المعلم والقائد ، والزعيم الخالد ، الوحيد الملهم كما كان الحال فى تراثنا القديم عندما اعطى فلاسفتنا هذه السمات لرئيس المدينة الفاضلة ، الرئيس الملهم ، المعصوم من الخطأ ، والذى يأمر فيطاع ! أصبح هناك فتق بين الفكر ومضمونه ، بين العبارة والحقيقة حتى لم تعد هنـاك حقيقة • فالحقيقة ما تقرره السلطة ، والفكر هو صياغة لها • فاذا تغيرت السلطة تغيرت الحيقة وتغيرت الصيغ والأحكام • ولما كان المفكرون يعيشون ويتعيشون فقد تكاثر عارضو الخدمات ، واشتد الزحام ، فترفعت السلطة ، وأصبح اختيارها لاحدهم منة عليه وشرفا له يحسده عليـه الآخرون ، واصطف الباقى فى قوائم الانتظار • وتتوالى الأنظمة ، ويتوارى الحكام ، وكل منهم يلغى من قبله ، وتبدأ من جديد حتى ضاعت مع الاتصال فى حياتنا القومية ، وأصبح كل يوم لدينا ثورة ، وفى كل شهر لنا عيد ، وفى كل فترة لنا صحوة ، وكنا قبلها غفلا نياما • ولكن الشىء الدائم هو التبعية للسلطة كسلوك دائم • وحتى ولو أيد مفكر قرارات السلطة عن صواب وبصدق فان الجماهير لن تصدقه نظرا لتعودها على تبعية المفكرين ، كما لو كذب الغريق مرات على الجماهير ثم غرق مرة بحق فانه لن يصدقه أحد • ولو نقد مفكر السلطة عن باطل وبادعاء فقد تصدقه الجماهير لانها قد رأت فيه بطلا رائدا •

ولما كانت طبائع الاشياء هى الغالبة فانه لا بد وان يحدث صراع بين الفكر والسلطة حتى ولو من مفكر واحد أو من أقلية لا تعدم الطبيعة وجودها مثله : رجل مؤمن من آل فرعون ، أهل الكهف ، نوح وابراهيم وموسى وعيسى وممحد • ولكن فى حياتنا المعاصرة اذا اختلف الرأى مع السلطة ضاع الرأى وثبتت السلطة حتى ولو كان صاحب الرأى ذخيرة وطنية يشهد له بالمهارة الفنية وببراعة التحليل • ولكن اذا خرج الفكر مرة عن التبعية للسلطة فجزاؤه السيف •

فاذا ما بدأ الفكر مناهضا بقوة وعنف كرد فعل على التبعية السائدة عاملته السلطة بقوة وعنف السلطة . وطالما قاومت السلطة الرأى بالسيف فانها لن تنجح فى القضاء عليه بل ربما تكون عاملا على تقويته ونشره وتبنى أجيال جديدة له بلا تنظيم علنى أو سرى لأنه فكرة والفكرة تبقى . فى حين ان معارضة الرأى بالرأى والحوار الفكرى هو السبيل الوحيد للتعامل مع الافكار من أجل اماتتها أو احيائها . وتكون نهاية الفكر وحرية الرأى اذا ما أخذت السلطة جانبا من المنازعات الفكرية الدائرة ، وانتصرت لفريق ضد فريق ، وأيدت رأيا ضد الرأى الآخر ، وبلغة السياسة تكون الدولة خاضعة للحزب . فالقوة الوحيدة هى قوة الرأى لذلك تخشاه السلطة . وقد تكون قوة السلطة تعويضا نفسيا عن الضعف لانها ليست قائمة على الرأى وتسترا على عدم الشرعية . وقد قيل فى تاريخنا القومى المعاصر وأصبح شعارا لاحدى ثوراتنا السياسية « الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحكومة » .

هذه العلاقة الشاذة بين الفكر والسلطة جعلت فكرنا القومى يأخذ أيضا طريقين متعارضين ، كلاهما أيضا يخالف طبائع الأمور . الأول ، طريق العمل السرى وصحافة تحت الأرض والمنشورات والهمسات والاشاعات أو القصص الرمزى الذى لا يؤثر الا فى حلقات ضيقة من المثقفين المشاركين فى نفس هموم الكاتب وبالتالى لا يخرج الفكر المناهض عن هذه الدوائر المنعزلة فى حياتنا الثقافية عن بعض الشعراء وفى حياتنا السياسية عند بعض الجماعات[٣] . والثانى ، تفجر الموقف فجأة فى ثورات الشباب أو الانتفاضات الشعبية أو محاولات الانقلاب المدنية أو العسكرية فيخرج المكتوم فجأة وعنوة ، فتتوجه السلطة لها باسم القانون فى صورة استفتاءات جديدة ، وسلطات استثنائية ومحاكم شعبية حتى تقضى عليها أو تنفذ من خلالها بالقسمة والتفرقة فتمتص البعض ، وتغرى البعض الآخر ، وتهدد فريقا ، ويهرب فريق آخر أو تفسير هذه الحركات كلها على انها من فعل خارجى ، ومن نسيج

---

(٣) مثلا ديوان شعر « احب ان اقول لا » وجبهة الرفض من المقاومة الفلسطينية .

مؤامرة دولية ، ومن تدبير الصهيونية العالمية ، ومن مؤامرات القوى الاستعمارية ، وتلجأ الى كل العلل الخارجية الممكنة دون العلة الداخلية ، وتستدعى العلل البعيدة دون الاقتراب من العلل المباشرة .

٢ — **التبرير لا النقد**: فاذا ما حدث فكر ، وعبر المفكرون عنه فانه يكون تبريرا لا نقدا ، ومباركة للخطوات التى تمت لا اشارة الى خطوات لم تتم ، وتأييدا لما هو موجود وليس مطالبة بما هو غير موجود حتى أصبح فكرنا القومى تزينيا وتجميلا لفكر السلطة فى حين ان ممهة الفكر هو النقد لا التبرير ، والتوجيه لا التنفيذ ، وبيان أوجه النقص وليس مباركة صفات الكمال . فاذا ما تحققت الأشياء انصافا دعا الفكر الى تحقيق الانصاف الأخرى اذ ان الاعلان عما تحقق تكرار وتحصيل حاصل . فالواقع شاهد على نفسه ، وليست مهمة الفكر ان يصدر حكما عليه . واذا تحققت صورة دعا الفكر الى تحقيق المضمون ، واذا ما نودى بالشعارات طالب الفكر بقياسها على الواقع وبتحققها فيه . فى التبرير تغيب الحقيقة وتصبح تابعة لهوى السلطة ولقدرات المفكر الذى يحشد أكبر قدر ممكن منها ، ويستعمل أحدث النظريات ، وآخر الصيحات ، وأدق الألاعيب فى التبرير حتى يلبس الباطل ثوب الحق ويلوك الحق فيبدو باطلا .

ينتظر فكرنا القومى قرار السلطة ثم يبدأ فى الافاضة والشرح وبيان أوجه الحكمة ، وصواب النظر ، ونفاذ البصيرة ولكن لا يبدأ فكرنا القومى بوضع مشكلة لم تتخذ السلطة فيها قرارا بعد . أصبحت عواميد الرأى المستقل فى صحافتنا تبريرا بعديا لقرار السلطة فاذا ما امتنعت السلطة عن مد فترة قوات الطوارىء الدولية تابعها فكرنا القومى دون أن يسأل أحد من قبل عما سيكون مصير هذه القوات أو عن المطالبة بعدم تجديد مدتها ما لم يتم احراز السلام . واذا عادت السلطة فمدت فترة قوات الطوارىء ظهر فكرنا القومى مبينا الحكمة وراء التجديد حتى سئم القراء لصحافتنا اليومية من قراءة عواميد الآراء الحرة . واذا كان قرار السلطة فى ان تحرير الأرض لا يتم الا بالتعاون مع الأنظمة فى العالم فان فكرنا

القومى المعلن يمعن فى تبرير القرار . فاذا ما عدلت السلطة موقفها ورأت ان ٩٩ ٪ من أوراق اللعبة فى يد أمريكا خرجت صحافتنا لتبرير حكمة الموقف الشجاع والاعلان الجرىء .

وقد يبلغ التبرير درجة يصل فيها الى حد المزايدة على السلطة ويصبح المزايدون ملكيين أكثر من الملك . فاذا دعت السلطة الى اطلاق الحريات — عن ايمان أو كشعار — استثنى المبررون من الحريات فئات تغضب السلطة بنقدها ، وطالبوا بمنعها من الحريات لانها تثير قلق السلطة ، والسلطة راضية . واذا دعت السلطة الى الغاء المعتقلات — المفضوح منها والمستور — طالب المبررون ببقائها للفئات الضالة ! واذا تواضعت السلطة ، وآثرت عدم البقاء — عن اقتناع أو عن نفاق — حتى لا تحدث وصاية أبدية من فئة ثورية على الشعب ، طالب المزايدون باستمرار السلطة مدى الحياة لاوين اعناق النصوص الدينية التى تشير صراحة الى الشورى والى البيعة . وماذا لو حدث ان أخطأت السلطة أو أصيب السلطان بالجنون ؟ واذا طالبت السلطة البيعة من الشعب طبقا للحق الطبيعى نادى المزايدون بالتعيين طبقا لنظرية الحق الالهى . قد تسىء هذه المزايدات الى السلطة ولكن السلطة لا تنبذها بجدية بل تستفيد منها وبرفضها التام لها حتى تزداد شعبية ورسوخا . واذا طالبت السلطة بالرقابة الشعبية فوض المزايدون للسلطة حق الشعب ، والسلطة راضية بهذه الثقة المطلوبة التى يوليها اياها الشعب . لذلك أصيب فكرنا القومى باللون الواحد ، والخط الواحد ، وهو الخط الرسمى للسلطة فى حين ان تراثنا الدينى قد قام على اختلاف الآراء وتعدد وجهات النظر لأن « اختلاف الأئمة رحمة بينهم » .

ويقوم بالتبرير اليمين واليسار الحكومى على السواء . يكون اليمين متسقا مع نفسه اذا قام بالتبرير ، فهو أساسا نظرية فى تبرير الواقع والدفاع عن الوضع القائم . واذا قام بالنداء والتوجيه فلمزيد من التثبيت والارساء لما هو قائم . اليمين بطبعه تابع للسلطة ومبرر لقراراتها لأنه السلطة تتحدث عن نفسها . أما اليسار وهو الرقيب على السلطة

والناقد للأوضاع ، والموجه للواقع اذا برر فانه يتخلى عن وضعه كيسار ويلحق باليمين ، ولا تبقى الا صــورة اليسار واليمين فى العبــارات والشعارات وعناوين الصحف والمجلات والتمثيل فى المؤتمرات وارسال الوفود والبعثات . اليسار الى الشرق ، واليمين الى الغرب ، وتقليد ممثليه المناصب الوزارية ومراكز الصدارة الاجتماعية بنسب معقولة طبقا للسياسة الخارجية ومناورات اللعبة الدولية .

والحقيقة ان التبرير نقص فى الشجاعة الأدبية وليس نقصــا فى الذكاء . ولكن اذا ما توافرت الشجاعة الأدبية لدى بعض الأفراد فان تلقائية الفطرة ، وحماس الشباب ، والغيرة على الواقع ، والأمــل فى المستقبل ، كل ذلك يدفع بهؤلاء الى التخلص من هذه السمة العامة الغالبة فى فكرنا القومى وهو التبرير . لذلك تحاول السلطة استيعاب الشباب بالمنظمات والاندية والمصالح والوزارات والأمانات العامة أو احتواء الاتحادات الطلابية وتقييد حركتها أو اتهام من تبقى بالعمالة الأجنبيــة وحياكة المؤامرات الدولية . ولكن يظل الشباب هو السلاح الوحيــد للقضاء على سمة التبرير . ولو رغب الشيوخ فى المشاركة فان نفسهم يكون قصيرا ، ولا ينظرون الا حسن العاقبة والختام .

٣ ـــ **الازدواجية لا الصراحة** : نظرا لتبعية المفكر للسلطة وتبريره لقراراتها وفى نفس الوقت وجود الفطرة والبراءة الأصلية التى لا تزال تبقى فى موات الفكر جزءا من حياة ، يعيش فكرنا القومى حياة مزدوجة . فهو أحيانا الفكر الرسمى المعلن عنه ، المنشور والمقروء والمسموع الذى توزع طبقا له المناصب والقيادات ، ثم هناك الفكر الآخر ، وهو ما يكنه الانسان فى قرارة نفسه والذى لا يحدث به الا نفسه أو الى اصدقائه الخلص فى الدائرة المغلقة أو يعبر عنه بالنكتة الشعبية أو بالقصص الرمزى أو على حوائط دورات المياه ! وبكثرة التكرار قد يؤمن البعض قارئا او سامعا بالفكر الرسمى قاضيا على فطرته غصبا ، فالمســألة حياة او موت بالنسبة للطفيليات . وقد انعكس ذلك كله فى ســلوكنا اليومى الذى اخذ طابع المجاملات والتى تبلغ احيانا حد التملق واحيانا

اخرى حد المداهنة والكذب الرخيص . ولطالما تساءلت السلطة عن سبب الضحالة في الفكر والادب وركود الثقافة ونحول الحياة السياسية وسلبية الجماهير وعزوفهم عن المشاركة فى الحياة الوطنية . والاجابة على ذلك واضحة وهى ان عنصر الصدق فى الفكر والأدب مفقود ولأن الجماهير تعلم ان ما يعرض عليها او يقدم لها لا يطابق الحق الذى تعلمه ومن ثم يفقد القدرة على التعبير عنها .

وقد رسخت الازدواجية فى فكرنا القومى بسهولة بعد ان هيئت لها الظروف السياسية وذلك لأن تصورنا للعالم ثنائى اذ اننا نقسم العالم الى سماء وارض ، اعلى وادنى . روح ومادة ، صورة وهيولى . ثم تمتد هذه الثنائية الطبيعية الى ثنائية اخروية فنتحدث عن الآخرة والدنيا ، الملاك والشيطان ، الجنة والنار . كما تتحول ايضا الى ثنائية اخلاقية فنتحدث عن الحلال والحرام ، الخير والشر ، الحسن والقبيح ، الفضيلة والرذيلة . كما تتحول ايضا الى ثنائية اجتماعية فنتحدث عن الرجل والمرأة ، الرئيس والمرؤوس ، الحاكم والمحكوم . ولكل طرف من هذه الثنائيات لغة ولكننا نعيش مستوى ونتحدث عن مستوى آخر ، فنعيش الشر ونستعمل لغة الخير ، ونعيش الحرام ونستعمل لغة الحلال ، ويتنصب الحاكم ثم يستعمل لغة المحكومين[٤] . كما يقوى بذلك فينا نزعاتنا الباطنية واتجاهاتنا الصوفية التى تدرك الحقيقة على مستويات ، وترى ان لكل شىء ظاهرا وباطنا حتى عرفنا بالتأويل والتخريج . ولكن يظل الكامن والمستور هو موطن الحقيقة وليس المعلن العلنى .

والازدواجية هم على القلب وحياة الجحيم اذ لا يعيش الانسان المزدوج حياته بل يحيا حياة الاخرين ، ويفقد وجودة الخاص من أجل الزيف العام ، وتكون هى النهاية عندما تتم المواطأة ، وتختفى الفطرة . لذلك جاء الانبياء كلهم نقدا لحياة النفاق ضد من يريدون جعل الدين حجابا او سواك ، آذانا او شعائر . وكثير من الموسات لفاضلات .

---

(٤) انظر مقالنا : التفكير الدينى وازدواجية الشخصية . قضايا معاصرة ص ١١١ ــ١٢٧ .

ولكن اذا تحدث الانسان عن فطرة ، ورفض الاقنعة الزائفة فان حديثه يسرى سريان النار فى الهشيم ، ويكون حادثة العصر • بل وقد ينهض الشعب فجأة ويهب على غفلة من الحكام ، ثائرا على حياته الوطنية المزيفة ويكشف عن المستور ، ويخـرج الكامن ، ويرفض القشور ، ويسقط الشعارات الجوفاء • والتاريخ لا يخلو من هذه اللحظات ، والمجتمع لا يخلو من هؤلاء الافراد • فلحظات الصدق التاريخى او الفردى هى مواطن الحركة والتغير •

واذا كان للتوحيد معنى لعصر سادته الازدواجية ولفكر قومى طبيعته الثنائية فان هذا المعنى هو فى اعادة الوحدة الى شخصيتنا الوطنية ، فكرا او سلوكا ، فالتوحيد اسم فعل يدل على حركة وجهد وليس اسما ثابتا يدل على شىء ساكن مثل « واحد » وبالتالى فان مهمة الفرد هى عملية التوحيد بين الفكر والقول ، وبين القول والعمل ، وبين الفكر والوجدان وبالتـالى نقضى على الانفصام فى شخصيتنا الوطنية • والتوحيد فى المجتمع يعنى تأسيس مجتمع بلا طبقات وبلا تمايز بين الافراد ، وهى الامة الواحدة التى يتفاضل فيها الأفراد طبقا للعمل وليس تمايزا بين الافراد ، وهى الامة الواحدة التى يتفاضل فيها الأفراد طبقا للعمل وليس طبقا للجنس او الطبقة او النسب او الدين • التوحيد والازدواجية اذن نقيضان ، ولايمكن ان يكون الانسان موحدا ومزدوجا فى آن واحد •

ثانيا : علاقة الفكر بالواقع •

وكما أن الفكر فى مواجهة السلطة القائمة فانه ايضا فى مواجهة الواقع الذى ينشأ الفكر منه ، كما ينشأ من العقل ايضا ، والذى يتقبل توجيه الفكر فيما بعد • فلا يوجد فـكر طائر حتى عند اعتى دعاة المثالية الذين يعترفون بالواقع اولا ثم يحكمون عليه بانه فكر ثانيا • فالفكر والواقع طرفان لشىء واحد ، هو الواقع أو الوجود أو الحقيقة انما الاختلاف فى نسبة كل طرف الى الطرف الآخر او فى رتبة الشرف او الاولوية التى نعطيها لاى منهما •

وفى علاقة الفكر بالواقع يتسم فكرنا القومى بالآتى :

١ ــ **الانشــاء لا الاخبــار** : وكثيرا ما يعم الانشــاء فكرنا القــومى • والانشــاء اســاســا هــو التعبير عن انفعــال نفسى بعديــد من العبــارات يتوالى بعضهــا وراء البعض دون ان يضيف احــداها الى الأخرى جــديــدا • وهــذا الانفعــال قــد يكون اوليا كتعبير عن انتصار او هزيمة وقد يكون رد فعل ، وفى هذه الحالة يكون تعويضا عن واقع ، وصورة ذاتية له • الانشــاء ليس صياغة لفكرة قائمة على تحليل الواقع بل هو نقص فى رؤية الواقع ، وتقوقع على الذات ، واكمال بالعاطفة لنقص فى العقل ، وتعويض بالذاتية عن الموضوعية • الانشاء هو وسيلة للتعبير عن الايمان بالتمنى او ما يسمى بالفكر المرغوب فيه Wishful Thought عندما ينحسر اتحــاد المفكر بالواقع ويود ان يهرب منه او يرغب فى أداء وظيفة الفكر الرســمية وينتهى الامر او لنقص فى العمق او لخوف او لطلب شهرة او لتسابق على الدفاع عن السلطة • عندما ينحسر الفكر عن الواقع تعبر الرغبات عن نفسها ، وتنفصل الذاتية عن الموضوعية ، وتصبح ذاتية صورية خالصة ولو انها فى ظاهرها انفعال ومضمون • وهو فى الحقيقة مضمون فارغ وصورية جوفاء ، الانشاء نرجسية خالصة لايرى الانسان فيه الا ذاته فى مرآة نفسه وهــو يظن انه يصف الواقع الخــارجى • الانشاء خطأ فى الرؤية ، فلا هى رؤية حسية خارجية ، ولا هى رؤية باطنية حدسية بل مجرد تعبير اهوج عن فرح او ضيق لم يصل بعد الى مستوى الفن • الانشاء لايتجاوز حدود الصراخ والعويل • الانشاء هو الذى يؤدى الى الضحالة الفكرية والى السطحية فهو ليس ادبا ولا فكرا • وقد عبر عن هذا الانشاء باسم المراهقة الفكرية او التخلف الثقافى او السجع الفكرى او الانفعال فى الفكر القومى كما عبر عنه القدماء باسم التفكير الخطابى فى مقابل الفكر البرهانى • وكما وصفه احد شعرائنا المعاصرين هى « العنتريات التى ما قتلت ذبابة » •

وكانت النتيجة انحســار الفكر عن الواقع وفقد قــدرته على

التوجيه . واصبحت وظيفة الفكر هو التفريج عن الهموم ، وتطهير النفس من الأزمات ، فحلت النفس المهمومـــة محل الواقع ، وعمت الفرحة بعد الخطبة العصماء والواقع لـــم يتغير . لذلك زادت اهمية الدعاية ، وظهرت الحاجة الى الاعتماد على اجهـــزة الاعلام لتوجيه النفوس والتخفيف عنها بدلا من توجيه الواقع وحل ازماته . ومن هنا ايضا أتت اهمية الشعارات التى كانت تطلق البيانات التى كانت تصدر والمواثيق التى كانت تصاغ من أجل تخفيف الآلام عن الناس .

وقد قيل : ان سبب ذلك هو أن اللغة العربية بطبيعتها لغة شعرية طبعت الفكر والثقافة بطابعها وان الفكر العربى بطبيعة تكوينه صاحب موقف جمالى شعرى من العالم ، يعيش فى العالم شـــاعرا لا عاقلا او عالما . وأن الانسان العربى وريث الانسان السامى القديم يؤمن بالصورة الفنية ويدرك بالحدس ويتصور بالخيال ، فهو يعيش فى عالم ذاتى خالص ينشد وهو يظن انه يفكر ، ويغنى وهو يظن انه يحلل ، وينفعل وهـــو يظن انه يخطط[٥] . والحقيقـــة ان هـــذا حـــكم جائر يتحدث عن طبيعة ثابتة للغة العربية وللعقل العربى . وهو حكم تعارضه قرائن كثيرة . فاللغة العربية تعرف الحقيقة والمجاز ، الظاهر والمؤول ، المحكم والمتشابه ، المجمل والمبين . كما تحتوى كل اللغات على البيان والبديع والبلاغة . وقد استطاعت حضارتنا الابداع الشعرى والعلمى والمنطقى فى آن واحد . ولم يمنع الشعر العربى من تأسيس العلم العربى ، والمنطق الاســـلامى . كما استطاعت لغة العرب التعبير عن تحليل الواقع وحصر علله وسيرها وتقسيمها وتأسيس مناهج الاستدلال وطرق الاستقراء . ولكن الانشاء يرجع فى الحقيقة الى ظروف راهنة وليس الى طبيعة دائمة ، وترجع هذه الظروف بدورها الى الاوضاع السياسة والى المرحلة التاريخية التى تمر بها مجتمعاتنا الحالية .

٢ ــ التكرار لا الابداع : ونظرا لتبعيـــة الفكر للســـــلطة ، والســـلطة واحـــدة ، والتبرير قـــــائم فقـــد نشأت ظاهرة التكرار

(٥) زكى نجيب محمود : تجديد العقل العربى ص ٢٥٧ ــ ٢٨٧ .

فى فكرنا القومى فيما نقول ونكتب وفيما نقرأ ونسمع حتى ملت الجماهير ، وفقدت اجهزة الاعلام دورها فى الايصال والتوعية . لم تعد العبارة توحى بشىء بل تكرر ما قبلها مرة نفيا ومرة اثباتا ، ولم يعد المفكر يكتب بشخصه بل يتابع من قبله . فالصحف تكرر نفس الشىء ، وينتقل رئيس تحرير صحيفة الى صحيفة اخرى دون ان يحدث تغيير فى الصحف فى حين ان الصحيفة هى الحاملة للرأى ، ورئيس تحريرها هو المدافع عن تيارها حتى لقد خرجت النكات الشعبية تسخر من ان الصحيفة واحدة واسماؤها مختلفة . والتكرار هو امتداد للفكر فى خط واحد ، وعيشة على ذاته ، وقضاء على الخلق والابداع الذى هو جوهر الفكر . التكرار هو تغيير الصور والمضمون واحد ، وتقليب العبارات والفكرة واحدة . وقد بدأت هذه السمة فى فكرنا القومى منذ سيادة الاشعرية وقضائها على كل التيارات المعارضة ثم عصر الشروح والملخصات التى تتكرر فيها المادة ولا تتغير الا فى مادتها بالاضافة او الحذف . وربما يكون هذا هو السبب فى ان حركاتنا الاصلاحية الحديثة لم تذهب الى ابعد مما ذهبت اليه لانها مازالت تكرر أحدها الآخر ولم يطور أحدها الآخر ، ولم تخرج على نطاق القديم . التكرار يذهب مضمون الفكر ، ويفقد الفكر قدرته على التعبير لأنه لايوجد ما يعبر عنه . وقد يبدو التكرار فى تحصيل الحاصل عندما حاول فكرنا القومى ان يقول شيئا عن طريق خطوة الى الامام وخطوة الى الخلف فى عبارات يثبت نصفها الاول ما ينفيه نصفها الثانى مثل : « نحن لم ننتصر ولكننا لم ننهزم » أو « لقد انهزمنا ، ولكن ارادتنا لم تنهزم » أو كما قال القدماء فى الالهيات عين لا كالأعين ، ويد لا كالايادى ، وعرش لا كالعروش .. الخ .

فاذا ما كسر احد هذه الرتابة ، وخرج على طريقة التكرار اتهم بالكفر والمروق والعصيان ، وبالعمالة الفكرية او الشذوذ او المرض النفسى . فبكثرة التكرار يألف الناس ما يتكرر ، وتغيب البدائل الاخرى ، فتعم النمطية الباهتة . ولكن الطبيعة تحتوى فى ذاتها على كل عناصر

الجدة والابداع ، لذلك كان فننا الاسلامى القديم الذى يطلق عليه اسم « الارابيسك » Arabesque هو فن التكرار بالاصالة ، تكرار الاشكال الهندسية الى ما لا نهاية • لقد ضحينا بالابداع والخلق غير المنظور فى سبيل الشكل ، وضحينا باللحن فى سبيل الايقاع • وقد امتد التكرار من سمة فى فكرنا القومى الى سلوك عام لنا فى الحياة • فمناهج تعليمنا تخرج شخصيات متكررة باهتة وتقضى على الفردية • ونظمنا السياسة وحياتنا الاسرية وقيمنا السائدة كلها تخضع لنفس الرقابة فى الشكل مهما خرجت الجماعات المعارضة وجبهات الرفض ، ومهما اندلعت ثورات الشباب ، ومهما كثر الخروج على العرف • فالتكرار فى فكرنا القومى يوحى بأننا مازلنا مجتمعا لم يخرج من مرحلة التقليد الى مرحلة الابداع ، ومن مرحلة التسليم الى مرحلة الرفض •

٣ ــ **التجميع لا التحليل** : فاذا اراد المفكر ان يقول شيئ اكثر وسامة من التبرير والانشاء والتكرار دون ان يخاطر بنفسه بتغيير علاقته بالسلطة من التبعية الى الريادة وبتغيير علاقته مع الواقع من التكرار الى قول شىء فان هذا الشىء يأتى من تجميع الاخبار ، ونقل المذاهب ، وتغطية الواقع بكم غفير من المعلومات ، اطباقا فوق اطباق ، دون تحليل هذا الواقع احصائيا او حتى رؤيته حدسيا لمعرفة مكوناته • فتجميع المعلومات اسلم للمفكر لانه يعرض مذهبا بناه غيره فى حين ان تحليل الواقع المباشر يلزم المفكر ويجعله هو المسؤول اولا وآخرا عن تحليله وكشفه • وفى نفس الوقت يكسب المفكر شهرة حضارية بانه اول من تحدث فى الوجودية او أول من كتب فى البنائية او اول من نقل الوضعية او اول من عرض المثالية • ثم يقبل الشباب على هذا العلم المجمع ، ويتشدق بالاسماء للمذاهب والاعلام ، ويظهر ذلك فى كمية المنشور والمعروض فى الرسائل الجامعية وفى الكتب المؤلفة • لذلك كثر الكم وقل الكيف ، وزاد المنشور ونقص المفهوم ، واتسعت مساحة الكلمات وضاقت رقعة المعانى • تتضخم المكتبات وتتألف الكتب من المراجع بدعوى تجميع المادة وكأن مجرد

جمع المادة يعنى ان تحليل الواقع قد تم • ثم يصرخ البعض : ارونى كتابا واحدا خرج هذا العام فيه فكر اصيل او قال شيئا ! ويجيب المسؤول : مطابعنا مشغولة حتى نهاية العام ولأعوام تالية ! وتكثر الاقوال : قيل وقال او كما قال ، ولا يجعلنا هذا أقرب الى الواقع قيد انملة • ويكتب ابن العشرين مقالا حاشدا فيه اسماء الاعلام والمذاهب والتواريخ فنتساءل : متى قرأ ؟ ومتى فهم ؟ ومتى استوعب ؟ ومتى تمثل ؟ ومتى عبر ؟

ذاع الخبر ، وانعدم الرأى وزاد التجميع ، وقال التحليل ، وغزا فكرنا القومى اسلوب دوائر المعارف قديما وكان العلم بالشىء هو جمع اكبر قدر ممكن من المعلومات عنه كما حدث ذلك فى التفاسير القديمة وفى كتب التاريخ التى يسود نصفها الوقائع والتواريخ للأحياء والاموات • فلا غرابة ان تكون الرواية منهجا للتاريخ ، فالرواية مصدر للمعلومات • ولا غرابة ايضا ان يتم التجميع دون أشارة للمصادر فالغاية هو جمع اكبر قدر ممكن من الاخبار حول موضوع ما • فاذا تم ذلك حدث العلم ! لم نفترق اذن عن ماضينا كثيرا عندما بدأت حركات التجميع بعد ان نضب الفكر وقفر عن الخلق كما كان فى القرون الاولى ، فظهرت دوائر المعارف وموسوعات التاريخ الكبرى ، ولكننا الآن بعد نهضتنا الثانية ، بدأنا عصر الترجمة الثانى عن الغرب هذه المرة وليس عن اليونان ، وبدأنا حركات الاصلاح ولكننا مازلنا نقوم بالتجميع والعرض والنقل ، وما زال دورنا هو دور النقلة والرواة عن الآخرين من اليونان الى الغرب مرة ، ومن الغرب الينا مرة اخرى • ولم يتعب الحملة بعد من حمل بضاعة غيره !

ان العلم ليس هو المعلومات ، والمعرفة ليست هى المعارف • بل العلم هو كشف للمجهول او تصور للواقع • وقد يأتى بأقل قدر ممكن من المعلومات بل قد لا يحدث الا بعد الشك فى الموروث ، ورفض النظريات المسبقة حتى يتحرر الذهن ، ويبدأ فى ممارسة عمله فى البحث والتنقيب • فلم ينشأ علم الا بعد رفض سلطة القدماء ، ولم تتحرر

عقول الا بعد رفض منهج الرواية وبدأ نهج البحث الحر والتنقيب المباشر • فماذا يغنينا اذا كنا كالحمار يحمل اسفارا !

ثالثا : علاقة الفكر بالمنهج •

اذا كانت علاقة الفكر بالسلطة وعلاقته بالواقع علاقة خارجية ، مرة مع الاعلى ، وهى السلطة ، ومرة اخرى مع الادنى ، وهو الواقع فان علاقة الفكر بالمنهج علاقة داخلية صرفة يتحدد فيها توالد الفكر ونشأته ومساره واتساقه • فالمنهج هــو الذى يعطى الفكر طابعه ، وفكر بلا منهج لا تتحدد معالمه • وازمة الفكر القومى هى فى حقيقتها ازمة منهج ، ومخاطره انما هى نتيجة لخلل فى المنهج • واهم المخاطر فى علاقة الفكر بالمنهج هى :

١ ــ **الغيبيات لا الوقائع :** يتعامل فكرنا القومى مع غيبيات يظنها وقائع ، وهى فى الحقيقة اوهام او تخيــلات • وبالتالى يصبح فكرنا القومى ضحية خداع فى الادراك ، فيتوجه نحو ظلال الاشــياء بدل ان يتوجه نحو الاشــياء ذاتها • ولا يعنى الفكر الغيبى الفكر الدينى او الاخرويات او العقائد او اللامرئيات بل يعنى كل اعتقــاد مبنى على حكم مسبق دون ان يثبته البرهان او تفسير الوقائع بعلل مجهولة او بعلل بعيدة وليس بالعلل القريبة المحسوسة التى يمكن قياسها او التعرف عليها مثل رد الانتصار او الهزيمة الى تدخل قوى غيبية مجهولة مشخصة هى قوى الخير او الشر ، ورد ما يحدث من بواطن الشعور الى وسوسات الشيطان او هتاف الملائكة • وتذخر امثلتنا الشعبية بذلك يستعملهــا القادة والشعوب على السواء • فنقول فى تبرير الهزيمة « لا يغنى حذر من قدر » • ويمدنا تراثنا الاشعرى القديم بمثل ذلك ، فالله هو الذى يحدد الآجال والارزاق والاسعار • والاخطر من ذلك ان الامر لم يقتصر على كونه سمة فى فكرنا بل اصبح سلوكا يوميا ، فتظهر العذراء فى الزيتون ينتظرها الآف المؤمنين كل منهم يراها « حسب ايمانه » ، كما تظهر جنية المعادى تأمر بالقتل ، ويكون الابرياء ضحية •

وتنشأ الغيبيات من نقص فى التعقل ، وعدم معرفة كاملة بقوانين

الطبيعة ومجريات الامور . فكلما تقدم الشعب فى المعرفة وفى العلم ضاعت الغيبيات من فكره . كما تنشأ من تعويض نفسى لما ضاع عن الانسان ويود انتظاره او للحصول عليه فى المستقبل بعد ان ضاع منه فى الماضى وفى الحاضر فتتشخص الحاجة وتصبح غيبا . اصبح الغيب هو الموجه لحياتنا والمسير لها ، وهو غيب بالنسبة لنا ولكننا ليس غيبا بالنسبة له . فنحن لا نعلمه وهو يعلمنا ، وكل حركاتنا وسكناتنا مرصودة علينا . وتفسر السلطة النصوص الدينية مثل « فانه يعلم السر واخفى » (٢٠ : ٧) و « يعلم سركم وجهركم » (٦ : ٣) وغيرها التى تثبت العلم الالهى المحيط لصالحها الخاص . ويصبح هذا التفسير أساس الحكم بالاجهزة السرية الخفية التى رمزت لها تلك اللوحة الفنية على مدخل مبنى المخابرات العامة والتى تضم العين الفرعونية المشهورة ومكتوب تحتها « عين الله الساهرة » !

وطالما تسود الغيبيات فى فكرنا القومى سنظل مسلوبى الارادة ناقصى العقول ، عمى الابصار . يتلاعب بمقاديرنا من يشاء ويتحكم فى مصائرنا من يريد . يتوحد فى شعورنا الله والقدر والدكتاتور واتهام كل من يخرج على ذلك بالمادية والكفر والشيوعية والالحاد ونكون قد تخلفنا عصرين : عصر العقل وعصر العلم .

٢ — **المقدسات ليست موضوعات للبحث** : فى فكرنا القومى عدة حلقات مغلقة هى المقدسات التى لايجوز الاقتراب منها او الحديث عنها بل هى التى تدفعنا الى التأليه والتقديس ، والتبتل والابتهال ، والمناجاة والصلاة ، وذرف الدموع وطأطأة الرؤوس ، وتمتمة الشفاه وتسبيل الاعين . والاخطر من ذلك أن هذه المقدسات تتحول الى محرمات ، وتصبح مصدرا للتشريع ، وموجهات للسلوك ، وتتحول أخيرا الى تابو Tabou على ما يقول الأنتروبولوجيون . ويظن البعض ان هذه المقدسات او المحرمات قد وجدت منذ البداية فى عقولنا وانهـا مقولات منطقية او لا منطقية مثل الكم والكيف والجهة والاضافة او الممكن والواجب والمستحيل او العام والخاص او الكلى والجزئى لأنها فى حقيقة الامر تنشأ نشأة تجريبية خالصة نتيجة لظرف اجتماعية معينة عندما يبدأ

الانسان خائفا من عدة اشياء فيتحول الخوف الى عجز وعدم مقدرة على المواجهة ثم يتحول الخوف والعجز الى تقديس لدرء الخطر ار لجلب النفع ، وفى النهاية يتحول المقدس الى محرم .

وفى فكرنا القومى محرمات ثلاث : الله ، السلطة ، والجنس . هى مناطق مقدسة ، تند عن البحث ولا سبيل للانسان امامها الا الطاعة والولاء أو الكبت والحرمان . لذلك قال بعض علماء الانثروبولوجيا ان الدين والسلطة سواء ، والمعابد ومخافر الشرطة تؤدى نفس الغرض ، والحجاب والأزياء يؤديان نفس الغاية ، وهى الاعـلان عن المرأة والدعاية لها . تعتمد الحكومة على المشـايخ ، ويعتمد المشـايخ على الحكومة ، ومن بينهما تظهر افلام الجنس تعبيرا عن الكبت والحرمان ، وتصريفا للطاقات المكبوتة من جراء عدم المشاركة فى الحياة السياسية . والعجيب اننا نحرمها ونفكر فيها ، ونمنعهـا ونتعاطاها ، واصبحت فى فكرنا القومى اشبه بالحشيش فى حياتنا الخاصة . نتعلق بهـا ، ونفرج بها كربنا ، ونسعد بها وننسى بها شقاءنا . والأعجب من ذلك ان هذه المقدسات لاتؤدى وظيفة التقـديس بل على العكس تؤدى وظائف التعمية والتغطية والتستر والنفاق . فالله فى شعورنا لا يوجه السلوك ولا يدافع عن الفقراء ، ولا يقضى على الفروق بـين الافراد ولا يمحو التفاوت بين الطبقات . والسـلطة فى نفوسنا نسخر منهـا ونهابها ، نرفضها ونتملقها ، نحتقرها ونسعى اليها . والجنس فى حياتنا نحرمه ونعشقه ، ونكشفه ونحجبه . والصامت عن الحديث عن الجنس قولا قد لا على الفضيلة ، فقد يكون هو الموضوع الاوحد لحديث النفس الباطنى . والمتبرقع والمتحجب قـد يكون اقرب الناس الى التبرج والتفضح لأنه يعلن : انا الجنس المخفى فلا تنظروا ، مثل محطة المطار السرى الذى يعلمه الجميع ! انه دعوة للنظرة تحت ستار تحريم النظرة . والشيخ الذى يتنحنح ويقول « ياساتر » حتى ينفض نساء المنزل قد يكون اكثر اثارة لهن بصوته الرخيم وبدقة عصاه . وقد يكن هن اكثر اثارة له بدبدبة اقـدامهن المسرعـة وبضحكاتهن الخفيـة وبنظراتهن من وراء ستر النوافذ وثقوب الابواب !

والحقيقة ان هذه المحرمات تتولد نتيجة عصور التخلف . فالله ليس غيبا او سرا بل ان اهم ما يميز الوحى فى آخر مراحله هو غياب الاسرار ، وسيادة العقل . فالله اشارة الى كل ما هو عام وشامل ومستقل فى عالم الماهيات والمثل أو عالم الديمومة والثبات . وهى عوالم تؤيد التجارب الانسانية وجودها . ولدينا من الله ظواهر محسوسة فى أشخاص الانبياء والكتب المقدسة ، وحوادث التاريخ ومن التجارب البشرية التى كثيرا ما نجد دلالاتها فى النصوص الدينية . كما ان السلطة ليست امرا قدسيا الهيا لا يحل للجماهير القرب منها او ابداء الرأى فيها أو الرقابة عليها بل السلطة من الشعب وللشعب او كما قيل : الأمة مصدر السلطات ، والسلطة تعبير عن الواقع الاجتماعى للأمة . قد تكون حكما للأغلبية او حكما للأقلية ، قد تكون شعبية دستورية او فردية قهرية . السلطة اذن ليس لها هذه الهالة من التقديس بل هى موضوع للبحث فى علوم السياسة والاقتصاد . وغريب علينا نظريات الحق الالهى فى الحكم . انما الولاية فى تراثنا وظيفة اجتماعية ، بيعة وشورى . كما ان الجنس ليس سرا بل هو احد مكونات الطبيعة البشرية ، وأحد دوافع السلوك ومصدر للابداع الفنى ، بل هو عند البعض اساس السلوك الاول ومنشىء الحضارة والمدنية . وفى النهاية « لا حياء فى الدين » !

٣ ــ **المنهج النازل لا الصاعد** : فاذا كسر الفكر الطوق ، وخرج عن نطاق الغيبيات ، واقترب من المقدسات فانه يستعمل المنهج النازل وهو البداية بمصدر قبلى للمعرفة فى نص أو تراث ، فى تقاليد أو فى سنن ثم يستنبط منها أحكاما يصدرها على الواقع الذى عليه ان يتقبلها رضى ام لم يرض . وهو منهج قال الله وقال الرسول او قال ارسطو والذى يعتمد على سلطة الكتاب او سلطة الموروث . يقوم هذا المنهج على افتراض ان جميع الحقائق والمعارف قد وضعت مسبقا فى مصدرها اعطى للبشر او لم يعط فى صورة علم الهى او لوح محفوظ او قدر مكتوب ، وعلى الانسان ان ينتقى منه صورة لواقعة . هو مصدر حوى كل شىء : ما حدث ،

وما يحدث ، وما سيحدث ، ومهمة الانسان هو العثور على صورته فى هذا المصدر وتطبيقها • وغالبا ما يحدث الاختيار طبقا للرغبات والاهواء والمصالح الفردية او الاجتماعية فيقرأ الانسان ذاته فى المصدر المسبق ، ويختار ما يهوى ، ويجد فى نفسه الرضا والهناء فى ان حكمه شرعى ، وان سلوكه مرضى عنه فى الحسنيين • وارضاء للظاهر ، كثيرا ما ينشأ سلوكان : سلوك مطابق للمصدر المسبق فى الظاهر ، وسلوك حقيقى فى الباطن نابع من الطبيعة التى لم تفهم ومن الواقع الذى لم يحلل[٦] •

وقد أخذ المنهج النازل شكلا سياسيا وذلك لانه يتفق مع مركزية السلطة مصدر القرار ، ومفسرة الظواهر ، ومنظرة الأحداث • فالسلطة وهى الموجهة للمؤسسات الدستورية والصحفية ، وهى المحددة لبرامج التعليم ، وتصدر القوانين على نحو استنباطى من رغبات السلطة وتصوراتها • وقد حدث ذلك أيضا فى تراثنا القديم عندما تصور الفلاسفة فيض العالم عن الله فى نظرية الصدور المشهورة وان كل ما فى هذا العالم انما هو فائض عن الله • كما ظهر أيضا فى علم أصول الدين الاشعرى الذى جعل الله مركز الكون له علم مفروض على عقول الناس وارادة تدخل فى مسار الطبيعة وفى ضمائر البشر • كما ظهر أيضا فى علم أصول الفقه وذلك بترتيب مصادر الشرع الاربعة ترتيبا تنازليا من الكتاب الى السنة الى الاجماع الى القياس واعطاء الأولوية للنص على الواقعة • ولقد حاول التصوف وحده قلب المنهج من نازل الى صاعد ولكنه أصبح فرديا خالصا يقوم فى بدايته على مجموعة من القيم السلبية مثل الصبر والرضى والتوكل ثم يستمر كعلم لبواطن القلوب لا يستند الى عقل وينتهى الى وحدة شاملة تتم فى الخيال وبالوجدان دون أن

---

(٦) انظر رسالتنا
Les Méthodes d'Exégèse .PP .CXCLL Vérité descendante et Réalité ascendante

وايضا : « ايهما اسبق : نظرية فى التفسير ام منهج فى تحليل الخبرات ؟ قضايا معاصرة حـ ١ ص ١٦٩ — ١٧٢ » عود الى المنبع ام عود الى الطبيعة ؟ نفس المصدر ص ١٧٣ — ١٧٦ .

تكون هناك وحدة حقيقية فى العالم الخارجى بين الواقع والمثال فى صورة نظام سياسى .

لقد قامت النهضة فى الغرب بعد اكتشاف تعارض هذا المصدر المسبق للمعرفة مع بداهة العقل وتجارب الحس . ولما كان مصدرها المسبق تم عرضه على العقل فكان معقولا خاصة عند الفلاسفة والمعتزلة ، كما عرض على التجربة فكان علميا عند علمائنا القدامى ومن ثم فلا خوف من استعمال المنهج الصاعد الذى يبدأ من العالم الى الله ، ومن الواقع الى المثال ، ومن التجربة الى المعنى ، فتكون الطبيعة عاقلة فى الفلسفة ومستقلة فى الكلام ، وتبدأ مصادر الشرع بالقياس ثم الاجماع ثم السنة ثم الكتاب . نبدأ بعلم الاحصاء لمعرفة مكونات الواقع ، وبالتجارب لمعرفة أسس الفكرة ، وعلى هذا النحو نعيد بناء فكرنا القومى على النص حتى لا يصدق فينا قول الشاعر المعاصر : « واحتمى أبوك بالنصوص ، فدخل اللصوص ! »

رابعا : علاقة الفكر بالمؤسسات .

ولما كان الفكر ليس مجرد مجموعة من الافكار طائرة فى الهواء ، يطلقها من يشاء ، ويتلقفها من يريد بل ينطلق من الأرض فى صورة اشخاص أو مؤسسات أو نظم اجتماعية . الفكر لا ينبع الا فى مكان ما ، مدرسة فكرية أو مذهب عقائدى تتمثله مجموعة من الناس أو حزب سياسى يعبر عن تيار اجتماعى . الفكر اذن أجهزة قائمة ، وآليات تعمل ، ومؤسسات تنتج . وفى فكرنا القومى فى علاقته بالمؤسسات نلاحظ الآتى :

١ ـ **غياب المؤسسات لا قيامها :** نلاحظ فى حياتنا القومية عدم وجود مؤسسات ينبثق الفكر من خلالها فى صورة مدارس أو جماعات أو أحزاب أو مؤسسات يصدر الفكر منها بالفعل . لذلك غاب فى حياتنا القومية وجود مجمع أو مبلور Cristalizer للفكر ينجذب المفكرون نحوه ، ويرتبطون فيما بينهم ارتباطا عضويا ، يتكاثرون من خلاله ، ويلتفون حوله ، ويطورون أنفسهم بفضل حوارهم المفتوح فيما بينهم .

وكما نعلم من حياتنا السياسية المعاصرة ، فاننا قد فشلنا حتى الآن فى اقامة حزب سياسى ثورى ينظم حركة الجماهير ويتخرج فيه القادة لان الحزب يحتاج الى مضمون وهى الجماهير والى صورة وهو الفكر الذى يقوم عليه الحزب والى عصب وهم الكوادر المنظمة . كما ان معاهدنا العلمية ومراكز ابحاثنا لا تتعدى مستوى الاكاديمية الصرفة وبالتالى أصبحت عاجزة عن ان تؤثر فى حياتنا . واذا ما التزم احداها مثل معهد للتخطيط أو مركز للدراسات فانه يتم القضاء عليه لانحرافه عن الطريق وخروجه على المنطية السائدة . لا تعنى المؤسسات سيادة البيروقراطية واللوائح والروتين بل تعنى التنظيم الكفيل بسريان الحياة ، كالبدن بالنسبة للروح ، وكالعصب بالنسبة للاحساس . وقد تكون هناك مؤسسات فكرية ولكنها تهدف الى الدعاية أو الى تبرير الوضع القائم أو الى الوعظ والارشاد مثل أجهزة الاعلام أو دور الصحف أو المؤسسات الدينية أو وزارات الثقافة والارشاد القومى ولكن المؤسسات التى يظهر الفكر من خلالها هى المدارس الفكرية التى تتكون داخل المعاهد العلمية والجامعات ومراكز البحث والجمعيات الثقافية والاتحادات الأدبية ومراكز الثقافة والجامعات الشعبية الحرة . فالفكر القومى ليس هو البحث الاكاديمى الخالص ولا هو الدعاية والاعلام .

ويبدو ان غياب المؤسسات الفكرية فى حياتنا القومية مرتبط أشد الارتباط بأوضاعنا الاجتماعية وبنظمها السياسية وليس لنقص فى التيارات الفكرية والاتجاهات السياسية . فكثيرا ما يجد جمع من المثقفين أنفسهم فى مواجهة بعضهم البعض فى مؤتمرات خارج البلاد ، يتناقشون فيما بينهم ومع غيرهم ، ويكونون مدارس وتيارات فكرية . وقد يسمعون عن بعضهم البعض لاول مرة ، وقد يرون بعضهم البعض لاول مرة كذلك . فاذا ما عادوا الى البلاد انفرط الشمل ، وانحل العقد ، وانقضى الجمع ، وتقوقع كل منهم فى عزلته ، يكتب لجمهوره وكأن المؤتمرات الدولية الخارجية هى المؤسسة التى يجتمع فيها مفكرونا .

واذا ما دعونا نحن الى مؤتمرات دولية داخل البلاد اجتمعنا أيضا معا وفى وسطنا المفكرون الأجـانب وبحضورهم ، وكأننا لا نجلس معـا الا على موائد الغير ، ولا نتقابل معا الا بحضور الضيوف الأجانب ، يكوكنون هم محور النقاش • ولم لا ، وهم الضيوف ونحن أصحـاب البيت ، والضيوف دائما فى أماكن الصدارة[٧] ؟ وبغياب المؤسسات الفكرية غابت التقاليد الفكرية وفى مضمونها الحوار المتبادل واحترام الرأى الآخر والحرص على الوحدة الوطنية ، وعدم التعامل مع الآراء الحرة بحد السيف •

وفى غياب المؤسسات ، قد يظهر مفكر قومى ، وحيد بمفرده ، يكون أوحد عصره ، ينال ثقة السلطة الحاكمة ، ويصبح مفكر الدولة ، يحاور ويناور ، ويكون أول المطلعين على بواطن الأمور ، وأول العالمين بأخطر الأسرار ، يعطى الجماهير منها قطرة قطرة ، فنتشوق لسماعه أسبوعيا ، وتحدث لمقالاته الدوى والرنين ، يصبح مفكرنا الأوحد ، ومنفذنا على العالم الخارجى ، والمفسر للظواهر ، والمترجم عن أفكار السلطة ، وفى النهاية المبرر لجميع السلطات ، حتى لقد نشأ فى فكرنا المعاصر ظاهرة « الموظف الايديولوجى » الكبير أو الصغير ، ينظر الكبير ليكون أكبر ، والصغير كى يلحق بالكبار • وعلى هذا النحو غاب الحوار الحقيقى ، وساد فكرنا القومى المونولوج لا الديالوج ، وسمعنا نغمة واحدة نحب أن نسمعها • فاذا ما اكتشفنا عيوبنا نتيجة لهزائم متلاحقة ، كبيرة أو صغيرة ، حولنا النقـد الذاتى الى نوع من الفروسـية العربيـة ، فالاعتراف بالحق فضيلة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، امتصاصا لغضب الجماهير ، وتخديرا لهم ، ونؤسس المجالس القومية المتخصصة دون ان تحدث أدنى أثر فى حياتنا العملية •

٢ ــ تشخيص المؤسسات لا استقلالها : فاذا ما وجدت بعض المؤسسات فانها توتبط بأسماء الاشخاص الذين ترأسوا عليها حتى

---

(٧) أنظر مقالنا : « جارودى فى مصر » قضايا معاصرة جـ ١ ص ١٤٧ ــ ١٦٤ وأيضا « الايديولوجية والدين » نفس المصدر ص ١٢٨ ــ ١٤٦ •

أصبحت ظاهرة مرضية . صحيح أن لدينا جماعات : جماعة أبولو فى الشعر .. الخ . ولكنها فى الحقيقة مجموعة أشخاص ترتبط فيما بينها بتآلف جمالى أو اشتراك فى الاحساس أو اتحاد فى الغاية أو تماثل فى المنهج أو تشابه فى المنطلقات . وتظل الجماعة معروفة باسماء أشخاصها المكونين لها دون أن تكون للجماعة صفة معنوية مستقلة . وصحيح ان لدينا مدارس فكرية ولكنها أقرب الى الدوائر المنعزلة ، الاشخاص فى بؤرتها ، حلقات متقطعة الاتصال ، تمثل رافدا وطنيا أو تيارا قوميا ، لا تتمتع بالاتصال ، بل سرعان ما تنقضى بموت مؤسسها ، ولا تعيش لعدة أجيال . وان دولة المؤسسات ما هو الا شعار نخفى وراءه تشخيص نظمنا السياسية ، فيصبح رئيس الدولة هو الدولة ، ورئيس مجلس الشعب هو الشعب ، ورئيس الوزراء هو الحكومة ، والوزير هو الوزارة ، والمدير العام هو المصلحة ، ورئيس ترحير الصحيفة هو الصحيفة ، ورب الأسرة هو الأسرة . صحيح ان لدينا أحزاب لها فكرها الحزبى ولكنها ايضا تظل مرتبطة باسماء مؤسيسها فلا نذكر الناصرية بدون ناصر أو الوفد دون سعد زغلول ومصطفى النحاس أو الحزب الوطنى دون مصطفى كامل ومحمد فريد . صحيح ان لدينا مؤسسات ولكنها تظل مطبوعة بطابع رئيسها المعين ، وتتغير رؤية المؤسسة بحركة انتقال المديرين العموميين أو بتعيين الوزراء واقالتهم حتى لتعرف المؤسسات بأسماء رؤسائها فنقول وزارة فلان ومصلحة علان ، وادارة هذا الشخص أو ذاك . تضعف هذه المؤسسة بضعف صاحبها ، وتقوى بقوته . وغالبا ما تنقضى المؤسسة بانقضاء صاحبها . فلا ناصرية بعد ناصر ، ولا « الطليعة » بعد لطفى الخولى ، ولا « روز اليوسف » بعد عبد الرحمن الشرقاوى . السياسية تتم باجتماع الاشخاص ، والقرارات تأتى بالعلاقة الفردية بين الوزراء ، والسياسة العربية ترسمها مؤتمرات القمة العربية للملوك والرؤساء !

وقد أتانا التشخيص من فكرنا الدينى القديم عندما تصورنا الله على انه شخص وجعلنا المسيحية مركزة حول المسيح ، وأعطينا الله صفات الانسان ، وجعلنا له سمعا وبصرا ويدا وجنبا وساقا ، ينزل

ويصعد ، ويغضب ويفرح ، واستمر هذا التشخيص فى حياتنا الدينية حتى الآن فى صورة التقرب الى القديسين ، وتبجيل رجال الدين وطاعة أوامرهم • بل اننا شخصنا الاسلام ذاته فى محمد ، وتقربنا اليه ودعوناه ، وتشفعنا به وناجيناه ، ومدحناه وانشدنا له ، واقمنا له الموالد والأذكار ، ثم سقطنا فى غيبوبة الوجد ، وجعلناه حقيقة محمدية كما تقول الصوفية ، قديمة قدم الله ، وباقية ببقائه ، منها صدر الخلق ، واليها يرجع ! فى حين قد حذرنا القرآن من تشخيص الاسلام « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل أنقلبتم على اعقابكم » (٣ : ١٤٤) كما ورد فى الحديث « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم » وأيضا « ما أنا الا ابن امرأة كانت تأكل القديد » كما نبهتنا الاقوال المأثورة فى تراثنا مثل « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت » على أولوية المبدأ على الشخص • وقد بلغنا فى حياتنا المعاصرة من عبادتنا للاشخاص ان ضاع استقلال المبادىء وقيل « ان الاحتلال على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى ! » • ونحن نعلم ان كل حركة ثورية تريد أن تطهر نفسها وتبقى على نقائها ، وتحرص على مبادئها ان تقضى على عبادة الشخص Culte de la personalité كما حدث ذلك بعد موت ستالين مرة وبعد موت خروشوف مرة أخرى ، وكما هو وارد فى وصية الزعماء الوطنيين مثل هوشى منه الذى رفض أن تقام له مظاهر التكريم لشخصه بعد الممات ، وكما حدث لعمر بن الخطاب عندما داخلته الخيلاء وهو داخل القدس فصرخ واقعا واستبدل بحصانه حمارا وعندما وجده ابنه حاملا قربة على ظهره ذهابا وايابا أمام منزله وسؤاله عن السبب وقوله : « اعجبتنى نفسى فأحببت أن أذلها ! » وكما يحدث فى الديانات الهندية عندما يحرق الرفات ويذرى فى الهواء أو يلقى فى ماء النهر المقدس حتى يعود الفرد الى الطبيعة التى منها أتى • ولكننا أصبنا بداء رفات القديسين ، ومقابر الأولياء ، وجعلنا الاشخاص واسطة بيننا وبين الله ، ودعوناهم وطلبنا بركتهم ، واستنجدنا بشفاعتهم •

ومازلنا نفعل فى حياتنا السياسية طالبين شفاعة الاشخاص لحل قضايانا المصيرية ٠

٣ ــ **تجاور الاجيال لا تحاورها** : فاذا ما قامت المؤسسات فانها تضم عدة أجيال متجاورة ، فيكتب الشيوخ والشبان ، بل ويزاحم الشيوخ الشبان فى أجهزة الاعلام ، وفى الصدارة للرأى حتى أصبح هناك احتكار شبه دائم للشيوخ ٠ والأخطر من ذلك أن كلا من الفريقين يكتب فى عزلة عن الفريق الآخر دون قيام حوار بينهما يبين هوة الاجيال ومدى التطور الاجتماعى من جيل الى جيل ٠ بل وتتحكم الشيوخ فى مصائر الشباب فهم مراكز اصدار القرارات ، يشرعون القوانين ، ويصدرون اللوائح مراعاة لمصالحهم الخاصة خشية منافسة الشباب لهم ٠ وبالرغم من التصريحات التى تطلق فى حياتنا السياسية عن ضرورة العناية بالشباب واقامة وزارة للشباب وتأسيس منظمة للشباب أو أمانة عامة للشباب يترأسها شاب ويساعده شاب ، والدعوة الى مؤتمرات للأدباء الشبان ، واقامة معسكرات للشباب الا ان الحصيلة تكاد تكون معدومة ٠ فقد كان الهدف هو اقامة احتفالات أو اشتراك فى أندية أو تلقين معلومات أو تجنيد بعض الشباب لخدمة النظام السياسى ٠

وان الشيوخ يكونون دوائر منعزلة فى فكرنا القومى ، يكتبون عن الثورة الفرنسية وعن بيتهوفن وموزار أو عن الشاطىء الجنوبى الساحر لانجلترا أو عن مسارح لندن ونيورك ، ومنزلنا محطم ، وجدرانه تتهاوى ، ووجودنا مهدد بالضياع ! يعيشون على أمجاد الماضى أو على بعثة الى باريس أو على نضال قديم ٠ لا يتطورون طبقا لاحداث العصر ، ويسهل التأثير عليهم وتوجيه اقلامهم بما ينالون من صدارة اجتماعية ورغد العيش ٠ يسالمون ويستسلمون ، ولا مانع من اتهام الشباب بالمروق وجحد النعمة ، والضياع والضلال ، والحيرة والبلبلة !

فاذا ما استطاع بعض الشبان ابراز فكر أو احداث تيار أو تأسيس مذهب فان عمرهم الابداعى يكون قصيرا ، فسرعان ما تمنعهم المؤسسات ،

وتحيلهم الى موظفين فى الدولة فى مكاتب الثقافة . واذا رفض بعض منهم فانه يحارب فى كافة أجهــزة الدولة أو تحــاك حوله مؤامرات الصمت والنسيان .

لذلك انعدم الحوار بين الشباب والشيوخ ، وعاش كل جيل عصره ، وتجاورت الاجيال ، وتزامنت العصور حتى تشعبت روح العصر ، وتعددت أزمنته وكأننا نعيش عدة عصور فى آن واحد ، وبالتالى ضاع منا مسار التاريخ وافلتت منا حركته .

ولما كان الشيوخ هم أصحاب السلطة فقد ضاق الحصار حول الشباب وأصبحنا نعيش فى مجتمع « أبوى » نموذجه « وبالوالدين احسانا » ، وأدنا كل خروج على التقاليد ، وأشحنا بوجوهنا عن ثورات الشباب ، حتى يرجع الجميع الى حضن الأم والى كنف كبير العائلة ، ورب الأسرة .

خامسا : عــلاقة الفــكر بالتاريخ .

والفكر ليس قطاعا ثابتا أو مقطعا طوليا أو عرضيا فى حياتنا بل هو لحظة من لحظات التطور فى تاريخنا ووجودنا . وقد يكون الخطر الأساسى فى فكرنا القومى هو ثباته وعــدم ارتباطــه بحركة التاريخ الماضية أو الحاضرة أو المستقبلة ارتبــاطا عضــويا صحيحا . واذا ما ادركنا حركة التاريخ فاننا نتعامل معها بعقلية الثبات فننزع الى الماضى ونركن اليه أو نرنو نحو المستقبل ونعيش فيه أو نحرص على الحاضر ونتشبث به . وليس حكما قاسيا ان نقول ان الشعور التاريخى قد غاب فى فكرنا القومى . ويكون السؤال : لماذا غاب البعد التاريخى فى فكرنا القومى ؟ سؤالا مطروحا على وجداننا سواء فى تراثنا القديم أو فى حياتنا المعاصرة . ولما كان فكرنا القومى مرتبطا بالماضى وبالمستقبل وبالحاضر فان تحديد علاقة الفكر بالتاريخ تتأتى بتحديد علاقته بهذه الابعاد الثلاث .

١ ــ الرجوع الى الماضى كهدف لا كوسيلة : فى علاقة الفــكر بالماضى يغلب علينا الاغراق فيه ، والتشدق بمفاخره ، والاعتزاز بآثاره

كنوع من التعويض عن النقص لمآسينا الحاضرة ، وتخلفنا الحالى ، وانهيارنا الذى بدأ منذ ألف عام تقريبا بعد هجوم الغزالى على العلوم العقلية وسيادة الاشعرية على فكرنا القومى • وهى ظاهرة مرضية لأننا فى نفس الوقت نهمل الآثار ، ولا نعتنى بنشر التراث ، وتطغى الحوانيت والمقاهى على المساجد ، ونستعمل أسوار القاهرة كدورات للمياه لفك أزمة المحصورين فى الطريق !

نتصور علاقتنا بالماضى على اننا عشنا عصرنا الذهبى فى عصر النبوة والخلافة ثم بدأ الانهيار تدريجيا حتى انهيارنا التام الآن الذى مازال مستمرا كلما بعدنا عن العصر الذهبى ، وكلما أوغلنا فى الزمان • فالتاريخ لا يحتوى الا على الشرور والآثام • وقانون التاريخ هو قانون الانهيار ، وكل جيل لاحق أسوأ من الجيل السابق « فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات (١٩ : ٥٩) • وهو تصور يقوم على احتقار الذات ، وعلى يأس من الحاضر ، وعلى جهل بقدرات الجماعة ، وعلى العجز التام ، وعلى اليأس المطلق • ويستمر الانهيار حتى النهاية حتى يبلغ الانحطاط مداه ، ولا يبقى مؤمن واحد على ظهر الأرض فتكون نهاية التاريخ • ثم يحدث البعث الأكبر ، والنشور الاعظم ، وتقع الواقعة ، وتقرع القارعة ، وتحدث الطامة الكبرى ، وكأن التقدم ظل محبوسا فى الزمان حتى انطلق مرة واحدة فى الخلود • ويتم الحساب فى العالم الآخر على من تقدم أو تأخر فى هذا العالم « لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » (٧٤ : ٣٧) فى عالم لم يكن فيه للتقدم مكان !

واذا كان حالنا أفضل ، وكنا أميل الى أحداث نوع من التقدم ، ونحاول أن ننقل انفسنا من مرحلة الانهيار الى مرحلة الرفع فاننا نتصور التاريخ على انه تراجع الى الوراء ، فلا يصلح هذه الأمة الا ما صلح به أولها ، وبالتالى يصبح مستقبلنا فى الماضى ، ونتقدم الى الوراء ، ونعكس مسار الزمن ، ونقلب حركة التاريخ ، فنتقدم وظهورنا الى الأمام ، ونسير ووجوهنا الى الخلف • وهى ظاهرة

مرضية أيضا لاننا نسىء فهم الماضى ولا ندرك وظيفته • يستطيع الماضى أن يكون نموذجا للتحديث ، وليس هـدفا فى ذاته ، عن طريق اختيـار أمثلة ونماذج لحل اشكالات الحاضر مثل الفقر والبؤس • فالبحث عن نموذج فى الماضى ليس ارتكانا اليه أو تعويضا نفسيا عن مآسى العصر بل هو بحث عن حلول مثلى لمشاكل العصر تتفق وافهام الجماهير وتؤثر عليها كدوافع للسلوك ، وتسير وراءها كنموذج حى للقيادة والمثل •

وفى أحسن الأحوال نتصور التاريخ تصورا دائريا • فقد بدأ التاريخ بالتقدم ، وقامت الحضارة الاسلامية ، وبلغت ذروتها ثم بدأ التاريخ ثانية بالانهيار • وهو التصور الحيوى للتاريخ الذى يعطى لكل حضارة دورة ، ويكون التاريخ هو مجموع الدورات • وهو تصور ابن خلدون ، من البداوة الى الحضارة ثم من الحضارة الى الانهيار • ولذلك قيل فى الخبر « جاء الاسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء من أمتى » •

وقد نتصور التاريخ أخيرا على انه انتقال من الوحدة الى التشتت ، ومن الجماعة الى الفرقـة ، ومن الايمان الى الالحـاد ، ومن الحق الى الباطل ، وبالتالى نلغى حركة التاريخ ، ونسقط الاجتهاد من الحساب طبقا لحديث الفرقة الناجية المشهور « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار ، الا واحدة » ثم تتعين هذه الواحدة فى « هى ما عليه أنا وأصحابى » • ولما كانت كل فرقة تدعى انها الناجية فقد حسم الأمر بأن تكون الفرقة الناجية هى التى فى السلطة والتى يؤيدها الحكم ويعتمد عليها أى بلغة عصرنا : الحكومة على صواب ! وأصبحت كل حركات المعارضة هى الفرق الضالة التى فى النار ، وبالتالى أصبحت الاشعرية فكر الدولة وايديولوجيتها السائدة التى تعتمد عليها فى تكفير الفرق المعارضة • وفى حياتنا المعاصرة استمر التكفير حتى الآن اما من السلطة ضد المعارضة أو من المعارضة ضـد السـلطة أو من بعض المعارضة ضد البعض الآخر حتى غابت الوحدة الوطنية من حياتنـا ، وضاع الحوار ، ولم نعد قادرين على سماع الرأى الآخر •

لقد أدى هذا التصور للتاريخ ـ الرجوع الى الماضى ـ الى العزلة فى الماضى والنرجسية الحضارية والانقطاع عن الحاضر وغياب المستقبل • وهو ما عرف فى فكرنا باسم التصور السلفى للتاريخ • وهو فى الحقيقة تصور الجماهير الغافلة وقادتها المناورة التى تهدف الى تبرير السلطة القائمة التى يهمها ارجاع هـذه الجماهير الى ماضيها تعمية لهـا عن حاضرها ، وسدا لها عن مستقبلها •

٢ ـ **السبق نحو المستقبل دون الاعداد له :** ثم يحدث رد فعل فى فكرنا القومى على التصور السـلفى للتاريخ ، فنترك الماضى الى نقيضه وهو المستقبل ونعيش فيه ونرنو اليه ، ونستبق الاحداث ، فالسابقون السابقون ، ونقطع الصلة كلية بيننا وبين الماضى حتى نطلق عقال أنفسنا ، ونحرر عقولنا من أغلاله • فأصبحنا طوباويين ، نعيش فى مدن فاضلة ، مدن الاشتراكية والمجتمعات اللاطبقية التى يتحرر فيها الانسان من كل مظاهر الاستغلال والعبودية • ولما كان الأمل فى المستقبل والثقة فيه دافعا للحركة فقد تنمرت السلطات القائمة لـكل محاولة للتحقيق الفعلى لهذا التصور للتاريخ ، فاضطهدت انصاره أو حاولت استيعابهم ، وشراء ضمائرهم ، مرة بالترهيب وأخرى بالترغيب خاصة وأن هذا الحل الطوباوى لم يكن يتعدى دوائر المثقفين التى كان يسهل اغراؤها ثم شراؤها أو ضربها • فاذا كانت الجماهير فى التصور السلفى للتاريخ ترجع بوجدانها الى الماضى تعويضا عن المآسى الحاضرة فان الصفوة فى التصور المستقبلى للتاريخ ترنو بوجدانها الى المستقبل املا فى تحريك الحاضر وتجاوز مآسيه • وما أسـهل اتهام السـلطة لاصحاب الحلم الطوباوى بالعمالة الفكرية للمذاهب السياسية الغربية أو الشرقية أو بالعمالة الفعلية للدول الأجنبية التى تبنت هذه المذاهب السياسية كنظم اجتماعية لها بل وعمالة تصل الى حد الخيانة •

فاذا ما حاول احد تحقيق هذا الحلم الطوباوى فانه يبدأ بنشره فى أجهزة الاعلام لتقوية الوعى الاجتماعى بين الطبقات ولاحداث تنوير على النمط الغربى أى أحداث ثورة فى الاذهان ، أو الانتقال الى العمل

السرى وتكوين خلايا حزبية تعمل على تغيير الوضع القائم ، وهو التحديث على النمط الآسيوى أى قيادة ثورة فعلية للفلاحين أو العمال ـ اذا ما حاول أحد ذلك فانه سرعان ما تضبطه السلطة القائمة وتزج بأنصاره فى السجن .

يغفل هذا التصور اذن التاريخ باعتباره مراحل انتقالية ، ويعيش فى مرحلة لاحقة ، سابقا الزمن ، وهو يظن انه يعمل فى مرحلة حاضرة ، وهو فى الحقيقة خارجها . كما يغفل دور الأجيال ، وتحديد طبيعة المرحلة التاريخية التى تعيشها المجتمعات النامية ، وهو الانتقال من التخلف الى التقدم ، ومن الاسطورة الى الواقع ، ومن الخرافة الى العلم ، ومن الاشراق الى العقل ، ومن الغيب الى الشهادة ، ومن الله الى الانسان ، ومن الجماعة الى الفرد ، ومن القدرية الى الحرية ، ومن الوصاية الى المسئولية . ولا غرو ان يكون هذا التصور هو تصور الصفوة المثقفة التى تنحو بوجدانها نحو عالم أفضل ، تصور الانبياء والقادة ، تصور المخلصين الدينيين ودعاة التغيير الاجتماعى المشيانى Messianic

٣ ـ **تثبيت الحاضر لا تحريكه** : وقد ينشأ رد فعل ثالث على التصور السلفى للتاريخ وعلى التصور المستقبلى له وذلك بالتوجه الى الحاضر والانكباب عليه ومحاولة تنظيره تنظيرا مباشرا والتعبير عن مطالبه ، والاحساس بمقتضياته حتى ولو كان فى صورة هوجاء عشوائية ، انتقائية ، جزئية ، عملية ، تجريبية . فاذا كانت مطالب العصر الرئيسية هى الحرية والاشتراكية والوحدة فان هذه المطالب تكون مقطوعة الصلة بالماضى الا فى الجوانب المماثلة لمتطلبات الحاضر كنوع من التقريظ والفخر أو للتعمية على نقائص العصر أو لعزل الاتجاهات الجذرية فيه . كما تكون مقطوعة الصلة بالمستقبل الا بقدر استعمال انصاره على تحقيق مطالب العصر وتبرير قرارات السلطة . ولكن يظل الحاضر مقطوع الصلة بالماضى والمستقبل وكأن التاريخ كله هو الثورة العربية المعاصرة التى تجب ما قبلها وما بعدها ، وكأن الحاضر ليس

تراكما للماضى ولحظة من لحظات تطور التاريخ نحو المستقبل ، فالماضى هو مستقبل الحاضر ، والحاضر هو ماضى المستقبل .

ان الاقتصار على اللحظة الحاضرة اغفال لحركة التاريخ ولقوانين التطور كما انه مقطوع الصلة بالنظرة المستقبلية . ولا عجب أن يصبح هذا التصور للتاريخ تصور الطبقة المتوسطة التى تريد الابقاء على الوضع القائم واعتبار الدنيا نهاية المطاف ، والحاضر غاية المسعى ، والمكسب الحالى الغنى الدائم . يظل هذا التصور هشا فارغا أمام الحاضر الذى يحركه الماضى ويدفعه نحو المستقبل فيثور الحاضر مطالبا بتصور آخر أكثر شمولا وحسما أو أمام نظرة تاريخية بعيدة المدى أعمق فى التاريخ وأطول فى العمر وأرسخ فى الوجدان . ولما كان الانسان المعاصر فكرا ، فان هذا التصور للحاضر مقطوع الصلة بالفكر اذ انه يتهم التصورين الآخرين السلفى والمستقبلى بالايديولوجية أى المذهب المسبق يمينا أو يسارا ، وهو يتجاوز اليمين الرجعى واليسار المغامر ، ولا تغنى الرغبة فى التعمير عن التصورات وعن البعد الأيديولوجى للانسان .

ان التعامل المباشر مع الحاضر لا يعنى قصر النظر فالتاريخ يحرك الاحداث والحاضر ليس نقطة ثابتة ساكنة يمكن تغليفها وتوهم اتقاء شرها . الحاضر ليس الا السطح الخارجى لتيار الزمان الجارف والشكل الظاهر لحركة التاريخ . وقد كانت الحركات السياسية الجذرية أولا وفى بداياتها نظرات شاملة فى التاريخ . وقد يرجع تعثر ثوراتنا العربية المعاصرة الى غياب هذا التصور الشامل للتاريخ .

خاتمة : ان هذه المخاطر جزء من حركة التاريخ ، وظواهر مصاحبة لمرحلة التحديث التى نمر بها ، ولا يهم ان كانت مخاطر حقيقية فى صلب فكرنا القومى أو ظواهر وقتية فى فكرنا الاعلامى ، ولكن الذى يهم هو وجودها كظواهر مؤثرة فى حياتنا يعيها رجل الشارع كما يعيها المثقف الطاهر .

ان هذه المخاطر لا نقضى عليها بقرار ، ولا ندرؤها فى يوم وليلة ، ولكن موقفنا الحضارى يكشف عنها ، وتكون مواطن الحركة ومكمن التغيير ، ومناطق المعالجة . وتكون مهمة مثقفينا الوطنيين الذين يهدفون الى اقامة ثقافة وطنية ومفكرينا السياسيين الذين يبحثون عن أيديولوجية عربية هو التركيز على هذه المخاطر ، والتنقيب عن الظواهر التى تكمن وراءها ، وتحويلها من ظواهر مرضية الى ظواهر صحية ، فالتعرف على الداء ثم تشخيصه هى المقدمة الضرورية لسلامة فكرنا القومى .

اذا كانت « مخاطر فى فكرنا القومى » أشبه بنقد العقل النظرى على المستوى الاجتماعى فان « مخاطر فى سلوكنا القومى » أشبه بنقد العقل العملى على المستوى الاجتماعى أيضا[1] . السلوك هو الوجـه العملى للفكر ، والفكر هـو امكانية وأساس السـلوك[2] . وبالرغم من ان حديثنا السابق كان عن الثقـافة الوطنية الا أن الحديث هذه المرة عن « الفـكر القومى » ، « والسـلوك القومى » « والوجـدان القومى » . واذا كانت الثقافة تحتمل الوصفين معـا « الوطنية » و « القومية » الا أن الفكر والسلوك والوجـدان ، كل منهما يأخذ وصفا واحدا وهو « القومى » . ولا تعنى القـومى هنـا أى تنازل عن « الوطنى » أو « الحضارى » والوقوع فى معنى « عرقى » ظاهر أو خفى . فانا مصرى عربى مسلم ، دوائر ثلاث لاحيلة لى فيها ، ولا أستطيع لها دفعا أو الاختيار بينهما . هـذا التداخل بين الأطراف الثلاث هو الذى ترسب فى أعمـاق الشـخصية الوطنية والقوميـة والاسلام . وانما اختصار للأوصاف أصبحت الشخصية القوميـة هى الدالة على هذه الاطراف الثلاث فى آن احد .

والفكر أو السلوك أو الوجدان « القومى » هـو الوصف الدقيق

---

(١) انظر دراستنا السابقة « مخاطر فكرنا القومى » .

(٢) بعد كتابة « مخاطر فى فكرنا القومى » وسلمتها لمجلة « قضايا عربية » فى ١٩٧٨ لم أسمع شيئا عنها . وبعد ذلك توقفت عن تكملة « مخاطر فى سلوكنا القومى » ، « مخاطر فى وجداننا القومى » . بعد ذلك قامت اسرائيل بترجمة « مخاطر فى فكرنا القومى » الى اللغة الانجليزية بعنوان Arabic Thought in the balance ونشرتها فى The Jerusalem Quarterly فى خريف ١٩٨٢ مـع تعليقـات وشـروح من المترجـم مبينـا القصـد والوقائع الثقـافية المشار اليها ومحيلا الى عديد من المقالات الاخرى التى كتبتهـا فى هذه الفترة فى « المسـتقبل العربى » وفى غيرها من لمجلات العربية . ولما علمت بذلك بحثت فى اعداد قضايا عربية حتى وجدتها منشورة بالفعل فى عدد ابريل ١٩٧٨ . والآن وبعد عشر سنوات أكمل الحلقتين الآخريين فى صيف ١٩٨٧ ، « مخاطر فى سلوكنا القومى » ، « مخاطر فى وجداننا القومى » . وبالرغم من اننى انهيت هذه المرحلة ، مرحلة النضال المباشر عن طريق المجات الثقافية ، مؤثرا النضال العلمى الطويل فى « التراث والتجديد » الا أننى حاولت الابقاء على روح السبعينات وأسلوبها ومستواها وجمهورها .

لما جرت العادة على تسميته هذه الأيام « العقل العربى » سواء فى « أزمة العقل العربى » أو « تكوين العقل العربى » أو « تحــديث العقل العربى » أو « نقــد العقــل العربى » أو « بنيــة العقــل العربى » ••• الخ • فهذه التعبيرات الأخيرة التى يكون قاسمها المشترك « العقل العربى » تعبيرات عنصرية مرتين • الأولى لأنهــا تجســد الشخصية القومية فى عقل مثل النظرية العنصرية التى تحيــل سمات الشخصية القومية الى قــوى وسمات فزيولوجيــة نفســية تختلف من شعب الى شعب ، وتتميز فى قوم دون قوم • فهناك عقل « عربى » وآخر « يابانى » وثالث « المانى » ••• الخ • والثانى لانها تتحدث عن العربى كما تتحدث عنصرية القرن الماضى فى الغرب عن الفرنسى والايطالى والبريطانى والامريكى •• الخ • وان الذين يستعملون هــذه التعبيرات عادة يكونون من أعداء الأمة ، ينكرون عليها فكرها وثقافتها وحضارتها ويجعلونها مجرد عرق فى مقابل أعراق أخرى ان لم يكن أقل نظرا لتخلفه ومظــاهر الانهيار فيه فى حين أن الاعراق الأخرى أكثر تقدما وازدهــارا ومساهمة فى تاريخ البشرية[٣] • وما يسمى « العقل العربى » عند البعض ، مستشرقين كانوا أو عربــا فانهم قد يعنون الحضارة الاسلامية وتراث الأمة • أما تعبير « الأيديولوجيا العربية » فانه أصدق لأنه لايقع فى المفاهيم العنصرية • فالايديولوجيا فكر ومذاهب ونظريات من واقع محدد فى ظروف الاجتماعية معينة وفى مرحلة تاريخية محددة •

وتأتى مادة البحث أساسا من التجارب الحية التى يعيشها المفكر والتى يتفق معه القراء فى وصفها • تعضدها الأمثال العامية وبعض النماذج الأدبية • ويمكن اللجوء الى القرآن الكريم باعتباره الرافــد الأساسى فى الثقافة الشعبية • فالبحث نوع من الظاهريات الاجتماعية Phénoménologie Sociale الذى تمت ممارسته من قبــل والذى مازال

---

(١) انظر مثلا Philippe Pettai : The. Arab Mind

رائجا وخصبا ودالا[٤] • وهـو يجمع بين الخبرات الفردية والخبرات الجماعية ، بين تحليل الحـاضر وتحليل الماضى ، قراءة الحـاضر فى الماضى وقراءة الماضى فى الحاضر • ولافرق فى ذلك بين العلم والسياسة • فالباحث عالم ومواطن لايفرق بـين العلم والمواطنة • وعلى الرغـم مما يكون فى تعميم الاحكام من اجحاف الا أنهـا أقرب الى الأدب الاجتماعى أو الصرخات الوجودية ، وظيفتها اثارة الأذهان ، ووضع الاشكاليات ، وبداية الموضوعات كجزء من حركة التنوير العام بوضع الذات الوطنية تحت المجهر •

وقد لا يتوحد نسق العرض بين هذه الحلقات الثلاث : « مخاطر فى فكرنا القومى » ، « مخاطر فى سلوكنا القومى » ، « مخـاطر فى وجداننا القومى » • فلكل عقل نظرى أو عملى أو وجـدانى خاصيته وبنيته • فبينما تتحدد علاقات فكرنا القومى بالسلطة من حيث التبعية والاستقلال ، وبالواقع من حيث مـادة الفـكر أو مضمونه ، وبالمنهج من حيث صورة الفكر وطرقه ، وبالمؤسسات من حيث مـواطن الفكر وتحققاته ، وبالتاريخ من حيث مسار الفكر وحركته فان سلوكنا القومى أو وجداننا القومى قد يخضع لبنية أخرى تصف وضع الانسـان فى العالم • فالانسان بين عالمين : عالم المثال وعالم الواقع أو ماسـماه القدماء الله والعالم أو الوجود والطبيعة فان وصف المخاطر فى سلوكنا القومى أو فى وجداننا القومى يتم بناء على وضع الانسان فى العالم •

والملاحظ لسلوكنا القومى وقوعه بين ثنائيات متعارضة مثل الظاهر والمؤوول ، القول والعمل ، الحزن والفرح ، التحريم والاباحية ، الوفرة والندرة ، العشـوائية والفطرة ، القـدرية والفرديـة ، الطـاعة والعصيان ••• الخ • هذه الثنائيات المتعارضة تعويض متبادل ، يعيش كل طرف على وجود الطرف الآخر ، كالصهيونى المعادى للصهيونية ، والسامى المعادى للسامية ، واليهودى المعادى لليهودية • وهى ظاهرة مرضية تمثل انفصاما فى الشخصية بين طرفين متعارضين نسمى أحداهما

---

(٤) انظر كتابنا : قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فى فكرنا المعاصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ .

التطرف وننسى الطرف الآخر الذى هو تطرف أيضا . ثم ندعو الى الى القصد والاعتدال دون مسك بالطرفين لتقليل المسافة بينهما . وقد رصد الصوفية قديما على مستوى الوجدان مثل هذا التعارض فيما سموه بالأحوال التى ترد على النفس بلا تكلف أو تعمد : الخوف والرجاء ، القبض والبسط ، الهيبة والانس ، الفرق والجمع ، الغيبة والحضور ، الصحو والسكر ، المحو والاثبات ، الستر والتجلى ، الوجد والفقد ، الفناء والبقاء ... الخ . كما لاحظها الأصوليون القدماء على مستوى اللغة فى الظاهر والمؤول ، المحكم والتشابه ، المطلق والمقيد ، المجمل والمبين . عند الصوفية أحوال نفسية وعند الاصوليين قواعد لغوية . ولا وسط بينهما بل الانتقال من طرف الى طرف ، وفهم طرف بطرف ، واحالة طرف الى طرف ، وتأويل طرف بطرف . هذان الطرفان ليسا حكم قيمة بل حكم واقع . والوسط غائب لا عن عجز عن الجمع أو عدم رغبة فى التوفيق أو عدم قدرة على ايجاد الوسط المتناسب فى أخلاق تعريف الفضيلة فيها هو أنها وسط بين طرفين . بل ان هذه الثنائيات المتعارضة موجودة أيضا عند المتكلمين والفلاسفة مثل : الحادث والقديم ، المادة والصورة ، الحركة والسكون ، المعلول والعلة ، الممكن والواجب ، الواجب بغيره والواجب بذاته .. الخ . وهى ثنائية الأرض والسماء ، العالم والله ، الشيطان والملاك ، الرذيلة والفضيلة ، الشر والخير ، العقاب والثواب ، النار والجنة ، الدنيا والآخرة ... الخ . تلك الثنائية فى التصور هى أساس الثنائية فى السلوك .

فان قيل : ان هذه الثنائيات موجودة لدى كل شعب ، وسمة عامة فى كل شخصية قومية . فالياباني مثلا مؤدب للغاية على السطح ولكنه فى نفس الوقت عنيف للغاية فى الاعماق . متواضع الى درجة الانحناء فى الشكل ، ومغرور الى درجة العنصرية فى المضمون . والامريكى ساذج بسيط مسالم طبيعى من الخارج ولكنه همجى فظ غليظ وحشى اذا ما انطلقت غرائزه كما يظهر فى أفلام رعاة البقر وفى الحروب . والفرنسى متحضر يحب الفكر واللغة والثقافة والأدب والفن . ولكنه

كاره للحضارة وللغة وللثقافة اذا ما خرج على حدود فرنسا الى الجزائر أو أفريقيا أو آسيا . والالمانى مثالى النزعة كما وضح ذلك فى المثالية الالمانية ولكنه فى الواقع مادى أنانى لايتحرك الا بدافع المصلحة .. الخ. فاذا كانت هذه الثنائية صحيحة وعامة لدى كل الشـعوب فهل يمكن تعميمها حتى تصبح مقولة نظرية عامة أو بنية صورية خالصة تقوم على الجمع بين النقيضين وتتوحد فيها شخصيات الشعوب ؟ ان ذلك يقوى التحليل ولا يضعفه ، ويعطيه ابعاد شاملة لا يدعيها ، وطموحا علميا لم يهدف اليه .

وسنحاول فى السمات القادمة وصف كل تناقض فى سلوكنا القومى محللين اسبابه ومقترحين وسيلة للجمع بين النقيضين كنوع من اعادة بناء الشخصية القومية من أجل اكتساب صفات جديدة . فاذا كانت الظروف الاجتماعية والتاريخية وراء اكتساب النقيضين فيمكن لظروفنا الجديدة ورغبتنا فى تجاوز ما نحن فيه من شتات وتشرذم أن تؤدى الى اكتساب سمة جديدة نجمع فيهـا بين النقضين . وبالتالى تقل الهوة بين الطرفين المتباعدين بدل أن نشكو من التطرف ونخشى من المتطرفين . ويمكن اجمال هذه السمات فى اثنى عشرة سمة على النحو الآتى :

١ ــ **المستور والمفضوح**(٥) : اذا كان التعبير هـو أحـد مظاهر السلوك من خلال اللغة ، فاللغة سـلوك ، والخطاب فعل ، فان أول تناقض يظهر فى سلوكنا القـومى هو تناقض المسـتور والمفضوح ، السر والعلن أو ما سماه القدماء ، الظاهر والباطن ، التجلى والستر ، الجلاء والخلفاء . فغياب الصراحة هو سلوك على مسـتوى القـول والمعنى ، ان يفيد القول معنى غير المقصود منه لفظا . التعبير لدينـا ليس مطابقا للمعنى المقصود . انما يكون أقل فيخفى أو أكثر فيفضح . لايعبر المتكلم عن كل ما يقصد الارمزا أو ايماء ، أو يفيض بعبـارات اكثر مما يتحمل القصد . العبارات ضيقة أو واسعة ولكنها ليسـت

---

(٥) أنظر « المستور والمفضوح » فى هذا الجزء الاول : الدين والثقافة الوطنية ، ١١ ــ معارك فى الثقافة الوطنية ×

على القدر والمقاس • أصبح للكلام مدلول أقل أو مدلول اكثر • وقد يكون للكلام مدلول معارض • قد تعنى نعم لا ، وقد تعنى لا نعم • قد يعنى الرفض القبول ، وقد يعنى القبول الرفض على ما عرف فى البلاغة القديمة : المدح على سبيل الذم والذم على سبيل المدح • لذلك ظهر فن التأويل ، ومعرفة القصد ، والدخول الى الباطن ، والتعرف على السرائر ، وسبر الاغوار • وأصبح للقرآن سبعة أحرف أى سبعة أعماق للتفسير • وازدهرت الباطنية بصرف النظر عن فضائحها • وتردد بيننا سؤال : ماذا يعنى ؟ ماذا يقصد ؟ والمعنى فى بطن الشاعر • أصبحت اللغة وسيلة لاخفاء المشاعر الحقيقية • وقد وضح ذلك فى سورة آل عمران « آيتك ألا تكلم الناس ثلاث أيام الا رمزا •• » فالسكوت نطق عن طريق التعبير الأقل • والنطق سكوت عن طريق الثرثرة ، وتحصيل الحاصل ، وفك المجالس • لذلك كثر صمت الصوفية ، وعبروا عن مواجيدهم بالرمز • ولهذا كثرت ثرثرة الفقهاء ، وملأوا المجلدات بالفتاوى والخطب ، وسخر شعراؤنا من الفيهقة والفأفأة والحذلقة •• الخ

وفى نفس الوقت تتعدد ظواهر الثرثرة فى حياتنا اللغوية • وتمثلت فى الآداب الشعبية فى شخصية « الست الرغاية » أو فى شخصية « أبو لمعة » • كما تظهر فى حديث الطلاب فى الصفوف الأخيرة فى الفصول الدراسية ، والحديث فى وسائل المواصلات العامة وفى الطرقات خاصة وقت الحوادث ، وتجمهر الناس ، والتطوع بالنصائح حتى يكثر اللغط ، ويزداد الصراخ • كما يسمع الصوت المرتفع داخل الأسرة وفى حديث الأفراد فيما بينهم لساعات طوال ، وفى الأحاديث التلفونية وكأن بعد المسافة يمكن تجاوزها بالصراخ عبر الاسلاك ، وهى الظواهر التى قصدها الشاعر الحديث باشارته الى العنتريات التى ما قتلت ذبابة ، منطق الناى والربابة ، وهو ما يعادل الانفعال الزائد فى وجداننا القومى والذى يظهر فى تملكنا فنون الخطابة وأساليب الاثارة وبراعتنا فى فنون الكلام حتى أننا جعلناها احدى صفات الله •

ومع ذلك يمكن تقليل المسافة بين الطرفين عن طريق وضع الكلام

على قد المعنى حتى يصبح للكلام ثقل ، ويقوم بدوره فى ايصال المعانى. « واغضض من صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » ، والقصد فى القول أكثر مدعاة للتصديق . وهذا هو تعريف البلاغة القديم : اختيار القول طبقا لمقتضى الحال . ويسهل ذلك اذا ما اقتضى القول فعلا ، والكلام عملا .

٢ ــ **القول والعمل**[٦] : وتبدو ثنائية القول والعمل فى عديد من النشاطات الوطنية فى أجهزة الاعلام وفى الخطب السياسية وفى حياة الأسرة . ولاتزال الصيحة القديمة منذ الاصلاح الدينى « ما أكثر القول وأقل العمل » . وما تزال آيات القرآن الكريم تحث « يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون » . فالقول فعل ، واللغة سلوك . القول اعلان ، والفعل التزام . أما وظيفة اللغة عندنا فانها تطهير للأزمات النفسية الناتجة عن الضنك وشظف العيش . اخراج الكلمات أشبه بعمليات الافراز البيولوجى التى يشعر الانسان بعدها بالراحة . ومن هنا أتت أهمية الخطاب السياسى الذى ينتظره الناس فيريحهم نفسيا بعد سماعه وكأن مشاكلهم قد حلت وأزمتهم قد فرجت . الكلام « فك مجالس » . وفى المثل الشعبى « اسمع كلامك يعجبنى أشوف أمورك استعجب ! » أو « خد من كلام الشيخ ولا تأخذ من أفعاله » أو « كلام الليل مدهون بزبدة يطلع عليه النهار يسيح » . وهى نفس الثنائية بين الظاهر والمؤول ، وعدم تطابق اللفظ والمعنى . ولكن هذه المرة مع دخول الفعل كطرف مقابل للقول . وهو أيضا ما يعادل الانفعال الزائد فى وجداننا القومى . فالقول هنا انفعال وليس سلوكا . وفى المثال الشعبى أيضا « الكلب اللى يهوهو ما يعضش » . ونضع قادتنا موضع السخرية وهم يخطبون أمام الميكروفونات ، ومن مسؤولينا وهم يصرخون بأن المشاكل قد حلت ، وبأن الأزمات قد اختفت . وبأن عنق الزجاجة قد تم تجاوزه . وكله «كلام جرائد » أو « تصريحات

---

(٦) أنظر دراستنا : « التفكير الدينى وازدواجية الشخصية » ، قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فى فكرنا المعاصر ، ص ١١١ ــ ١٢٧ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

مسؤولين » أو « كلام فى الهوا » • وكذلك ارســـال برقيـــات التأييد للمحاربين ، وبرقيات الاستنكار للمعتدين ، ووضع الهمة فى اصـــدار قرارات لمجلس الأمن للدفاع عن الحقوق ، وشجب الاعتداء • وتبدو سهولة القول فى أنه مجرد مخارج للألفاظ عن طريق الشفتين ، وتحريك اللسان • لذلك عرف القدماء المسلمين بالشـــهادتين بصرف النظر عن الفكر أو الاعتقاد أو السلوك • أصبح القول مكتفيا بذاته لا يحيل الى شىء خارج عنه ، لا الى فكر ولا الى فعل ولا الى وجود • يعقد مؤتمر اصلاح التعليم ، وتقدم الأوراق ، وتقال الخطب وكأن التعليم قـــد تم اصلاحه بالفعل • ويلقى تصريح عن أهميـــة الديمقراطية وأنه لا رجعة عنها وكأن الديمقراطية قد مارسناها بالفعل • فالكلام يتحقق بمجرد الاعلان دون توسط الفعل • « فى البداية كانت الكلمة ، وكانت الكلمة مع الله ، وكان الله هو الكلمة » • وقد دفع ذلك أحد الشعراء المحدثين فى الغرب الى السخرية من ذلك لأنه « فى البداية كان الفعل »• « كن فيكون » تدل أيضا على الانتقال من الكلمة الى الشىء دون توسط الفعل • وان جاز ذلك لله فقد أجزناه أيضا للانسان • ولكن الله تكلم وخلق فى حين أن الانسان تكلم ولم يخلق شيئا •

أما العمل فهو كالقول الضيق نظرا لأنه يتطلب التحقيق والانجاز والتأثير والفاعلية كما يتطلب رؤية للواقع لا يعطيها القول • العمـــل يقتضى توجيه الطاقة لا من خلال اللسان بل عن طريق اليد ، ليس بالاعلان النظرى ولكن بالتغيير الفعلى • لذلك ارتبط الايمـــان بالعمل فى القرآن الكريم • وأصرت الخوارج قديما على أن من لا عمل له لا ايمان له • بل أن بعض صياغات الدعوة الى العمل فى القرآن الكريم انمـــا تتم بالقـــول مثل « قل ياقـــوم أعملـــوا على مكانتـــكم انى عامل » (٦ : ١٣٥) : « وقـــل اعملوا فســـيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون (٩ : ١٠٥) •

ويمكن تقريب المســـافة بين الطرفين وتحييد النقيضين عن طريق التوسط وهو أن يصبح العمل هو القول • فالعمل قول مرئى كما أن

القول عمل مسموع • والقول المرئى أفضل من العمل المسموع • وبالعمل يتم التمايز « ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم » وبالقول يحدث التشابه • بالعمل يقع التفرد ، وبالقول يتكرر الأفراد •

٣ ــ **الحزن والفرح** : ومن المسلم به أن أحـــد سمات الشخصية القومية هو التناقض بين الحزن والفرح ، الهم والمرح ، البكاء والضحك ، النواح والقهقهة ، والتشاؤم والتفاؤل •• الخ • وفى القرآن الكريم جمع بين الاثنين « وأنه هو أضحك وأبكى » (٥٣ : ٤٣) ، وكما فعل ذلك الشاعر العربى فى قوله « ولكنه ضحك كالبكى » • ويظهر طابع الحزن فى صوت الناى ، وهى الآلة الموسيقية المميزة للموسيقى العربية ، وفى المآتم والمعازى كأحد المظاهر الاجتماعية ، وفى قول « اللهم اجعله خيرا » أو « اللهم اخزك ياشيطان » اذا ما زاد الانسان فى الضحك أو أكثر فى المرح • وفى الفن المصرى القديم كانت هناك النائحات والنادبات كأحدى الوظائف الاجتماعية • وقد أكثر الصوفية من الاشادة بالحزن وتحريم الفرح فان الله لا يدخل قلب عبـــد فيـــه مزمار ! وأصبح أبو الحســن البصرى ورابعة العدوية من أئمة الصوفية الأوائـــل لتركزهمـــا على الحزن ، الحزن مع الخوف عـــند البصرى ، والحزن مع المحبة عنـــد رابعة • لا يقول الأول « واحزناه » بل « واقلة حزناه » ! لذلك كانت من وصايا الاسلام الأولى وأقواله « ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعـــوة الجاهليـــة ! » قـــد يكون السبب فى ذلك كثرة ما توالى على البلاد من هموم وأحزان بسبب الغزو الخارجى أو القهر الداخلى • فكثيرا ما أتى الغزاة فدمروا البلاد ، وقتلوا الرجال ، وشردوا النساء ، وخطفوا الأطفال واسترقوا العبيد ، وهدموا المعابد وعاثوا فى الأرض الفساد • وغالبا ما كان الحكام يفعلون نفس الشىء ، مطاردة الخصوم السياسيين وجباية الضرائب قهرا من الفلاحين • وما زالت « شكاوى الفلاح الفصيح » عنصرا دائما فى الأدب الشعبى • كان الفتك وشظف العيش والفقر نمط حياة دائم عند الغالبية العظمى من الشعب •

وفى نفس الوقت تظهر سمة الفرح والمرح والضحك والتى تظهر

فى النكتة والقفشة والقافية لدرجة أن المسرحية قد تتكون أساسا من مجموعة من القفشات عندما يدخل الابطال معا فى « قافية » أمام ضحك الجمهور المتواصل بصرف النظر عن الموضوع والخط الدرامى للمسرحية . بل تعقد جلسات خاصة للمرح للظرفاء ولتبادل آخر النكات سواء فى حلقات الشراب أو المخدرات أو بدونها فى اجتماعات بين الاصدقاء فى حلقات الندماء والظرفاء وكما امتلأت بهم الأداب القديمة وكتب الروايات . وأصبح الهزل سمة دائمة فى السلوك الوطنى ، حتى الهزل من الجد كما أشار الى ذلك القرآن الكريم « أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون » (٥٣ : ٦٠) . وقد قيل فى الامثال العامية « شر البلية ما يضحك » .

ويمكن لهاتين السمتين المتعارضين أن يتحققا فى سمة متوسطة ثالثة فى روح السخرية أولا ثم فى العقلية الناقدة ثانيا . فالسخرية هى الجد الهازل ، والحزن المرح ، والمرارة الضاحكة . أما النقد الاجتماعى فهو الذى يجمع بين السمتين حيث يظهر البكاء والحزن فى روح الرفض ، والمرح والفرح فى روح الالتزام . يظهر الحزن فى الغضب والتمرد ، ويظهر الفرح فى الثورة والانتصار .

٤ ـ **الحرام والحلال** : ونظرا لتراكم طويل من الشرائع ولقوانين تحول العالم كله الى منطقتين : الحرام والحلال . والبداية بالحرام أى بالكف عن السلوك والاشتباه فى العالم . فالعالم حرام حتى تثبت براءته . فاذا ثبتت أصبح حلالا . الاشياء فى الأصل على التحريم وليست على الاباحة كما قال القدماء . واتجاهنا نحو العالم هو نفس اتجاهنا نحو الفرد . فالانسان مجرم حتى تثبت براءته ، وليس بريئا حتى تثبت ادانته . لم يترسب فى أعماقنا ما قاله الأصوليون عن البراءة الأصلية أو براءة الذمة أو أن الاشياء فى الأصل على الاباحة . ويظهر ذلك فى مظاهر التزمت التى تبدو فى حياتنا والتى تزداد يوما بعد يوم مع تساؤلنا المستمر عن حرمة الاشياء وتوجسنا خيفة من العالم وكأنه شيطان نجس نتعوذ منه ! وقد سخر محمد عبده من انسان يرفع رأسه

الى أعلى ليسأل عن ماء سقط عليه اذا كان طاهرا أم لا حتى لا ينقض وضوءه ! وقديما سخر عمر من انسان وجد بلحة على الأرض فأحضرها له سائلا هل يأكلها أم لا لأنه لا يعرف من أية شجرة سطقت ، ومن يملكها ، وهل أكلها حلال أم حرام قائلا : « كلها يا ذا الورع الكاذب » !

وفى نفس الوقت الذى يطغى فيه الحرام على الحلال ، والشبهات على الواضحات ، ومن كثرة التزمت يتم رفض كل شىء بعنف ، والتحول من النقيض الى النقيض ، ومن طرف الى طرف . فيتم تحليل كل شىء مرة علنا ومرة خفاء طبقا لضروريات الحياة وللصراع من أجل البقاء . بل ان الحرام نفسه تحول الى تجارة للكسب والتعايش مثل تجارة الجنس والخمور ، والتجارة فى المصاحف والكتب الدينية ، والكسب من وراء الزى الاسلامى ، وتأسيس شركات توظيف الأموال وبنوك التقوى والصدقات لأن الله حلل البيع وحرم الربا ! وقد يتحول الفرد فى سلوكه من النقيض الى النقيض ، من التزمت الى الاباحية ، ومن الايمان الى الالحاد ، ومن الزهد الى الجشع . يبدأ الانسان متزمتا وينتهى منحلا أو يبدأ منحلا وينتهى متزمتا كما هو الحال عند عمر الخيام ورابعة العدوية . ويظهر ذلك أيضا فى المعيار المزدوج لرب الأسرة ، التزمت للآخرين والاباحية لنفسه كما هو الحال فى شخصية السيد عبد الجواد فى الثلاثية .

ويمكن تقليل المسافة بين الطرفين المتناقضين فى الاتجاه الطبيعى . فما يقوى الطبيعة ويزهرها فهو الحلال . وما يقضى على امكانياتها فهو الحرام . السلوك الطبيعى هو الذى يتمايز فيه الحلال والحرام . وهو السلوك الفطرى . فكل انسان يولد على الفطرة ثم يأتى التحليل والتحريم بعد ذلك من المجتمع ومن خلال الشرائع الاجتماعية .

٥ ـ **العشوائية والقصد** : وفى سلوكنا القومى يغيب المنهج تصورا وفكرا وممارسة . لا يوجد طريق يوصل الى شىء ولا توجد خطة طويلة الأمد لتحقيق مشروع قومى يستغرق عدة أجيال . لذلك يضيع الوقت ويتشتت الجهد ، وتكون قراراتنا بنت الساعة ولهدف مؤقت ، يتغير بتغير الاشخاص والأنظمة السياسية . ويتضح ذلك

أيضا فى حركة سير المرور فى الطرقات ، والاعتماد على الجهد الذاتى الصرف بلا قانون أو نسق لدرجة أن أحد زعماء الصهاينة قال مرة « لو انتظم المرور فى القاهرة لبدأت اسرائيل تخشى ! » .

وفى نفس الوقت هناك الحس الشعبى البديل الذى يغنى عن المنهج ، بداهة ابن البلد وفطرة رجل الشارع ، اعتمادا على ما اكتسبه الناس من تراكم تاريخى طويل اكسبهم مقدرة على العيش حتى فى أصعب الاوقات وهو ما يسمى بالسليقة أو الفطرة أو التجارب المكتسبة أو حكمة السن « أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة » . وكثر الاعتماد على الامثال العامية والحسى الشعبى . لذلك لم يكن التعليم بذى قيمة . يكفى تجربة العمر . ليست الأمية هى الجهل ، فالأمى قد يكون متعلما والمتعلم قد يكون جاهلا . وكان النبى أميا . وكان المتعلم الذى يجعل نفسه خادما لكل نظام جاهلا . ولقد تم حفظ القرآن سماعا قبل تعلم القراءة والكتابة . وقد يحصل الانسان على مجموعة من المعارف الدينية والدنيوية ما قد يستغنى بها عن التعليم كما كان الرسول والصحابة الأوائل قبل أن يتحول الاسلام الى حضارة ، والدين الى دولة ، وأعراب الصحراء الى معلمى البشرية .

ويمكن الجمع بين النقيضين عن طريق صياغة منهج فطرى لاتكون خطواته مضادة للفطرة ولا يكون قاصرا أو ناقصا أو جزئيا . هذا منهج تجريبى للعلوم الطبيعية ، وهذا منهج عقلى للرياضيات ، وهذا منهج ذوقى للفنون . فالفطرة ليست مجرد سلوك بالسليقة ، وحكم بالبداهة والتلقائية ولكنها فطرة تعتمد على النظر والمران . لقد كانت لحظات التقدم فى تاريخ الفكر البشرى هى لحظات اكتشاف المناهج . فالمنهج هو القادر على حل المشكلات مرة واحدة ، قياسا للاشباه بالاشباه والنظائر بالنظائر . ولقد استطاع علم الأصول عند القدماء تأسيس منهج وهو القياس أصبح دعامة للاستدلال ، وطريقة لاستباط الأحكام ، واستنباطا للمجهول من المعلوم . ولكنه لم يعش فى شعورنا القومى كما عاشت القوة المسيطرة على العالم بلا قانون أو مبدأ .

وبمجرد أن تم تشخيص هذه القوة وتحويلها الى مسيطر أو ساحر أصبح العالم عشوائيا يصعب السيطرة عليه ، وعاش الانسان فيه بليدا فاقدا قوة الايمان وثقة العقل[٧] .

٦ ــ **الوفرة والندرة** : ومن سمات سلوكنا القومى الوفرة فى مجتمع الندرة أو الندرة فى مجتمع الوفرة . فبالرغم من نقص المواد الغذائية الا أن عادات الطعام أقرب الى مجتمع الوفرة . وبالرغم من نقص الثروة الحيوانية الا أن اللحم هو الغذاء الدائم للقادر . وفى بلد يستورد ٧٠٪ من قمحه مازال غذاؤه الأول هو الخبز . وفى الدعوات تزدحم الموائد ، ويكثر الفاقد . ويمتد جدل الوفرة والندرة الى التعليم . ففى بلد تعم فيه الأمية تكون فيه أكبر طبقة من المتخصصين وحاملى الدكتوراه ، الهرم المقلوب فى التعليم . وفى أساليب البناء ، بذخ الاسكان الفاخر وزخرفة القصور فى مقابل الاكواخ وقاطنى الارصفة . قد تكون للبيئة الجغرافية أثر على ذلك ، سكان الوديان فى مقابل سكان الصحراء . فمثلا يسكن المصريون فى ٤٪ من مساحة البلاد فى مقابل ٩٦٪ صحراء جرداء .

وفى نفس الوقت الذى نسلك فيه سلوك الوفرة فى مجتمع الندرة ، نسلك أيضا سلوك الندرة فى مجتمع الوفرة مثل نقص العمالة المتخصصة وسط كم هائل من العمالة غير الفنية الزائدة . حرف تعز فيها العمالة فى مواجهة بطالة مقنعة . وأصبح التقابل واضحا بين ندرة السباك والكهربائى والنجار والحداد والمبيض ووفرة الموظفين والافندية وأصحاب المكاتب وحملة الشهادات . وندرة المبدعين المجددين وسط الجماهير الغفيرة من المثقفين والعلماء الناقلين للمعلومات . وهى نفسها ندرة المعارضة أمام السلطة بالرغم من تفاقم الاوضاع ، وحدة الأزمة وغليان الموقف .

ويمكن الجمع بين النقيضين عن طريق ايجاد التطابق بين العادات اليومية ومعطيات البيئة . فندرة المواد الغذائية تقتضى الاقتصاد فى الغذاء كما وزيادته كيفا كما هو الحال فى المجتمع اليابانى . وندرة العمالة

---

(٧) انظر الدراسة السابقة « مخاطر فكرنا القومى » .

الفنية وسط الكم الغفير من الخريجين النظريين تقتضى اعادة صياغة سياسة التعليم والقبول بالجامعات . يمكن الاعتماد على الندرة فى مواطن الندرة مثل الابداع العلمى والفنى ، والاعتماد على الوفرة فى مواطن الوفرة مثل غزو الصحارى ، ومحو الأمية ، وشق الطرق ، واقـامة الجسور والمسيرات الشعبية والتجمهر للمعارضة السياسية .

٧ ــ **العـام والخاص** : وكثيرا ما نخلط بين القضـايا الخـاصة والقضايا العامة . ندافع عن الخاص كباعث فى اطار العام كخطاب . وبالتالى يكون تفسير الخطـاب ليس فى منطق الالفـاظ بل فى منطق البواعث . صحيح أن الذاتية لاتنفصل عن الموضوعية بل هى شرطها الا أن هناك فرقا بين الذاتية الخالصة التى هى أقـدر على التجـرد والوصول الى العام من خلالها وبين ذاتية الهوى والنسبية والظروف النفسية والاجتماعية التى تقضى نهائيا على الموضوعية والصالح العام . لذلك كثر تغيير القوانين طبقا لمصالح من يصدرها . وتضاربت اللوائح تبعا لتضارب المصالح . ومن هنا أيضا اتت التضحية بقضايا الوطن ، وضعف حس الانتماء ، وغاب المشرع القومى الموحد للبلاد ، وتحـول الشعب الى افراد ، كل يبحث عن صالحه الخـاص . وأصبح الوطن مصلحتى ، والدولة مقدار ما تقدمه لى من تسهيلات .

ومع ذلك ، وفى ساعات العسرة ، وفى وقـت الخطر ، تظهر الروح الوطنية العامة ، وتمحى المصالح الشخصية ، وتطغى المصلحة القومية الواحدة . حدث ذلك فى ثورة عرابى ، وفى ثورة ١٩١٩ ، وفى ثورة ١٩٥٢ وفى حرب ١٩٦٧ ، وفى حرب ١٩٧٣ سواء كانت المبادرة من جانب الدولة أو كانت الثورة من جانب الشعب . يضحى الأب فى سبيل الأسرة ، والابن الاكبر فى سبيل تربية الاخوة الصغار فى حـالة وفاة الأب . وكذلك تضحى الأم « الشغالة » اذا ما فقدت زوجها لتربيةأولادها .. الخ

ويمكن التوسط بين هاتين الســمتين ايثارا للصالح الخـاص على الصالح العام ثم التضحية بالصالح الخاص من أجل الصالح العـام بأن تشعر الأمة بلحظات الخطر باستمرار وألا تسـتكين او تستسلم

أو أن تدخل فى معارك جانبية أو وهمية ، وتترك معركتها الرئيسية • ففى لحظات الخطر والصراع من أجل البقاء تتراجع المصالح الخاصة فى سبيل الصالح العام • طالما أن الفرد يشعر بالمواطنة وبأنه ينتمى الى كل فان تحقيق مصلحة الكل فيه تحقيق لمصلحته الخاصة • ومن هنا تأتى أهمية تربية المواطن ودور الدولة فى أن تكون لكل المواطنين• كما تقل الهوة بين المصلحتين المتعارضتين عن طريق وجود نظام سياسى تتحد فيه المصالح الخاصة بالمصلحة العامة مثل عدالة التوزيع ، وحرية المواطنين ، وحق المواطن فى التعليم والعمل والاسكان ، والمساواة فى الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين •

٨ ــ **القدرة والفردية** :وبالرغم من تشخيص العلاقات الاجتماعية والعلاقات المهنية والعلاقات السياسية الا أن الفرد لا يأخذ زمام المبادرة ، ويترك نفسه تسيره الأمور خاضعا لمجرد الحوادث بلا تمايز بينه وبينها وبلا مفارقة • يخضع للقدر ، ويستسلم للقضاء ، ويغنى للمقادير • لايبدأ فعل شىء الا فى أضيق نطاق مع أن غياب النسق يسمح بابراز المواهب الفردية فى تسيير شؤون العمل بلاقانون واعتمادا على العلاقات العامة • هذه المواهب الفردية وظيفتها تسيير الامور وعدم تعطيل المصالح وليس لخلق جديد • وفى الامثال العامة « الكون له رب يسيره » ، « ماحدش يقدر يعدل نظام الكون » • وما أكثر الأغانى والمواويل الشعبية التى تتناول المقادير التى ترمى بالانسان على غير ارادته •

وفى نفس الوقت الذى تمحى فيه المبادرة يظهر نشاط الانسان المكتوم فى صورة مرضية وهو حب الظهور ، والتقرب للرؤساء ، وأخذ مكان الصدارة ، والحديث فيما يعلم وفيما لا يعلم ، والافتاء فى كل شىء فيصبح شخصية اعلامية اجتماعية مرموقة • ويصبح نجما فى فريق الكرة ببطولاته الفردية • فتقوم الهيئة أو المؤسسة على اكتاف رجل واحد يعمل ، تتكدس فوق مكتبه الملفات ، والآخرون لا يفعلون شيئا • كيف فى مقابل كم ، وبطولة مطلقة فى مقابل لامبالاة تامة • لذلك كثرت

مفاهيم البطل الأوحد ، والفارس المغوار ، وابن البلد ، والفتوة ، والجدع وأصبح التاريخ كله من صنع الابطال • ينتظر الناس المخلص والامام الذى سيملأ الارض عدلا كما ملئت جـورا • لذلك قيل علينا من بعض فلاسفة الغرب « فى الشرق واحد حر ، والباقى عبيد » !

ويمكن تجاوز القوة بين النقيضين عن طريق اذكاء الوعى القومى حتى يمحى الفرق بين الانسان العادى والانسان المتميز ، بين الصفوة والجماهير ، بين الشعب والقادة • ويمكن اعادة كتابة التاريخ واعادة بناء الموروث الدينى الطويل بحيث تبرز قيمة الجماهير فتقل عبادة الابطال • وان النصب التذكارى للجندى المجهول لاكثر دلالة على روح الأمـة وحيوية الشعب من تماثيل القادة والزعماء •

٩ ــ **الفوضى والنظام** : ولا يوجد قانون عـام ينظم العلاقـات الاجتماعية بل تتحكم فيها العلاقات الخاصة والقـدرة على التأثير • فنشأت شخصيات الظريف والفهلوى والحدق والجذاب والاجتماعى • سبقت العلاقات الشخصية النظرة الموضوعية وأصبح الاستلطاف شرط النجاح ، وسماحة الوجه ، وحسـن المعاشرة ، وطـول الألفة ، وعمق الصداقة المدخل لانجاز العمل • ولما كانت هذه متغيرة توقف العمل وسار مرة أخرى ، تحقق على هذا الوجه ثم تحقق على الوجه الآخر • تم الانجاز فى حالة فى غمضة عين ، وفى حالة أخرى استغرق السنين الطوال • ولم يعد يتم شىء الا بواسطة أو معرفة أو علاقات شخصية أو تقديم أو قرابة أو رشوة صريحة أو مقنعة • أصبح العمل همـا ، والانجاز ثقيلا على النفس • ويحمد الانسان الله على أن أوراقه قد تم اعتمادها من كل المكاتب وأنه حصل على التوقيعات من كل الرؤساء وأنه « فتح عينه » أو فتح مخه » وقام بأداء اللازم •

واذا صدر قانون فانه يكون وفقا لمصلحة خاصة أو لجمـاعة ضغط معينة • فكثرت القوانين وتضاربت فى موضوع واحد وفى فترة وجيزة كما هو الحال فى القوانين الاقتصـادية ، وقوانين الجمارك ، وقوانين الاستيراد والتصـدير ، وقوانين العملـة • فخـاف الناس أن يفعلوا

شيئا خشية أن تتغير القوانين فيضيع عليهم جهد العمر . وان غياب القانون على مستوى العلاقات الشخصية فى العمل يمتد أيضا ويصبح غيابا كاملا للنسق فى أية مؤسسات عامة . فلا يوجد قانون ، ولايوجد هدف ، ولا توجد قضية . وكل شىء متروك للأمزجة الفردية والعلاقات الشخصية . وفى غياب النسق تشخص المؤسسات ، وتصبح تعبيرا عن رؤية مديريها وأمزجتهم الخاصة .

وفى نفس الوقت يتسم سلوكنا القومى بطاعة حرفية للقانون لدرجة التضحية بمصالح النـــاس بحجـــة اللوائح التى لاتســـمح أو القوانين التى تمنع . فوقعنا فى البيروقراطية ، وعـــاش الانســـان للقانون ، ولم يعش القانون للانســـان . وكيف يدافع الموظف عن مصلحة المواطن وهو يخشى مخالفة القانون وما يترتب على ذلك من جزاء ؟ وكان رمز شخصيتنا فى التاريخ « الكاتب المصرى » رمز جامعة القاهرة ، وكان اهم جزء فى الدولة الأرشيف ، وأهم جريدة منذ قيام الدولة الحديثة « الوقائع المصرية » بالرغم من عـــدم وجود فلســـفة للقانون .

وقد يكون السبب فى هذا التناقض بين الفوضى والنظام هو غياب مفهوم النظام أو النسق من ثقافتنا القومية . فالعالم تسيطر عليه ارادة قوية وسلطان مطلق ، لايخضع لقانون ولا يسير وفقا لنظام . وهو تصور قديم موروث منذ اكثر من الف عام كان القصد منه احكام سيطرة الحاكم على الدولة ونزع الشرعية من تحت أقدام المعارضة ، وتثبت نظام الحكم واطلاق سلطة الحاكم . فلما استتب الأمر احتاجت الدولة الى قوانين لتدبير شؤون الدنيا . واستمرت هذه القوانين دون أساس نظرى لامن عقد اجتمـــاعى ، ولا من ارث تاريخى ، ولا من أساس وضعى يقوم على رعاية مصالح الناس . فأصبحت قوانين فارغة سرعان ما تحولت الى لوائح ميتة والى بيروقراطية عقيمة .

ويمكن تضييق الهوة بين غياب القانون وحضوره البيروقراطى عن طريق صياغة قانون يقوم على رعاية مصالح الناس ، لا عن ارادة حاكم ،

ولا عن ارث تاريخى طويل . القانون ما هو الا تشريع لمصالح الناس ، وفرض لارادة الجماعة ، وقوة لا شخصية يخضع لهـا الجميع طوعا واختيارا .

١٠ — **الطاعة والعصيان** : وأمام القانون يبدو سلوكنا القومى فى سمتين متناقضتين : الطاعة والعصيان سواء كان هذا القـانون فى مصلحة أو هيئة أو مؤسسة أو متجسدا فى الدولة ذاتها رمز القانون . ففى سلوكنا القومى احساس عام بالطاعة والولاء للدولة . الطاعة هى الأساس والعصيان هو الاستثناء . الدولة على حق باستمرار والمعارض على خطأ دائما . وعلى مدى عصور التاريخ نشـأت الدولة المركزية تسيطر على كل شىء ، تحـدد ارزاق الناس وتقـدر مصائرهم ، فنشأت فى قلوب الناس هيبتهاواحترامها فى شخصية شيخ البـلد ، والعمدة ، وشرطى المرور ، وضابط النقطـة ، وكل ذى بذلة صفراء وزرائر نحاسية بما فى ذلك محصل المركبات !

ومع ذلك فلدينا لذة العصيان ، والتحايل على القانون ، وايجاد بديل آخر له ، قانون شخصى وشعبى وانسانى اكثر عدالة واكثر فاعلية من قوانين الدولة وسلطانها . ويتضح هذا الخلاف فى الاســعار ، بين اسعار الدولة وأسعـار الســوق ، وفى قواعد المرور ، قواعـد المرور العامة النظرية التى لايتبعها أحد ، وقواعد المرور الخاصة التى تعتمد على المهارة والخدق مادامت الغاية واحدة ، الوصول الى المكان المطلوب فى أسرع وقت وبأقل تكلفة مع اكبر قدر ممكن من الامان . ولاتبدو مظاهر العصيان فى مجرد الرفض السلبى لقانون الدولة بل التحايل عليه بالتأويل والتخريج وتكييف حكم القوانين وتطبيقها طبقا للمصالح أو اصدار لوائح وقواعد مفسرة تفرغ القانون من محتواه وتحاصره وتجعله يفيد النقيض . ويمكن ايضا الاستثناء من القانون وكأن الشرع هو أول من يخرق نفسه . ويمكن تطبيقه على البعض دون البعض ، على العامة دون الخاصة . وفى كثير من الاحيان يسقط القانون كلية بحجة الاعراف والعـادات مثل مجانيـة التعليم النظرية

ثم دفع الاتاوات للمدارس وأخذ الدروس الخصوصية عمليا ، ومثل ملكية الأراضى الصحراوية بوضع اليد ... الخ .

ويمكن تجاوز الطاعة والعصيان عن طريق قانون وضعى يقوم على المصالح العامة وتنفذه سلطة باختيار الشعب كما هو الحال فى الشريعة الاسلامية التى ترعى المصالح العامة وينفذها امام المسلمين . والقانون الشرعى مدعاة الى الطاعة لأنه نابع من الايمان وأبعد عن العصيان ومبنى على قناعة شخصية . انما التحدى هو فى تطبيقه فى موضعه الصحيح أو كما يقول الأصوليون القدمـاء فى تحقيق مناطه وتخريجه وتنقيحه أى فى البحث عن علل حكمه حتى يمكن معرفتها فى الواقع . فالقانون الشرعى أقرب الى التطبيق من القانون المدنى بدليل كثرة الدعاوى لتطبيق الشريعة ولما تتضمنه من عقاب دنيوى وأخروى .

١١ ـ **الحقوق والواجبات** : وبغياب القانون الذى يحدد العلاقات الشخصية وغياب النسق الذى يحدد العلاقات العامة يغيب أيضا قانون ينظم علاقة الفرد بالدولة ، أى تغيب فكرة الحقوق والواجبات ، فالواجبات بلا حقوق ، والحقوق بلا واجبات . فلا الفرد مواطن ، ولا الدولة وطن . لذلك يصعب تحديد حقوق الفرد وواجباته تجاه الدولة الا فى حدود آداء الوظيفة والاعراف العامة . فالبعض يؤدى واجباته بلا حقوق ، ويمارس مواطنته دون أن تعطيه الدولة شرف المواطنة . لذلك قاضى كثير من المواطنين الدولة لخرقها الدستور ، واعتدائها على القانون ، وانتهاكها حقوق الافراد . وكان رؤساء الدول والحكومـات والهيئات والمصالح والمؤسسـات أول من ينتهكون القوانين ، ويوقفون اللوائح كما يقول المثل الشعبى « حاميها حراميها » . ومع ذلك تفرض الدولة سلطانها على الأفراد وتطالبهم بأداء الواجبات دون أن تعطيهم الحقوق . فلا الواجبات تتم ، ولا الحقوق يحصل عليها . من حق المواطن التعليم والسكن والمأكل والملبس وحرية القول واختيار نظامه السياسى ، ومن واجباته طاعة القانون والولاء للدولة . والمواطن لن يؤدى واجباته ان لم

يحصل على حقوقه • ولن يطيع القانون الا اذا أعطاه القانون حقوقه ، وحقق مصالحه •

وهناك آخرون يأخذون كل الحقوق غصباً ولا يؤدون أية واجبات • الدولة عندهم مصدر للأخذ وليست مكانا للعطاء • يأخذون السلطة والمال ، ويحصلون على المناصب ، وينالون الشهرة ، ويبيعون البلاد ، ويصالحون الاعداء ، ويهربون الأموال ، ويستذلون الرقاب • هم الاسياد واصحاب الدار ، لا معقب عليهم ولا مراجع لهم • ويسميهم أحد الفلاسفة المعاصرين فى الغرب « الأوباش » •

ويمكن تجاوز هذين النقيضين عن طريق القضاء المستنير الذى يدافع عن الدستور ، ويرعى القانون ، ويحرص على حرمة المواطنين ، يدافع عن حقوقهم قدر الزام الدولة لهم بواجباتهم • المحكمة الدستورية العليا هى القادرة على أن تكون الحكم بين الدولة التى تريد من المواطنين أن يؤدوا واجباتهم وتسلبهم حقوقهم وبين هؤلاء الذين يأخذون حقوقهم دون أن يؤدوا واجباتهم • كما أن تربية المواطن على التمسك بحقوقه وتأدية واجباته واختيار نظام سياسى يقوم على الاعتراف بحقوق المواطنين قبل مطالبتهم بأداء واجباتهم يؤدى حتما الى ربط الحقوق بالواجبات حتى يكون من يؤدون واجباتهم دون حقوق غرباء فى أوطانهم يودون الهجرة وحتى لايكون من يأخذون حقوقهم دون واجبات دخلاء يحلون محل المهاجرين •

١٢ ــ **الصبر والتمرد** : وتجمع شخصيتنا القومية بين سلوكين متعارضين : الصبر بلا حدود ثم الانفجار والتمرد والعصيان • فالصبر والجلد ، والقدرة على التحمل ، والمثابرة ، والانتظار ، والتمهل كلها أصبحت سمات عامة فى سلوك المواطنين والأمثلة شاهدة على ذلك مثل « الصبر مفتاح الفرج » • والقرآن يثبته « اصبروا وصابروا •• » • والصوفية تؤكده • والأغانى الشعبية تتغزل فيه •

ولكن فجأة ، وبلا انتظار يقع الانفجار ، وتحدث الانتفاضة ، وتتفجر الثورة • وقد امتلأ قاموسنا السياسى بأشباه هذه الالفاظ •

وسرعان ماتخبو ويهدأ البركان كى يمتلىء القدر من جديد • ما اكثر الفترات التى يطول فيها الصبر ويمتد السكون ، ومـا اكثر الفترات التى يتفجر فيها القدر ، وتتفجر الثورات •

ويمكن تجاوز هذا التناقض عن طريق النقد الاجتماعى والتطوير والاصلاح من أجل تغيير الوضع القائم • فبدلا من أن يسير التطور فى خطوط منكسرة يمكن أن يسير فى خط متصل صاعد مادام التفكير مكفولا للجميع ومادامت حرية التعبير وحرية الاختيار حقا لكل المواطنين •

قد تكون هناك مخاطر اكثر أو أقل فى سلوكنا القومى ، وقد يكون البعض منها فى حاجة الى مزيد من الاحـكام • ومع ذلك تظل هـذه المحاولة مجرد دق لناقوس الخطر • وان لم يكن لهذه المحاولة أى رصيد علمى يذكر فعلى الأقل تبقى اثارة للأذهان •

مخـــاطر فى وجداننـــا القـــومى

اذا كانت « مخاطر فى فكرنا القومى » تمثل « نقد العقل النظرى الاجتماعى » ، « ومخاطر فى سلوكنا القومى » تمثل « نقد العقل العملى الاجتماعى » فان « مخاطر فى وجداننا القومى » تمثل نقد « الوجدان الاجتماعى » أو بتعبير كانط الشهور « نقد ملكة الحكم الاجتماعى » أى احساسنا بالعالم وشعورنا به من حيث هو غاية أو جمال .

ويصعب الفصل بين الفكر والسلوك والوجدان . فالفكر سلوك ممكن ، ووجدان قبل أن يتحقق . والسلوك فكر متحقق ، ووجـــدان متعين . والوجدان فكر شعورى ، وسلوك فى مرحلة البواعث . لذلك يصعب التمييز أيضا بين مخاطر العقول الثلاثة . فالنظر والعمل والوجدان مظاهر للشعور الواحد .

وتبدو سمة السلوك القومى فى الوجـــدان القومى ألا وهى الجمع بـــين النقيضين ، والانتقال من طرف الى طرف دون توسط بينهما . والانتقال من النقيض الى النقيض دون توسط يدل على جدل الكل ولاشىء ، جدل الايجاب والسلب ، جدل الهدم والبناء . فى حين أن الانتقال من طرف الى طرف عن طريق التوسط هو جدل التاريخ ، والانتقال الطبيعى من مرحلة الى مرحلة . جدل الاضداد يدل على قلق وعدم استقرار وعـــدم وجود خطة قومية مثل اعادة بناء الثقافة الوطنية لتطوير الشـــعور القومى ، ونقله من مرحلة الى مرحلة كما حـــدث فى عصر النهضة ونقل الوعى الأوربى كله من العصور الوسطى الى العصور الحديثة .

واذا كانت بنية الفكر القومى قد وجدت فى خمسة علاقات : علاقة الفكر بالسلطة من أجل التبعية والاستقلال ، وعلاقة الفكر بالواقع لمعرفة مادة الفكر ومضمونه ، وعلاقة الفكر بالمنهج لمعرفة صور الفكر وطرقه ، وعلاقة الفكر بالمؤسسات لمعرفة تحقق الفكر ومواطنه ، وعلاقة الفكر

كتبت هذه الدراسة فى صيف ١٩٨٧ اكمالا للمقالين السابقين « مخاطر فى فكرنا القومى » « مخاطر فى سلوكنا القومى » .

بالتاريخ لتحديد مسار الفكر وحركته فان الوجدان القومى كالسلوك القومى يتحدد فى بنية ثلاثية : الانسان بين عالمين : الوجود والطبيعة أو كما قال القدماء : الله والعالم • تظهر من خلال اثنى عشر تناقضا رئيسيا هى : غياب الطبيعة والتكالب على الأشياء ، غياب البعد الجمالى وحضور الفن للتسلية ، التصور الهرمى للعالم مع تسوية كل شىء بكل شىء ، التصور الرأسى للعالم والسلوك الأفقى فيه ، التدين الشديد وحب الدنيا ، غياب الانسان وتشخيص الفرد ، الاحساس بالزمان بين البطىء والسرعة ، الاحساس بالمكان بين الهجرة والتشبث بالارض ، الانفعال الزائد وغياب الوجدان ، الحب الشديد والكراهية الشديدة ، الارتباط بالقديم وحب الجديد ، وأخيرا قدرية التاريخ ودور الابطال فيه • ويمكن تلخيص ذلك على النحو الآتى :

١ - **غياب الطبيعة والتكالب على الاشياء** : وغالبا مالا نشعر بالطبيعة ، ولا يصدر سلوكنا عنها ، ولا ينبع فكرنا منها • قد تكون ميزة الوثنية القديمة أنها دين طبيعى ، يبدأ الفكر فيها من الطبيعة ، ويتوجه السلوك فيها نحو الطبيعة • نحن لا نعيش فى عالم نسير فيه بالأقدام ولكنا نحيا فى وجود محكوم عليه من أعلى بالفناء • اعتبرنا العالم حادثا ، وجد من لا شىء وينتهى الى لا شىء ، وجد من عدم ، وينتهى الى عدم • وكيف يعيش الانسان فى عالم غير موثوق فيه ، يهتز فى البداية والنهاية • اذا ما ضاع استقلال العالم فان استقلال الانسان أيضا يضيع ! لا وجود لانسان مستقل فى عالم غير مستقل • وقد يكون السبب فى ذلك تراكم حضارى قديم من اعتبار الوجود حادثا لا يستمد بقاءه من ذاته بل مجرد سلم لاثبات الذات القديم • وتلك هى الروحانية الجوفاء التى لامضمون لها والتى منها يتم استلاب العالم فتصبح روحانية بلا قلب ، صورة بلا مضمون •

وفى نفس الوقت الذى تغيب فيه الطبيعة من وجداننا القومى يتجه الشعور نحو التكالب على الاشياء بغية الاستحواذ عليها والامساك بها ، بحثا عن الغائب مع فقد الاتزان والتصور • ويقع وجداننا القومى بين هذه

الروحانية الجوفاء وتلك المادية الصماء . نظرا لأن الطبيعة قد سقطت من الروح فانها تعود من جديد بلا روح وتصبح مادة . ونظرا لأن الروح جوفاء فانها تبحث عن طبيعة وتسرع بالامساك بها فتمسك بالمادة من قوة الدفع والحرص على عدم الافلات . وقد ظهر ذلك فى السلوك اذ يقتل بعضنا بعضا بسبب كوز ذرة ، ويبيع بعضنا بعضا بثمن بخس ، دراهم معدودة . ضاعت قيم المجتمع ، وانفصمت عرى الأسرة ، وانتهت الصداقة بسبب التكالب على الاشياء والصراع على المصالح . يطرد الأخ أخيه من السكن للاستحواذ عليه ، ويقتل الابن أمه لمصاغها وثروتها ، وتقتل الزوجة زوجها للخلاص منه ، ويخطف الأطفال ، ويعتدى على النساء فى نفس الوقت الذى يظهر فيه الحجاب ، ويشتد فيه الوازع الدينى ، وتقام الشعائر على الملأ وفوق رؤوس الاشهاد !

ويمكن تجاوز هذين النقيضين : الروحية العرجاء والمادية العمياء عن طريق وحدة الروح والطبيعة ، الله والعالم على ما ظهر فى تراثنا القديم فى علوم الحكمة فى التوحيد بين علم الطبيعة وعلم ما بعد الطبيعة ، بين العلم الطبيعى والعلم الالهى . فهما علم واحد ذو واجهتين ، وجود واحد ذو طبيعتين . كما وضح ذلك أيضا فى علم أصول الدين فى القول بقدم العالم ، وعند الصوفية فى وحدة الوجود . بل وظهر أيضا عند علماء أصول الفقه فى التوحيد بين النص والواقع ، بين الأصل والفرع ، بين الشرع والمصلحة . لقد تقدم الغرب فى عصر النهضة بالانتقال من الله الى الطبيعة ، من الكتاب المغلق الى الكتاب المفتوح . وهو ما حاوله أخوان الصفا من قبل . ولكن الذى عاش فى وجداننا القومى هو استلاب الطبيعة ، واغتراب الانسان .

٢ — **جمال الطبيعة وتسلية الفن :** وان حضرت الطبيعة من وراء ستار أو من الباب الخلفى على أية صورة كانت فاننا نسلخ منها بعدها الفنى وجمالياتها نظرا لحالة الضنك التى نعيشها . فالطبيعة قدر ما تعطينا من أود الحياة . الخضرة نأكلها ، الورد نصنع منه شرابا . الجمال ترف لا قبل للناس به . الشىء للهضم لا للتأمل ، والمرأة للجنس لا للشعر

الا فيما ندر • لذلك افتخر الغرب علينا بأنه هـو الذى اكتشف الحب والانسان والزمان والتاريخ • وفى المثل الشعبى ، « اللى عاوزه البيت يحرم على الجامع » ، وأيضا « اللى غاوى ينقط بطاقيته » • يصبح القبح نمط حياة ، وتتعود النفس عليه فتفقد احساسها بالجمال • القبح هو القاعدة والجمال هو الشاذ • نصاب بالغثيان ، وتضيق بنا السبل ، وتختنق الانفاس • نعيش بين أكوام القاذورات وعلى حواف المجارى الطافحة ، النظافة ترف لا قبل لنا به ، مستوردة دخيلة ، توجد فقط فى الفنادق الكبيرة • قد ينشأ ذلك من الحاجة وضرورات الحياة • فالفم يأتى قبل العين أحيانا !

وفى نفس الوقت الجمال لدينا هو تسلية الفن تعويضا عن قبح العالم • فيكثر الرقص ، وتزداد أهمية الغناء • وتتحول أجهزة الاعلام الى وسائل للترفيه نصف الوقت والى بوق دعائى للدولة النصف الآخر • يكثر الهزل لاستجداء الضحك الرخيص ، ويعظم دور الراقصات والفنانين فى حياتنا القومية ، وينزوى دور العلماء والمفكرين والأدباء • انتشر الفن الهابط ، وانزوى الفن الرفيع • لم يعد فى الفن فكرة ولا نبلا • لم يعد يثير فى النفس جمالا و لافى الروح جلالا • واذا ضاعت الغائية ضاع الجمال • واذا غاب الهدف ثقلت النفس ، وارتكنت الى البدن ، وعم القبح ، واحتاج الانسان الى التسلية كنوع من التفريج عن الهم وتخفيف الكرب •

ويمكن تجاوز هذين النقيضين عن طريق الانتقال من جماليات اللغة الى جماليات الطبيعة • فنحن نقرأ القرآن ، ونطرب لفنون التجويد • قد يكون ذلك فى المقابر والأزقة والاحياء القديمة بين أطنان القاذورات التى يعف عليها الذباب • بل ان شكل قارىء القرآن لدينا هو الأعمى ، الحافى القدمين ، الجائع ، أشعث الشعر ، مهتم الاسنان ، غير حليق الذقن ، وسخ الجلباب ، حامل القفة ، طالبا الرحمة ! فالبعد الجمالى حاضر فى اللغة وغائب فى الطبيعة ، حاضر فى الصورة الفنية وغائب فى الاشياء ، يشنف الآذان ولا يسر العيون • فى حين أن الآية لغة وطبيعة ،

كلام وشىء ، لفظ وظاهرة •وان وصف الطبيعة فى القرآن الكريم ، طبيعة خضراء ، يسقط عليها الماء فتهتز الأرض وتربو ،عليها النخل الباسقات ، والشمس والقمر والنجوم ، والطيور ذوات الألوان ، والبحار الممتدة ، والأرض المنبسطة ، كل ذلك توحيد بين جماليات اللغة وجمال الطبيعة «ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون» (١٦ : ٦)• وكما قيل « ان الله جميل يحب الجمال » • وفى التجربة الصوفية ، يظهر التوحيد بين التجربة الدينية والتجربة الجمالية فى الشعر الصوفى والمواجيد والانشاء الدينى • ان الشعر هو شعر الطبيعة • والجمال هو جمال الطبيعة •

٣ ـ **التصور الرأسى للعالم والسلوك الأفقى فيه** : وغالبا ما نتصور العالم تصورا رأسيا أى أن العلاقة بين الطرفين هى علاقة الأعلى بالأدنى نزولا أو علاقة الأدنى بالأعلى صعودا • فالحقائق تنزل من أعلى الى أسفل أو تصعد من أسفل الى أعلى • النزول فى حالة الأمل والانتظار ، والصعود فى حالة اليأس والرغبة فى الخلاص • النزول فى المعرفة عن طريق الالهام وفى السلوك عن طريق العون والمدد والدعاء ورفع الاكف والشخوص بالابصار الى السماء وهو ما سماه اقبال « فلسفة السؤال » • وكلاهما يغذى بعضه بعضا • فالنزول من الله الى العالم أو من الراعى الى الرعية أو من الحاكم الى المحكوم ، والصعود من العالم الى الله ، ومن الرعية الى الراعى ، ومن المحكوم الى الحاكم • الأول أيديولوجية السلطة المترسبة فى وعينا القومى من الاشعرية القديمة ، والثانية أيديولوجية الاستسلام والطاعة المختزنة أيضا فى وعينا القومى من التصوف القديم • وكانت عبقرية الغزالى فى تشريعه للأيديولوجيتين الأولى فى « الاقتصاد فى الاعتقاد »، والثانية فى « احياء علوم الدين » بعد أن كفر المعارضة السرية المسلحة فى الداخل فى « فضائح الباطنية » ، والمعارضة العلنية المسلحة فى الخارج (الخوارج) ثم المعارضة العلنية الفكرية فى الداخل (المعتزلة والفلاسفة) فى « تهافت الفلاسفة » • لذلك ازدوجت الاشعرية والتصوف منذ القرن الخامس

حتى الآن ، ابان الألف عام الأخيرة مرورا بدولة الخلافة حتى نظم الحكم وأجهزة الاعلام الحالية . لم يعد هناك فرق بين الصعود أو النزول ، فكلاهما حركة واحدة ، تعيش كل منهما على الأخرى . فى حالة النزول ، ينادى لصلاة الاستقصاء حتى تهطل الامطار ، ولصلاة الاستخارة حتى يصدر القرار الحر ! درجات الرقى الوظيفى الى أعلى فى السلم الهرمى ، ومستويات التعليم الى أعلى ، من المراحل الأولى فالثانية ، فالثالثة ، من السنة الأولى الى الثانية الى الثالثة .. الخ . ولا فرق بين طرق الصوفية وحلقات تعاطى المخدرات بل وخلايا الاحزاب كلاهما يبغى الخروج من هذا العالم والانتقال الى عالم آخر ، الخروج من الواقع والدخول فى الوهم . هذا الارتقاء فى كل شىء الا فى المنهج أى البداية من الواقع الى الفكر ، ومن الجزئيات الى الكليات[1] .

وفى نفس الوقت يكون سلوكنا القومى أفقيا صرفا ، دخولا فى الدنيا وتعلقا بأمورها ، وتكالبا عليها ، وكان التصور الرأسى للعالم ما هو الا قناع يخفى السلوك الدنيوى ، وكأن حركتى الصعود والنزول ما هما الا مددا وتقوية للهدف النهائى وهو التكيف فى شؤون الحياة . لذلك ينجح المتدينون فى التجارة ، وتزدهر البنوك الاسلامية ، وتنشط شركات توظيف الأموال ، وينال الصوفية كل شىء ، تركوا الدنيا طواعية فأتتهم كرها . لذلك استحسنا شخصية طرطوف لموليير ، ونقلناها الى الشيخ متلوف . وسخرنا من سلوك الشيخ أمام قصعة الفتة ، ومن نحنحة الشيخ الضرير حتى تتوارى النساء ظاهرا ، والاعلان عن قدوم الذكر باطنا !

والحقيقة أنه يمكن تضييق الهوة بين الطرفين أيضا عن طريق التوحيد بين الروح والطبيعة ، بين الدين والدنيا دون أخذ أحدهما شعارا للآخر . فالصعود الى أعلى هو دخول الى أعماق النفس لسبر أغوارها ، والنزول الى أسفل هو الدخول فى أعماق الواقع لسبر أغواره كذلك . ان تحويل العلاقة بين الطرفين من الأعلى الى الأدنى الى الداخل والخارج

---

(1) انظر دراستنا السابقة : « مخاطر فى فكرنا القومى » (*)

أو الأمام والخلف لقادر على التوحيد بين التصور الرأسى للعالم والسلوك الأفقى فيه .

٤ ـ التصور الهرمى للعالم وتسوية كل شىء بكل شىء :

وينبع من التصور الرأسى للعالم والعلاقة بين الأعلى والأدنى التصور الهرمى له هبوطا أو صعودا كذلك على مراتب أو درجات . وهى ليست فقط مراتب وجود ولكنها أيضا مراتب شرف . كلما صعدنا الى أعلى زادت مراتب الشرف ، وكلما هبطنا الى أسفل قلت مراتب الشرف . كلما صعدنا الى أعلى زادت مراتب الكمال وقلت مراتب النقص ، وكلما هبطنا الى أسفل زادت مراتب النقص وقلت مراتب الكمال . ثم ينتقل هذا التصور من الوجود الى الأخلاق والاجتماع السياسى فينشأ المجتمع الطبقى والمجتمع البيروقراطى . ويرتبط التصور الهرمى للعالم بالتصور المركزى له . فالتصور الهرمى على المستوى الطولى هو نفس التصور المركزى فى المسقط العرضى . وكما تتركز القيمة فى قمة الهرم فى مقابل القاعدة كذلك تتركز القيمة فى مركز الدائرة فى مقابل المحيط . ولا تهم العلاقة بين الاثنين ، أيهما علة وأيهما معلول . فكلاهما تجربة معاشة فى الشعور . والعلاقة بينهما وجدانية لا صورية ولا مادية .

وقد سمى ذلك التصور قديما نظرية الفيض أو الصدور . وكانت احدى الاحتمالات عند المتكلمين والفلاسفة والصوفية فى مقابل الخلق والقدم لتحديد الصلة بين العالم والله . لم تعش نظرية الخلق التى بدأها الكندى . كذلك لم تعش نظرية القدم التى دافع ابن رشد عنها . واستقر الفيض فى الوعى القومى تعبيرا عن المجتمع السلطوى وتشريعا له .

وفى نفس الوقت الذى نتصور فيه العالم متدرجا بين الأعلى والأدنى نزولا أو بين الأدنى والأعلى صعودا نسوى كل شىء بكل شىء ، الاشخاص مع الاشياء ، البشر مع الحيوان ، والحيوان مع الجماد . وطبقا للمثل الشعبى « كله عند العرب صابون » أو عادة قول « ما تفرقش » ، « كله زى بعضه » . ونفقد هذه الميزة الوحيدة للتصور

الهرمى وهى تفاضل القيمة ، واعتبار الانسان أعلى قيمة من الحيوان ، والحيوان أعلى قيمة من الانسان ، القطط والكلاب والأطفال على أكوام الزبالة • الفلاح والحيوان يعيشان فى نفس المكان • وفى الامثال العامية « سمك ، لبن ، تمر هندى » أو « ايه اللى جمع الشامى مع المغربى » ، « ما فيش فرق » •• الخ •

ويمكن التوسط بين هذين الطرفين عن طريق التفاضل فى القيمة بين البشر على نفس المستوى • فالبشر بشر متساوون من حيث المبدأ ثم يتفاضلون فيما بينهم من حيث العمل • الشعوب كلها متساوية من حيث المبدأ ثم تتفاضل فيما بينها من حيث الابداع الحضارى • المساواة مبدأ واللامساواة واقع • لا يستوى العلم والجهل ، الخير والشر ، البصير والأعمى ، النور والظلمات ، الحسنة والسيئة ، الايمان والفسوق ، الانفاق والشح ، الجهاد والقعود ، الطيب والخبيث ، العدل والظلم ، الحى والميت ، الجنة والنار •• الخ • وما أكثر الآيات التى تستنكر استواء النقيضين مثل « قل هـل يستوى الاعمى والبصير أم هـل تستوى الظلمات والنور » (١٣ : ١٦) ، « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة » (٤١ : ٣٤) ، « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله » (٤ : ٩٥) ، « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث » (٥ : ١٠٠) ، « وما يستوى الاحياء ولا الأموات » (٣٥ : ٢٢) ، « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٣٩ : ٩) ، « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون » (٣٢ : ١٨) ، « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة » (٥٩ : ٢٠) •

٥ ــ **الهروب الى الدين والعودة الى الدنيا :** وعادة ما نوصف بأننا أشد الشعوب تدينا وفى نفس الوقت نحن من أشد الشعوب دنيوية وحب للحياة وتكالبا عليها • وفى شخصيتنا القومية كما تبدو فى التاريخ ارتبط الدين بالدنيا فى الأخلاق والاجتماع والسياسة • فالله هو فرعون • وآمون هو الله والشمس • وكان الكهنة هم العلماء ، وكانت

حياة الناس موجهة بالعقائد . خرجت العلوم الرياضية والطبيعية من ثنايا الدين لبناء المعابد ولتحنيط الموتى . لا فرق بين الشرائع الالهية وقوانين الزراعة كما هو واضح فى شريعة حمورابى . ولا فرق بين الشريعة والقوانين الأخلاقية كما هو واضح من ألواح موسى ، ولا فرق بين الدين والدولة كما هو واضح فى القرآن الكريم . وتجسد ذلك كله فى الدولة الفرعونية القديمة وأشكالها المختلفة عبر القرون . كما ظهر فى الدولة العبرانية أيام داود وسليمان ثم فى الدولة الاسلامية أيام الخلافة . خرجت العلوم الاسلامية من ثنايا الدين ، ونشأت الحضارة بفضل الدين . وكما قال ابن خلدون من قبل « ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة »[٢] .

ولكن ما ان انهارت الدولة وضعف الدين ، بصرف النظر عن أيهما علة وأيهما معلول أيهما بدأ فى الانهيار أولا وأيهما ثنى نتيجة بدأ الدين والدنيا يأخذان خطين منفصلين ، الأول صاعدا الى أعلى كما فعل الأسينيون أثناء عصر المسيح ، وتابعهم المسيح داعيا الى الدين دون الدنيا والى اعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله ومؤسسا الكهنوت ، والثانى نازلا الى اسفل وهو الذى مثله الفريسيون والاحبار وما كانت تمثله الامبراطورية الرومانية . وأتى الاسلام ليجمع بين الخطين من جديد ، بين اليهودية والمسيحية ، بين الشريعة والمحبة ، بين الله وقيصر . ونجح فى ذلك أيام الخلفاء الاوائل حتى نشأ الصراع من جديد فانزوى الدين وراءه الصوفية ، وامتدت الدنيا تحت أقدام الملوك . والشعب بين الاثنين حائر موزع بين دافعيه الرئيسيين ، ومكونيه لمزاجه وطبيعته وثقافته ، ينشد مع الطرق الصوفية ، ويختار حرفة يعيش منها ، يغرق فى الدين ويغرف من الدنيا ، تطول اللحى ، وتتكور الكروش ، ترتفع المآذن وتقام أعمدة القصور . ينام المشردون فى المساجد ، ويأوى المجاذيب على نواصى الطرقات . تزدحم المساجد

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٥١ ، المكتبة التجارية ، القاهرة .

بالمصلين ويكثر الباعة حولها . وعند البعض الحج تجارة ، والحجاب زينة ، والصوم شبع كما يظهر ذلك فيما تزخر به موائد الافطـار وفى المظاهر الدنيوية فى حياة الليل فى رمضان . وفى أجهزة الاعلام بين صلاة المغرب والعشاء فاصل من الرقص الشرقى واحدى حلقات الفوازير . وفى المساجد بعد التراويح الجلوس على المقاهى حتى السحور . انزوى الدين فى ميدان حتى تحول الى شعائر وطقوس ، وتجاور مع الدنيا بضجها وضجيجها . أصبح عالما مستقلا بذاته ، مغلقا على نفســه ، فيه تعويض عن مأسى الدنيا حتى يسهل فيه هم الانتصار ، وتسهل فيه الحصول على المعارف اللدنية .

وفى نفس الوقت . يبزغ حب الدنيا وكما هــو فى المثل الشــعبى « اللى عايزه البيت يحرم على الجامع » . وقد وضح ذلك أيضا فى القواعــد الفقهيــة مثل « لاضرر ولا ضرار » ، « الضرورات تبيح المحظورات » ، « لا تكليف بما لا طاقة به » .. الخ . وكل شىء وفى الطبيعة الانســانية قننه الشرع : والطعام والشراب حتى الاشــباع الجنسى المتعدد .. الخ . والحقيقة ان الدين الشعبى قد أظهر هــذه الوحدة الأولى بين الدين والدنيــا التى تحولت من مســتوى الدولة الى مستوى الممارسة الشعبية ، واستطاع أن يقوم بدور الوسيط بين الطرفين .

٦ ــ غياب الانسان وتشخيص الفرد : وفى تصورنا للعالم وفى أحساسنا بالاشياء ، يغيب الانسان كما يغيب البعد الانسانى للاشياء . لايهم وجوده كفرد ، ولاحياته كقيمة . لاتهم راحته البدنية ولا معلوماته الصحيحة ولاتذوقه للجمال . الغذاء الفاسد يكفيه ، والارهاق الجسمانى لاغبار عليه ، والقبح حوله لاحرج . يكفى أنه يتنفس ، ويعيش ، ويتحرك ويسير على الاقدام كباقى الدواب . يتم بناء كل شىء من أجل الكسب بصرف النظر عن حق الانسان فى أن ينال خدمات فى مقابل مايدفع . يتم تجهيز المستشفيات للاستثمار ويظل الانسان يعــانى من آلام المرض أو فى حشرجة الموت وهو يحتضر الا اذا دفع أولا مقدم أتعاب قبل الدخول

من الباب • ويخرج الانسان فى الصباح من منزله ولايعود اليه فى المساء ويختفى • يأتى زوار الفجر ، ويأخـــذون الأب والزوج والابن والاخ الى غير رجعة • تتكدس الأجســـاد فى المواصـــلات العامة ، فى الفصول والمدرجات بلا فردية أو آدمية أو كيان • ولقد غاب الانسان من قبل فى تراثنا القديم فغاب فى وجداننا القومى • يتم الصعود من العالم الى الله مباشرة أو النزول من الله الى العالم دون توسط الانسان الا من قسمته الى قسمين ، جسم فى الطبيعيات وعقل فى الالهيات • فالحكمة القديمة ثلاثة : منطق وطبيعيات والهيات • لاتوجد انسانيات باستثناء اخوان الصفا الذين أضافوا النفسانيات والعقليات • أما الانسان كبعد مستقل ، ككيان ومنطقة وجود فلا وجود له[٣] •

وفى نفس الوقت الذى يغيب فيه الانسان العادى يحضر الانسان الفرد ، الأوحد الفريد ، الذى لامثال له ولا منوال ، رئيس الدولة أو الشركة أو الهيئة أو الجامعة أو رب الأسرة • وكما قال أحـــد فلاسفة الغرب : فى الشرق واحد فقط هو الحر ، والباقى عبيد ! وذلك نتيجة للتصور الهرمى للعالم حيث يقبع فى القمة الامام والرئيس والقائد والمعلم والملهم والزعيم والمجاهد الى آخر هذه الالقاب القديمة والحديثة على السواء • اذا خرج من القاعدة على النظام كما يقول الفارابى فانه يجب بتره حتى يستوى الجسم كله كما يحسن بتر العضو الفاسد حماية للجسم كله ! تحمل الدولة اسم الفرد • هذه دولة الأمويين ، وتلك دولة العباسيين والفاطميين والاخشيديين والطولونيين حتى العصر الحاضر • الفرد الأوحد هو الدولة • هو الذى يضع السياسات وينفذها ، والمؤسسات تتابع وتراقب من يعصى أو يعترض ولا تراقب صحة التنفيذ • هو المؤسسة أو المصلحة أو الهيئة • وزير الزراعة هو الزراعة ، وزير الصناعة هو الصناعة ، وزير الكهرباء هو الكهرباء •• الـــخ • رئيس الجامعة هو الجامعة ، والاستاذ هو الفصل أو المدرج ، والسائق أو المحصل هو

---

(٣) انظر دراستنا : « لماذا غاب مبحث الانسان فى تراثنا القديم ؟ » ، دراســات اسلامية ص ٣٩٣ ــ ٤١٥ ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨١ •

المركبة ، والأب هو الأسرة . لذلك قيل من قيل « ان الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » . وقيل أيضا : « الناس على دين ملوكهم » . وقال الشاعر العربى :

اذا كان رب البيت بالدف ضاربا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

اذا ماتغير الفرد الأوحد تغيرت سياسات الدولـة وسياسات الهيئات والمصالح العامة . وبتغير مزاج الافراد واختياراتهم وولاءاتهم تتقلب السياسات رأسا على عقب . مات الملك ، يحيا الملك كفرعون مصر القديم الذى يأتى فيمحو سجلات الفرعون السابق ليسجل التاريخ من جديد على حوائط المعابد فالتاريخ يبدأ عنده وينتهى به . لذلك غاب من وعينا القومى التراكم التاريخى اللازم لنشأة الوعى التاريخى . أول خبر فى نشرة الاخبار عن الرئيس ، ماذا فعل ؟ ومن قابل ؟ ومن أرسل له برقية أو خطابا ؟ ومن هنأ ومن عزى ؟ ماهى اخر حركاته وأولى سكناته ؟ ماهى تنقلاته ونصائحه وتوجيهاته ؟ أمـا مصائب الناس وأزماتهم ، المنازل المهدمة ، والمجارى الطافحة فهى ليست بأخبار . ثم يتم الانتقال من فرد الى فرد ، من حياة رئيس الى موت رئيس ، من رئيس مقتول الى مرؤوس قاتل ، تجرأ فاغتال الرئيس أو احد الوزراء من معاونيه . كلاهما منطق البطولة ! وكثيرا ماينال البطل المضاد الذى يزعزع مكانة الرئيس الأوحد تعاطف الشعب واعجابه . وكلاهما يتصدر أخبار الصحف فى الصفحات الأولى . وكما قال برودون وروسو من قبل : ليس السارق من سرق ولكنه أول من أخذ شيئا وقال هذه لى . كذلك ليس القاتل من قتل ولكنه أو رئيس قال أنا ربكم الأعلى !

ويمكن تجاوز هذين النقيضين غياب الانسان وتشخيص الفرد عن طريق تحول التصور الرأسى كله الى تصور أفقى للعالم . وبدل أن تكون العلاقة صعودا وهبوطا تكون تقدما ونكوصا . وبالتالى يمكن رد الاعتبار الى القاعـدة من القمة واثبات استقلال المؤسسـات عن رؤسائها ، ويكون الجميع على قدم المساواة .

٧ ــ **الاحساس بالزمان : البطء والسرعة** : وفى احساسنا بالزمان البطء الشديد فى انجاز العمل ، وتأجيل عمل اليوم الى الغد طبقا للأمثال الشعبية المألوفة « فوت علينا بكره » ، « هيه الدنيا طارت » ، « فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة » . مواصلاتنا من أبطأ المواصلات فى العالم ، مواعيدها فى تأخر مستمر . أصبحنا نعرف بعـــدم الدقة فى تحديد الزمان ، وضبط المواعيد . يقول أحدنا : « سأمر بعد الظهر » أى فى خلال أربع ساعات أو « سأمر غدا » أى فى فترة يبلغ مداها ثمان ساعات على الأقل ! ويظهر عدم الدقة هذا فى برامج الاعلام عندما تغير مواعيد البرامج طبقا لأهمية الأحداث أو طبقا للكم الهائل من الاعلانات بغية التجارة مادام المشاهدون ينتظرون الفيلم ! كل ذلك على الرغم مما قيل فى أمثلتنا وحكمنا ونصائحنا « لا تؤجل عمل اليوم الى الغد » وكذلك قول الشاعر العربى « وكان أفضل لو أنهم عجلوا » .

وفى نفس الوقت لدينا احساس مضاد بالعجلة وعدم الدقة فى اتيان أى شىء و « الطسلأة » . يبدو ذلك فى سرعة تناول الطعام ، وسرعة قيادة السيارات لا ابقاء على حياة ولا حفاظا على أحد . نريد أن نبنى المجتمع الاشتراكى فى جيل واحد فنقفز على المراحل قفزا فنصاب بردة ، ويكتسب الشعب مناعة ضد الاشتراكية اذا ماعادت ثانية . نريد أن تحقق الوحدة القومية فنعلن عنها وحدة جزئية بين يوم وليلة بمجرد لقاء زعيمين ، سرعان مايدب الخلاف بينهما فتنفض الوحـــدة قبل أن تتم . لايعيش الانسان منا عمره ، بل عمر أجيال قادمة أو أجيال ماضـــية . فنحن باستمرار خارج الزمن والمرحلة واللحظة اما مبطئين واما مسرعين .

ويمكن تجاوز هذا التناقض بين البطء والسرعة ، بـــين السكون والحركة عن طريق الانتقال المرحلى ، ومعرفة مسار الاشياء ، وتحديد المرحلة التى يعيشها . وهذا يتطلب احساسا واعيا بالتاريخ وبحركة الاشياء وبالمراحل المتعاقبة حتى لايتم القفز عليها ، والعودة الى مرحلة ماضية أو السبق الى مرحلة تالية . لذلك كان أهم سؤال لجيلنا : فى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش ؟ ويمكن لأفكار الوقت والأجل

والكتاب واللحظة التى لاتتقدم ولا تتأخر أن يكون لها أبلغ الأثر فى احساسنا بضبط الزمان وكما هو الحال فى القرآن الكريم : « قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون » (٣٤ : ٣٠) ، « فاذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (١٠ : ٤٩ : ١٦ : ٦١) .

٨ ــ الاحساس بالمكان : الارتباط بالأرض والهجرة :

وفى الاحساس بالمكان لدينا أيضا احساسان متعارضان : الأول الالتصاق بالأرض ، وعدم مغادرة القرية ، والشكوى من الغربة ، ومن فراق الأوطان ، والثانى الهجرة والفرار ، والسعى فى أرض الله الواسعة بحثا عن الرزق سواء كانت هجرة مؤقته أو دائمة . ويرتبط بالالتصاق بالارض الضيق والزحام والمكاتفة والتصاق الاجسام . فى مصر خمسون مليونا يسكنون فى ٤٪ من مساحة البلاد . ولايختلف الحال كثيرا فى البلاد العربية من حيث الكثافة السكانية حيث تمتد الصحراء الشاسعة ولايقطن السكان الا فى الوديان وعلى ضفاف الانهار أو فى السهول وعلى شواطىء البحار . والأمثلة الشعبية على ذلك كثيرة « الارض تكفىماية » . وبسبب ضيق المكان اختنقت الانفاس ، وتوترت الأعصاب ولم يعد أحد يتحمل أحدا لا من القادة ولا من المواطنين . وفى نفس الوقت ننزع الى الهجرة ، ونريد أن نهرب من المكان الضيق الى مكان أوسع وأرحب فى الخليج أو الحجاز أو ليبيا أو الشام أو العراق . وقد تمتد الغربة الى أى مكان الى أوربا وأمريكا واستراليا . وعلى أبواب السفارات العربية والأجنبية يتجمهر الناس منذ الصباح الباكر بالآلاف طلبا لتأثيرات الدخول فتقفل فى وجوههم الأبواب ، ويستدعى الأمن المركزى لضربهم بالعصى الخشبية والسيور الجلدية مع السب واللعن للأب والأم « ايه الى رماك على المر قال اللى أمر منه » . أصبحت الهجرات العربية الحديثة ظاهرة تسترعى الانتباه ، ليست كهجرة القدماء الفاتحين حاملين لواء الاسلام ، ومبشرين به للبلاد المفتوحة ولكن حاملين حقائب الأموال كالعربى القبيح فى لندن لشراء مخازن بأكملها تفتح له

أيام العطلة والآحاد ويشترى بالملايين بما فى ذلك الحوائط والاسقف ومستلزمات القصور • وآخرون يهاجرون ليناموا على الارصفــة وفى محطات مترو الانفاق ، يغسلون الاطباق ، ويعملون خدما فى المقــاهى والمطاعم وحراس فنادق بالليل • وتكونت فى الخارج مستعمرات عربية بأكملها فى أحياء خاصة بالمدن الأجنبية ، يتحدثون فيها لغتهم الوطنية ، وينعمون فيها بتقاليدهم ، ويستأنفون نميمتهم وحسدهم • تتلقفهم الكنائس والمساجد لتنسيق نشاطاتهم • يعيشون فى أحياء معزولة **Ghetto** كما عاش يهود أوربا من قبل وكما هو الحال فى عديد من المدن الأمريكية ، الحى الالمانى ، الحى الايطالى ، الحى الهولندى ، والحى العربى •• الخ •

ويمكن الجمع بين النقيضين عن طريق الهجرة المؤقتة اما لطلب العلم أو لجمع المال أو لكسب الخبرات كما حدث أيام محمد على وعبد الناصر من أجل عودة قريبة الى الوطن والمشاركة فى تنميته الشاملة • أما الهجرة بسبب الاضطهاد فانها تكون أيضا مؤقته « الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا اليها » ، وذلك مثل هجرة الرســول ثم العودة الى موطنه الأصلى • الهجرة نوع من الانتظار المؤقت الى أن يحين وقت العودة من أجل فعالية اكثر وحماية اكبر •

٩ ــ **الانفعال الزائــد واللامبالاة القاتلة** : ومما يميز ســلوكنا القومى أيضا هو زيادة النبرة ، وحدة الانفعال فى موقف قد لايتطلب ذلك بل كعنصر دائم ونمط حياة • وفى نفس الوقت ، وفى مواقف تتطلب حدة الانفعال نظهر لامبالاة قائلة ، وحيادا باردا وكأن الامر لا يعنينا • فالانفعال الزائد هو شحنة عاطفية زائدة على الموقف تطفو منه ، وتنساب عليه ، مثل الصراخ والعويل والضجة غير اللازمة حيث تفيض فى اللغة بلا حساب ، فيغرق الانفعال الالفاظ متجاوزا المعنى • وأصبح الانفعال الزائد وظيفته ، مثل الصراخ ، الاعلان عن الذات ، وتسجيل موقف ، ويكشف بطريق غير مباشر عن العجز عن السيطرة على الموقف أو على عدم اهتمام به عن طريق اظهار العكس • أصبحت الانفعالات التى تبدو فى المعارك الكلامية احد سمات سلوكنا القومى ولا مثيل لها فى

العالم . واذا كنا تميزنا بالمديح قديما فاننا تخصصنا فى « الردح » حديثا ! غاب تحليل العقل ، وساد انفعال العاطفة . أصبحت تحليلاتنا وقتية تتغير باستمرار بتغير العواطف وتقلب الأهواء . تغيرت مجتمعاتنا واختياراتنا من النقيض الى النقيض ، من المصالحة الى الخصام ، ومن الخصام الى المصالحة دون ما سبب يدعو الى هذا أو ذاك . سادت أساليب التمثيل والمسرح لدينا طابع الصراخ والعويل والانفعال الزائد سواء فى المأساة أو فى الملهاة دون أن يتطلبه الموقف وعلى حساب العمل الفنى والأداء السليم . أعلانا صوتا هو اكثرنا انفعالا ! يظن أنه بذلك « التهويش » ينال غرضه ، ويحقق المنال . وفى نفس الوقت نقرأ « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس » (٣ : ١٣٤) !

وفى نفس الوقت كثيرا ما تتطلب بعض المواقف حمية وثورة وغضبا أو رفضا ، ونسلك فيها ببرود تام وكأن الأمر لا يعنينا حتى ولو كان الأمر فى صلب حياتنا ، يمس كرامتنا ويهدد وجودنا . نقول أشياء ، ونأتى بأفعال دون اقتناع وبلا شعور ، ودون أن نضع قلوبنا فيها ، ودون بواعث . أصبح الاضطرار أحد أنماط السلوك لانه تحول الى بناء نفسى دائم ونظرا لأن الفعل الحر أصبح نادر الوقوع . ولا يستثنى الجنس من ذلك . فاصبحنا أحيانا نعطى أجسادنا دون قلوبنا . فى مواقف تستدعى الانفعال مثل النيل من الكرامة أو هضم الحقوق يكون رد الفعل هو البرود التام ، وطأطأة الرأس ، والقبول والاستسلام . نرى الظلم ولا ننفعل . وفى نفس الوقت نردد « الساكت عن الحق شيطان أخرس » ، « ان اعظم شهادة كلمة حق فى وجه سلطان جائر » ! .

ويمكن تجاوز هذين النقيضين عن طريق تحويل الانفعال الزائد الى تحليل عقلى دال . فذاتية الانفعال احدى مراحل موضوعية العقل . ان الفعل الارادى الحر الواعى قادر على احتواء الانفعال والسيطرة على الموقف دون التنازل عن حق الانسان الطبيعى فى الحياة الكريمة . ويتم التعبير عن ذلك بالفعل لا بالقول ، بالسلوك لا بالكلام ، « فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » (٤٨ : ٢٩) .

١٠ ـ **المحبة والكراهية** : وهما انفعالان متناقضان يميزان وجداننا القومى ، ويصلان الى أقصى حد ، ويتداخلان ويتبادلان المواقف • اذا أحببنا لانرى فعل من نحب أو سلوكه بل نرى شخصه • واذا كرهنا لا نرى الا فعله أو سلوكه ، ولانرى شخصه • نصالح العدو فلا نرى الا شخصه مجردا عن أفعاله وسلوكه ، ونعادي الصديق فلا نرى الى أفعاله وسلوكه مجردا عن شخصه • نحب من يجب أن نكره ، ونكره من يجب أن نحب ! لذلك ظهرت العداوة بين الاخوة الاعداء الى حد الاقتتال بالسيف ، وسفك الدماء • وفى نفس الوقت نقرأ « انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم » ، « لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم » ، « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما » • حب الزعامة يطغى على حب الأخ ، وحب السيطرة يطغى على الابقاء على حياة الأخ •

وفى نفس الوقت نحب من يجب أن نكره • البعض يحب الطاغية والتسلط والمستغل والجاهل تملقا أو قضاء لمصلحة أو تطلعا • والبعض الآخر يصالح العدو ويمدح سماته ، ويتاجر معه ، ويلقبه بأبن العم ! نحب التغريب وهـو يقضى على الهوية ، ونحب تقليد الآخر وهـو اغتراب للذات • ربما ترسب فى وعينا القومى محبة الصوفية الشاملة التى لا تفرق بين عدو وصديق ، بين شيطان وملاك • ربما لأننا ضحايا الذاتية الجوفاء الفارغة من أية واقع موضوعى ، ذاتية عمياء لاترى •

ويمكن تجاوز هذا الخلط بين المحبة والكراهية عن طريق التحليل الموضوعى للمواقف وللعلاقات الاجتماعية مع التفرقة بين التناقضات الرئيسية والتناقضات الثانوية • فالخلافات العربية تناقضات ثانوية ، خلافات لاتقضى على الأواصر ووحدة الهدف والمصير • فى حين أن الصراع العربى الاسرائيلى صراع رئيسى • اذ لا مصالحة مع الصهيونية والغزو والتوسع والعنصرية مهما قيل من امكانية السـلام والتحديث والتنمية والتعاون المشترك • الخلافات داخل الوطن الواحد فرعيـة والصراع بين الوطن وأعدائه خلاف رئيسى ، « أشـداء على الـكفار رحماء بينهم » •

١١ — **القديم والجديد** : ويرتبط وجداننا القومى بالقديم حتى جعلنا القدم أحد أوصاف الذات الالهية الست بعد الوجود ! وفى أمثالنا العامية « من فات قديمه تاه » ، نعشق الجبن القديم ، ونمدح الخمر المعتق ، ونقدس البيت العتيق ، ونقرأ العهد القـديم ، نرتق الملابس القديمة ، ونصلح العربات القديمة ، ونجمع مخلفات المنازل « الروبابكيا » ، ولا نقذف بشىء • لايوجد فاقد ، بل الكل يعـاد أستعماله جيلا بعد جيلا • المخزن مملوء ، والصناديق عامرة بالرغم من ضيق الأماكن • الطعام خزين ، السمن والزبد • والمشهيات خزين ، الزيتون ، والليمون والفلفل ••• الخ • والسلطان فى المغرب العربى هو المخزن ، مخزن الغلال • العجوز أكثر خبرة من الشباب ، والمـاضى اكبر قيمة من الحاضر • نتحسر على الماضى الذى ولى ، ونندم على الحاضر الذى أتى • العصر الذهبى فى الماضى نود اللحاق به ، عصر الخلفاء الراشدين ، والعصر الحاضر فى هذا الزمن الردىء نلعنه وندينه ونتنصل منه • مع أن القديم لفظ اشتباهى يعنى ما قدم عليه العهد • وفى نفس الوقت يعنى ما يتقدم الى الامام بالمعنى الحديث • فالتقدم قد يكون الى الوراء وقد يكون الى الامام ، قد يكون عودا الى الماضى ، وقد يكون استباقا للمستقبل •

ومع ذلك هناك الولع الشديد بالموضة وآخر الصيحات كفقاعات الهواء وكنتواءات وبروزات متناثرة • ندافع عن الشعر الجديد ضد الشعر القديم ، ونؤيد الأدباء الشبان ، ونشجع الشعراء الشبـان ، ونأخذ صف الشباب فى معارك الأجيال • نحب الجديد فى الثقافة ، ويعرض المثقف آخر المذاهب الفـكرية ، ويسـتعرض آخر التيـارات الادبية والفنية دون وعى بالقديم ودون تطوير له • وتكون النتيجـة احيانا ازدواجية الوعى القومى بين قديم تقليدى وجديد منقول • يبدو ذلك بوضوح فى مناهج التعليم وفى تكوين السلوك وفى أساليب البناء والمعمار • لم تسلم الاحياء القديمة من نتوءات جديدة • ولم تخل الاحياء الجديدة من بروزات قديمة • ويتحـول الأمـر فى الفكر والسياسة من مجرد تجاور الى عداء مستحكم •

ويمكن تجاوز هذين النقيضين عن طريق الانتقال من القديم الى الجديد انتقالا طبيعيا متصلا . فلا جديد بلا قديم اذا أردنا الأصالة دون التقليد . ولا قديم بلا جديد ان أردنا التطوير دون التحجر والتقوقع على الذات . واذا كان القدم احدى صفات الذات الالهية فان الابداع أحد اسمائها .

١٢ — **قدرية المصير والبطولة الفردية** : وفى وجداننا القومى نتصور التاريخ وكأنه يسير طبقا لخطة مسبقة وقدر محتوم . « لك يوم يا ظالم » ، وأن الانسان لايستطيع أن يغير من الواقع شيئا . هناك يد تحركه وتتحكم فى مساره ، عادلة وواعية ، تأخذ للانسان حقه وتقتص من ظالمه . وعلى الظالم تدور الدوائر . والشواهد كثيرة فى الماضى . وفى قصص الأنبياء هلاك عاد وثمود ، وهلاك قوم نوح وآل فرعون ، قد يعطى ذلك نوعا من التفائل والثقة بالحق ولكنه فى نفس الوقت يطيل الانتظار والترقب ، ويسلب الانسان أية قدرة على الفعل أو التدخل فى مسار التاريخ .

وفى نفس الوقت ، هناك انتظار للمخلص ، وتوقع لظهور البطل ، متمثلين دور الانبياء فى التاريخ ، ومعتمدين على دور الابطال فى السير الشعبية : عنترة بن شداد ، سيف بن ذى يزن ، الزناتى خليفة .. الخ . يخرق البطل مسار التاريخ ، ويظهر فيه كنبع عال ينضب بعد قليل أو كبركان ثائر يخمد بعد فترة . ويكون التاريخ هو مجموع هذه اللحظات ، ربط هذا القمم ، تجمع هذه الاستثناءات .

ويمكن تجاوز هذين النقيضين عن طريق تحقيق الفعل فى التاريخ والقيام بمبادرة تاريخية فى اللحظة التاريخية المحددة على مسار تاريخى طويل باجتماع القانون التاريخى والفعل التاريخى . من اجتماع المسار التاريخى والمبادرة الانسانية يقع الحدث التاريخى . البطل نفسه معبر عن احتياجات عصر ، ومتطلبات شعب ، والتاريخ لا يتعين ولا تتفجر براكينه الا فى وعى الابطال . فلا التاريخ قدر ومصير ولا البطولة الفردية وحدها خالقة للأحداث .

كانت هذه محاولة اجتهادية خالصة لتحديد المعالم الرئيسية لوجداننا القومى • قد تكون اخطاؤها اكثر من صوابها ، وقد تكثر ظواهر أو تقل ، وقد يقع خلاف فى تلمس اسبابها وطرق علاجها • ولكن تظل الابعاد الرئيسية للوجدان القومى قائمة بصرف النظر عن طرق تناولها •

وقد تكون عموميات وأحكام تنقصها الدقة والتحليلات الجزئية • ولكن القصد منها اثارة الموضوع ، وتنبيه الأذهان • قد يصل الوضوح فيها الى حد السذاجة ولكن غياب الرؤية الواضحة هو فى نفس الوقت تعالم وهروب ، وتشدق بالنظريات ، تعمية للواقع ، وتغليفا له وتحويرا للموضوع ، وتبخيرا له •

وواضح أن التراث الدينى هو المكون الرئيسى للوجدان القومى كما أنه الرافد الأساسى فى الثقافة الوطنية ، والباعث الرئيسى فى السلوك القومى • وهذا حكم واقع وليس حكم قيمة ، اقرار بواقع وليس رغبة وتمن واختيار شخصى • منه يأتى الايجاب والسلب ، ومنه يخرج النقيضان • وهو القادر أيضا على تجاوزها عن طريق التوسط الى فكر وسلوك ووجدان سوى •

وقد يقال ان مصر باستمرار هى المثال • وان الأمثلة المضروبة كلها من مصر ، ومصر لا تمثل الوجدان القومى كله • والحقيقة ان ما يحدث فى مصر فى الفكر او السلوك أو الوجدان انما يحدث أيضا فى الشعور القومى كله • فمصر ممتدة فيه • والأمثلة العامية المصرية بصرف النظر عن ذيوعها فى الوجدان القومى العربى لها مايرادفها فيه • كما أن التراث الدينى عامل مشترك بين مصر والأمة العربية يجمع بينهما فى وجدان قومى واحد •

فان قيل : ان كل هذا الوصف للوجدان القومى انما هو وصف لظروف معينة حدثت فى جيلنا ولكن الوجدان القومى أعم منها وأشمل وأعمق منها واكثر استقلالا • قد يتأثر بهذه الظروف وقد لا يتأثر •

وعلى اكثر تقدير هى ظروف مؤقتة وليست سمات دائمة يتم بهــا تشخيص وجداننا القومى • والحقيقة أنه نظر لطول دوام هذه الظروف واستمرارها أصبحت واقعا اجتماعيا وتاريخيا مستديما ، وانعكست على الشخصية القومية فى الفكر والسلوك والوجدان ، وتحولت الى سمات فيها تظهر فى صور مختلفة ، وتكون انطباعا عاما لدى المفكرين والأدباء • وقد يكون المحك الأخير مدى اشـــتراك الأخرين فى نفس التجــارب الموصوفة التى من خلالها يوصف الفــكر القومى والســلوك القومى والوجدان القومى • فلعل التجربة المشــتركة تكون الضــامن لصدق الوصف وان تفاوتت طرق التعبير •

المقومات الثقافيـة للشـخصية العربيـة

أولا : مقـدمة :

ما زال موضوع « الشخصية القومية » موضع بحث فى العلوم الانسانية خاصة علوم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا الحضارية ، ومازالت نتائجه مزيجا من الأيديولوجية والعلم ، من الافكار المسبقة والتحليل العلمى الموضوعى ، وما زالت أحكامه تتفاوت بين العموم والخصوص ، فما ينطبق منها على الكل قد لا ينطبق على الجزء ، وما ينطبق على الأفراد قد يستحيل تعميمه على المجموعات . ولما كان يصعب اتباع منهج استقرائى كلى تام نظرا لاستحالة استقراء جميع أفراد الجنس فانه اكتفى اما بمنهج الملاحظة الخارجية أو تلك التى تقوم على المشاركة لبعض النماذج والأفراد أو بدراسة عينات فردية ممثلة للمجموع .

وقد ظهر موضوع الشخصية القومية فى أوربا فى القرن التاسع عشر ابان المد الاستعمارى من أجل صياغة نظريات التفوق العنصرى الغربى فى مقابل نظريات الانحطاط والتخلف التى تتسم بها الشعوب المستعمرة ، نظريات التفوق الآدى فى مقابل الانحطاط السامى ، أو التفوق الجرمانى فى مقابل قوميات سلافية أو رومانية أو كلتية أو أنجلوسكسونية أقل منها ، بل قد تحولت هذه النظريات الى أيديولوجيات سياسية وأنظمة للحكم أدت الى حروب طاحنة داخل أوربا وخارجها الى آخر ما هو معروف فى تاريخ أوربا النازية والفاشية .

ولكن فى نفس الوقت ظهر حديث آخر عن الشخصية القومية داخل أوربا وخارجها كدافع للتحرر من الاستعمار ، فالحفاظ على الطابع القومى للثقافة أحد مظاهر التحرر . ومن ثم كان المقوم الثقافى شرط التحرر . تشير الثقافة الى الجانب المعنوى أو الفكرى فى الشخصية

(*) القى هذا البحث فى احدى ندوات المجلس القومى للثقافة العربية التى عقدت فى طرابلس الغرب بالجماهيرية الليبية عام ١٩٨٤ .

القومية فى مقابل الجانب العملى الذى ينتج من الظروف والعوامل الموضوعية المادية الحاملة للشخصية القومية • وقد ظهر ذلك بوضوح لدى فشته فى « نداءات الى الأمة الألمانية » عندما لجأ الى الثقافة واللغة والحضارة والفلسفة والفن والعلم والتاريخ •• الخ كمقوم أساسى للشخصية الألمانية تساعد على بقائها ومقاومتها للمحتل الأجنبى الممثل فى نابليون • فاذا أمكن احتلال الأرض فانه لا يمكن احتلال الروح أى الثقافة •

وقد كثر الحديث فى حياتنا المعاصرة أثر الهزائم المتلاحقة خاصة بعد هزيمة « حزيران » يونيو ١٩٦٧ ، صراعا من أجل البقاء • وما زال الحديث قائما كرد فعل تاريخى على شمولية الدولة العثمانية وعجزها عن صهر القوميات فى اطار وحدة ايديولوجية شاملة ، وظهور القومية العربية كبديل للدولة الاسلامية وكرد فعل على القومية الطورانية وحركة التتريك • وبعد هزائم العرب المتتالية فى مواجهة العدو الصهيونى ، وبعد صياغة حركة القومية العربية ابان المد الناصرى ، وفى مواجهة التغريب • استمر الحديث عن الشخصية العربية حفاظا على الهوية ، وبالتالى كانت مقاومة الغزو الثقافى أحد مطالبنا القومية •

وفى كل شخصية قومية عنصران : عنصر دائم وثابت يكون أقرب الى الهوية والفكر ، وعنصر متغير ومتحول يكون أقرب الى الاكتساب والممارسة • الأول يحدد معالم الشخصية ، يعطيها رؤيتها للعالم ، ويحدد أهدافها البعيدة ، ويساعدها الثانى على التأقلم مع الظروف السياسية والاجتماعية والمراحل التاريخية • والمقومات الثقافية من النوع الأول أى العنصر الثابت الدائم الذى لا يتغير ، وان تعددت مظاهره وصيغه وأشكاله وممارساته طبقا لظروف كل عصر • ويمكن رصد العنصرين بسهولة • فيمكن استقراء بعض عناصر الثبات فى الشخصية القومية عبر التاريخ خاصة اذا كانت تتحدد بماهيات أو بموضوعات مثالية • كما يمكن التعرف على الظروف التاريخية التى تجعل الشخصية القومية ترتكن على جانب أو آخر من جوانبها الثقافية •

والشخصية « العربية » ممتدة عبر التاريخ . فهي ليست وليدة القومية العربية كحركة سياسية معاصرة بل هي ممتدة حتى قبيل الاسلام في الجزيرة العربية ، تظهر في الشعر الجاهلي كما تظهر في القرآن . بل انها ممتدة الى ما وراء الجاهلية ، الى حضارات ما بين النهرين ، حضارات الشرق الأوسط القديم ، وتكون رافدا أساسيا لها مثل حضارة مصر القديمة ، وحضارات آشور وبابل . تنتسب الى حمورابي قدر انتسابها الى ابراهيم ، وترجع الى اخناتون قدر رجوعها الى موسى . وما القرآن الا أحد مراحل صياغاتها الثقافية ، وما الاسلام الا أحد أشكال تعبيرها . ومن ثم فلا تعارض فيها بين الشخصية العربية والشخصية الاسلامية ، فالاسلام قلب العروبة ، والعروبة جسد الاسلام ، الاسلام هو المقوم الثقافي ، والعروبة هو الحامل التاريخي . هذا التعارض نشأ من التغريب وانطلق من ظرف تاريخي طارىء مرت به أوربا ، وهو التعارض في الشخصية القومية بين مقوماتها الثقافية وحواملها التاريخية .

ولما كان التوحيد هو جوهر الاسلام وعقيدته الأولى كان التوحيد هو المقوم الرئيسي لهذه الشخصية العربية التي ليس لها مقوم ثقافي آخر الا هذا التوحيد . ولا يعني التوحيد هنا مجرد عقيدة دينية دعا اليها الأنبياء بل التوحيد ، تصور للعالم ، وموجه للسلوك . يقوم على مبادىء نظرية عامة لا ترتبط بجنس أو بشعب أو بمرحلة تاريخية محددة أو بمكان وزمان معنيين . التوحيد مبدأ ميتافيزيقي يجعل الانسان يرى كل شيء بعين الوحدة دون التشتت والتضارب والاختلاف . التوحيد مبدأ كوني يفسر نشأة العالم وتطوره ونهايته ، ومبدأ معرفي يضع للانسان نظرية في المعرفة تجمع بين الحس والعقل والوجدان ، ومبدأ جمالي يجعل الانسان يعيش في العالم شاعرا مدركا للجمال كبعد للحقيقة ، ومبدأ اخلاقي يظهر في وحدة الشخصية والعمل الصالح ، ومبدأ اجتماعي يؤسس المجتمع على العدالة الاجتماعية والمساواة ، وبدأ سياسي يضع نظاما يقوم على الحرية والشورى واستقلال المؤسسات والرقابة الشعبية .

التوحيد اذن فى كل مظاهره مبدأ وجدانى ، يظهر فى شعور الفرد والجماعة ، وبالتالى فهو أقرب الى التجربة المشتركة والخبرة المعاشة ، يعطى بناء شعوريا للعالم . ولذلك كان أقرب المناهج لوصفه هو المنهج الشعورى الذى يمكن بواسطته تحليل هذه التجربة التى يشارك فيها الجميع باعتبارهم عربا ومثقفين ، وهى تجربة واضحة يمكن أدراكها بوضوح ، لا تحتاج الى وقائع مادية بقدر ما تحتاج الى حدس للماهيات ، ورؤية مباشرة للموضوع . ولكن التوحيد أيضا وظيفة عملية تظهر فى شعور الانسان وفى البيئة الاجتماعية ، ولا يشير الى كائن مشخص بل ترتبط الوظيفة بارادة الانسان الحرة ، وبوعيه بحركة التاريخ ، وقدرته على تحريك الشعوب . ومن ثم يظهر التوحيد كفعل أو يتوارى كامكانية طبقا لفعل الانسان المستقل وارادته الحرة وقيادته للجماهير . يكون فى حالة ظهور أو كمون ، فعل أو انفعال ، اقدام أم احجام ، تقدم أو نكوص ، امتداد أو ضمور ، اتساع أو انكماش . وهو فى كلتا الحالتين موجود اما بالفعل أو بالقوة كما يقول القدماء سواء على مستوى الفرد أو مستوى الجماعة أو مستوى التاريخ . التوحيد اذن له لحظتان ، لحظة تقدم ولحظة تخلف ، لحظة نهوض ولحظة انهيار . فاذا كانت حضارتنا القديمة تمثل اللحظة الاولى فان وجداننا المعاصر قد يمثل اللحظة الثانية ومحاولة تجاوزنا وتحولها الى اللحظة الأولى من جديد . وهذا هو معنى عصر النهضة الذى نعيش فيه .

ثانيا : المبدأ المتيافيزيقى .

التوحيد مبدأ متيافيزيقى يجعل الانسان قادرا على رؤية كل شىء بعين الوحدة دون ما تشتت أو تضارب أو اختلاف أو شقاق . فالانسان وحدة واحدة لا تضارب فيه ولا صراع بين مقتضيات الروح ومطالب البدن ، والمجتمع وحدة واحدة لاطبقات فيه ، والانسانية وحدة واحدة لا وجود فيها لشعب مختار مفضل على سائر الشعوب ، له كل شىء ، وليس للشعوب الأخرى أى شىء . وغاية الانسانية واحدة لا تضارب فيها ولا أهواء . فالوحدة كمبدأ متيافيزيقى ليست مبدأ مجردا بل

هو تصور للعالم يظهر فى الانسان وفى المجتمع وفى التاريخ وفى الكون • تبدو مظاهر الوحدة فى كل شىء ، فى الذهن وفى الواقع ، فى الداخل وفى الخارج ، فى الانسان وفى العالم • فمعارف الانسان الحسية والعقلية والوجدانية تجتمع كلها لاثبات شىء واحد ، والعلوم كلها تبحث حقيقة واحدة ، وكل العلوم يمكن ردها الى موضوع واحد ، والمبادىء العقلية العامة يمكن ردها كلها الى مبدأ واحد هو مبدأ الهوية ، وموضوعات الحساب كلها ترد الى الواحد الرياضى ، وموضوعات الهندسة كلها ترد الى النقطة الرياضية ، والموسيقى تقوم على قياس الوحدة الزمنية ، وعلم الطبيعة يقوم على حساب الذرة والجزئيات • والأديان واحدة ، ورسالات الأنبياء واحدة ، والتاريخ البشرى واحد ، يكشف عن حقيقة واحدة ، ويحكمه قانون واحد • الوحدة أصل كل شىء ومنتهى كل شىء • لا يفسر العالم بالاثنينية أو بالتثليث أو بالكثرة اللامتناهية • فالاثنينية ترجع الى الوحدة اذ لا يمكن أن يتساوى الطرفان فى الاثنين والا كانا واحدا • والكثرة ذاتها ترد الى الوحدة لأنها تكرار للواحد الى مالا نهاية • وقد كانت كل النظريات والايديولوجيات الانسانية التى أثرت فى التاريخ ، كانت كلها تقوم على الوحدة •

ولما كانت الوحدة مانعة من التفرق والاختلاف وحارسة من الوقوع فى الفتن والحروب والصراعات الدموية ، كانت أقدر الى الجمع بين الاطراف ، والتوفيق بين المصالح دون ما تنازل عن حق الوحدة الشاملة على الجميع • ومع ذلك فالوحدة لا تمنع من التعدد والكثرة مثل تعدد اللغات والاجناس ، وتعدد الآراء والاجتهادات ، ولكنه تعدد فى اطار الوحدة • فتعدد اللغات والاجناس لا يمنع من التفاهم والتعاون المشترك « يأيها الناس ، انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا •• » (٤٩ : ١٣) • وتعدد الآراء والاجتهادات لايمنع من وحدة الحقيقة النظرية ، ووحدة الغاية والهدف •

وقد قامت الحضارة الاسلامية على هذه الوحدة ، وحدة الحقيقة واختلاف الفرق ، وحدة الأصول واختلاف الفروع ، وحدة الأمة

واختلاف الأمصار ، وحدة التاريخ واختلاف المراحل ، وحـدة الشريعة واختلاف المذاهب ، وحدة العقيدة واختلاف التفسيرات ... الخ . بل ان الحضارة الاسلامية كلها قد قامت ابتداء من نقطة مركزية واحدة هو الوحى تنبثق منه العلوم كدوائر متداخلة (الكلام والفلسفة) أو كمحاور متبادلة للتنزيل والتأويل (الأصول والتصوف) . وقد ظهرت الوحدة بوجه خاص فى علم أصول الدين كتوحيد فى العقيدة وفى علوم التصوف فى وحدة الشهود ، ووحدة الوجود ، والوحدة المطلقة .

ولكن عندما ضمر التوحيد كمبدأ متيـافيزيقى ظهـر التشتت والتشرذم ، وتضاربت الأهواء ، وعمت الفتن ، وتطايرت الرقاب ، وكفرت كل فرقة الفرق الأخرى ، واعتبر كل مذهب نفسه هو الحق ودونه من المذاهب باطلة . فضاعت الوحدة ، وانقلب التعـدد الى تشتت ، وتحول الخلاف الى اختلاف . ومظاهر التشتت كثيرة فى حياتنا الخاصة والعامة ، فى التعليم بين التعليم الدينى والتعليم العلمانى ، بين التعليم الوطنى والتعليم الأجنبى ، بين التعليم العام والتعليم الخاص . كما بدا فى الوجهات والمقاصد ، فهذا شرقى وذاك غربى ، وهذا اشتراكى وذاك رأسمالى ، وهذا قومى والآخر اسلامى ، وأنا وطنى وهو عميل ، ونحن المناضلون وهم الخونة .

وان بقت الوحدة ، فهى وحدة الزعامة الفردية المطلقة التى تجب ما عداها ، وتبتلع ما سواها ، وتقهر ما دونها . فهناك الزعيم الملهم ، والمجاهد الأكبر ، والسيد الرئيس ، والقائد المظفر . فهى وحدة فردية تسلطية ، تمنع التعدد والخلاف فى الرأى ، وترفض الاجتهاد ، وتأبى المراجعة ، أو تبقى الوحدة كوحدة فى الشعارات عن القومية والحرية والاشتراكية والوحدة ، ومفاهيم النضال والتحرير والمقاومة نسمعهـا فى كل مكان ، وتضج بها كل أجهزة الاعلام ، وفى نفس الوقت يقتتل الفرقاء ، وتتصارع الطوائف ، وتتفتت الأمة ، ويتكالب عليها الاعداء .

ومع ذلك ، تبقى الوحدة هدفا قوميا ، ومطلبـا شـعبيا ، وغاية ومقصدا . تحرك الجماهير ، تفرح لوجودها ، وتسعى لتحقيقهـا ،

وتحزن لفراقها ، وتتألم لضياعها • هذه الوحدة كمبدأ فلسفى عام ما زال ضامرا فى شعور الناس ، يحركهم لاشعوريا ، وقادر ، اذا ما تحول الى الشعور ، أن يقضى على التشرذم والتفتت وان يوحد أوصال الأمة ، ويوحدها من جديد •

ثالثا : المبدأ الكونى •

والتوحيد مبدأ كونى يفسر نشأة العالم وتطوره ونهايته • التوحيد بداية العالم ، مبدأ أولى كونى ، بداية مطلقة ليس قبلها بداية أخرى • وهو مساوق لتطور العالم ، لا يغيب عنه ، يسايره ويحاذيه • وهو نهاية العالم وغايته ، يبقى بعد فنائه ، ويستمر فى البقاء الى ما لانهاية • يقوم هذا المبدأ الكونى اذن بالربط بين الانسان والعالم ، يجعل موقف الانسان فى العالم واضحا لا غربة فيه ولا تشكك • يقدم له تفسيرا لنشأة العالم على نحو مبدئى بحيث يكون التفسير أقرب الى البداية المطلقة منه الى البداية النسبية أو أقرب الى الانفصال الكيفى منه الى الاتصال الكمى ، وهى نظرية « الخلق من عدم » المشهورة فى الفكر الكونى التى تشير الى البداية الجديدة المطلقة والى خروج الشىء من اللاشىء مما يعطى الانسان القدرة على الخلق والنموذج للابداع • وعلى هذا النحو ، لا يكون الوجود مبعثا على الاحساس بالغثيان ، ووجودا منبثقا من عدم ، دون مبرر أو أساس ، ودون فهم أو ادراك • وبالتالى تجعل النظرية الانسان أكثر قدرة على فهم الوجود والتعامل معه • فالوجود له مبرر ، وليس مجرد انبثاق من عدم ، يقوم على عدم ، وينتهى الى عدم ، وكأن العدم هو الأساس ، والوجود هو المظهر • كما يجعل هذا المبدأ الكونى الانسان أبعد عن الشك والحيرة فيما يتعلق بنشأة الكون بين النظريات العلمية المختلفة التى تحاول كلها صياغة نظرية تقوم على الاتصال الكمى دون التمايز الكيفى ، وبالتالى يقدر الانسان على أن يأخذ منها جميعا موقفا ، وعلى اعطاء البديل الآخر كما يساعد الانسان على اكتشاف قوانين التطور الداخلى فى الوجود بعد نشأته ، والتعرف عليها ومسايرتها ، والسيطرة عليها والاتحاد بها •

فالانسان حال فى التاريخ ، وجزء من حركته ، وبالتالى يذهب عنه أى عجز عن مواجهة الواقع • كما يساعد المبدأ الكونى الانسان على التنبؤ بالمستقبل بعد معرفة قوانين التطور ، وادراك المستقبل طبقا لها ، وبالتالى يغيب عنه الخوف من المجهول ، بل يصبح المجهول لديه معلوما • كما أنه يمنع من تصور الكون على أنه مادة خالصة اذ أن الكون مادة وصورة ، وبالتالى يحمى الانسان من التجريبية الخالصة ، ومن الصورية الخالصة ، وهما عنصر العلم • ومن ثم لا يتأزم العلم بفقدانه أحد عنصرية كما حدث فى الوعي الأوربى • كما يجعل الانسان مرتبطا بالطبيعة وملتصقا بها ، فالطبيعة قريبة من المبدأ ، والمبدأ قريب من الطبيعة ، وبالتالى ينشأ العلم بتوجه الانسان نحو الطبيعة • كما أنه يجعل الانسان عاملا فى الطبيعة ، مؤثرا فى الكون ، مثبتا للعالم ، غير زاهد فيه أو ناكر له •

وقد ظهر هذا المبدأ الكونى فى الحضارة الاسلامية فنشأ العلم ، وسيطر القدماء على قوانين الطبيعة ، وأوجدوا أنفسهم فى العالم ، ودخلوا التاريخ • وأصبحت مهمتنا نحن التعرف على العلم العربى نبعثه من جديد بعد أن ترجمه الغرب وطوره وأنشأ العلم الحديث • فقد نشأ العلم العربى على هذا المبدأ الكونى الذى كان موجها لذهن العلماء نحو الطبيعة •

ولكن لما ضاع هذا التصور ، التوحيد كمبدأ كونى ، وانهارت الحضارة العربية الاسلامية مؤقتا ، وتوارى المبدأ تحول التوحيد الى عقيدة خلق العالم على أسس تشبيهية ، فأصبح الله صانعا ، يخلق من عدم ، ويخرج الشىء من الشىء كما يفعل السحرة والحواة دون تمثل هذا الخلق فى علاقة الانسان بالكون • ثم تصورنا العالم على أنه فان ، زائل ، هراء ،هباء منثور ، لا قوام له ولا قانون بفضل حدوث العالم الذى حولناه من مستوى العمل ، أى أن العالم طيع للارادة الانسانية ، الى مستوى النظر أى غياب القانون كما حدث عند الأشاعرة • كما تصورنا العالم على أنه روح ، وذرات ، ومعانى • فتبخرت المادة ،

وأصبح العالم هو الله ، والله هو العالم كما فعل الصوفية • أو تصورنا العالم يفيض عن الله ، ويتدرج منه ولكنه أقل منه ، وبالتالى صـغر العالم وقلت قيمته كما فعل الفلاسفة • ومع ذلك ، ظهر التوحيد كمبدأ كونى فى الاعتزال ، عند الطبائعيين ، فأثبت المعتزلة قوانين الطبيعة ، واستقلال العالم • وبعد اضطهاد المعتزلة وسيطرة الاشعرية المزدوجة بالتصوف توارى هذا التصور من وجداننا المعاصر ، وانزوى فى المخزون الثقافى اللاشعورى •

ومن ثم يمكن للتوحيد كمبدأ كونى ايجاد الصلة بين الله والعالم من خلال شعور الانسان ، وتجاوز مرحلة الكمون الى مرحلة الظهور ، والعودة الى وظيفة التوحيد الأولى التى على أساسها قامت الحضارة الاسلامية فى دورتها الأولى ، وانهاء ضمور التوحيد فى القرون الأخيرة واسقاط العالم من الحساب حتى سلب منا واستولى عليه الغير • ويظل التوحيد كمبدأ كونى أحد مقومات الشخصية العربية الاسلامية •

رابعا : المبدأ المعرفى •

والتوحيد مبدأ معرفى يعطى الذهن البشرى موقفا معرفيا محددا من العالم يقوم على وجود حقيقـة ثابتة ودائمة • وبالتـالى يحمى الانسان من الموقف العدمى الذى يجعل العدم أساس الوجود • وهى حقيقة يمكن معرفتها بوسائل المعرفة الانسانية الحسـية والعقليـة والوجدانية والتاريخية المشروطة بالحس والعقل والوجدان ، وبالتالى تحمى الانسان من الوقوع فى الشك واللاأدرية • ويمكن معرفتها بيقين ويتفق الناس عليهـا وتتواتر معارفهم فيها وبالتالى تحمى الانسـان كذلك من الوقوع فى النسبية • والتوحيد بهذا المعنى يعنى أن هذا العالم مفهوم ، وأنه يقوم على تصور يمكن للانسان ادراكه وبالتالى يحمى الانسـان من الوقوع فى اللامعقول والتناقض كمرادفين للوجود • والتوحيد على هذا النحو بحث مستمر عن الحقيقـة دون توقف • ولمـا كان مبدأ منزها لا تشبيه فيه كان البحث دائبا ومسـتمرا عن

الخالص الصورى المجرد ، مطمع العلماء والفلاسفة ، وكلما انتهى الذهن الى صيغة تجاوزها الى صيغة أخرى حتى لايقع فى التشبيه والتوحيد بين المعنى واللفظ أو بين الماهية وحاملها أو بين الموضوع واشكال تعبيره . التوحيد بهذا المعنى تقدم مستمر للعلم ، وبحث دائب عن الحقيقة ، ورفض للوقوع فى القطعية والمذهبية والانتهاء الى الرأى الأخير النهائى فى كل شىء ، ومنع للتقليد ، ودفع على الابداع والابتكار واعمال للاجتهاد .

وقد ظهر هذا المبدأ المعرفى فى حضارتنا القومية خاصة فى علم أصول الفقه ، وتأسيس مناهج الاستنباط والاستقراء فى القياس الشرعى ، ووضع شروط التواتر فى علوم الحديث . كما ظهر فى علم أصول الدين فى اعتبار المعرفة الحسية والعقلية والوجدانية كأساس لموضوعات الايمان ولفهم النص . وأصبحت مادة العلم تأتى من الأوليات والبديهيات والمحسوسات والمجربات ، والمشاهدات ، والمتواترات . وظهر العقل أساسا للنقل عند المعتزلة ، والحس ومجرى العادات كمقياس لليقين عند الفقهاء ، والتجربة الوجدانية كموطن للمعارف والحقائق عند الصوفية . كما استبعدت علوم القدماء الشك والوهم والظن والاعتقاد وتكافؤ الأدلة كمواقف معرفية . وأصبح البرهان هو طريق المعرفة . ومالا دليل عليه يجب نفيه . بل يمكن أن يقال ان الحضارة الاسلامية القديمة كانت حضارة العقل ، وأصبحت نموذجا يهتدى به فى العصر الوسيط المتأخر الأوربى ، ونشأ بفضلها التيار العقلانى الأوربى الذى مهد لبداية عصر النهضة ونشأة الفلسفة الحديثة .

ولما توقفت الحضارة الاسلامية وبدأت فى الانحسار ، وضمر التوحيد فى وجداننا غابت المعرفة عن كونها وعيا بالعالم ، وأصبحنا ننظر الى العالم وكأنه غير معروف ، وسقط الرباط المعرفى بيننا وبين العالم فعشنا كأشياء فى عالم الاشياء دون أى أساس معرفى للشىء نفسه . كما ضاع ايمان البعض منا بوجود حقيقة ثابتة ، ووقع فى اللا أدرية والنسبية

والشك ، يقوى ذلك فيه اثر المذاهب الغربية المماثلة بالرغم من اختلاف الظروف والمعطيات . ثم انزوى هـذا المبدأ المعرفى وتحجر فوقعنا فى التشخيص والتشبيه ، وتحولت العلاقة المعرفية بين الذهن وموضوعه الى علاقة تبعية بين الانسان والله ، فالانسان يسأل والله يجيب ، والانسان يدعو والله يستجيب . كما تحول التنزيه باعتباره تقدما مستمرا للعلم الى قطعية وثبوت وتقليد ، وتمت صياغة العقائد الخمسين صياغة نهائية والتى على كل مسلم أن يؤمن بها ، اثنان وأربعون فى الله ، وثمانية فى الرسول ! توقف الاجتهاد ، وعم التقليد ، وانتهى الابداع ، وساد الاتباع . كما قضى على المعرفة الحسية ومجرى العادات ، وشهادة الواقع كأساس لصدق الوحى ، ولم تعد هناك ثقة بشهادة الحواس وكأنها خداع ووهم . كما قضى على المعرفة العقلية ، ولم يعد العقل أساس النقل ، وظهر اللامعقول فى حياتنا ، وساد اللامفهوم فى صورة ايمان قلبى . كما تحولت التجربة الوجدانية الى تجربة صوفية خالصة مناقضة لشهادة الحس ولحكم العقل ، فسادت الغيبيات ، وأصبح الالهام طريقا وحيدا للمعرفة ، لا يربطه رابط ، ولايحده حد . ولم تعد المعرفة المتواترة مشروطة بصدق شهادة الحس ومنطق العقل بل أصبحت اقرب الى أخبار الآحاد تعتمد على الرواية وصدقها الخارجى المظنون . ومع ذلك يظل التوحيد فى وجدان الناس حافظا لتصورهم للعالم ومؤكدا على شهادة الحس وحكم العقل وبداهة الوجدان .

خامسا : المبدأ الجمالى .

والتوحيد مبدأ اجمالى يجعل الجمال بعدا للحقيقة سواء فى ادراكها أو فى التعبير عنها . وقد ظهر ذلك فى الشعر العربى قبل الاسلام ، وكيف أنه كان سجلا قوميا للعرب ، يضعون فيه حكمتهم وعرفهم ، يظهرون فيه ابداعهم وتصورهم للحياة . وكما قال عمر بن الخطاب « عليكم بشعر جاهليتكم ، فان فيه تفسير كتابكم » . ثم نزل الوحى مستعملا الصور الفنية كوسيلة للتعبير ، ولايضاح المعانى ، وللتأثير على النفوس ،

ولاقناع الخاصة والعامة • فالتقى العقل بالحس بالوجدان لفهم الواقع وتصويره وادراكه بالحس • فاحدث ذلك أبلغ الأثر فى النفوس ، وآمن الناس ، واتصلت حياتهم الماضية بالحاضرة • وكما تذوقوا الشعر الجاهلى فهموا الوحى الاسلامى • وتمت صياغة نظرية « التخييل » عند عبد القاهر الجرجانى يعبر بها عن جماليات الذوق العربى سواء فى الشعر أو فى الوحى • وقد تم التركيز فى جيلنا على هذا الجانب التصويرى كما هو واضح لدى سيد قطب[1] •

وقد ظهر هذا البعد الجمالى فى الفن العربى ، فن الزخرفة ، سواء بالحروف العربية أو بالاشكال الهندسية • ظهرت جماليات الخط العربى بأنواعه المختلفة حتى أصبح الكلام ليس فقط صفة لله أو أحد مظاهر الطاقة الانسانية بل أيضا أبداعا جماليا للانسان • وتوالت الاشكال الهندسية تعبر عن اللانهائى فى الروح ، وتتحد فيها الطبيعة بالفن • واستطاع الانسان ان يتصور اللانهائية من خلال الخطوط الهندسية اللانهائية • وبالتالى حفظ البعد الجمالى الشعور من الوقوع فى التشبيه والتجسيم وفى ثبات ومحدودية الفنون التشكيلية •

وتأسست العمارة العربية على نقل جمال الطبيعة الى جمال الفن ، فكان صحن الدار قطعة غناء من الطبيعة بها الماء والخضرة والهواء ، تطلع عليه الشمس ، وتسرى فيه النسمات ، ويستقبل الضوء والهواء ، وتدور حول الصحن أعمدة النخيل الرخامى فوقها أقواس كالجذوع ، وتتدلى من السقوف الثريا كالطلوع • كما أدرك الصوفية جمال الطبيعة وصوروا آياتها وصاغوا القول المشهور « ان الله جميل يحب الجمال » تفسيرا لأية « ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك » (٣ : ١٩) ، وتعبيرا عن آية « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » (١٦ : ٦) • وكان الجمال أحد أسماء الله الحسنى • وغنى الصوفية فى اشعارهم جمال الكون تعبيرا عن الجمال الالهى • وكانت المدينة العربية القديمة

---

(١) انظر دراستنا : أثر الشهيد سيد قطب على الحركات الاسلامية المعاصرة ، الجزء الخامس : الحركات الاسلامية المعاصرة •

باسواقها ومسجدها الكبير وحماماتها نموذجا للمدينة المتكاملة التى تدور حول مركز تجتمع فيه شئون الدين والدنيا . وكانت بأسوارها وقلاعها وحصونها وحامياتها نموذجا للدفاع طبقا لمستوى العصر .

ولما ضمر التوحيد فى النفوس وانزوى فى القلوب انهارت الحضارة العربية الاسلامية . فخبا هذا البعد الجمالى ، وتحولت الصور الفنية الى وقائع حسية ، ووقعنا فى التفسير الحرفى المادى للنصوص . وبالتالى تحولت الحقائق الى أطماع ورغبات مستقبلية تعبيرا عن الحرمان بدلا من تأثيرها فى النفوس واقناعها للاذهان فى الحاضر . كما تحول الفن العربى الى فن متحفى لايزوره أحد ، من بقايا العهود الغابرة ، يعجب من يراه بالقدماء اكثر مما يبعث فى المحدثين من جمال أو يهتم به كمظهر فنى خالص دون أن يدرك ميتافيزيقاه أو يحدث أثره فى الاحساس بالتنزيه والتالى واللانهائية . وضاع من وجداننا فن العمارة العربى . وحولناه الى كهوف حديثة ، وعلب مغلقة لا منافذ لها ولا مخارج ، هواؤها مصطنع ، وضوؤها مصطنع ، ملساء جرداء ووقعنا تحت أثر التغريب . كما اسقطنا البعد الجمالى من الطبيعة وحولناها الى مكان للنفايات البشرية حتى تعودنا على القبح . وغابت المساحة الخضراء ، وينابيع المياه ، وانتهى التخطيط المستدير للمدينة حول القلب الى خطوط متقاطعة لارابط بينها ، يتباعد سكانها ، كل جماعة فى طريق . ولكن لما كان ادراك الجمال مستقلا عن القدرات المادية ، فالادراك الجمالى ليس مكلفا ، تكفيه أبسط المظاهر ، وقد يؤدى الغنى الى القبح ، ويبعد عن الجمال — لما كان الأمر كذلك ظل هذا البعد الجمالى كامنا فى الوجدان العربى ، حيا فى أحلك الظروف ، وان غاب ادراكه فى العالم أو عجز عن التأثير فيه .

سادسا : المبدأ الأخلاقى .

والتوحيد مبدأ اخلاقى يعطى الشعور بناء توحيديا خالصا . فاذا كانت طاقات الشعور وأشكال تعبيره أربعة : الفكر ، والوجدان ، والقول ، والعمل فان التوحيد يقوم بتوحيد هذه الطاقات الأربعة ليكون وحدة

الشخصية الانسانية وبالتالى يمحى خطر الفصال بين الفكر والوجدان الذى يولد الخوف والجبن ، أو بين الفكر والقول الذى يولد النفـاق والمداهنة ، أو بين الفكر والعمل الذى يولد السلبية والعجز ، أو يحدث الفصام بين الوجدان والقول الذى يولد الثرثرة والهراء ، أو بين الوجدان والعمل الذى يولد الآلية والرتابة • أو يحدث فصام ثالث بين القـول والعمل فيولد الخطابة والانشاء وبالتالى تتسرب طاقات الانسان من خلال هذه المنافذ فيضيع التوحيد كمشروع فردى وتاريخى يبدأ من شعور الفرد حتى يضم التاريخ الانسانى كله • يخلق التوحيد اذن وحدة الشخصية حيث يتوحد الفكر والوجدان فيولد الصدق ، والفكر والقول فيولد الصراحة ، والفكر والعمل فيولد القوة • كما يوحد بين الوجدان والقول فيولد الجرأة ، وبين الوجدان والعمل فيولد المتعة والالتزام • كما يوحد بين القول والعمل فيولد الفعالية والأثر • وعلى هذا النحو تتوحد طاقات الانسان وتختزن ثم تنطلق فى مسارها الطبيعى لتغير الواقع ، وتحقق التوحيد من داخل الشعور الفردى الى خارجه فى العالم •

كما يظهر هذا التوحيد فى العمل الصالح ، وفعل الخير للناس ، وفى تحقيق الرسالة على الأرض فالايمان لا يظهر الا فى العمل الصالح كما هو واضح فى آيات « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ••• » التى تقرن الايمان بالعمل الصالح • لا يظهر التوحيد فى الشعائر أو الطقوس أو الرسوم أو المسوح أو الكهانة بل فى العمل الصالح المؤثر فى حياة الفرد والجماعة والمحرك للتاريخ • فالدنيا دار عمل ، والعمل الصالح يبقيها • والانسان خليفة الله فى الأرض ، عليه آداء الأمانة ، وهو تحقيق كلمة الله أو تنفيذ ارادته أى تحويل الوحى الى نظـام للعالم • والانسان سيد الكون ولأجله تم تسخير كل شىء فى العالم ، من أجل السيطرة على قوانينه ، واستعمار الكون • وبالعمل الصالح يتحدد مستقبل الانسان وأثره فى الدنيا ، وعليه يكون الحساب طبقا لقانون العدل دون ما وساطة أو شفاعة •

وقد ظهر هذا التوحيد كمبدأ اخلاقى فى تراثنا القديم • فقد أظهر الصوفية هذه الوحدة الشاملة ابتداء من وحدة الشخصية الانسانية ومارا بوحدة الشهود ووحدة الوجود وانتهاء الى الوحدة المطلقة • كما ظهر فى أصول الفقه تحقيقا لخلافة الانسان لله فى الأرض وأداء الرسالة عليها ، وظهر فى الفلسفة وعلوم الحكمة فى أهمية العمل الصالح وفعل الخير • وظهر فى علم أصول الدين خاصة عند الخوارج واقتران العمل بالايمان وعند المعتزلة فى مبدأ العدل واقرانه بالتوحيد •

ولكن بعد أن توقفت الحضارة الاسلامية وانزوى التوحيد كمبدأ أخلاقى ظهر الفصام فى الشخصية ، وتسربت طاقاتها ، وظهر الفصل بين الفكر والوجدان فشاع الخوف ، وبين الفكر والقول فساد الجبن ، وبين الفكر والعمل فظهر العجز ، وبين الوجدان والقول فانتشر الكذب ، وبين الوجدان والعمل فنتج الاستسلام ، وبين القول والعمل فعم النفاق• وأصبح يضرب بنا المثل بالذين يقولون مالا يفعلون ، وفى نفس الوقت نقرأ « يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٦١ : ٢ ــ ٣) • كما ظهر الايمان فارغا بلا مضمون ، وكأن الشهادتين كتمتمة بالشفتين تكفيان • وغابت الشهادة على العصر ، والاستشهاد من أجل قضاياه ، وأصبح ايماننا مثل ايمان العجائز • كما تحول العمل الصالح الى شعائر وطقوس ، استسهالا للايمان ، وايثارا للسلامة ، وهروبا من المعركة ، أو تسترا على العمل الفاضح الذى يؤدى الى الفساد فى الأرض • كما سادت الجوانب السلبية فى التصرف على حياتنا العامة • فزهد البعض فى الدنيا ، وتصورها دار فناء ، وأنه كراحلة أو كعابر سبيل ، فترك العمل فيها ، وتخلى عن رسالته عليها ، ورنا الى عالم آخر يعد نفسه له خارج الدنيا ، فلعله يجد تعويضا عما فاته ، ويلحق بركب الفائزين • وتم تأجيل المعارك الى يوم الحساب يفصل الله فيها كما يشاء وحيث يتأكد الفوز المبين • وتحولت قيمة الانسان الى الثروة والجاه ، أو السطوة والسلطان ، أو النسب والحسب ، أو العشيرة والقبيلة ، أو الوجاهة

والصدارة ، أو الدرجة والطبقة . وكاد يمحي من وجداننا الحديث المشهور « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى والعمل الصالح » .

ولما كان هذا الضمور فى التوحيد كمبدأ خلقى هو المسؤول عن تخلف الأمة ، فان الوعى به أحد مقومات نهضتها .

سابعا : المبـدأ الاجتماعى .

والتوحيد مبدأ اجتماعى ، عليه تقوم بنية المجتمع . فالله واحد ، والأمة واحدة « أن هـذه أمتكم أمة واحـدة ، وأنا ربكم فاعبدون » (٢١ : ٩٢) ، لافرق بين جنس وجنس ، أو قوم وقـوم ، أو شعب وشعب ، أو قبيلة وقبيلة . فالأمة مجتمع انسـانى واحـد ، يجمعه التوحيد ، ولا تفرقه الحدود الجغرافية المصطنعة أو العادات والأعراف ، أو اللغات والقوميات .

والمجتمع الواحد ، مجتمع بلا طبقات ، مجتمع المساواة الكاملة ، العمل فيه مصدر القيمة بدليل تحريم الربا . فالمال لا يولد المال من تلقاء نفسه دون توسط العمل المنتج والعرق الكادح . والعمل رسالة لتحقيق غاية عليا أو هدف قومى ، ليس غايته الربح أو الكسب المادى من أجل الثراء ، واكتناز المال . الملـكية وظيفـة اجتماعيـة وليس له حق الاستغلال أو الاحتكار أو الاضرار بالغير . فان أساء الاستعمال أو اضر بالغير كان للامام ، ممثل الأمة ، حق التدخل لحماية الصالح العام ، بانتزاع الملكية والمصـادرة والتأميم . وهـذه هى نظـرية « الاستخلاف » المشهورة فى علم الفقه ، فالمال مال الله والانسـان مستخلف فيه « وأنفقوا مما جعلناكم مستخلفين فيه » (٥٧ : ٧) . المال وديعة لدى الانسان ، أمانة أؤتمن عليها ، وعليه أداء الأمانة الى أهلها . ولا يمكن تركيز المال فى أيدى قلة والأغلبية معدمة « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٥٩ : ٧) . لا يمكن أن يظهر فى المجتمع الواحد ، أغنياء وفقراء ، فما فاض عن الحاجة أصبح لصالح الأمة « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (٧٠ : ٢٥) ، «وفى أموالهم حق

للسائل والمحروم » (٥١ : ١٩) ، وفى المال حق غير الزكاة . هذا الانتقال للثروة ممن يملك لمن لا يملك ليس مجرد دافع خلقى أو عاطفة انسانية أو صدقة ، بل هو اعادة لتوزيع الثروة طبقا لمبادىء العدالة الاجتماعية والمساواة وتذويب الفوارق بين الطبقات . ولا توجد فى المجتمع ملكية خاصة لأدوات الانتاج بل هى ملك للأمة ، كما أن انماط الانتاج تقوم على العمل المشترك والملكية العامة لقطاعات الانتاج الرئيسية مثل الزراعة (الكلأ) والصناعة (النار) والتعدين (الملح) . كل ما تنتجه الأرض من فوقها كالزراعة أو من باطنها كالمعادن ملك للأمة ، لقد عرف القدماء الذهب والفضة والنحاس والحديد فى باطن الأرض من الركاز وعرفنا نحن النفط . فلا يجوز لقبيلة أو لملك أو لأمير أو لحاكم امتلاكه وبيعه والتصرف فيه . أقام المجتمع الاسلامى الأول بنيته الاجتماعية على هذه الأسس لا فرق بين أمير وعامة ، بين حاكم ومحكوم ، وظل التوحيد هو المنبع الأول لهذه البنية الاجتماعية .

ولما خبا التوحيد كمبدأ اجتماعى ظهر الفرق الشاسع بين الاغنياء والفقراء ، بين من يملكون كل شىء وبين من لا يمكلون شيئا ، وشاعت الملكية الخاصة ، وأطلقه بلا حد أعلى للكسب وبلا حد أدنى للفقر ، وأحاط الناس أراضيهم بالاسوار ، ووضعوا على أبوابهم الاقفال ، ووضعوا ثرواتهم تحت أرقام سرية فى الخزائن والمصارف ، داخل البلاد وخارجها ، وأصبح الصالح الخاص مقدما على الصالح العام . وظهرت طبقة العمال والأجراء الذين لا يشاركون فى رأس المال أو فى نتاج الأرض . كما نشأت طبقات الفقراء والمعدمين فى مقابل الأثرياء المترفين ، وتشتت الأمة ، واتسع نطاق الطبقات المحرومة ، تفرز لها أجهزة الاعلام ثقافة الحرمان والتعويض ، وتقضى على أية امكانية لتثويرها وتحريكها وكأن قدرها قد حتم عليها ، ولا مفر منه . استحال الحراك الاجتماعى ، وانتكست الثورات ، ولم تدم مفاهيم الاشتراكية والعدالة الاجتماعية والمساواة وتذويب الفوارق بين الطبقات ، وأصبح يضرب بمجتمعاتنا المثل فى الغنى والفقر على حد سواء ، فى البطنة والحرمان فى نفس

المجتمع ، فى التـــرف والبـــؤس ، فى البطر والشـــقاء • نســـتجدى المعونة من غيرنا لفقرائنا ، ويساعد أغنياؤنا فقراء غيرنا ونحن أولى بالمساعدة ، فالأغيار لا تخشى منهم ثورة • بل الثورة كامنة فى نفوس فقرائنا •

ومع ذلك ظـــل التوحيـــد قابعا فى الوجدان ، تتأصـــل فيه الثورة الاجتماعية ، وتمتد الى جذوره الدعوات الاشتراكية ، يحفظ الأمة ، ويعطيها أهدافها القومية ، ويزلزل أنظمة الاقطاع والرأسمالية ، ويهدد العروش والتيجان ، ويقضى على الأمراء والسلاطين ، فأساس الأمة هى الوحدة وليس التفاوت ، وعمادها المساواة وليس الطبقات الاجتماعية • وبالتالى يستحيل وجود نظام اقطاعى أو رأسمالى فى الوجدان العربى اذا ما نشط التوحيد ، وانتهى ضموره ، واتسع نطاقه ، وخرج من الوجدان الى نظام العالم •

ثامنا : المبـــدأ السياسى •

والتوحيد مبدأ سياسى ، عليه تقوم الدولة أى الكيان الســـياسى للمجتمع • فلا يوجد مجتمع دون سلطة ، ولا توجد سلطة دون حـــاكم ومؤسسات وشعوب • فالحاكم يمثل الأمة ، ويرعى مصالحها ، وينفذ الشرع ، والشرع له أساس وضعى فى المصلحة ، والحاكم نائب عن الأمة بالبيعة ، والأمر شورى بين الناس ، والمؤسسات مستقلة وعلى رأسها القضاء • فلا يعزل قاضى القضاة بل هو الذى يعزل الحاكم ان لم ينفذ أوامر الشرع ، وان لم يؤد الأمانة ، فالولاية أمانة • ويقوم المحتسبون بالرقابة على أجهزة الدولة ، ويسهرون على تطبيق الشريعة • فالحسبة هى وظيفة الحكومة الاسلامية كما يقول الفقهـــاء • والأئمة عليهم واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتوعية الأمة ، وتهيئتهم للثورة على الحكام ان عصوا الشريعة أو خرجوا على أحكامها أو تهاونوا فى تطبيقها أو طبقوا غيرها • ولكل عالم حرية التعبير والرأى ، وله حق الاجتهاد والافتاء • لا عصمة لأحد ، يتصدى لعظائم الأمور وليس لصغائرها ، ويتعرض لما تعم به البلوى ، ويتقدم على السلطان فى الرأى والاجتهاد •

وعلى هذا النحو ، كان التوحيد ثورة فى التاريخ ، منذ نشأة الاسلام حتى الثورة الاسلامية فى ايران . « الله أكبر » تهز العروش ، وتقضى على الجبابرة ، وتقصم الجبارين ، فالتوحيد تحرير سياسى واجتماعى لوجدان الانسان من أية سلطة خارجية باستثناء سلطة الله أى سلطة الأمة الممثلة فى مصالح الجماهير .

ولما خبا التوحيد كمبدأ سياسى فى النفوس ، عم التسلط ، وتكبر الحكام ، وملكوا رقاب الناس ، وحكمت القبائل والعشائر باسم الحكم الوراثى ، فيولد ابن الملك ملكا وهو مخالف لنص التوحيد « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين » (٢ : ١٢٤) . ظهر حكم الفرد المطلق مدعيا الحكم باسم الله ، جاعلا نفسه خليفة الله فى الأرض دون ما بيعة أو شورى أو رعاية لمصالح الناس ، ودون ما رد من علماء المسلمين . وغابت المؤسسات المستقلة عن السلطة التنفيذية ، أو وجدت كصور وأشكال ، لاقوام لها ولا كيان ، مهمتها الموافقة والتأييد لقرارات الحكام واستنكار وشجب قرارات خصومه . وضاع استقلال العلماء ، وساروا وراء الحكام يبررون سلطانهم بالفتاوى ، ولا يتعرضون لعظائم الأمور التى أصبحت حكرا على السلطان ، وترك لهم قانون الاحوال الشخصية ، يصولون فيه ويجولون دون تعرض لنظام الاسلام السياسى والاجتماعى فأصبحوا « فقهاء السلطان وفقهاء الحيض والنفاس » . ولم تعد هناك رقابة على أجهزة الدولة فى الدواوين أو فى الاسواق . ولم يعد هناك محتسبون ، بل سيطرت الدولة على أجهزة الاعلام ، وعينت رؤساء تحرير الصحف ، وفصلت المعارضين ، واضطهدت المخالفين فى الرأى . وعم تغييب الوعى القومى ، وأصبحت العامة فى يد السلطان يسيرها كيف يشاء ، ويزج بطليعتها الثورية فى السجون ، وتلفق لهم القضايا ، فلا يجدون أمامهم الا الخروج أو الجهاد ، ويمارسون شتى أنواع العنف والاغتيال السياسى .

ومع ذلك يظل التوحيد أكبر خطر على أنظمة القهر والتسلط ،

محافظا على الوجدان العربى الاسلامى الحر ، وتظل « لا اله الا الله » تحريرا للوجدان الانسانى بنفى كل قوى الطاغوت من جاه وسلطان وشهوة وتجبر واثبات الاله الواحد القهار الذى يقف أمامه جميع البشر أحرارا متساوين . فالتحرر الدائم هو أحد العناصر المكونة للوجدان العربى الذى لا يعرف الا الصحراء الشاسعة والسماء المرصعة بالنجوم ، ولا تعترى نفسه الا القيم العربية التى نقاها الاسلام . الشوق الى الحرية مقوم أساسى للشخصية العربية ، وهو نابع من التوحيد ، وأحد وظائفه ، فالتوحيد اسم فعل ، يدل على عملية أكثر مما يشير الى شىء .

تاسعا : خاتمة .

ومع ذلك ، فقد ظل التوحيد فى كلتا الحالتين ، تمدده فى وعينا القديم أو ضموره فى وجداننا المعاصر المقوم الرئيسى للشخصية العربية والمحافظ على هويتها ، والحامى لبقائها واستمرارها فى التاريخ ، يظل التوحيد هو الجدار الحافظ لها من التغريب والضياع ، والراعى لأصالتها واستقلالها فى مواجهة الغير ومخاطر التميع والذوبان .

وبالتالى يكون السؤال هو : ما الضامن على بقاء التوحيد فى حيويته وانتشاره دون ضموره وانحساره ؟ وكيف يمكن اعادة الحياة الى التوحيد فى وجدان العصر كما كان حيا فى وجدان القدماء ؟ ويكون الجواب : ان حرية الانسان وقدرته على التأثير فى الجماعة هى القادرة على حيوية التوحيد ، واطلاقه من ضموره الحبيس الى رحابة الحياة فى العالم الفسيح . فاذا ما فرضت ظروف العصر وأوضاعه ضمور التوحيد فان حرية الانسان ، حرية الاعتقاد وحرية الممارسة ، قادرة على اطلاق التوحيد الحبيس من عقاله حتى يوجه الظروف ، ويحرك التاريخ .

ان الظروف التاريخية وحدها لاتحرك شعبا ، والاوضاع السياسية وحدها لا تخلق فكرا ، والأبنية الاجتماعية وحدها لا تثير ذهنا . وبالتالى كانت المقومات الثقافية فى الشخصية العربية تمثل العامل الأول ، وليس

الوحيد ، فى تحديد معالم هذه الشخصية والتأثير عليها ، سـلبا أم ايجابا • ومن هنا أتت أهمية العقائد والتصورات والنبوات فى تاريخ العرب • وكما قال ابن خلدون من قبل « ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة » • وبدلا من أن تكون النبوة فى عصرنا الألفاظ والعبارات والشعارات أو المذاهب التى انتشرت على غفوة منا تحت أثر التغريب فانهـا تكون تصورا للعالم تنتج عنه نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية ، وبالتالى يمتلأ « الفراغ » النظرى الذى يشعر به المعاصرون • وتظل الشخصية العربية محافظة على هويتها فى التاريخ •

المســـؤوليات الراهنـــة للثقافـــة العربيـــة

ان ثقافة كل أمة تعبر عن المرحلة التاريخية التى تمر بها ، فالثقافة هو تسجيل لتاريخها ، وتعبيرعن وجودها ، وفى المرحلة الراهنة التى تمر بها الأمة العربية تتحد مسؤوليات الثقافة العربية بحيث تواكب هذه المرحلة وتدفعها الى مرحلة أخرى وحتى تؤمن مسار الأمة فى التاريخ • وان الأمن الثقافى العربى لا يقل أهمية عن الأمن الغـــذائى أو الأمن العسكرى ، وطالما وقفت الأمة العربيـــة عبر تاريخهـــا أمام الغزوات الحضارية المتتابعة وحققت لنفسها أكبر قدر ممكن من الأمن الاحضارى •

وأداء لهذا الدور ، تتحدد المسؤوليات الراهنة للثقافة العربية على النحو الآتى :

أولا : مسؤوليتها تجاه التراث القديم :

لقد ورثت الأمة العربية تراثا حضاريا ، قد يكون أغزر تراث عرفه تاريخ الأمم القديمة والحديثة على حد سواء • يشـــمل التراث جميع أنواع العلوم والفنون والآداب والفلسفات والديانات • أصبحت الأمة العربية وريثة دين ابراهيم ، اليهودية والمســيحية والاســلام • كما أصبحت موطنا لتفاعل هذا الدين مع ديانات فارس والهند • كما استطاعت احتواء الحضارات القديمة من يونانية ورومانيـــة • ثم أبدعت ، بعـــد ظهور الاسلام ، علومها الخاصة : العـــلوم النقلية كالتفسير والحـــديث أو العلوم النقلية العقليـــة مثل أصـــول الدين وأصول الفقـــه وعلوم الحكمة وعلوم التصوف أو العلوم العقلية الخالصة مثل العلوم الرياضية من حساب وهندسة وفلك وموسيقى ووضع أصول علم الجبر أو العلوم الطبيعية مثل الكيمياء والطبيعة أو العلوم الانسانية مثل الجغرافيـــا والتاريخ • وان الثقافة العربية الراهنة لمسؤولة عن هذا التراث كله على النحو الآتى :

مجلة « اقلام » المغربية العدد ٩ ابريل ١٩٧٩ •

١ ــ جمع هذا التراث الموزع بين مكتبات العالم العامة والخاصة ، وتحقيقه ونشره حتى يظهر تاريخنا أمامنا ، وأن نضع أنفسنا فيه بدلا من أن يكون غائبا عنا ونحن خارجون عنه • وأن يتم النشر تبعا لأولويات احتياجاتنا • فان كنا فى حاجة الى عقلانية اثر نهضتنا الحديثة أعطينا الأولية للتراث الاعتزالى الفلسفى وليس للتراث الصوفى الاشراقى الذى نرزخ تحته وتمتلىء به أنوفنا وآذاننا وتموج به قلوبنا • واذا كنا فى حاجة الى رعاية الصالح العام والدفاع عن مصالح المسلمين أعطينا الأولوية للتراث الأصولى وما وضعه من اصول تشريعية تقوم على جلب المنافع ودفع المضار وليس فقط للتراث الفقهى الافتراضى الذى تزخر به مكتباتنا ويحفظه علماؤنا وتضج منه أسرنا ومجتمعاتنا • ان ما تنشره جامعات العالم ومراكز البحث الدولية لتحقيق التراث العربى لأولى أن يتم كجزء من خطتنا القومية لتأصيل جذور النهضة العربية وبعث ماضيها الحضارى الذى تجد فيه نفسها كما تجد فيه دفعة لها على الانتقال من مرحلة الاحياء الى مرحلة النهضة •

٢ ــ احياء هذا التراث عن طريق اعادة بنائه ، وبيان مواطن أصالته وجدته ، ومعرفة كيف واجه علماؤنا مشاكل حضارتهم ، وكيف جابهوا الحضارات المجاورة ، وتمثلوها وردوا عليها • ان اعادة بناء المواقف الحضارة القديمة لهو السبيل الى فهم المواقف الحالية التى نبدو فيها أحيانا عاجزين أو متفرجين أو ناقلين • وتتم اعادة بناء التراث عن طريق تجديد لغته واعادة التعبير عن مضمونه بلغة العصر • كما تتم أيضا عن طريق تجديد مناهج فكره واكتشاف مناهج الواقع ووسائل المدركات الحسية وطرق العلل بعد أن نقلنا طويلا مناهج التنزيل وطرق الاستنباط والمعارف القبلية من الأخبار المتواترة • كما يتم أيضا عن طريق تغيير المحاور القديمة واكتشاف بؤر جديدة مثل الانسان والتاريخ حتى نستطيع أن نجد فى تراثنا ما نحتاجه فى حاضرنا لتأصيل حاجاتنا وتحقيقها على نحو دائم •

٣ ــ تنقية هذا التراث عما علق به من شوائب عارضة نظرا

للظروف التي مرت بها مجتمعاتنا القديمة مثل العداء التقليدى بين الشيعة وأهل السنة أو تكفير الفرق المعارضة أو ظهور التصوف كرد فعل سلبى تجاه النظم السياسية القائمة واستحالة مقاومة الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى أو ظهور بعض جوانب الفقه الافتراضى الذى يضحى بالواقع فى سبيل النص ، ويترك المصلحة التى هى أساس التشريع • كذلك تنقية علوم التفسير والحديث مما علق بهما من روايات غير صحيحة والانتقال من التفسير الاخبارى الذى يجمع اكبر قدر من المعلومات التاريخية عن الوقائع والحوادث الماضية الى التفسير الاجتماعى الهادف الموجه نحو المجتمع الاسلامى لحل مشاكله والقضاء على اوجه النقص فيه •

٤ — تطوير بعض جوانب تراثنا القديم التى نحن فى أمس الحاجة اليها الآن وذلك عن طريق اما اعادة الاختيار بين البدائل كما هو الحال بين الاشاعرة والمعتزلة وقضائنا على المعتزلة منذ القرن الخامس وسيادة الأشعرية فى فكرنا القومى حتى الآن ، وضرورة احياء التراث الاعتزالى كما حدث ابتداء من حركاتنا الاصلاحية الأخيرة خاصة عند محمد عبده نظرا لما نحتاجه فى نهضتنا العربية الحالية من تركيز على العقل واعلان من شأن الحرية والديمقراطية • وقد يتم أيضا عن طريق اعادة الاختيار بين الغزالى وابن رشد ، فكما قضينا على المعتزلة فى القرن الخامس قضينا على ابن رشد فى القرن السادس وآثرنا الغزالى فازدوجت الاشعرية بالتصوف وساد حتى القرن الماضى • لقد تأخرنا باختيارنا الغزالى على ابن رشد ، وتقدم الغرب باختياره ابن رشد على الغزالى • وقد يتم أيضا عن طريق تطوير مواطن الاقدام والجرأة فى تراثنا القديم مثل القول بالطبائع عند المعتزلة حتى نخفف من وجداننا المعاصر عالم المعجزات والأسرار أو بابراز جوانب المصلحة العامة واعادة بناء تشريعاتنا على نحو وضعى دفاعا عن مصالح الأمة التى هى مقاصد الشرع •

٥ — تحريك هذا التراث حول محاور جديدة نحتاجها فى واقعنا المعاصر ولم تظهر بوضوح فى تراثنا القديم • فنحن نحاول فى نهضتنا

الحالية اقامة حضارتنا حول الانسان والمجتمع أى حول الفرد والتاريخ حتى نقيم حضارة أنسانية تكون تطورا لحضارتنا ومكانتنا فى التاريخ • فالانسان والتاريخ محوران جديدان يمكن تحريك حضارتنا القديمة حولهما • فقد دارت حضارتنا القديمة حول الالهيات وأوفتها حقها ، وكانت الطبيعيات الهيات مقلوبة ، فعشنا مع الالهيات خارج الزمان • ولقد حدث فى كل حضارة أن أعيد تفسير الالهيات بحيث تصبح العناية الالهية تقدما فى التاريخ ، وبحيث يصبح الانسان عاملا محركا فيه • والانسان فى النهاية خليفة الله فى الأرض ، والأمة هى الوارثة لهذه الخلافة • على هذين المحورين يتحرك تراثنا القديم من جديد • ويسير الى الامام بدل أن كان دائرا حول مركزه القديم سائرا فى محله لايتحرك •

٦ ــ استمرار التراث وذلك عن طريق استمرار مواقفه واستئناف نشاطه • فنحن الان فى مواجهة حضارات غازية وعلى رأسها الحضارة الغربية كما كان الحال فى الموقف القديم فى مواجهة الحضارة اليونانية • مسؤوليتنا هى فى اعادة فهم الأصول الأولى أى معطيات الوحى بناء على متطلبات المواجهة الجديدة ومعطيات العصر ولارساء دعائم النهضة العربية الحديثة • ان استمرارية التراث أمر ممكن نظرا لأنه مازال حيا يفعل فى نفوسنا ، ويؤثر فى سلوكنا • فالقدماء رجال ونحن رجال ، والجبهات متكررة ، والمواجهة مستمرة ، ومعارك التحديث قائمة •

ثانيا : مسئوليتها تجاه التراث الغربى :

وتقع علينا هذه المسئولية وعلى الثقافة العربية وذلك لاننا اليوم فى مواجهة مع الحضارة الغربية باعتبارها حضارة غازية وفدت الينا منذ قرنين من الزمان وما زالت تمثل تحديا حضاريا لنا • نقف منها اما موقف الرافض المطلق بدعوى أن تراثنا القديم قد أغنانا عن كل شىء أو القابل المطلق بدعوى أن الغرب هو نمط التحديث والتقدم أو المنتقى الذى يبتسر أحد جوانبها ويفصله عن بيئته ويخرجه ويعممه ويطلقه وينقله الى كل حضارة فيحدث الاغتراب فى الحضارات غير الأوربية ، وتتحول هذه الجوانب المبشرة الى مواطن اغتراب فى وجداننا المعاصر

مثل الوضعية العربية ، والماركسية العربية ، والوجودية العربية ، والبنائية العربية .. الخ .

وتتحدد مسؤولية الثقافة العربية تجاه التراث الغربى على النحو الآتى :

١ — تحجيم التراث الغربى ، ورده الى داخل حدوده الطبيعيه ، وذلك لأنه يحتوى على فكر بيئى خالص نشأ فى ظروف معينة ، وحتمته طبيعة معطياته الدينية . ثم كشف هذا الادعاء الذى كثيرا ماروجنا له فوصفنا الفكر الغربى بأنه فكر شامل انسانى عام ، تنقله كل حضارة ، وتتبناه كل أمة سواء فى العلم أو فى الفن أو فى الدين أو فى السياسة . وعلى هذا النحو يمكن ايقاف الغزو الثقافى الغربى واظهار خصوصيات الثقافات غير الغربية حتى تتنوع الثقافات وتثرى بعضها بعضها ، ولا تكون هناك ثقافة أم وثقافات فرعية ، ثقافة نموذجية وثقافات تحذو حذوها ، ثقافة مبدعة وثقافات مقلدة . وقد يكون فى ذلك فائدة كبرى للتراث الغربى ذاته الذى قد يرى حينئذ ثقافته من خلال ثقافات الآخرين المتميزة ، ويكون له نقاط احالة أخرى يمكن الرجوع اليها . وبالتالى تخف نرجسيته . ويتعلم من الثقافات التى حاول مرة القضاء عليها .

٢ — القضاء على اغتراب مثقفينا الذين انحازوا للغرب وأصبحوا جزءا منه ، وتخليص أذهاننا من قوالب الفكر الغربى وخروجنا عن اتجاهاته حتى يمكن أن يعود لشعورنا الحياد والقدرة على الرؤية الموضوعية لهذا التراث كموضوع مستقل عنا . ولما كان المثقفون طليعة الجماهير ومحددو مسار الوعى فان القضاء على اغتراب المثقفين هو عودة الوعى للجماهير العربية واكتشاف لذاتيتها الخاصة ، ووضعها فى مسار تاريخها الصحيح بدلا من استغرابها على أيدى قادة وعيها أو رجوعها الى تراثها القديم تجد فيه ملاذها وفرارها .

٣ — دراسة التراث الغربى دراسة نقدية خالصة ، والقيام بمحاولة لوصف بداية الوعى الأوربى ومساره واكتماله فينشأ لدينا علم « الاستغراب » كما أنشأ الغربيون لديهم علم « الاستشراق » . وبالتالى

تكون نهضتنا الحالية قد تحولت من مجرد خطابة واعلان للنوايا الحسنة الى تخطيط علمى كما حدث فى نهضة أوربا فى القرون الماضية وأخذها غيرها من الشعوب موضوعا للدراسة • وعلى هذا النحو يمكننا تحديد مراحل هذا الوعى ابتداء من مصادره اليونانية والرومانية أو المسيحية اليهودية الى فتراته سواء فى العصور الوسطى أو فى العصور الحديثة حتى يمكننا معرفة فى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش سواء بالنسبة لأنفسنا أو بالنسبة لغيرنا • واذا كنا قد وقعنا تحت اغراءات العصور الحديثة ووضعنا أنفسنا فى القرن العشرين فان مسؤوليتنا فى تحديد مهام هذه العصور ابتداء من الاصلاح الدينى فى القرن الخامس عشر ، والنهضة فى السادس عشر ، والعقلانية فى السابع عشر ، والتنوير فى الثامن عشروالعلمية فى التاسع عشر ، وأزمة العشرين • وقد نكون نحن قد خرجنا للتو من الاصلاح الدينى وفى بدايات عصر النهضة •

٤ — بيان حدود العقلانية الأوربية ومصادرها سواء عند اليونان أو عند العرب القدماء ، وكيف أن العقل أصبح فيما بعد اما أحادى الطرف أو مرتبطا بالوجدان أو بالحس أو بالتاريخ أو بالقومية أو بالعنصرية • أصبحت العقلانية مرادفة لروح الشعب ، وتعبر عن القومية والنزعة العنصرية ، وأصبح الشمول الذى يفرضه العقل مرتبطا بالأمة La Nation فظهرت لدينا عقلانيات عدة بقدر مالدينا من قوميات : عقلانية المانية تمجد الروح والشعب والتاريخ ، وعقلانية انجليزية تمجد الحس والتجربة والواقع ، وعقلانية فرنسية تمجد النفس والتجارب الباطنية والشعور ، وعقلانية أمريكية تمجد الحرية والديمقراطية والمساواة • وبالتالى تحطمت العقلانية الأوربية على حدود القوميات ونقصها الشمول الذى قد لا يظهر فى العقل الا بفعل التوحيد •

٥ — بيان حدود التجريبية الأوربية ومصادرها سواء عند الشكاك اليونان والرومان أو عند العلماء العرب أو بعد الاكتشاف التلقائى للواقع المادى فى أوائل العصور الحديثة بعد رفض كل المعطيات القبلية التى لم تستطع الصمود امام نقد العقل ومكتشفات الطبيعة • تحولت التجربة

الغربية الى مادية ساذجة أو حسية خالصة ، وأصبحت مصدر كل علم بناء على المشاهدة والتجربة ورفض أى مصدر آخر • لقد ارتبط الوعى الأوربى بالواقع التجريبى حتى فقد حريته فى نقد التجربة وبيان حدودها ، وبأن المجربات والمشاهدات والحسيات ما هى الا مصادر للمعرفة مثل الحدسيات والعقليات ، والتجارب الباطنة والمتواترات كما قال علماؤنا فى التراث • بل ان العلم الأوربى وهو الذى قام على التجربة والمشاهدة لايهم نقله الى حضارات أخرى بقدر مايهم تأسيسه فى وعى الشعوب غير الأوربية عن طريق مناهج التجربة الكاملة وليست المبتسرة•

٦ ــ بيان حدود المذهب الانسانى الغربى ابتداء من عصر النهضة فى السادس عشر مارا بالليبرالية الأوربية فى السادس عشر حتى النزعات الانسانية الاجتماعية فى الثامن عشر والاتجاهات الاشتراكية فى التاسع عشر والفلسفات الوجودية فى العشرين • فالنزعة الانسانية الغربية ظلت على مستوى النظر ولم تتحقق فى الحياة الأوربية التى سادتها الحروب الطائفية والصراع بين القوميات • واذا ما تحققت داخل أوربا فانها سرعان ما تختفى خارجها ، وكان الانسانية فى أوربا وحدها ، تنقلب على همجية ووحشية واستعمار واذلال للشعوب خارج أوربا وبفعل شعوبها • فالاكتشافات الجغرافية خير لأوربا لاتساع رقعتها وزيادة ثرواتها واسترقاق افريقيا فى عصر قيام النزعة الانسانية على مستوى الثقافة والفكر •

ثالثا : مسؤوليتها تجاه الواقع العربى :

ان المسؤوليات الراهنة للثقافة العربية لاتتحدد فقط بالنسبة للتراث القديم أو بالنسبة للتراث الغربى ، وذلك لانها تتجاوز المهام الحضارية الملقاة عليها الى الواقع المباشر الذى تعيش الثقافة العربية والجماهير العربية فيه •فالثقافة تعبير عن الواقع ، والواقع تحكمه الثقافة • ومن ثم كانت المسؤوليات الراهنة للثقافة العربية هى ايضا مسؤوليات تجاه الواقع العربى • وتتحدد هذه المسؤوليات ايضا على النحو الآتى :

١ ــ مسؤولية محو الأمية التى مازالت هى الغالبة على جماهيرنا العربية • ولا تعنى الأمية مجرد تعلم القراءة والكتابة فقد يكون من يجهلهما اكثر علما ووعيا ممن هو عالم بهما وذلك بفضل التراث الشفوى ، والسنة المروية ، والقرآن المحفوظ ، وخبرة السنين الطويلة • ولكن تعنى الأمية أيضا أمية أنصاف المتعلمين الذين يقرؤون دون أن يحدث لديهم الوعى الحضارى • كما تعنى أمية المتعلمين المغتربين أو الناكصين على أعقابهم هاربين الى التراث القديم ، وكلاهما ناقل علم وليس مؤسس علم ، مرة عن القدماء ومرة عن المحدثين • وتعنى ثالثا أمية المهنيين المتخصصين فى شتى فروع المعرفة دون أن يكون لهم اى ثقل حضارى أو أى دور فى توجيه الواقع العربى الراهن •

٢ ــ خلق الثقافة الوطنية التى يمكن أن تجمع الجماهير العربية عليها ، وتشمل الحد الأدنى من الاتفاق على بعض المعايير النظرية ، والمقولات الذهنية ، فالثقافة الوطنية فى البلاد النامية هو الحامل لأيديولوجياتها السياسية • ونحن نتحدث منذ ربع قرن أو يزيد عن ثوراتنا العربية دون أن نقيمها على ثقافة وطنية أى على تصورات الشعب ومقولاته التى من خلالها يحقق مشروعاته القومية • وبالتالى ظلت قوالبنا الذهنية منفصلة عن ثوراتنا العربية • وما كان أسهل اذا ما أصيبت هذه الثورات بانتكاسة ما أن تظهر قوالبنا الذهنية كدعامة للمحافظة • ان الثقافة الوطنية ، ومفاهيم الجماهير عن الانسان والزمان والتاريخ والتطور والحركة هى التى تضمن استمرار الثورة ، فلا ثورة بلا نهضة ، ولا نهضة الا بثقافة وطنية ، أى تنظير النهضة على مستوى الفكر[١] •

٣ ــ مساهمة الثقافة العربية فى حل المشاكل الكبرى التى يغرق فيها عالمنا العربى الراهن وعلى رأسها قضية تحرير الأرض • فمازالت أجزاء كبيرة من أراضينا محتلة ، ومازالت فلسطين فى يد العدو الصهيونى • وبالتالى فان مسؤولية الثقافة العربية تتحدد فى مساهمتها

---

(١) أنظر دراستنا السابقة « فى الثقافة الوطنية » .

فى ربط الثقافة بالارض ، والدين بالتحرر ، والفكر بالمقاومة ، والفن بالصمود ، واقامة لاهوت الثورة أى ربط ثقافتنا بحياتنا ، وأن تصبح ثقافتنا جزءا من مصيرنا • ان قوة العدو الصهيونى تتمثل فى قوة دعاوية التى يستند عليها والتى تقوم أساسا على تاريخه ودينة وتراثه أى ثقافته الوطنية • وان الحق العربى يمكنه أن يتأكد اكثر واكثر من خلال اقامة ثقافة وطنية • وما اكثر المفاهيم فى تراثنا حول استخلاف الأمة ، ووراثتها للأرض •

٤ ــ مساهمة الثقافة العربية فى حل مشاكل التخلف • فالتنمية لاتعنى فقط زيادة الموارد ، وتخطيط العمران ، وشق الطرق ، وبناء السدود ، واصلاح الأراضى بل تعنى التنمية الشاملة التى تضم أيضا تصورتنا للعالم ونظرتنا للحياة ، واحساسنا بالتاريخ ، وشعورنا بالزمان ، وتصورنا للعلاقات بين الأطراف بين الأعلى والادنى أم بين الامام والخلف ، وتصوراتنا لمراكز الكون ، الله ام الأمة أم الانسان • ان كثيرا من المظاهر المادية للتخلف فى حياتنا لترجع أساسا الى تصورات نظرية ورثناها وأصبحت أبنية شعورية لنا توجه سلوكنا وتفرض على حياتنا العامة أنظمتها • وقد تكون نظرية الفيض التى ورثناها من تراثنا الفلسفى سبب ما نعانيه من بيروقراطية وتفاوت طبقى فى حياتنا الاجتماعية والسياسية ، وقد يكون ادانة الصوفية للعالم واحتقارهم له سبب هزائمنا السياسية والعسكرية نظرا لأننا لم نعد نعيش فى عالم باق نحرص عليه • والأمثلة كثيرة على أن الشعوب النامية لاتتحرك الا من خلال تراثها وثقافتها الوطنية واعادة صبها فى مخزون حاجات العصر •

٥ ــ خلق ثقافة تستطيع أن توصل شعارات الأمة العربية من حرية واشتراكية ووحدة حتى لاتبقى هذه الشعارات مجرد كلمات خاليه من أى مضمون أو أن تكون لها مضامين متضاربة طبقا لنوعيات الأنظمة العربية وحتى تتحول الشعارات الثلاث الى مطالب قومية لاتخضع لتقلبات الأنظمة السياسية • تتأصل الحرية بالرجوع الى جذورها فى تراثنا القومى تأكيدا لحرية الانسان واستقلال فعله وانهاء كل التصورات

التسلطية التى تحد من الحرية الانسانية[٢] • وتتأصل الاشتراكية لا عن طريق تبرير ما هو قائم اعتمادا على تراثنا ولكن على المطالبة بمزيد من العدالة الاجتماعية والمساواة اعتمادا على التوحيد والاستخلاف • وتتأصل الوحدة العربية فى حياتنا بالرجوع أيضا الى التوحيد الذى يعنى أيضا وحدة الأمة • ووحدة هدفها ، ووحدة نضالها المشترك •

٦ — تحديد مسار الحضارة العربية فى التاريخ بعد أن بدأ العالم يعى نهضة الأمة العربية والاسلامية ويخشى نهضتها المستمرة ، وعودتها الى حضارتها المجيدة ، وقيادتها لمسار التاريخ • مهمة الثقافة العربية هى أن تكون على مستوى المسؤولية الملقى على عاتقها فى تحديد مسار الأمة خاصة وان الحضارات المعاصرة التى مازالت تمثل تحديا لنا فى الشرق أو فى الغرب يؤذن أهلها ومفكروها ببداية النهاية بالنسبة لها • ويتحدثون عن الخلط ، والقلب ، والتبديل ، والانهيار ، والسقوط ، والأزمة ، والمحنة ، والصدمة التى تعم كل شىء • وبالتالى تستطيع الأمة العربية أن تختط لنفسها استراتيجية حضارية جديدة تحدد مسارها فى المستقبل ، وتشق طريقها بين مختلف الشعوب ، فقد تستطيع اذا ماهى قامت بمهمتها قيادة مسار التاريخ فى الأجيال القادمة •

تلك هى بعض المسؤوليات الراهنة للثقافة العربية تتجاوز بها مرحلة التعالم وجمع المعلومات ، كما تتجاوز بها التخصص الدقيق والثقافة المهنية ، وتتجاوز بها كثرة المؤسسات الثقافية كما ونوعا • فالثقافة بالنسبة للأمة العربية هى حياتها ورسالتها • وكثيرا ما تهزم الامم ولكن تحيا ثقافتها ، بل ان الصمود الثقافى هو الضمان الوحيد للأمن الحضارى وهو ما تحتاجه الأمة العربية فى هذه الأيام العصيبة من تاريخها •

---

(٢) أنظر مقالنا : الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديموقراطية فى وجداننا المعاصر ، المستقبل العربى يناير ١٩٧٩ ، وأيضا ، الفصل الثانى : الدين والتحرر الثقافى .

اولا : ماذا تعنى الفلسفة ؟

ليست الفلسفة كما تبدو من المعنى الشائع مجرد كلام نظرى غامض يتشدق به المتعالمون ، ويدعيه الجاهلون أو هى سفطه تقلب الحق باطلا والباطل حقا تمويها على النـــاس ، وتعمية لواقعهـــم • وهى ليست بديلا عن تراث الأمة أو خروجا على تقاليدها ، تحاصر ، وتستبعد ، ويكفر اصحابها • انما الفلسفة هى الحكمة • وقد شاع اللفظ اليونانى المعرب وهو الفلسفة مثل ذيوع اللفظ العربى الأصيل وهو الحكمة خاصة لدينا فى عصورنا الحديثة تحت أثر الثقافة الغربية • سماها القدماء الحكمة اقتفاء لأثر القرآن الكريم « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خــيرا كثيرا » (٢ : ٢٦٩) • والحكيم فى النهــاية أحــد اسمــاء الله الحسنى • وقد ارتبطت الحكمة فى القرآن الكريم بالكتاب أى بالوحى فاذا كانت الحكمة هى الفلسفة والكتاب هو الوحى فان الفلسفة والوحى يكونان صنوين كما قال فلاسفة المسلمين من قبل ، الكندى ، والفارابى وابن سينا وابن رشد • الحكمة والشريعة أختان رضيعتان ، متحابتان بالجوهر والغريزة • ثم ارتبطت الحكمة أيضــا بالملك أى بالسياسة والحكم وبالاخلاق والموعظة الحسنة وبفصل الخطاب أى بالقول السديد والمنطق السليم[1] •

كتبت عناصر هذا المقال فى ربيع ١٩٨٥ أثناء وجودى أستاذا زائرا بجامعة الامارات العربية المتحدة أثناء الفصل الدراسى الثانى للعام الجامعى ١٩٨٤/٨٥ وبعد احساسى بأزمة المجتمع كله وهو عدم ربط الجامعة عامة وقسم الفلسفة خاصة بمشروع قومى واحد للبلاد . اذ لا فلسفة بلا وطن ، ولا طالب بلا مواطن ، ولا جامعة بلا أمة . وهذه صياغة ثانية من تلك العناصر الأولى كتبت فى صيف ١٩٨٧ . انظر ايضا بعد ذلك « الجامعة والوطن » .

(١) ذكر لفظ الحكمة فى القرآن عشرون مرة . سبع مرات بمفردها مثل « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا » (٢ : ٢٦٩) ، « ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة » (١٧ : ٣٩) ، « ولقد آتينا لقمان الحكمة ان اشكر لله » (٣١ : ١٢) ، « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة » (٣٣ : ٣٤) ، « قال لقــد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه » (٤٣ : ٦٣) ، « حكمة بالغة فما تغنى النذر » (٥٤ : ٥) ، وعشر مرات مضافة الى الكتاب مثل « يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » (٢ : ١٢٩) ، « يتلو عليهم آياتنا ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (٢ : ١٥١) ،

وقد ظهرت الفلسفة فى كل أمة ، ولدى كل شعب . وكانت أحد مقومات حضارته . وبلغة العصر ، ارتبطت الفلسفة بالمشروع القومى لكل أمة وحضارة وشعب ، تساهم فى البناء ، وتؤسس النظم ، وترعى الدولة . ففى الصين القديمة ، ارتبطت الفلسفة بالاخلاق السياسية وبعلاقة الفرد بالدولة وبتربية الحاكم الصالح كما يبدو ذلك من تعاليم كونفوشيوس حتى ماوتسى تونج والماركسية اللينينية الماوية.كما ارتبطت الفلسفة بالهند ، وصاغت تصورها للعالم ، وحدة الروح والطبيعة ، وصلة الانسان بالكون كما بدا ذلك فى تعاليم بوذا وفى المنطق البوذى والاستنارة الداخلية . كما ارتبطت الفلسفة بحكمة فارس القديمة وبتدوين الدواوين وبفن الحكم وبتكوين الحاكم الفيلسوف كما ظهر ذلك فى عديد من الكتب الفارسية القديمة التى نقلها ابن مسكويه[٢] . وفى مصر القديمة ارتبطت الفلسفة بالدين وبالدولة ، وكانت العقائد أساس التنظيم ومهد العلم وأساس الدولة ، وفى مقدمتها فرعون الاله والخلود . وعند اليونان نشأت الفلسفة مرتبطة بالتعليم وبالمدارس وبالجدل والحوار من أجل تنظير العالم وتأسيس الأخلاق واقامة نظام للدولة أيضا . وكما ارتبطت الفلسفة بالأمم والشعوب فانها ارتبطت أيضا بالديانات والحضارات كما هو الحال فى الفلسفات اليهودية والمسيحية والاسلامية . فالفلسفة اليهودية تعبير عن الحضارة اليهودية سواء فى عصر التدوين وجمع التراث اليهودى ، التوراة ، وكتب الانبياء والحكمة وكتب القضاة والملوك أو التراث الشفاهى كما هو الحال فى التلمود والمشناه . ثم نشأت الفلسفة العقلية اليهودية فى أحضان

« واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة » (٢ : ٢٣١) ، « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » (٣ : ٤٨) ، « لما آتيتكم من كتاب وحكمة » (٣ : ٨١) ، « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (٤ : ١١٣) ، « واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » (٥ : ١١٠) ، ومرة واحدة مع مع الموعظة الحسنة « وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (١٦ : ١٢٥) ، ومرة واحدة مع الملك « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة (٢ : ٢٥٠) ، ومرة واحدة مع فصل الخطاب « وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » (٣٨ : ٢٠) .

(٢) ابن مسكويه : الحكمة الخالدة ، تحقيق د. عبد الرحمن بدوى ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٢ .

الفلسفة الاسلامية لتعقل المشروع اليهودى وتجعله أقرب الى التوحيد الشامل[٣] • كما نشأت الفلسفة المسيحية من ثنايا الفلسفة اليونانية مع المعطى الجديد وهو العقائد المسيحية المتمركزة حول شخص المسيح • وعبرت عن سيادة الامبراطورية المسيحية فى العصور الوسطى والتى خلفت الامبراطورية الرومانية ومن نفس العاصمة حتى العصور الحديثة وبروز القوميات الأوربية • وهنا ارتبطت الفلسفة من جديد بالمشروع الغربى الحديث وتأسيس الذاتية بعد التحول من التمركز على الله والكنيسة الى التمركز على الانسان والطبيعة • ولم تكن الفلسفة الاسلامية استثناء من ذلك فقد ارتبطت بالمشروع الاسلامى وهو تحويل الوحى لنظام الحكم وارتباط الدين بالدولة •

وقد مرت الحضارة الاسلامية بمرحلتين : الاولى استغرقت القرون السبعة الأولى حيث نشأت الحضارة الاسلامية وتطورت وازدهرت واكتملت وبلغت قمتها فى القرن الرابع الهجرى • ثم بدأت فى التقلص والانزواء منذ هجوم الغزالى على العلوم العقلية فى القرن الخامس • ولم تشفع بارقة ابن رشد فى القرن السادس ان تعيد الى الفلسفة حيويتها وعنفوانها الأول • ثم انهارت الحضارة كلها فى القرنين السادس والسابع حتى أتى ابن خلدون فى القرن الثامن ليؤرخ للحضارة الأسلامية فى دورتها الأولى • ارتبطت الفلسفة بالمشروع الاسلامى الأول وهو تحويل الوحى الى علم ، وتحويل العلوم الى نسق علمى حضارى واحد ، واقامة النظم والمؤسسات ومقومات الحياة المدنية على أساس من النهضة العلمية والحضارية الجديدة • فنشأت العلوم النقلية الخمسة : علوم القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه • كما تأسست العلوم النقلية العقلية الأربعة : علم أصول الدين ، وعلم اصول الفقه ، وعلوم الحكمة ، وعلوم التصوف • ثم قامت العلوم الرياضية والطبيعية والانسانية الخالصة معتمدة على العقل والطبيعة الرياضة مثل : الحساب ، والهندسة ، والفلك ، والموسيقى • والطبيعة مثل :

---

(٣) انظر دراستنا Islam and Judaism, Unesco, Paris, 1985
وأيضا فى كتابنا : Religion, Ideology and Development

الكيمياء ، والطب ، والصيدلة ، والحيوان ، والنبات ، والانسانية مثل : اللغة ، والأدب ، والجغرافيا ، والتاريخ • نشأت المرحلة الاولى فى احضان الفتح وتأسيس الدولة الاسلامية المترامية الاطراف • لذلك نشأت العلوم لتأسيس حضارة ، ونشأت الحضارة لقيام أمة[٤] •

أما المرحلة الثانية التى استغرقت القرون السبعة التالية من القرن الثامن حتى القرن الرابع عشر فانها شاهدت ثلاث فترات أيضا كالتى شاهدتها المرحلة الأولى (وهى : النشأة والتطور ، الازدهار والاكتمال ، التوقف والانهيار) • أما فترات المرحلة الثانية فهى الاستمرار عندما ازدهرت الفلسفة الاشراقية فى القرون الثامن والتاسع والعاشر فى ايران فى الفلسفة الاشراقية عند صدر الدين الشيرازى • ثم فترة الشروح والمخلصات وتدوين الموسوعات الكبرى للحفاظ على التراث الحضارى بعد أن توقف خشية الضياع وتمهيدا لابداع جديد • ثم فترة الاصلاح والنهضة منذ القرن الماضى والتى قامت بها الحركات الاصلاحية الحديثة • ارتبطت الفلسفة فى المرحلة الثانية أيضا بمشروع ثان الا وهو استمرار الابداع خارج المنطقة السنية فى ايران ، ثم تدوين التراث فى المنطقة السنية خاصة فى مصر ثم بداية النهضة الجديدة فى شتى ارجاء العالم الاسلامى فى الهند وشبه الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر والسودان والمغرب العربى كله وتركيا وعلى ربوع القارتين العظيمتين أفريقيا وآسيا[٥] •

ثانيا : الفلسفة كوعى بالذات وبالأمة وبالتاريخ •

وبصرف النظر عن الحضارات والشعوب ، والعصور والمراحل والفترات ظل عنصر دائم فى الفلسفة الا وهو الفلسفة كوعى بالذات وبالأمة وبالتاريخ • فارتبطت الفلسفة أولا بالوعى أو الشعور أو

---

(٤) أنظر خطة مشروع اعادة بناء هذه العلوم فى كتابنا « التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم » ص ٢٠٣ — ٢٠٩ ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

(٥) مالك بن نبى : فكرة الافريقية الأسيوية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار العروبة القاهرة ، ١٩٥٧ .

النفس أو الفرد أو الذات أو المواطن أو الأنسان • ارتبطت ثانيا بالأمة والشعب والوطن والمجتمع • وارتبطت ثالثا بالتاريخ والتطور والزمان• الفلسفة اذن هى وعى بالذات ، ووعى بالأمة ، ووعى بالتاريخ •

١ ــ **الفلسفة كوعى بالذات** : الفلسفة هى أولا وعى بالذات • ودون البحث عن أصولها فى حكمة الشرق القديم • وضع سقراط أساسها الأول فى « اعرف نفسك بنفسك » والتى من أجلها وصفته كاهنة معبد دلفى بأنه أحكم البشر • وقد انتقل الشعار ، وتحول الى قول مأثور عند الصوفية فى « **من عرف نفسه فقد عرفه ربه** » • واستمر فى العصر الوسيط الأوربى عند أوغسطين فى نظرية « المعلم » • ففى داخل كل منا معلم يعلمنا الحكمة « فى داخلك أيها الانسان ، تكمن الحقيقة »[٦] • ثم أكدت العصور الأوربية الحديثة كلها على ذلك منذ الكوجيتو الديكارتى « **أنا أفكر فأنا اذن موجود** » ، والثورة الكوبرنيقية عند كانط ، الذات مركز والعالم يدور حولها ، وعندما جعل هيجل الروح هى كل شىء ، وجعلت الوجودية الذاتية محور العالم • وقد لخص القرآن الكريم ذلك كله فى أية « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (٥١ : ٢١) مطالبا ايانا بالنظر فى آياته فى الكون ثم الارتداد فى الذات والتأمل فى النفس •

الفلسفة اذن وعى بالذات • وقد أكدت الحركة الاسلامية المعاصرة على ذلك بتركيزها على يقظة الوعى أو فلسفة الوعى أو « الجوانية »[٧] • وقد حدد الامام محمد عبده الحكيم الفيلسوف بأنه « العاكف على شأنه ، الخبير بأهل زمانه » أى الواعى بالذات وبالعالم • الفلسفة هى القادرة على جعل الانسان يتأمل فى ذاته ، ويستبطن مكنونات نفسه ، ويقرأ ضميره ، ويسمع صوته الباطن • وفى

---

(٦) القديس اوغسطين : محاورة « المعلم » فى كتابنا : نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط . الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٨ .

(٧) عرفت المرحوم د. عثمان امين بهذا التيار وتأويله المثالية الغربية ورواد الاصلاح الدينى بهذا المعنى . انظر دراستنا : « من الوعى الفردى الى الوعى الاجتماعى » فى دراسات اسلامية ص ٣٤٧ ــ ٣٩٢ ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨١ .

نفس الوقت هو القادر على توحيد طاقاته ، نظره وعمله ، قوله وسلوكه ، فكره ووجدانه • لا يؤمن بشىء الا بعد تصديق ، ولا يفكر فى شىء دون أن يعيه ، ولا يقول شـيئا الا اذا عمله والا كان من الأخسرين أعمالا • لذلك ارتبطت الفلسفة بحياة الانسان ، بوجدانه ومشاعره ، بأحزانه وافراحه ، بأزماته وكروبه ، بآلامه وآماله ، بأشواقه وطموحاته • وعلى هذا النحو يمكن قراءة النصوص الفلسـفية عن طريق ردهـا الى تجاربها الأولى التى نشأت منها ومشاركة الطالب لها ، معها أو ضدهـا بحيث تكون حياة الطالب تأويلا للنص • اذ يتحول النص لديه الى تجربة معاشه ، الى موقف فلسفى ، فيصبح العلم قضية[٨] • حينئذ لا يصاب الطالب بالملل ، ولا ينتابه الفتور ، لا يأنف ولا يتضجر ، لا يغيب ولا يكسل ، لا يرهب الامتحان ، ولا يهرب من الفلسفة ، لا يتجاهلها ولا يعاديها ، ولا يقع تحت تأثير خصومها الذين يقطعون بالحقـائق الجـاهزة ، ويتخذونها حرفة لهم بالدفاع عنها والتكسب منها • فاذا تحول تعليم الفلسفة الى مسافات وكتب مقررة ، معلومات تلقن ونظريات تحفظ ، ومواد يمتحن فيها سرعان ما ينساها الطالب بعد الامتحان فانه يشب ويكبر ولم يع نفسه وبالتالى يقضى على الفلسفة من الأساس •

٢ ــ **الفلسفة كوعى بالأمة** : والوعى بالذات يؤدى بالضرورة الى الوعى بالآخر • فالآخر يقبع فى الأنا ، ويكون قصدا لها • الذاتية على ما يقول محمد اقبال أما فردية واما جماعية ، اما ذاتية الفرد أو ذاتية الأمة • فاذا ما حققت الفلسفة غايتهـا بتكوين وحـدة الشخصـية الانسانية فانها تتجه نحو وعى الأمة لتربيته ، كما تربى الفرد من قبل على الحرية والاستقلال • لذلك ارتبطت الفلسفة فى تاريخها بحيـاة الشعوب ، وتاريخ الحضارات ، ونشأة الدول •

لقد الهب خيال حكماء الاسلام الصلة بين أرسطو والاسكندر • فجعلو أرسطو المعلم الأول ، والاسكندر تلميذه النجيب • وان أول

---

(٨) أنظر دراستنا : « قراءة النص » فى دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ وأيضا « العلم قضية » فى هذا الجزء الاول ، الدين والثقافة الوطنية .

مشروع تكوين أمبراطورية فى الشرق لهى فكرة الاستاذ نفثها فى روع التلميذ • وكثرت النصائح والرسائل والتوجيهات من المعلم الأول الى الاسكندر عبر فيها القدماء عن الصلة بين الفلسفة والدولة • كما جعلوا الفيلسوف هو الرئيس ، وهو أحكم الناس ، وأكثرهم علما وقدرة على الرؤية والاستنباط • والمدنية الفاضلة هى التى يرأسها الفيلسوف كما هو الحال عند الفارابى • كذلك تصور أوغسطين « مدينة الله » ، مدينة المؤمنين التى يحكمها قانون الفضيلة على عكس مدينة الشيطان التى تقوم على القهر والغلبة واستبعاد القوى للضعيف • الأولى لا تنهار أبدا لأنها ملكوت السموات بينها تنهار الثانية لأنها ملكوت الأرض •

ولا يوجد فيلسوف الا وله مشروع سياسى • فلأفلاطون الجمهورية ولأرسطو السياسة ودستور أثينا ، ولاوغسطين مدينة الله ، وللفارابى آراء أهل المدينة الفاضلة والسياسة المدنية ، ولابن سينا رسالة فى السياسة ، وللصوفية مدينة الأقطاب والابدال ، وللمتكلمين الامامة ، وللفقهاء السياسة الشرعية ، وللحكماء « اخوان الصفا وخلان الوفاء » • وفى بدايات عصر النهضة ، لمارسيليوس البادوى « المدافع عن السلام » ولتوماس مور اليوتابيا ، ولميكيافيللى الأمير • وفى العصور الحديثة لا يوجد فيلسوف الا ويطبق فلسفته النظرية على السياسة كما فعل كانط فى مشروع السلام الدائم ، وهيجل فى نظرية الحق ، وفشته فى نداءته للأمة الألمانية ، وباكونين فى الله والدولة ، وبوزانكويت فى النظرية الفلسفية للدولة ، وكاسيرر فى الانسان والدولة •• الخ •

ولم تنهض أمة الا بفلسفة قومية لها أى عندما تحولت الفلسفة الى مشروع قومى لها • فنشأة الدولة الروسية الحديثة وتوحيدها انما تم بفضل مفكرى وأدباء حركة أنصار السلافية « السلافوفيل » للبحث عن روح روسيا قبل تأسيس دولة روسيا ، ووجدوها فى الأورثوذكسية الوطنية القائمة على حب الأرض والشعب • وقامت الوحدة الالمانية بفضل الفلاسفة الالمان وتصورهم للدولة التى تجسد روح الشعب وحركة التاريخ ، دولة واحدة تكون صورة الواحد فى الأمة • وقد بدأت

الوحدة الالمانية فى الفلسفة الالمانية قبل أن تتحقق على يد بسمارك ، وذلك عند فلسفات الوحدة المطلقة عند هيجل وشلنج فى الجامعات الالمانية . واذا كان غاريبالدى هو مؤسس الوحدة الايطالية فان ما زينى هو فيلسوفها الذى صاغ وحدتها على مستوى الفكر وفى وعى الأمة . بل ان دولة باكستان الحديثة انما كانت خيالا فى ذهن شاعرها محمد اقبال قبل أن تتحقق بالفعل على يد محمد على جناح . وان الجمهورية الفرنسية الحديثة قامت بفضل فلسفة التنوير وشعارات الثورة الفرنسية ، الحرية والآخاء والمساواة وآراء المفكرين الأحرار فى الحرية والعقد الاجتماعى . كما قامت الثورة الامريكية من أجل الاستقلال بفضل اعلان حقوق الانسان . وان انقلاب أمريكا الآن الى ثورة مضادة انما كان نتيجة للنكوص عن المبادىء العامة التى قام عليها الدستور الامريكى ووثيقة الاستقلال منذ اعلانها .

الفلسفة اذن ممكنة باعتبارها مشروعا قوميا يبدأ بتربية المواطن المواطن واذكاء وعيه بالأمة . فلا توجد فلسفة بلا وطن ، ولا فكر بلا شعب ، ولا ثقافة بلا قوم . لقد ارتبطت الفلسفة بتكوين المواطن حرا وعاقلا ومسؤولا ، ومساويا لأقرانه ، متسامحا معه . عينه على الطبيعة ، الكتاب الأبدى المفتوح ، ونبضه على مسار التاريخ وحركته . الفلسفة اذن ليست مزاجا خاصا أو مجرد تعبير أدبى عن واقع اجتماعى للمشاهدة بل هى رؤية للواقع وتحديد له ، وكشف لحركته ، وصياغة لنظمه وقوانيه . الفلسفة خطة تنمية لمجتمع ومشروع نهضة لأمة . ان غياب الفلسفة كمشروع قومى تجعل مشاريعنا فى التنمية مجرد هندسة بشرية ترمى الى زيادة معدلات النمو على نحو مادى خالص كما يتصوره خبراء التنمية فى الغرب ، مرهونة بوجود القيادة الرشيدة ، وبالتمويل اللازم ، اعتمادا على الخبرات الاجنبية أو المحلية . فتظل مشاريع التنمية فوقية لا ينتسب اليها الناس ولا ينضمون اليها أو يشاركون فيها لأنها لم تنبع من تصوراتهم للعالم وليست لديهم البواعث على المشاركة فيها . ان شرط الفلسفة كمشروع قومى هو أن تنبعث

الفلسفة من روح الأمة المتمثل فى تراثها • فالنظم السياسية الجاهزة قيود على الفكر وحكر على الابداع ، سرعان ما تنتهى أمام المد التراثى الشعبى والحركات الاسلامية الغاضبة الرافضة للتغريب • ان الفلاسفة ليسوا أعداد الأمة أو خصومها بل هم المؤسسون لها ، والمدعمون لمؤسساتها ، والحارسون على أمنها • لا يعنى ذلك أنهم فلاسفة السلطة أو فقهاء السلطان يبررون قراراتها ويشرعون لسلطانه بل هم يرشدون ويوجهون وينصحون ثم ينذرون ويحذرون ويبصرون ، ثم يقودون ثورات الشعوب ضد الظلم والطغيان •

٣ ـ **الفلسفة كوعى بالتاريخ** : لما كان لا وجود لفرد بلا وطن ، ولا لانسان بلا أمة كذلك لا وجود لشعب بلا تاريخ • وكما أنه لا وجود لوعى فردى دون وعى اجتماعى فانه لا وجود لوعى اجتماعى دون وعى تاريخى • وكما أن الفرد يعيش فى الزمان والأمة تعيش فى عصور فان تراكم عصورها يولد فى شعورها الجمعى شعورا تاريخيا ، رصيد الخبرات السابقة وحصيلة تعلم الاجيال • الفلسفة هى القادرة على تجسيم روح العصر والتعبير عنه ، فلا حركة بلا تاريخ ولا تاريخ بلا روح • وتبدو الروح فى الثقافة وفى كل مظاهر الابداع الذهنى للامة• الفلسفة هى الوعى الطبيعى لكل ذلك • والفلسفة هى القادرة على تحديد المرحلة التاريخية التى تمر بها أمة ما حتى لا تؤدى ادوارا أدتها من قبل أو تؤدى أدوارا لم تأت بعد • وفى كلتا الحالتين تنسى دورها الحاضر ! الفلسفة اذن هى وعى بالزمان وبالتطور وبالتاريخ ، وادراك للمرحلة التى تمر بها الأمة • لذلك ظهرت فلسفات التاريخ لتحديد قانون لتطور الشعوب وتحديد المرحلة الراهنة التى يمر بها كل شعب • لقد قام فلاسفة التاريخ المحدثون بتتبع مسار الغرب ، وانتهوا الى وصف بداياته ، وحددوا مساره ، وتنبؤوا بنهاياته • تحدث اشبنجلر عن أفول الغرب ، وتوينبى عن نهاية الحضارة الغربية ، وهوسرل عن أزمة العلوم الأوربية باعتبارها أزمة للوعى الأوربى ، وبرجسون عن تدهور الغرب وآلاته التى تصنع آلهة جديدة • الفلسفة اذن بلا وعى بالتاريخ تجعل الشعب بلا مسار ، بلا ماض أو حاضر أو مستقبل ، مجرد

متيافيزيقا تربطه بالخلود ، بكل الزمان دون تحديد أية لحظة فيه • لذلك ارتبطت العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية والعلوم التاريخية معا ارتباط الوعى الفردى بالوعى الاجتماعى بالوعى التاريخى • بل ان الأصل هى العلوم التاريخية والتى من ثناياها نشأت العلوم الاجتماعية ثم العلوم الانسانية المستقلة وكأن الانسان تاريخ ثم مجتمع ثم فرد !

وكما أن فى كل حضارة فلسفة اجتماعية ولدى كل فيلسوف رؤية اجتماعية وتطبيقا لفلسفته النظرية فى السياسة كذلك لكل حضارة فلسفة فى التاريخ ورؤية لمسار التطور البشرى كما أن لكل فيلسوف تطبيقا لفلسته النظرية فى التاريخ • فأرسطو فيلسوف مؤرخ للفلسفة اليونانية • وأوغسطين فيلسوف ومؤرخ للنظم السياسية سواء لمدينة الله أو لمدينة الشيطان • وكان يواقيم الفيورى فى القرن الثانى عشر أول من صاغ فلسفة للتاريخ بعد تحويل التثليث من مستواه الرأسى الى مستواه الأفقى فى ثلاث مراحل : مرحلة الأب ، ومرحلة الابن ثم مرحلة الروح القدس[٩] • ولكن العصور الأوربية الحديثة منذ هردر ولسنج وكانط وفيكو وكندرسيه وتورجو حتى فلاسفة القرن التاسع عشر هيجل وماركس وأوجست كونت وكورنو ثم فلاسفة القرن العشرين عند كروتشة واشبنجلر وتوينبى هى التى جعلت فلسفة التاريخ رواية لقصة الوعى الأوربى بمراحله المختلفة وكأنه قد اكتمل فى القرن العشرين كما اكتملت الفلسفة اليونانية من قبل على يد أرسطو مؤرخا •

وبالنسبة لنا ، تستطيع الفلسفة أن تكتشف أننا الآن فى مرحلتنا الثالثة بعد أن اكتملت الدورة الاولى للحضارة الاسلامية على مدى سبعة قرون بلغت ذروتها فى القرن الرابع الهجرى وهى الفترة التى أرخ ابن خلدون لنشأتها وتطورها ونهايتها • ثم تلتها فترة ثانية عصر الشروح والملخصات الذى تم فيه تدوين الحضارة لنفسها بعد أن توقفت عن الابداع وتطوير العلوم القديمة • عملت الذاكرة بعد أن

---

(٩) انظر دراستنا
« Joachim of Fiore and Islam » in Religious Dialogue and Revolution, PP. 95 - 108, Anglo - Egyptian Bookshop Cairo, 1977

توقف العقل ، ونشأ التدوين بعد أن تحقق الابداع • ومنذ القـرن الماضى ونحن فى بداية مرحلة ثالثة منذ الحركة الاصلاحية الحديثة • ونحاول منذ أربعة أجيال بداية نهضة جديدة وابداعا ثانيا يخلص الأمة من هزائمها ، ويقيل نهضتها الأخيرة من عثرتها • ولقد قام جيلنا بثورات حديثة لتغيير النظم الاجتماعية القديمة ، ونال البعض منا الاستقلال الوطنى ، قام البعض بالثورة ، ونال البعض الآخر الثروة • واجتمعت الثورة والثروة فى جيل واحد • ولكن القضية الآن هى تعثر الثورات العربية الحديثة وانقلاب البعض منها الى ثورات مضادة أو ثورات عاجزة عن مواجهة احتلال الأراضى ومقاومة العدو • كما أن القضيه هى ظهور عصر ما بعد النفط ، وتقلص مشاريع التنمية واختراق الأوبك ، والحروب الطاحنة الجانبية وتفتيت الأمة • مهمة الفلسفة اذن هـو اعادة النظر فى تعثر الثورات العربية المعاصرة ، والتمهيد لعصر ما بعد النفط ، وتأسيس مجتمعات لها مصادرها من انتاجها القومى •

ثالثا : الفلسفة كمشروع قومى حديث •

والفلسفة بالنسبة لجيلنا قادرة على صياغة مشروع قومى حديث للأمة ، تثبت به ذاتيتها وتحقق به مصالحها • ولقد تمت صياغة هـذا المشروع منذ القرن الماضى ومازال قائما • وكلما تحققت احدى خطواته تعثر من جديد ، وعدنا كما بدأنا بحيث لم يحدث تراكم تاريخى كاف يولد تغيرا كيفيا فى رؤيتنا للواقع وتجديد المشروع واعادة صياغته • مازال مشروعنا القومى الذى حددناه منذ القرن الماضى نظريا ، خطابيا ، شعاريا ، دعائيا • بينه وبين الواقع هوة سحيقة • كلما ازدادت الخطابة النظرية ازداد الواقع عنه ابتعادا • لم تتحول من الشعارات الى اعادة بناء حياتنا الثقافية والفكرية والعقائدية والتشريعية ونظمنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية وقيمنا الاخلاقية والجمالية بناء على متطلبات هذا المشروع ومراحل تحققه[١٠] •

---

(١٠) انظر دراستنا : « جمال الدين الأفغانى » ، قضايا معاصرة ، الجزء الاول من فكرنا المعاصر ص ٩١ ـــ ١١٠ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، وأيضا « كبوة الاصلاح » ، دراسات فلسفية . الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

هذا المشروع القومي الحديث هو التعبير عن الواقع الحالى على مستوى النظر والاهداف • هو رؤية مباشرة للواقع من حيث هو متطلبات تعبر عن حاجة العصر ومصلحة الجماهير • ولما كانت الفلسفة ثقافة وحضارة فانها تدخل ضمن هذه الرؤية للواقع اما كعامل مساعد أو كعامل مزاحم ، لتقوية هذه الرؤية أو لاضعافها • ولما كانت الفلسفة فى جيلنا تنبع من مصدرين ، التراث القديم والتراث الغربى فان الرؤية المباشرة للواقع تصبح المصدر الثالث للفلسفة ، ومن هنا يجد المثقف العربى نفسه فى جبهات ثلاث : اثنتان حضاريتان : التراث القديم والتراث الغربى ، وثالثة وهى الواقع المباشر • ولما كان يسهل التعامل مع التراثين الحضاريين بالقراءة والتأويل والاختيار واعادة البناء فى حين أنه يصعب تبديل الواقع فان مهمة الفلسفة فى بناء المشروع القومى الحديث انما يكون عن طريق اعادة بناء التراثين القديم والغربى بناء على هذه الرؤية المباشرة للواقع ، أى تركيب الثقافتين على الواقع ، وصب الرافدين فى منبع الحاضر ، وجعل الثقافة برافديها كعامل مساعد لتقوية الرؤية المباشرة للواقع تنظيرا وعلمية وتعبئة للجماهير[11] •

ويمكن تحديد أهداف العصر بصرف النظر عن أسمائها فى سبعة وبصرف النظر عن ترتيبها الذى قد تختلف فيه الرؤى السياسية • ويمكن للفلسفة المستمدة من التراثين ، القديم والغربى أن تساهم نظريا من حيث التصورات والمفاهيم وعمليا من حيث تعبئة الجماهير على النحو الآتى :

١ ــ **تحرير الأرض المحتلة** : وهو الهدف الأول الذى مازال قائما منذ الاستعمار الأوربى الحديث وحتى الى ما بعد حركات الاستقلال الحديثة التى حررت أجزاء من الأرض وبقت الأجزاء الأخرى خاضعة للاحتلال فى فلسطين ، وسبته ، ومليلية ، وكشمير ، وأفغانستان • قد يكون هذا الاحتلال فى صورة قواعد عسكرية أو أحلاف أو تبعية

---

(١١) انظر دراستنا : « موقفنا الحضارى » ، بحوث المؤتمر الفلسفى العربى الأول ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ ، وايضا « الفكر الاسلامى والتخطيط لدوره الثقافى المستقبلى » فى دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ •

سياسية أو مناورات مشتركة أو كمصدر خارجى للتسليح المشروط • تحرير الأرض هدف قومى ضد الاحتلال المباشر أولا قبل أشكال الاحتلال الأخرى مثل التبعية الاقتصادية ، والغزو الثقافى ، وارتهان الارادة الوطنية • ولا يكفى فى ذلك « يوم الأرض » أو « فرقة الأرض » بل اظهار الأرض فى وعينا القومى واعادة بناء ثقافتنا القومية ارتكازا عليها • فالأرض مفهوم رئيسى فى تراثنا القديم ابتداء من مصدره الأول وهو القرآن الكريم « اله السموات والأرض » ، « رب السموات والأرض » ، « وهو الذى فى السماء اله وفى الأرض اله » • وفى علم أصول الدين ، العالم طريق الى الله ، ومن العالم الحادث يثبت الله القديم • وفى علوم التصوف وكما ظهرت فى الفلسفة الالهية ، الله والعالم حقيقة واحدة ، واجهتان لشىء واحد ، الحق والخلق • وفى علم أصول الفقه الواقع أساس النص فى التشريع نشأة وتطورا وتطبيقا فى تخريج المناط وتحقيق المناط وتنقيح المناط • ولكننا مازلنا حتى الآن فى حرج من اعلان ذلك نتيجة لتطهرنا القديم ونقص فى وعينا السياسى النظرى •

لقد استطاعت الصهيونية ايجاد الصلة بين الله والأرض فى أرض المعاد • فاليهودى لا يستطيع أن يعبد الله دون أرض ومدينة ومعبد وهيكل • فدفاعه عن الأرض تأكيد لله واثبات له • والفلسفة قادرة على أن تصوغ عقيدة فى الأرض كما استطاع فشتة فى ألمانيا صياغة فلسفة فى المقاومة لطرد المحتل بعد غزو نابليون لأراضى ألمانيا « أنا أقاوم فأنا اذن موجود » ، « الآن تضع ذاتها حين تقاوم » • وحتى الآن لدينا شعر المقاومة ، وأدب المقاومة ، وليست لدينا فلسفة المقاومة • ان الاستنفار بالجهاد حمية ولكن تحرير الأرض جزء من العقيدة لدرجة تحريم الفقهاء الصلاة فى الأرض المغصوبة اذ لا يجتمع فعلان حسن وقبيح فى موضوع واحد • تحرير الأرض أولا ثم الصلاة فيها ثانيا[١٢] • يمكن اذن ابراز ارتباط الفلسفة بالأرض فى كل حضارة ولدى كل شعب وفى كل تراث : الأرض فى الأدب الروسى عند أنصار

---

(١٢) انظر مقالنا : « هل تجوز الصلاة فى الدار المغصوبة ! » ، الجزء السابع : اليمين واليسار فى الفكر الدينى .

الحركة السلافية ، الأرض فى حركات التحرر الوطنى ، الأرض فى أدب المقاومة الفلسطينية كنماذج لصياغة فلسفة فى الأرض ، ومتيافيزيقا الأرض ، وجماليات الأرض .. الخ .

٢ ـ **اطلاق الحريات** : مما لاشك فيه أن أمتنا تعانى من أزمة فى الحريات العامة . فكثير من الأنظمة تقوم على الرأى الواحد ، والحزب الواحد ، والتنظيم الواحد ، والصحافة الواحدة باستثناء القليل . وان غياب الرأى الآخر اضرار بالفكر ، ونذير بسوء العاقبة . وتضرب بمجتمعاتنا المثل فى عدد نزلاء السجون وضحايا حرية الرأى . وتثار لدينا باستمرار قضايا حقوق الانسان . والفلسفة قادرة على الدفاع عن حرية الرأى الآخر . الفلسفة حوار ، وتبادل وجهات النظر ، لا تكفر أحدا ، وتقبل كل شىء . حجتها البرهان ، ومقياسها الصدق الداخلى . لا تعتمد على سلطان الا سلطان العقل ، ولا تخاف سلطة ، ولا تداهن سلطانا . وهى فى هذا مثل الدين تماما فى تأكيده على ضرورة النصيحة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعن خلق الله الناس أحرارا . وان أول ركن من أركان الاسلام « أشهد أن لا اله الا الله .. » لهو اعلان عن حرية المسلم . فهو يشهد ويتكلم ، لا يصمت ولا يدارى . فالساكت عن الحق شيطان أخرس . والشهادة شهادة على العصر ، ومنها يأتى الشهيد الذى يسقط شهيدا جزاء شهادته من جراء قول الحق فى وجه حاكم ظالم . تضم الشهادة فعلين : الأول فعل نفى « لا اله » ، والثانى فعل اثبات إلا الله » . ينفى المسلم من شعوره كل مظاهر الطاغوت ، كل آلهة العصر المزيفة . فاذا ما تحرر منها قام بالفعل الموجب الثانى « إلا الله » اثباتا للحق الواحد الذى يتساوى أمامه الجميع(١٣) . واذا كان القدماء قد اختاروا الجبر أو الكسب نظرا لظروفهم الخاصة ورغبة فى الاستسلام للسلطان بغية الاستقرار وحصارا للمعارضة فان من مصلحتنا اليوم ابراز حرية الاختيار حتى يسترد الناس مصيرهم

---

(١٣) انظر مقالنا : ماذا تعنى « اشهد ان لا اله الله » ، الجزء السابق .

بأيديهم ضد طغيان الدولة واحتكارها الرأى والنظر • واذا كان الصوفية قديما قد اسقطوا التدبير فان من صالحنا اليوم اثبات التدبير وقـدرة الانسان على تسيير أموره • واذا كان بعض فقهاء السلطان قد أفتوا بجواز الاستيلاء على السلطة بالشوكة فان من مصلحتنا حاليا الاصرار على أن الامامة بيعة وعقد واختيار • واذا كان القدماء قد أساءوا تأويل « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فان من واجبنا اليوم ابراز أنه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » • واذا كان الحكماء قديما قد تصوروا الكون فى اطار من الحتمية فان من حقنا اليوم أن نتصور الكون فى اطار من الحرية الانسانية القادرة على تشكيله • ولقد حاولنا ذلك فى التراث الغربى لأنه أقل خطورة وأقل اثارة للمشاكل • فترجمنا دستور أثينا وسياسة أرسطو اعتزازا بالليبرالية القديمة • ولـكننا عندما أتينا الى العصر الحاضر ربطنا بين الليبرالية والرأسمالية كما هو الحال فى الغرب الحديث • فتحولت الليبرالية الى محافظةوالرأسمالية الى اقطاع نظرا لأن المجتمع كله لم ينتقل من مرحلة الى أخرى • ونقلنا تصورات ديكارت وكانط للحرية العاقلة • ونشرنا آراء الوجوديين عن الحرية والالتزام ولكننا حتى الآن تنقصنا فلسفة فى الحرية وممارسات فى التحرر دفاعا عن الحريات السياسية وفى اطار الوحدة الوطنيه •

٣ ــ **العدالة الاجتماعيــة** : نحن أمة يصيبهـا الجوع والقحط والجفاف وسوء التغذية عند الأغلبية بينما يضرب بها المثل فى تضخم الثروات وتكدس الأموال والبذخ والترف عند الأقلية • هـذا التفاوت الضخم فى الدخول فى أرجاء الأمة بين من يهلكون جوعا وبين من يموتون بطنة أحد أسباب انتشار المذاهب الغربية الداعية للمساواة والعدالـة الاجتماعية • والفلسفة قادرة على حل قضية الغنى والفقر والمساهمة فكريا وعلميا فى صياغة فلسفة للفقر وفقر الفلسفة الداعية الى الغنى ؛ وتأسيس نظريات فى العدالة الاجتماعية ، وايجاد الأساليب لاعادة توزيع الدخول • وما أسهل تأصيل ذلك فى التراث القديم فى نظرية العمل كمصدر وحيد للقيمة بدليل تحريم الربا ، وجعل المصالح العامة فى يد الدولة منعا

للاستغلال والاحتكار ، وحق الحاكم فى تأميم الوسائل العامة للانتاج دفاعا عن الصالح العام ، وحق الفقراء فى أموال الأغنياء ، وانهيار المجتمعات القائمة على التفاوت الطبيعى ، « وبئر معطلة وقصر مشيد » ، والله باعتباره اشباعا من جوع وأمانا من خوف « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . وفى نظرية الاستخلاف ما يكفى للحد من الملكية الخاصة المستغلة . فالمال مال الله ، والانسان مستخلف فيه . له حق الانتفاع والتصرف والاستثمار ، وليس له حق الاكتناز والاحتكار والاستغلال .

الملكية وظيفة اجتماعية وليس شيئا يتم الاستحواذ عليه . وأن الركاز أى كل ما هو فى باطن الأرض مثل الذهب والحديد والنحاس ، وبلغتنا النفط ، لا تجوز ملكيته ملكية خاصة لأنه ملك للأمة . كل ذلك عناصر من التراث يمكن أن تعطينا فلسفة اجتماعية قادرة على حل قضية الغنى والفقر . والأمثلة فى التراث الغربى كثيرة أيضا ترجمناها منذ برودون وسان سيمون وماركس وروبرت أوين وكل أنواع الاشتراكات الغربية . مازالت موضع شبهة وخوف ، نقترب منها بحذر ، وقد نستبعد بعضها . ان التراث الاشتراكى الفكرى الغربى يفوق الآن القرن الواحد فى فكرنا المعاصر كما أن تأصيل مفاهيم العدالة الاجتماعية فى تراثنا القديم قد بدأ منذ وقت طويل . ولكن حتى الآن ، لم تنشأ فلسفة متكاملة للفقر والغنى فى لب الفلسفة العامة التى ظلت مباحث فى المعرفة والوجود والأخلاق الفردية . ان الفلسفة قادرة على أن تتجاوز مرحلة الدعاية من خلال أجهزة الاعلام ومرحله النقل النظرى للفلسفات الغربية بلا اختيار وتوجيه مقصود (١٤) .

٤ — **وحدة الأمة :** وتظل وحدة الأمة مطلبا أساسيا من مطالبنا القومية بعد عصر تجزئة مصطنعة موروثة من الاستعمار عندما قسمت الدول الأوربية الكبرى العالم الاسلامى فيما بينها خاصة بعد انهيار

(١٤) أنظر بحثينا « الدين والتنمية فى مصر » ، « الدين وتوزيع الدخل القومى فى مصر الجزء الرابع : الدين والتنمية القومية .

دولة الخلافة بعد الحرب الأولى وخلق مشاكل حدود وهمية مصطنعة لبث التفرقة واحداث الحروب بين الاخوة الاعداء كما نشاهد هذه الأيام من التدمير المتبادل والدماء المراقة وتشتيت جبهة الصراع العربى الأولى فى فلسطين الى جبهات أخرى ثانوية هنا وهناك • تستطيع الفلسفة بفكرتها عن الواحد ، وحدة الذات ، ووحدة الأمة ، ووحدة الكون ، ووحدانية الله ، وضع أسس للوحدة الشاملة ، فالله واحد • وتنعكس هذه الوحدانية فى الأمة الواحدة ، « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٢١ : ٩٢) ، « وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » (٢٣ : ٥٢) • وان أى توحيد للأمة يقوم على أساس عرقى أو لغوى أو مصلحى صرف ليظل قاصراً عن ادراك الأساس النظرى للوحدة • بل ان خلق الشعوب والقبائل والأمم المختلفة انما تم لأجل التعارف وخلق وحدة المعرفة بينهما • فالتعدد من أجل الوحدة • ويمكن تأصيل وحدة الأمة فى تراثنا القديم فى وحدانية الله كأحد أوصاف الذات الالهية وفى وحدة مصدر الوحى وفى نظريات الوحدة عند الصوفية ابتداء من وحدة الذات الانسانية الى وحدة الشهود الى وحدة الوجود • ونظرية الوحدة فى تراثنا القديم هى بلورة لنظريات الوحدة فى الشرق القديم فى الهند خاصة ، وحدة الانسان مع الطبيعة والكون ، ووحدة حضارة ما بين النهرين ، وحدة الله والطبيعة ، ووحدة مصر القديمة ، وحدة الله مع النفس والطبيعة والكون والدولة • وفى التراث الغربى الحديث تحققت مفاهيم الوحدة عمليا فى نشأة الدول القومية مثل الوحدة الألمانية ، والوحدة الايطالية • ودون مفهوم أصيل للوحدة والاقتصار على وحدة المصالح والاعراق تتعثر التجارب كما هو الحال فى وحدة الأراضى الروسية ، والوحدة الامريكية ، والوحدة الأوربية •

٥ — **التنمية القومية** : ويضرب بأمتنا المثل فى التخلف الشامل وليس فقط فى التخلف الاقتصادى • فمازال اقتصادنا يعتمد على الخارج أما فى التجارة بتصدير النفط أو فى الغذاء باستيراد المواد

الغذائية أو فى الدفاع باستيراد السلاح • كما أننا نعتمد فى تكنولوجيا الصناعة على الخارج ونقل الخبرات • وعلى أقصى تقدير تصنف الأمة فى عداد الدول النامية اذ أن معظمنا فى آسيا وأفريقيا أى أننا ننتسب الى العالم الثالث الذى يحتاج الى تنمية شاملة فى الزراعة والصناعة والخدمات والتعليم والصحة ووسائل الاتصال •• الخ • والفلسفة قادرة على الدخول فى معارك التنمية اعتمادا على تراث الأمة • ففى القرآن الكريم الأرض خضراء ، ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، والأرض الصفراء هشيم تذروه الرياح • وقد سخر الله الطبيعة للانسان كى يكتشف قوانينها ويسيطر عليها ويستخدمها لصالحه • فالانسان سيد الكون بأمر الله ، وخليفة الله فى الأرض « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » (٢ : ٣٠) ، « يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق » (٣٨ : ٢٦) • فالخلافة هنا اقتصادية للتعمير وسياسية للحكم[١٥] • بل ان « القدم » وهو احدى صفات الذات الالهية من التقدم أى السبق الى الامام وليس بالضرورة التقدم الى الخلف • وان لفظ التقدم لفظ قرآنى « لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » (٧٤ : ٣٧) • وان ما نسميه نحن بلغة عصرنا التقدمى والمتخلف يسميه القرآن بلغة المستقدم والمستأخر ، « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » (١٥ ، ٢٤) • وفى تراثنا القديم امكانية تأصيل مفاهيم التنمية والتقدم • ففى علم أصول الدين فى مقدماته النظرية الأولى ، هناك أنواع التقدم بالزمان وبالمكان وبالرتبة وبالعلية وبالشرف •• الخ • وفى الفلسفة هناك التقدم فى الزمان وأنواع الحركة • وفى علوم التصوف يتدرج الوعى ، وتتجلى النبوة خطوة خطوة فى الزمان ، جيلا بعد جيل ، وعصرا بعد عصر • وفى أصول الفقه يتواتر الاجماع جيلا بعد جيل ، فلكل جيل اجماعه ، ولكل عصر مصالحه • والجيل اللاحق قادر على عقد اجماعه حتى ولو خالف اجماع العصر السابق • ولقد

---

(١٥) انظر دراستنا : Human Subservience of Nature, Stockholm, 1980
وايضا فى كتابنا Religion, Ideology and Development

أصبح مفهوم التقدم والتغير والارتقاء دعامة التشريع على ما هو معروف فى علوم القرآن باسم « الناسخ والمنسوخ » أى تطور التشريع فى الزمان طبقا لتطور القدرات[١٦] . وفى التراث الغربى ، أصبح مفهوم التقدم هو دعامة العصور الحديثة منذ نشأته فى فلسفة التاريخ عند هردر ولسنج وكانط وفيكو وتورجو وكوندرسيه حتى فلسفات التاريخ فى القرن التاسع عشر عند هيجل وماركس وكورنو ، ويظل الغرب حتى الآن بالرغم من توقف المفهوم وتحوله الى مفهوم النكوص أو الانهيار أنه وحده هو الذى صاغ مفهوم التقدم وأقام فلسفات فى التقدم . وقد قامت كل خطط التنمية فى الغرب على فلسفات التقدم . لذلك كانت فلسفات التاريخ فى الغرب أحد الروافد لاقامة فلسفة قومية تقوم على مفهوم التقدم الى الامام وليس التقدم الى أعلى أو التقدم الى الداخل أو التقدم الى الوراء[١٧] . وما أكثر المجلات الثقافية التى حاولت منذ فجر النهضة الحديثة التى أخذت مفهوم التقدم شعارا لها ولكننا مازلنا حتى الآن دون تأصيل نظرى له كأساس لخطة قومية فى التنمية .

٦ ــ **الهوية الحضارية** : وتختلف أزمة الهوية الحضارية من قطر الى قطر وان كان هناك شعور عام بأنها هدف قومى عام بصرف النظر عن اختلاف درجة الشدة من قطر الى آخر . وقد نشأت الأزمة منذ اتصالنا بالغرب الحديث وخلق مصدر جديد للثقافة ونمط جديد للسلوك وأخذ من الخارج دون تطوير طبيعى للقديم بعد أن توقفت الحضارة فى عصر الشروح والملخصات . فازدوجت حياتنا الثقافية والسلوكية بين موروث قديم ووافد جديد ، بين أغلبية وأقلية ، بين محكومين وحكام . وكلما ازداد الرافد قوة وانتشارا زادت المحافظة التقليدية دفاعا وتمسكا بالقديم ، وقد حاولت الحركة الاصلاحية

---

(١٦) انظر دراستنا : علم المستقبليات (عالم الغد بين الأمس واليوم) فى دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

(١٧) انظر مقدمة كتابنا : لسنج : تربية الجنس البشرى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

الحفاظ على المصدرين وشق الطريق بين الموروث القديم والوافد الدخيل فى التمسك بالهوية الحضارية مع التفتح على ثقافات العصر بين العثمانيين أنصار الخلافة وبين العلمانيين أنصار الاتحاد والترقى . وازدحمت المفاهيم ، وتداخلت الهويات القومية والحضارية والثقافية . ونشأ الخلاف بين أنصار الاسلام وأنصار العروبة ، بين الهوية الحضارية والهوية القومية . والحقيقة أن الهوية بصرف النظر عن وصفها ، قومية أو وطنية أو ثقافية أو حضارية هى أساسا اثبات الذات فى مواجهة الغير ، اثبات الأنا فى مقابل الآخر . فهى أقرب الى الكوجيتو الحضارى منها الى اثبات واقعة قومية . ويمكن تأكيدها اعتمادا على تراثنا القديم فى تحريم موالاة الغير والتقابل بين الأنا والآخر « قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين » . لا يجوز اذن موالاة المسلم لغير المسلم ، « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » (٣ : ٢٨) ، « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا » (٤ : ١٣٩) ، « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين (٤ : ١٤٤) ، « يأيها الذين آمنوا لاتتخذو اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم » (٥ : ١٥) ، « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء » (٥ : ٥٧) ، « يأيها الذين آمنو لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » (٦٠ : ١)[١٨] . وفى التراث الغربى طالما تحدثت العلوم الاجتماعية عن الهوية الثقافية كأساس للتنمية فى مواجهة الاغتراب . فقد كان من أهداف الاستعمار القضاء على الهويات الثقافية للشعوب كمقدمة للقضاء على الهويات القومية حتى يسهل عليه السيطرة العسكرية والهيمنة الثقافية . وكانت حجة الاستعمار فى الاستمرار أنه لا توجد هويات قومية أو ثقافية

---

(١٨) انظر دراستنا « هل يجوز شرعا الصلح مع بنى اسرائيل ؟ » ، اليسار الاسلامى القاهرة : ١٩٨١ وايضا ، الجزء الثالث : الدين والنضال الوطنى .

للمستعمرات ! وما زال الغزو الثقافى مستمرا بالرغم من تغير أشكاله بما فى ذلك نقل التكنولوجيا • واذا كانت مشكلة « الهوية والاختلاف » هى المشكلة الميتافيزيقية الأولى فان الفلسفة تكون قادرة على المساهمة فى حل هذه القضية التى تكون أحد معالم مشروعنا القومى الحديث •

٧ ـ **تعبئة الجماهير** : وهى احدى قضايا عصرنا حتى ولو بدت أقل فلسفية وأكثر عملية • والحقيقة أنها القضية العلمية العملية الأولى لأنه بدون الجماهير ومشاركتها لا يمكن تحقيق أى هدف قومى من الأهداف التى تكون ملامح مشروعنا القومى الحديث • اقتصر دور الجماهير على التأييد المفروض عليها من خلال أجهزة الاعلام أو المعارضة المكتومة من خلال الأحزاب والتنظيمات السرية أو اللامبالاة وعدم الاكتراث وهو موقف الأغلبية الصامتة منها • وفى حركاتنا الاصلاحية الحديثة كان حلما لدى الافغانى تكوين حزب جماهيرى شعبى يقوم بتحقيق مشروع الاصلاح الذى مازال هو الصياغة الأولى لمشروعنا القومى الحديث ولكنه لم يتحقق الا نظرا وفيما سماه رشيد رضا حزب الاصلاح وعملا لدى الاخوان المسلمين عند حسن البنا والذى انتهى بصراعه مع الثورة المصرية ثم تحوله فى داخل السجون الى الجماعات الاسلامية الحالية[١٩] • ويمكن تأصيل هذا الهدف أعنى تعبئة الجماهير من خلال تراثنا وممارساتنا القديمة • ففكرة الحزب ، حزب الله ، فكرة قرآنية فى مقابل الاحزاب • فهو الحزب الغالب « فان حزب الله هم الغالبون » (٥ : ٥٦) ، وهو الحزب الناجح « الا ان حزب الله هم المفلحون » (٥٨ : ٢٢) • ولقد انتشر الاسلام وتحول الى دولة بفضل الحزب الاسلامى ، الجيل القرآنى الفريد ، جيل الصحابة الأوائل من المهاجرين والانصار • قادته هم الأمة الذين يتوجهون بالنصيحة ، ويقومون بالأمر بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويدافعون عن مصالح الأمة • وفكرة الجمهور فكرة شرعية • فالجمهور هم الغالبية من فقهاء الأمة

---

(١٩) انظر دراستنا « كبوة الاصلاح » ، دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، وأيضا « الاصولية الاسلامية » ، الجز السادس .

الذين لا يخشون فى الله لومة لائم ، وينصرون الحق ضد الباطل ، والعدل ضد الظلم • وفى التراث الغربى أصبحت فكرة « الجماهير » فكرة فلسفية ، وعصر من العصور ، اذ أننا نعيش الآن فى عصر الجماهير[٢٠] • ولقد سماها ماركس البروليتاريا ، وجعلها الوريث الوحيد للايديولوجيا الالمانية ، واجهتان لعملة واحدة ، العمل فى مقابل النظر ، تغيير العالم فى مقابل فهمه • لذلك كان العمل السياسى جزءا لا يتجزأ من العمل الفلسفى ، وكان الحزب الثورى أحد مهام التراث والتجديد[٢١] •

تلك هى الأهداف الوطنية السبعة التى حددها جيلنا والتى تمثل تحديات عصره الكبرى والتى تكون العناصر الرئيسية فى مشروعه القومى الحديث • والفلسفة قادرة على أن تتبناها وتؤهلها فى التراثين القديم والغربى اللذين يكونان المصدرين الرئيسين فى ثقافتنا المعاصرة • وعلى هذا النحو يكون واقعنا المعاصر أساس بناء هاتين الثقافتين الموروثة والوافدة • عندئذ لا تكون ثمة شكوى من عزلة الثقافة عن الواقع • ولا يكون ثمة عتاب للفلسفة أنها لم تقم بدور فى جيلنا ألا وهو المساهمة فى صياغة مشروعنا القومى الحديث •

---

(٢٠) انظر دراستنا : « ثورة الجماهير عند اورتيجا اى جاسيه » ، دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

(٢١) أنظر كتابنا « التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم » ص ٣٧ — ٥٥ ، الطبعة الثالثة ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٧ .

اجهـــاض العقـــول

كثر الحديث فى السنوات الأخيرة عن هجرة العقول ، واستنزاف الثروات البشرية فى البلاد النامية ، ونهب خبرات أبنائها لحساب الدول المتقدمة حتى لم يعد التنمية على هذا الخطر من داخل البلاد أو من المحافل الدولية يثير أى فزع لدى الحكام أو الشعوب وأصبحت الهجرة أمرا واقعا تشجعه الحكومات فى البلاد النامية لتخفيف ضغط المعارضة السياسية عليها سواء من صفوة المثقفين أو من جمهور الخريجين أو من مجموع قوى الشعب العامل حتى تأمن الانفجار الداخلى الذى يعرض نظمها للانهيار . وتقبله البلاد المتقدمة بصدر رحب ، بالرغم مما تدعيه من صعوبات قوانين الهجرة امعانا فى تفريغ بلاد المواد الخام من طاقاتها البشرية وزيادة لقدرات البلاد المتقدمة فى الخلق والابداع والسيطرة على موارد الطبيعة وتسخير قوانينها من أجل السيادة على شعوب العالم والهيمنة على قدراته البشرية .

ولكن آن الأوان للحديث عن « اجهاض العقول » ، عقول العلماء الصامدين داخل البلاد النامية الذين مازالوا يشاركون فى معارك التحرر والاستقلال ويساهمون فى عمليات التنمية والتغير الاجتماعى ، مدافعين عن الحرية ، ومطالبين بالديمقراطية ، ومنادين بالعدالة الاجتماعية ، وحارسين لأمتهم ، وواضعين لها علامات على الطريق حتى يستمر التاريخ من خلالهم ، وتبقى روح الأمة نابضة فيهم . وكأن النزيف البشرى الخارجى للبلاد النامية لم يتوقف على هجرة العقول التقليدية بل تحول الى نزيف داخلى يهدد الجسم البشرى كله بالموت البطىء والفناء التام . وكأن هناك عقلا ذكيا شاملا يخطط لاحتواء البلاد النامية وامتصاص قدراتها الابداعية وتفريغ طاقاتها بعد أن فرحت باستقلالها الوطنى وأخذت مظاهر السلطة والحكم ، وأشكال الدولة والسيادة ، سفراء وممثلين ، وزراء ومديرين ، تشريفات ونياشين ،

الفكر المعاصر ، بيروت ، ١٩٨٠ .

استقبالات وأعياد ، وبطولات وانتصارات ، وأعلام وأناشيد • والنظام الاجتماعى نفسه يقوم بالحراسة والابقاء على هذا الطنين الأجوف لابعاد الشعوب عن أخذ مصائرها بأيديها وحصار الملكات حتى لا تلتف حولها القوى الابداعية الوطنية وتشق طريقها فى سبيل التقدم ، وحكومات البلاد النامية العوبة فى ايدى هذا « الشيطان الماكر » ، تتحد مصالحها معه من أجل تفريغ قوى الابداع حتى تطمئن النظم السياسية على مستقبلها أولا ، وتضمن لأنفسها الأمان والاستقرار • وقد لا تدرى ماذا يحال لها من شراك تاريخية وحضارية نظرا لأنها ، وهى الشعوب التاريخية ، قد أسقطت البعد التاريخى من شعورها القومى ، فتصير ألعوبة فى أيدى غيرها وهى تعلن أنها تتمتع بارادة وطنية مستقلة تظهر فى الصراخ الاعلامى وفى الخطب السياسية ، والغاء البيانات ، ومظاهر الابتهاج فى الأعياد الوطنية •

وسيتم وصف هذه الظاهرة ، « اجهاض العقول » ، ابتداء من تحليل التجارب المشتركة عند العقول المجهضة والاحباط العام الذى نشعر به جميعا ، كتاب وأدباء ، علماء وفنانين ، مفكرين وقادة • دون ذكر لأسماء أو لمؤسسات أو لوقائع أو لاحصاءات بل تكتفى بمجرد وصف للماهيات من خلال التجارب المعاشة لدى العلماء والمفكرين والأدباء • وما أسهل أن تأتى الوقائع وتتقابل • ويكون مقياس صدق الوصف حينئذ هو مطابقته لما يمر به كل منا من تجارب وما يحمله من ماهيات يدركها بحدسه الصامت وان لم يتم تحليلها بعقله بعد ، تحاول هذه الدراسة اذن تحليل تجارب الاحباط عند المبدعين فى البلاد النامية وتحويل حديث النفس الخافت الى حديث الأمة الجهور •

١ ـ لماذا اجهاض العقول ؟

ان الامم لاتتحرك الا بعقول أبنائها ، فالعقل هو محرك التاريخ لأنه هو الذى يدرك قوانين الحركة ويوجه اليها طاقات الشعوب • وقد قامت الثورات كلها بعد حركات تنويرية قام بها المفكرون الأحرار معتمدين على العقل وعلى دوره فى الكشف عن الظلم الاجتماعى

والقهر السياسى ارهاصا للاحساس بالظلم والاضطهاد . حدث ذلك فى الثورة الفرنسية لدى المفكرين الاحرار وفى الثورة الاشتراكية الكبرى على أيدى الأدباء . ولما قامت ثوراتنا الأخيرة على أيدى الضباط الأحرار دون أن يسبقها تمهيد من المفكرين الاحرار ، التوريين وليس فقط الليبراليين ، كان لابد أن يحدث صدام بين الضباط والمفكرين فعادت الثورة المثقفين ، وقضت على فضائل الليبرالية القديمة الموروثة تاريخيا فى المئتى سنة الأخيرة من الفكر الدينى الاصلاحى أو الفكر العلمانى الغربى او الفكر القومى السياسى ، فيما يتعلق بالفكر وحرية الرأى ، وحولت فكرنا الوطنى الى مجرد تبرير للسلطة القائمة . لذلك لم يخش الاستعمار التقليدى هذه الثورات فى بدايتها ولا فى نهايتها الا فيما تمثله من مبادىء وطنية عامة ، ونزعات اشتراكية واتجاهات لمقاومة الاستعمار ، ورفض للرأسمالية ، ومعاداة للصهيونية ، ومناداة بوحدة شاملة ، عربية وأفريقية ، أفريقية وآسيوية او وحدة القارات الثلاث أو لدول عدم الانحياز . ولما كانت امكانية هذه الثورات محدودة ، بمواردها الطبيعية ، وبنظمها الاجتماعية والسياسية من أجل تحقيق هذه الأهداف القومية بالاضافة الى محاصرة أعدائها لها من الخارج فان التحرر الوطنى سرعان ما خبا بانقلاب هذه الثورات على نفسها ، وعملها ضد مشروعها القومى الأول فى مشروع مضاد ، وقعت فى حبائله . كما أن التحرر الاجتماعى سرعان ما أدى الى ظهور طبقات جديدة ورثت لمجتمع الاقطاعى القديم ، وأصبحت عميلة الرأسمالية العالمية ، بيدها السلطتين السياسية والاقتصادية .

وحتى تتأكد الثورات المضادة ، ويتم ترسيخها أتت محاولة أخرى للسيطرة على الأذهان البشرية وحصارها من أجل اجهاضها حتى تستسلم الشعوب تماما وتنتهى آخر قوى المقاومة فيها لأهداف القوى الكبرى التى كثيرا ما تتحد فيما بينها لامتصاص ثروات الشعوب ، والهيمنة على مقدراتها ، واقتسام الغنائم بينها على الرغم مما يبدو من ادعات حول الخلافات الأيديولوجية وتباين النظم السياسية بينها . وكثيرا ما نبه البعض منا الى مخاطر الاستعمار الثقافى الذى يعود فيه الاستعمار

من الباب الخلفى بعد أن تفرح الشعوب بمظاهر الاستقلال السياسى ، وببدايات الاقتصاد الوطنى . وكنا نعنى آنذاك بالاستعمار الثقافى ظاهرة « التغريب » Westernization فى مجتمعاتنا أى تبعية المثقفين للغرب وتقليدهم له ليس فقط فى المظاهر الخارجية من لباس وأسلوب حياة ولغة بل فى قوالبهم الذهنية واتجاهاتهم الحضارية ، والتبشير بأثر الحضارة الغربية من خلال الارساليات الدينية أو مراكز الثقافة التابعة للسفارات الأجنبية . ولكن تحول الأمر من هذا الاستعمار الثقافى المباشر الذى يقوم على الدعاية والاعلام الى استعمار وطنى يقوم على محاصرة مواطن الابداع داخل الشعوب فى مراكز الابحاث والمعاهد العلمية والجامعات الوطنية وفى الجمعيات العلمية والمنتديات الأدبية والدوائر الثقافية بوجه عام . فالاستعمار الثقافى الدعائى عن طريق المجلات والنشرات والاذاعات نشاط علنى مفضوح ، ولكن اجهاض العقول من الداخل عن طريق استعمال النظم الوطنية ذاتها ضد أبنائها ونصائح الخبراء وتوجيها تهم أجدى وأبقى واقل علانية واكثر تسترا ، ويلبس ثوب الحق والمصلحة الوطنية . فاذا كان الاستعمار الاقتصادى قد ورث الاستعمار العسكرى ، واذا كان الاستعمار الثقافى المباشر قد ورث الاستعمار الاقتصادى ، فان الاستعمار الحضارى الحالى وهو وريث الاستعمار الثقافى التقليدى من أجل انهاء خصوصيات الحضارات المستقلة والتى لها جذورها التاريخية العريقة والتى يخشى منها فى المستقبل نظرا لامكانياتها فى توليد فكر أصيل يتحول الى حركات شعبية تدافع عن الخصوصية والاصالة وهما اكبر خطران يواجهان القوى العظمى التى تريد الهيمنة على باقى الشعوب .

الهدف اذن من « اجهاض العقول » هو السيطرة على امكانيات الابداع لدى الشعوب ذات التاريخ العريق وادخالها فى النطاق الحضارى للغرب الذى مازال يمثل بالنسبة لنا التحدى الحضارى الأعظم حتى تستمر التبعية للغرب والتقليد لنظمه وتبنى قيمه ومثله : ولا ابداع حيث التقليد ، ولا خلق حيث التبعية . وبالتالى ، تستمر الشعوب التاريخية فى النقل عن الغرب خاصة اذا كان الغرب سريع

الانتاج ولا تستطيع الشعوب التاريخية ـ كما يقال دائما ـ اللحاق به ترجمة أو نقلا ، قراءة أو تمثلا ، وبالتالى تظل لا هثة حتى يتعبها العدو ، فتقف عاجزة ، وتصاب بعقدة النقص ، وتتحول الى شعوب تابعة الى الأبد ، من الدرجة الثانية أو الثالثة ، مهمتها النقل والاستيعاب دون الخلق والابداع . ثم يتحول ذلك الوضع الى تأكيد ملموس للنظرية العنصرية بأن الغرب وحده هو الخالق ، وما سواه من الشعوب . بالرغم من جذورها التاريخية ، ليس أمامها الا التقليد . فاذا ما أصرت القوى الوطنية الابداعية فى الشعوب « المتحررة حديثا » والمتخلفة دائما على أن تكون خالقة فليس أمامها الا تقليد نمط الغرب بعدائه للدين ، وبنقده لكل الموروث ، وبرفضه كل المعطيات السابقة ، وبتذبذبه الدائم بين المذاهب وشكه المطلق . اذا ما ارادت الشعوب غير الأوربية أن تبدع فليس أمامها الا تقليد المبدعين .

الهدف من اجهاض العقول هو « أسر الروح » وذلك لأن روح الشعوب تظهر فى حضاراتها . فاذا ما تم أسر الروح ضمرت الحضارة وأجدبت ثم اندثرت واختفت . كانت تلك خطة الاستعمار الأبيض فى أفريقيا خاصة عندما أسر الرح الزنجية وحول المواطن الأفريقى الى أوربى أبيض ، مسيحى غربى ، يلبس غير ثوبه ، فيما يسمى بعملية التحضير أو التثقيف Acculturation ، الهدف منها ليس اعطاء ثقافة جديدة بل القضاء على الثقافة الوطنية والايقاع فى « التغريب » .

فاذا ما تم « أسر الروح » ضمن الغرب المستقبل لنفسه بعد أن قام بتخدير الشعوب التاريخية ، فالمستقبل يقلق الغرب ، ويثير همومه ، قام لأجله بانشاء « الدراسات المستقبلية » ، وتحدث عن سنه ٢٠٠٠ . وأدرك أزمة الطاقة ، وغزو الفضاء ، والانسان الآلى ، والحاسب الآلى . ثم أوحى بالصدمة الحضارية للشعوب التاريخية واتساع الهوة بينها وبين الشعوب المتقدمة ، واتساع الهوة المتزايدة ، وأن سرعة البلاد النامية للحاق بالتقدم تقليدا وتبعية أقل بكثير من سرعة البلاد المتقدمة على التقدم أشواطا أخرى فى طريق التقدم خلقا وابداعا . وشيئا فشيئا يتم أسر الروح نهائيا .

٢ ـ مظاهر الاجهاض :

وتبدو مظاهر الاجهاض فى محاربة المبدعين الشبان ، أدباء ومفكرين وعلماء بل ومهنيين وفنيين وأسطوات بطرق عديدة مثـل منع النشر ، ضيق امكانيات البحث العلمى ، الرقابة على الفكر ، الغاء المؤتمرات ومظاهر النشاط الجماعى ، تحريم جميع منابر الرأى ووسائل التعبير حتى يتقوقع الشبان على ذواتهم ، ويجترون أدبهم وفكرهم وعلمهم لأنفسهم ، ويمارسـون نشـاطاتهم كما يمارس المراهقـون « العادة السرية » دون أن يجـدوا منفـذا لهم فى العـالم الخـارجى . فيضمرون ويعجزون ، ويتحولون الى أجساد بشرية تكبر وتزداد بطنه ، وتنجب الأولاد ، ويعيشون فى مجتمع يسوده الكبار على مدى أكبر من نصف قرن ، فهم الرواد والمريدون ، يخشـون المنافسـة تسترا على عيوبهم . يصبح المبدعون الشبان موظفين بالهيئات العامة ، يجلسون على مكاتبهم أو فى بيوتهم ، فالأمر سيان ، ويقضون الساعات الطوال ، بين الحضور والانصراف فى العلاقات الاجتماعية وذكر سير الآخرين . ومن ينزوى منهم يكتب الابحاث الطوال للترقية أو للتاريخ ، توضع فى الأدراج . فاذا ما حاول واحد أو أكثر أخذ زمام المبادرة ، والتحرك بطاقاته الخاصة قتلت محاولته فى مهدها ، ووضعت أمامه العراقيل حتى ييأس ويتحطم ، ويلعن الزمن ويكفر بالحياة أو يتمتم « لايكذب نبى الا فى بنى قومه » .

ثم يفرز المجتمع قيما جديدة لهم لامتصاص طاقاتهم تعوضهم عن خلقهم المكتوم وعلى رأسها قيم التسلط والادارة . فيوضع البعض منهم فى السلطة والادارة حتى يكون الصعود البيروقراطى فى المناصب الادارية من أجل سلطة أكبر ـ لامن أجل علم أكبر ـ مطمح العلماء . ولما كانت السلطة فى مجتمع متخلف توحى بالأثرة والتسلط ، وكان المنصب وسيلة للصعود الاجتماعى ينشأ التنافس على السلطة والقتال على المناصب الادارية والاحباط حين عدم الوصول لكثرة العرض وقلة الطلب . فبدل أن يتحد العلماء ويعملون معا فى خلق العلم يتقاتلون

على المناصب ، وبدل أن يعمل المفكرون معا يتناحرون على الاداريات ، وبدل أن يكون المبدعون فريقا يتفرقون شيعا . ولما كانت المناصب الادارية تتبعها درجات مالية تحول التنافس على السلطة الى قتال من أجل لقمة العيش ، ويتلهى الجميع فى لعبة الكراسى الموسيقية وحساب المدخرات ، وفرق المرتب ، واستبدال المعاش انتظارا لحسن الختام . وكلما ازداد الغلاء ازداد التناحر وكأن الضائقة المالية مقصودة بالمبدعين حتى يقاتلون من أجل قوت الحياة اليومية ، ويتركون العلم . ومع ضياع كرامة العلماء لا يحدث خلق أو ابداع .

فاذا ما استطاع بعض المبدعين الصمود ، ورفض هذه القيم الجديدة التى بفرزها لهم المجتمع فانه يسهل ايقاعهم فى المخالفات الادارية وخرق القوانين اذا ما حاولوا التحرك والعمل ، وتحويلهم الى مجالس التأديب والحكم عليهم باللوم أو التأديب وأحيانا الفصل والحرمان حتى يسأم الانسان العمل فى وطنه ويكفر بآداء الواجب . ومعروف أن المبدع دائما يلجأ الى المضمون دون الصورة ، وأن من مظاهر التخلف تغليب الصورة على المضمون كما يظهر ذلك فى البيروقراطية . ينشأ الصدام بين للقوى الابداعية للعلماء والأدباء والمفكرين الشبان وبين اللوائح والقوانين والنظم الادارية . والمبدع فى لحظة الخلق لا يفكر فى قانون أو لائحة ، والرئيس فى لحظة الادارة الجدباء لا يفكر الا فى القوانين واللوائح التى يسلطها على رقاب العاملين طوعا أو كرها ، عن حسن نية أو سوء نية ، حقا كان ذلك أم باطلا . فتفتر العزائم ، وتضعف الهمم ، وينال كل عالم جزاء سنمار ، ويتساءل : « وهل جزاء الاحسان الا الاحسان ؟ »

فاذا استطاع المبدع ترك الدنيا لأصحابها ، وعكف على العلم . وترك المناصب لأهلها ، وعزف عن السلطة ، وحاول تأصيل فكرة أو آخذ موقف أو نقد موروث أو اعادة بناء علم فانه سرعان ما تحوم حوله الشبهات ويتهم بالغرور أو التعالم فى أحسن الأحوال ، وبالالحاد والشيوعية والكفر فى أسوء الأحوال . ولما كان الابداع لا يتم الا بعد

رفض ما هو موجود كان المبدع أيضا رافضا للنظم القائمة ومن ثم سهل اتهامه أيضا بأنه ضد السلطة ، يعمل لحزب المعارضة ، وبالتالى يتم حصاره ، وتشويه سمعته واضطهاده ، وتسليمه للسلطات ، يسلبونه شخصية العالم ويلبسونه شخصية المشاغب ،يصفونه بأنه غير متعاون ، غير اجتماعى ، لا يعيش عصره ولا زمانه ، ولا يوجد فى الصورة ، مثالى ، غير واقعى ، يسىء الى الجميع ، ويخشاه الناس ، ويصبح كالأجرب وسط الأصحاء • وهنا يتحول ابداعه الى مناجاة للنفس أو بالأحرى الى مواساة للنفس ، يتأمل غربته عن الناس ويقارنها بغربة الناس عنه •

٣ ـ نتائج الاجهاض :

تبدو نتائج « اجهاض العقول » فى الداخل فى مزيد من هجرتها الى الخارج لمن يريد لابداعه أن يستمر وأن ينفع به أى وطن ما دام وطنه الأول قد حاصره وأسر روحه • وهناك وبعد مدة قصيرة حيث الامكانيات العلمية غير المحدودة ، وتقييم الفرد طبقا لقدراته الابداعية ، والمجالات العديدة المفتوحة لاكبر قدر ممكن من الباحثين ، هناك يبرز المبدعون ، ثم تنقل صحفنا وأخبارنا : جراح القلب الأول فى العالم مصرى ، عالم الفضاء الأول مصرى ، مهندس الذرة الأول مصرى ـ دون ذكر لأوضاع هؤلاء العلماء عندما كانوا فى جامعاتنا ، وكيف تم اجهاض عقولهم ، واحباط هممهم • ثم يأتون الى الوطن فى مؤتمرات سنوية أو فى مهمات قصيرة لتعليم العقول المجهضة وللتعامل مع أحدث الاجهزة ، ولاجراء أدق الجراحات ، ولاعطاء النصائح والتوجيهات ، ويصبحون مستشارين علميين للسلطة ، وتظهر صورهم على الصفحات الأولى • ولا أحد يدرى أن عقل مصر المجهض فى الداخل قد أبدع فى الخارج ، وأن يأتى العون من الخارج خير من الاعتماد على الجهد الذاتى • تنزف الأمة من دماء أبنائها ، وتجهض عقول مواطنيها ثم تعيش بعد ذلك على نقل الدم منهم اليها ، وكنا أحوج الى اختصار الطريق بدل أن نميت أنفسنا ثم نحييها •

أما العلماء الصامدون بالداخل الذين يؤثرون الاستمرار فى المعاناة دون الحلول السريعة السهلة فى الهجرة فانهم يتمزقون ، وتستنزف طاقاتهم . هؤلاء هم الأنبياء والقديسون والشهداء ، ويكونون علامات على الطريق للأجيال من بعدهم ، شهداء عصرهم وشاهدين عليه . بهم ذرات أمل لا تنتهى ، ومن خلالهم تظل روح الأمه سارية ، لا تأسرها حبائل الاستعمار الحضارى للشعوب التاريخية . وكلما قوى الصمود ازداد التحطيم واشتد الحصار . قد ينتهى البعض الى الجنون العقلى أو الموت حسرة وكمدا ، فجأة وبلا مقدمات أو العزلة التامة لا يرى أحدا ولا يراه أحد ، ولكن يشير الناس اليهم ، ويتمنون لهم الخير ان كانوا من الأحياء أو يطلبون لهم الرحمة ان كانوا من الأموات .

فاذا اشتد الحصار حول العلماء الصامدين ولم يستطيعوا النفاذ منه يحدث الصدام والانفجار ثم الانتحار . فان قوة الابداع لا تعرف الكتمان بل تقفذ من وراء الأسوار أو ترتطم بالصخور . نسمع عن انتحار الأدباء أو جنون الفلاسفة أو الاكتئاب النفسى عند الفنانين أو عزلة الكتاب أو التنفيس عن النفس بالانشغال بالتجارة وبتربية الدواجن بدل تربية الشعوب . وفى النهاية يكون المبدع هو الخاسر ، ويكون الابداع شهاد ةالعصر ، ويكون الخلق هو تعلم الموت .

فاذا ما استمرت محاولات فك الحصار والصدام حتى الموت وقع اليأس القاتل وشاعت روح الهزيمة بعد فشل محاولات الصمود الفردية ، وبالتالى تنجح الهيمنة الحضارية للغرب فى امتصاص روح الأمم وابتلاع ثقافاتها وضياع خصوصياتها ودخولها فى انماط استهلاكية خالصة تلك التى أفرزها الغرب ويحاول تصديرها بعد أن ثبت له فشل مشروعه القومى : مزيد من الانتاج والوفرة لمزيد من الاستهلاك والنهم لمزيد من السعادة والرفاهية ، وقلب انماط الشعوب التاريخية واستبدال قيمها ، تلك التى عرفت بدياناتها ومذاهبها وأيديولوجياتها ، يريدون لها أن تقلب قيمها كما حدث فى الغرب وبالتالى تتحول باسم الثورة وباسم الرفاهية الى تحليل مادى للمجتمعات الذى على أساسه تقوم

الأيديولوجيتان المعاصرتان المتصارعتان ، فتغفل الشعوب التاريخية مصادر قوتها فى روحها وقيمها ودياناتها وتراثها . ويؤمن الغرب مستقبله بعد أن فقد قواه الذاتية وبعد أن خدر باقى الشعوب التاريخية .

٤ — وسائل الاجهاض :

ويتم اجهاض العقول عن طريق ايقاع العلماء فى تنافس مصطنع بينهم فى اذكاء روح العداوة والفرقة داخل الجماعات العلمية والادبية ، وتحويلهم الى وحوش يفترس بعضهم بعضا ، ويتكالب الجميع على المبدع لقتله . والسلطة تدعى البراءة الأصلية ولا تقتل بيدها بل تنفذ أغراضها من خلال الأجهزة والنظم القائمة . ولما كان المبدع مهموما بابداعه ولا يدخل معركة مع خصوم أحياء الا فيما يتعلق بالتقاليد الأوربية وبالصور الفنية القديمة فانه لايحسن النزال وسرعان مايهزمه الأحياء وان استطاع هو أن يقضى على الصور الموروثة القديمة . المطلوب من المبدع أن يفعل كل شىء الا ابداعه وأن تغرقه هموم الحياة اليومية وتداخل العلاقات الاجتماعية الا أن يغرق فى ابداعه ويكون مهموما به . بل ان نظام التفرغ للفنانين دخل عليه أيضا التنافس والاقتتال وتم عزل الفنان فيه عن معترك الحياة العامة . وفى النهاية تم حصارهم جميعا فى قلعة واحدة لاغتيالهم دفعة واحدة وكأنهم المماليك الجدد .

ويتم الاجهاض أيضا عن طريق امتصاص قوى المبدع داخل النظام بارهاقه بالأعمال الادارية ، وتوزيع نشاطه ، وتشتيت جهوده فى مسائل بيروقراطية لا يأتى منها أى نفع ، وتقضى على نشاطه الذهنى وتفرغه من مضمونه . ولما كان المبدع لا يحسن الأعمال غير الابداعية فانه يتوه لا محالة ، ويخطىء لا ريب ، ويظهر كالمعتوه الذى لا يعلم شيئا ولايحسن عمل شىء . ومن ثم يقوم حاجز بينه وبين مجتمعه . اذ كيف يقبل المجتمع ابداع معتوه أبله . أو تحويلهم الى موظفين كتبة ، خبراء علم وحملة معلومات ينقلونها لغيرهم ، ويستبدلونهم عند الحاجة بآخرين ، وطنيين ام أجانب دون تعامل مباشر مع الواقع ، ودون أن ينشئوا العلم برؤيتهم

للعالم . هذا النوع هو الذى يخلط بين العلم والسياسة ، هو السياسى الماكر الذى يلبس ثوب العلم والخداع ! وبالتالى يغيب قيام العلم الوطنى خاصة فى العلوم الانسانية ويتحول العلماء الى حرفيين ومهنيين يتم نقلهم من وطن الى وطن مجتثى الجذور عن شعوبهم التاريخية .

ويحدث الاجهاض كذلك عن طريق اهمال المبدع وعدم الاستماع اليه وتركه وكأنه يصرخ فى واد بلا مجيب ، وكأنه يبدع لنفسه ، فيصبح الفنان بلا جمهور ، والمفكر بلا قراء ، والعالم بلا مواطنين ، يصبح ذاتا بلا موضوع ، وروحا بلا بدن ، وعقلا بلا مادة ، وفى ذلك ضمور المبدع وموته . أو على أكثر تقدير ، جعله ماشيا بلا تأثير على الناس ، لا يلمسهم ولا يلمسونه وكأنه جرب لا يقترب منه أحد الا كحالة للدراسة والاستقصاء . فيعيش العالم على هامش مجتمعه وكأنه لا ينتسب اليه ، وبالتالى يشعر بأن العالم ليس عالمه وكأنه بلا جذور فيه . فاذا ما حدث الانفصام بين المبدع والعالم يضمر المبدع لأنه العالم هو الذى يمده بنبض الحياة .

وأخيرا يتم الاجهاض عن طريق جعل وطن العالم استثناء بين الدول يخضع لقانون خاص لا تسير عليه باقى البلاد وكأنه وطنه هو الاستثناء من حركة التاريخ وقوانين المجتمعات . فاذا ما أراد المبدع الخلق والتغيير بث فى روحه أن الوطن ليس ككل الأوطان بل أقل بكثير ، وأن الشعب ليس كباقى الشعوب بل أحط بكثير ، وأننا لسنا وطنا ولا شعبا ، وليس لدينا علما ولا جامعة ، وأنه لابد من قبول الأمر الواقع والعيش بحساب[1] .وبالتالى يطالب المبدع بأن يكون له مقياسان للتقييم ، مقياس عالمى يقبل لبداعه ونشاطه ومقياس محلى يدعو للتسليم وقبول الأمر الواقع وعدم بذل الجهد لأنه لا فائدة ترجى من أى عمل فى مجتمع مختلف لا يستحق منا الا التعالى عليه ، والتعالم أمامه ، والرثاء له . ويصبح الوطن وكأنه بدعة بين الاوطان ويصبح الشعب وكأنه استثناء من بين الشعوب !

---

(١) انظر : « ولماذا تكون مصر استثناء ؟ » فى الجزء الثانى : الدين والتحرر الثقافى .

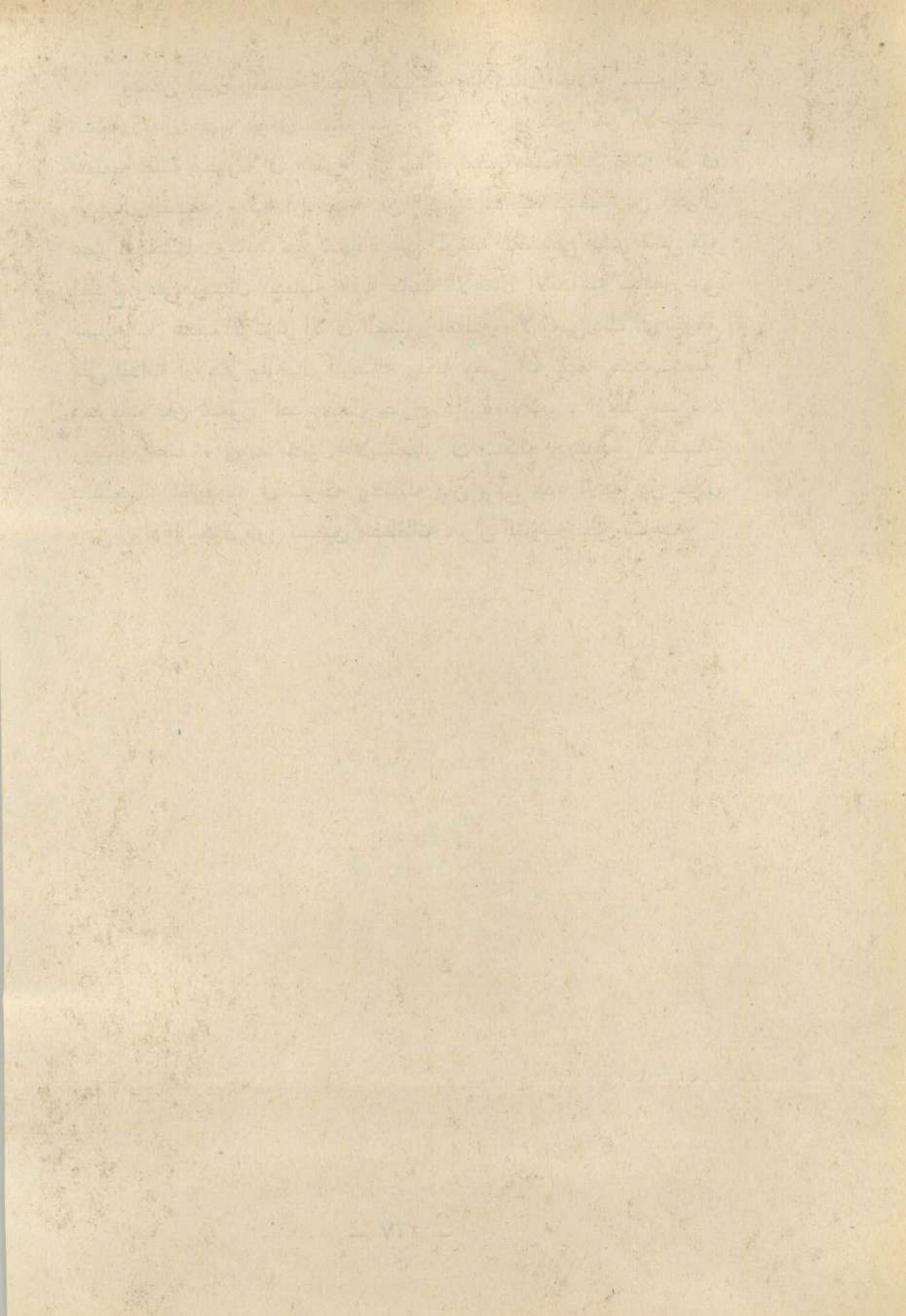
٥ ـ تجاوز الاجهاض :

ومع ذلك ، يمكن تجاوز الاجهاض عن طريق الصمود الذاتى بالرغم من كل محاولات الحصر والأسر • فالمبدع علامة على الطريق ، تؤشر للناس • وبالرغم من احساسه المرهف بالزمان وبالعصر الا أنه فى حالنا هذه قد يكتب للتاريخ وللأجيال القادمة انتظارا لفك الحصار ، واتساع البؤرة التى يكون هو مركزها • وكلما قوى الصمود حمى نفسه من التآكل الداخلى ، يكفيه الصدق مع النفس ، وتحديه للعالم ، وفرجته على الناس كعالم دائما فى معمله أو مفكر دائما يصف واقعه أو كفنان يرسم فى مرسمه ، فماذا ينفع الانسان لو كسب العالم وخسر نفسه •

ويمكن أيضا العمل من خلال الجماعة الضيقة حتى تمتد الذات وينتشر المبدع من خلال الآخرين ، يجد من يستمعون له ، ويقيمون له أفكاره ، ويبينون له مواقفه • ولما استحالت الجماعات الكبيرة : الجمعيات الحرة ، الأحزاب السياسية ، الندوات الثقافية فلم يبق الا جماعات الاصدقاء أو المنتديات الخاصة الى أن تدخل الجماهير الساحةفتتغير النظم السياسية لصالحها • حينئذ تظهر حلقات المثقفين وندوات العلماء كطليعة لحركة جماهيرية واسعة •

ويمكن أيضا تكوين خلايا وبؤر ثقافية يلتف حولها النبت الجديد وتحويل جماعات الأصدقاء الى جمعيات أدبية وفلسفية وعلمية ودينية وفنية وثقافية بوجه عام • وقد قامت هذه الجمعيات فى عديد من الأمم بكسر الأسر الحضارى الذى فرضته القوى العظمى عليها حينئذ ، وظلت الحافظة لروح الأمة • فالتغير الاجتماعى هو فى الحقيقة تراكم ثقافى ذو منظور حضارى فى وعى العلماء • والحزب السياسى هو فى حقيقة الأمر تيار ثقافى يرتكز على أسس حضارية فى تاريخ الأمة • وبالتالى يمكن لابداع العلماء أن يستمر فى أضيق الحدود حتى يتراكم ويكون حركة تاريخية مقصودة وداعية حتى يأتى العرض التاريخى الخالص فتنفجر الثورة ، ثورة الأقلام معبرة عن حركة التاريخ •

ويمكن أخيرا الكتابة الجادة للتاريخ وللأجيال القادمة سـواء فى صيغة أعمال علمية أو فى صيغة سير ذاتية • وان كثيرا من الأعمـال العلمية ظلت مجهولة فى عصرها بل وظلت مخطوطـة ولم تؤثر الا فى الأجيال القادمة • كما أن كثيرا من السير الذاتية كشفت عن أحوال عصر أصحابها ، وكانت خير شهادة على الموقف الانسانى الذى عاش فيه المبدع وعلى وسائل احباطه • لما كانت الأعمال الابداعية سابقة على عصرها فلا عجب ألا تؤثر الا فى العصور التالية • لا يعنى ذلك أى تقوقع على الذات أو كفر بايصال الرسالة ولكنه يعنى أنه مهما حدث حصار للحريات فان شعور المبدع يظل خارج دائرة الأسر ، أوحد عصره ، ووحيد زمانه • ومهما حاول الاستعمار فى أشكاله الجديدة الايقـاع بالشعوب التاريخية فى شراكه وحبائله فان وعى هذه الأمم من خلال وعى روادها يحول دون تحقيق مخططاته ، وان التاريخ لخير شاهد •



الاصـــــلاح الجـــــامعى

الجامعة هى نقطة التقاء بين مختلف النظم التعليمية ـ التعليم العام والتعليم العالى ـ من ناحية وبين الثقافة الوطنية والوعى السياسى من ناحية أخرى ، ولقد ثارت مشكلة الاصلاح الجامعى فى الآونة الأخيرة على صفحات « الاشتراكى » مما يؤكد وجودها الفعلى وضرورة اعادة النظر فى مفهوم الجامعة وصلتها بالدولة ، فالذى يهمنا اذن ليس الجانب الوضعى للجامعة : عدد كلياتها ، وعدد كراسى أساتذتها ، وشكل اللوائح والقوانين ، ونظمها الخاصــة كما عرضت لذلك الجريدة بشــكل وافر ومستفيض ، بل بغض القضايا العامة التى تشغل بال المثقفين أى الجامعيين أنفسهم ترجع الى المفهوم الأساسى الذى تقوم الجامعة عليه والى فهم الدولة لمهمتها العلمية والسياسية •

ومشكلة الجامعة تتلخص أساسا فى انخفاض مستواها العلمى وفى تشتتها الفكرى وفى عزلتها السياسية • وذلك يرجع أساسا الى الحالة التى عليها التعليم الآن والى مناهج التدريس المتبعة داخل الجامعة والى نظرة الدولة للجامعة والجامعيين •

أولا ـ مهمة الجامعة العلمية :

اذا كانت مهمة الجامعة الأولى مهمة علمية فان انخفاض مستوى التعليم بها لا يسمح بالقيام بهذه المهمة • ويرجع انخفاض مستوى

كتب هذا البحث فى باريس فى يونيو ١٩٦٦ وكان احد البحوث المقدمة من وفد الدارسين المصريين فى فرنسا لمؤتمر المبعوثين الذى عقد بالاسكندرية فى اغسطس من نفس العام لمناقشة الرئيس جمال عبد الناصر فى قضايا الامة المصرية بعد الاجتماع العاصف الذى عقد فى باريس بين الطـلاب المصريين فى اوربا والمشــير عبد الحكيم عامر اثنــاء زيارته لفرنســا اثر عودة العلاقات بين مصر وفرنسا بعد قطعها منذ الاعتداء الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ . وبعد سماع الرئيس عبد الناصر بما دار بهذا الاجتماع قرر دعوة الطلاب لمناقشتهم فى مصر . وقــد كان التفكير فى رسالة الجامعة عنصرا مستمرا منذ هزيمة يونيو حتى الآن . انظر مقالاتنا : « رسالة الجامعة »، « مناهج التدريس والعلاقات الداخلية فى جامعاتنا » ، « برنامج شباب أعضاء هيئة التدريس » فى قضايا معاصرة ، الجزء الاول ، فكرنا المعاصر ، ص ٢٠٨ ـ ٢٣٤ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٢ . وأيضا الدراسة التالية : « الجامعة والوطن » ، وهــذا المقال أول ماكتبت باللغة العربية قبل عودتى من فرنسا فى صيف ١٩٦٦ وقبل التحاقى بالجامعة .

التعليم الى أسباب معينة يمكن تلمسها فى الاستاذ وفى الطالب وفى مناهج التدريس المتبعة ، فحول هذه الاقطاب الثلاثة تدور مشكلة الاصلاح الجامعى .

(أ) الاستاذ : الجامعة أساسا ليست بناءها ولا ضخامة عدد مناصبها أو طلبتها بل الاستاذ . فمتى وجد الاستاذ وجدت الجامعة . وطالما عرفت الجامعات عن طريق الاساتذة الذين درسوا بها . فهم الذين يضعون تاريخها حتى ولو كانت جامعة صغيرة فى بلد صغير . فقد عرفت جامعة كونجزبرج عن طريق كانط ، وجامعتا يينا وبرلين عن طريق فشته وهيجل ، وجامعة فريبورج عن طريق هوسرل وهيدجر . والاستاذ ليس هو منصبه بل فكره ، وفكره مرتبط بتكوينه وعمله ، السبب الاول اذن لانخفاض مستوى التعليم بالجامعات المصرية هو انخفاض مستوى اساتذتها الذى يرجع الى نقص فى التكوين او فى التطوير . فقد نشأت الجامعات المصرية اولا من محبى العلم والثقافة على اكتاف صفوة محددة وافراد معدودين وجدوا فى ذلك شهرة لهم . وكان الاتصال بالخارج عن طريق الثقافة الأوروبية او بعثة دراسية شرفا وميزة بل وسيلة للحصول على مغنم مباشر . وازدادت شهرتهم لدخولهم فى جدل فكرى بل وفى خصام شخصى لا غرض له الا بيان قدرة كل منهم وعلمه واتهام خصمه بعكس ذلك خاصة فيما يتعلق بالدراسات النظرية . وكان هذا حال الرعيل الأول من الجامعة . وأتى رعيل ثان كثر عدده فقلت شهرته ، واتصل بالخارج عن طريق البعثات التى مازالت تعتبر ميزة وشرفا . وقفوا عند مستوى رسائلهم ، وانشغلوا بالمنافسة على المناصب ، ونسوا تكوين جيل ثالث بعد أن تركزت الوظائف الجامعية فى مناصب لهم — استاذ كرسى واستاذ مساعد — وقلت وظائف المدرسين تدريجيا حتى تلاشت او تكاد حتى اصبح من العسير البحث عن جيل ثالث لم يتكون اللهم الا من بعض افراد معدودين اثروا التكوين بجهدهم الخاص . فاذا كان الجيل الاول قد اثار عدة مشاكل وفتح عدة طرق يسرت للجيل الثانى توجيها نسبيا اتى الجيل الثانى اما مرددا لما حصله

او مدعيا الابتكار والخلق وجاءت ماساة الجيل الثالث التى نعانيها نحن اليوم .

فضعف السنوى الحالى لاساتذة الجامعة راجع اذن لعدم امكانية التطوير بعد مرحلة التكوين النسبية . وان المسئولية لا تقع كلها على الظروف الخارجية بل على عاتق الاساتذ نفسه الذى كان يمكنه تكوين مكتبته اثناء وجوده بالخارج او الاتصال الدائم بالمكتبات التى عرفها والحصول على المراجع بطريق شخصى او مراسلة اساتذته ومن تعرف بهم حتى يتم الاستمرار فى تكوينه أو ان يحاول الاطلاع عندما تتيح له الظروف الى السفر الى الخارج من جديد دون التأليف السريع عن طريق الترجمة أو النشر غير المحقق ، أو بتكوين جمعيات علمية لها نشاطها ونشراتها ومجلتها ، فالعمل الجماعى أضمن وسيلة ان لم تكن للتطوير فعلى الاقل للمحافظة على المستوى العلمى . وحتى تكون المسؤولية كاملة فان تهيئة امكانيات التطوير عن طريق الدولة أمر لابد منه وذلك يتأتى بالطريق الآتية :

١ ــ الاتصال بالخارج اما عن طريق الخروج ثانية على فترات متعددة مرة كل ثلاث واربع سنوات مما يتيح للاستاذ الاطلاع على احدث المؤلفات فى ميدانه ومما يحفظه من عدم التكرار امام طلبته بل ويحثه على النقد والبحث والتاليف لغرض علمى محض دون نظر لترقية أو لمنصب ، وما أكثر الجامعات التى تود ذلك . وربما لا يكلف الدولة ذلك اذا تم عن طريق تبادل الاساتذة الذى يتم عن طريق الجدارة الشخصية والاختصاص لا عن طريق الوصول والتوسط .

٢ ــ تطوير مكتباتنا التى ترجع مراجعها الى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى ، وذلك ما توده جميع المكتبات بالخارج . بل ان شراء الكتب الأجنبية بطريق شخصى أصبح عسيرا بل ومعدوما . وطالما تشكو المكتبات الخاصة بالخارج عن عدم امكان تزويدها بالمراجع العربية . وطالما شكا المثقفون بالداخل من عدم وجود ما يمكن ان يشترى بالمكتبات الخاصة . فبدل تبادل نشرات الاعلام التى لايقرؤها الكثير يمكن تبادل

الكتب العلمية والثقافية التى تخدم الباحثين ويكون فى ذلك خير دعاية • وهناك كتب تنفذ • فان لم تسارع المكتبات الجامعية فى شرائها فلن يمكنها ذلك باضعاف ثمنها • وهناك اشتراكات فى كتب تظهر • فان لم تبادر مكتباتنا فى الاشتراك فلن يكون لها نصيب فيها • يكفى الاتصال بالمبعوثين فى الخارج حتى يمكن الاستعلام منهم وتهيئة ذلك عن طريقهم دون ارسال وفد يكلف الدولة الكثير ، وقد لايستطيع عمل شيىء • وخير ضمان لوصول كل المؤلفات لمكتباتنا هو الارتباط بشكل رسمى مع دور النشر الكبرى فى العالم لموافاة مكتباتنا بالجديد دائما •

٣ ـ دعوة الاساتذة الاجانب فترة معينة للتدريس بالجامعات المصرية وللقيام بحلقات بحث • وذلك مما يوفر على الدولة ارسال عشرات من المبعوثين لمدة مهما طالت فهى قصيرة بالنسبة لفرع التخصص • وذلك ما يوده كثير من الاساتذة فى الخارج مع تهيئة الجو العلمى لهم حتى لا يفقدون اكثر مما يعطون • وقد كان ذلك سنة للجامعات المصرية للرعيل الاول • بل كانت الصلة الفكرية بين الجامعة المصرية والجامعات بالخارج خاصة جامعة باريس اقوى من صلة بعض جامعات شمال افريقيا بها •

٤ ـ دعوة الاساتذة المصريين الذين بالخارج والذين آثروا عدم العودة بل والذين قد غيروا جنسيتهم بالرغم منهم • فقد تمتعوا ببعثات دراسية وبمنح مالية من الدولة او حتى الذين درسوا على حسابهم الخاص وآثروا عدم الرجوع لاسباب ليست مالية فقط بل ايضا واساسا لاسباب سياسية او علمية ، كل منهم يود ان يكون حرا فى رايه دون أن يقبل فكرا رسميا مفروضا عليه • كل منهم يود أن يكون فى مكان تخصصه • فاستاذ العلوم يود معملا لا مكتبا ، ويود تطبيق ابحاثه لا حفظها فى الادراج ، وان خيبة الامل التى تصيب عددا من المبعوثين بعد عودتهم هى السبب الاساسى فى تلمس الفرصة للخروج من جديد فى مهمة علمية ثم ايثار عدم الرجوع ، فالاساتذة المصريون الذين يدرسون فى الجامعات الاوربية يمكن دعوتهم والاستفادة بهم فى تطوير الجامعات المصرية بعد تذليل كل العقبات التى تحول دون رجوعهم •

٥ — اعادة النظر فى الكادر الحالى الجامعى داخل اطار الخطه العامة للتنمية وعلى ضوء سياسة جديدة للاجور تقوم على تقويم موضوعى للوظائف على اختلافها . فالمجتمع الاشتراكى قائم على الفلاح والعامل . واستاذ الجامعة هو عامل للفكر بل وعامل فى الحقل والمصنع بجوار عمله الثقافى مع أن دخل استاذ الجامعة اقل من دخل العامل الماهر فى بعض الاحيان ، واقل دائما من دخل الفنان . بل وان عكوف الاساتذة على الدروس الاضافية لزيادة دخلهم قد يقلب مهمة الاستاذ الفكرية الى وظيفة التدريس على حساب البحث وتكوينه المستمر . فماذا يمكن للاستاذ ان يقوله فى عشرين ساعة أو اكثر اسبوعيا ان لم يكرر نفسه ويكتف بالسطحيات ؟ ومتى يمكنه التحضير أو البحث اذا كان يقضى نهاره فى الالقاء ؟ وذلك كله راجع لعدم وجود سياسة ثابته للاجور كجزء من التخطيط العام للدخل القومى .

٦ — زيادة هيئة التدريس خاصة المدرسين والمعيدين الاكفاء وذلك لان النقص الحالى فى اساتذة الجامعة يجعل الاستاذ يقوم بمهمه عشرة حتى خارج نطاق اختصاصه . فبدل ان يدرس فى تخصصه يدرس كل شىء لملأ الفراغ الموجود اما لنقص طبيعى فى هيئة التدريس او لنظام الاعارة للجامعات العربية الاخرى دون نظر الى عدم كفاية الاساتذة بالجامعات المصرية او حتى ارسال الاكفاء منهم الى الخارج وذلك لان نظام الاعارة يخضع فى غالب الاحيان بل ودائما الى الكسب المادى الذى يعود على الاستاذ المعار . والتغلب على ذلك لا يتم الا عن طريق التوسع فى تكوين هيئة التدريس عن طريق البعثات خاصة الجامعية منها او عن طريق دعوة الاساتذة من الخارج للاشراف على حلقات البحث او عن طريق تنظيم الدراسات العليا بالجامعات وخلق المعاهد المتخصصة لذلك كمعهد لتاريخ العلوم او لتاريخ الاديان او للدراسات الفلسفية .

٧ — العمل الجامعى داخل الجامعة يقوم به الاساتذة ، كل طائفة فى اختصاصها ، فلا تكفى مجلة الكلية او الجامعة بل لابد ان يكون

لكل فرع نشاطه المستقل سـواء فى العلوم الطبيعيـة او فى العلوم الرياضية او فى العلوم الانسانية مع مراعاة مستواها العلمى وامكانية نشرها مع اللغة العربية باحدى اللغات الاجنبية حتى يمكن مساهمة الجامعات الاجنبية فى تطويرها وامدادها باحـدث النظريات العلمية والتيارات الفكرية •

٨ ــ اعادة النظر فى قوانين ولوائح نظام البعثات فقد يكون هو المسؤول الأول عن انخفاض المستوى العلمى للجامعة وذلك لان البعثات هى التى تؤهل لخريج الجامعة ان ينتسب الى هيئة تدريسها • فمقاييس الاختيار للبعثة لايجب ان تكون الدرجات فى الليسانس والتى يمكن الحصول عليها عن طريق حفظ المقررات المعطاة وتكرارهـا ولكن بالنظر الى الابحاث التى يقوم بها الطالب اما قبل ترشيحه او بعده فى مدة يوضع اثناءها تحت الاختبار والتوجيه • ومتى اثبت الطالب جدارته يمكنه ان يقوم بالبحث الممكن عمله بالجامعات المصرية قبل سـفره حتى اذا ما وصل الى مقر بعثته يكون قد تم استعداده الفعلى ، ويكون قد وفر على نفسه وعلى الدولة مدة سنتين تضيع غالبا من مدة البعثة فى التكوين الاولى بل المبدئى للباحث ايا كان فيما يتعلق باللغات الاجنبية القديمة او الحديثة أو بالثقافة العامة حتى يمكن تركيز مدة البعثة اساسا فى البحث والتخصص • وكذلـك يجـب ان تكون موضوعات البعثات مدروسة ومخططة بحيث تسمح بتكوين الطالب اثنـاء بعثته كما تسمح بالاستفادة منه بعد رجوعه • وكثيرا من موضوعات البعثات خاصة النظرية منها يمكن دراستها فى مصر • بعد ذلـك يرسل الطالب للخارج لمزيد من الثقافة او لتطوير ابحاثه التى سبق له القيام بها ، واخيرا يجب تجديد المشرفين على نظام البعثات بل وتغيير معظمهم ممن تنقصهم الخبرة والدراية ووضع من يلمسون الموضوع عن قرب او ممن عاصروا مشاكله وعدم تركها لمن وصلوا الى ذلك عن طريق الاقدمية أو الترقية الادارية • وكثير من الموضوعات تقرر دون معرفة سابقة بمكان البعثة او مدتها او الامكانيات المطلوبة لها او حتى الغرض

منها • ناهيك عن البطء المطلق بل عدم الرد احيانا على طلبات المبعوثين • وكثيرا ما ياتى الرد بتجديد عدة اشهر بعد انقضائها بستة اشهر او عام • ويكفى زيارة عابرة للمشير حتى تجاب الطلبات كلهـا ان لم تكن على الفور فعلى الاكثر فى أسابيع معدودة •

(ب) الطـالب : تتركز مشاكل الطالب وقت القبول بالجامعـة واثناء دراسته وبعد تخرجه ، فنظام اختيار طلاب الجامعة وتكوينهم السابق ثم توجيههم يعد مسئولا عن سبب انخفاض المسـتوى العلمى للجامعة • فاذا كان التكوين السابق مرتبطا بنظام التعليم العام فى المرحلة الاخيرة (انظر بحث التعليم العام) فان اختيار الطالب يتم عن طريق المجموع كما هو الحال الان فى نظام البعثات مما يعطى اولوية لجامعة على اخرى او لكلية على اخرى او حتى لفرع آخر وهو تفضيل لا اساس له • فيضطر الباقون الذين لا يحصلون على المجموع المطلوب الى التحول خارج الجامعات فى وظائف ايا كانت بل وفى التدريس أو الى السفر الى الخارج مما ادى الى وجود جمهور غفير من الطلبة الذين يدرسون بالجامعات الاوروبية • ونظرا لعدم تمكنهم من اللغة ونظرا لظروف المعيشة فى الخارج وضعف امكانياتهم المادية فان كثيرا منهم لا يتم دراسته الجامعية • والسبب الاول فى ذلك هو نظام القبول فى الجامعات المصريه الذى لا يستطيع استيعاب خريجى المدارس الثانوية • وحتى الذين تقبلهم الجامعات خاضعون لتوجيه مكاتب التنسيق التى لا تراعى فى كثير من الاحيان رغبات وميول الطالب بل الاماكن الخالية فى كل كلية وفى كل قسم • فلابد اذن من اعادة النظر فى نظام القبول والاختيار حتى يمكن للطالب الدراسة بالجامعة وفق ميوله واتجاهاته بل واستعداداته •

والمدة التى يعيشها طالب الجامعة اثناء دراسته ـ اربع سنوات على الاقل ـ ليس غرضها الحصول على وظيفة لكسب العيش بعدها ولكن تكوين للمثقف والمواطن • فهدف الجامعة هـو البحث والفـكر لا التخرج للحصول على شهادة مما يؤدى الى سيول من الخريجين

تطرق ابواب الوظائف حتى الممتازين منهم . وليس الحل هو ايجاد الوظائف لهم بل فى توجيه الخريجين خاصة الذين ثبتوا جدارة فى البحث العلمى اثناء حياتهم العلمية بالجامعة والاستمرار فى الدراسة والتفرغ للبحث والاحصاء والنشر . فمشاكل الخريجين تتمثل أولا فى الانقطاع عن الجامعة وذلك ما يكن تفاديه عن طريق الاستمرار فى البحث العلمى وعن طريق تكوين هيئة للخريجين تضم جمهور المثقفين يمكن توجيههم لمحو الامية سنة بعد التخرج أو فى العطلات الصيفية .

(جـ) مناهج التدريس : يرجع انخفاض مستوى التعليم ثالثا الى مناهج التدريس المتبعة القائم معظمها على التلقين والحفظ لا على البحث والتفكير . فالدراسة بالجامعة لا تتم عن طريق القاء محاضرة من مجهول تسمعها مئات سالبة ولكن عن طريق حلقات بحث صغيرة يديرها استاذ معروف عنه اتجاه معين فى دراساته ، ويشترك فيها عدد محدود من الطلبة للبحث والمشاركة والتوجيه يقوم الطالب اثناءها بالبحث والعرض . فتكون الجامعة بذلك فترة اعداد للدراسات العليا . فيجب استبدال بمحاضرات الاستاذ التى ليست الا أخبارا أو فكرا شخصيا النصوص والكتب المقررة بلغات اجنبية حتى يتم للطالب عمل برنامجه ومقرره بنفسه فى حدود البرامج العامة وحتى يتمكن من اللغات الحديثة بجانب اللغات القديمة . وان كثيرا من الجامعات الحديثة لا يوجد بها مدرجات عامة بقدر ما توجد بها حجرات للبحث التى توجد غالبا فى قاعات المكتبات .

ثانيا ــ وحدة التعليم الجامعى وخلق الثقافة الوطنية :

كثيرا ما يعد الدارسون الجامعات المصرية الاربعة القاهرة وعين شمس والاسكندرية واسيوط ثم يضيفون الجامعة الازهرية باعتبارها جامعة مستقلة لها مشاكلها ومواضيعها بل وبناؤها الخاص بالنسبة للجامعات المصرية الاخرى مع ان مشكلة الجامعة واحدة سواء ما يخص الجامعة العصرية او الجامعة الازهرية ، بل ان هذه الثنائية توحى بان الجامعة المصرية لاصلة لها بالدين وان الجامعة الازهرية

غير مصرية لاهم لها الا الدين وهذا فى الحقيقة وهم لا واقع له . وأن كل المحاولات لاضافة الدين الى الجامعة المصرية او اضافة العلوم الحديثة الى الجامعة الازهرية ما هو الا حل لمشكلة وهميه وتفاديا لوضع تاريخى معين املته الظروف دون ان يكون له اى اساس شرعى او عقلى . فمشكلة الجامعة مشكلة واحدة . وهذا ما يقصد بوحدة التعليم الجامعى . فاذا كنا نقاسى من ثنائية اللغة — العامية والفصحى — مما يؤدى الى تشتت فى القول والبحث بل وفى القراءة والكتابة فان ثنائية النظم الجامعية تؤدى الى ثنائية فى الثقافة والحضارة لا اساس له . فالحضارة الاسلامية تدرس فى الجامعات المصرية كشريعة فى الحقوق ، وكفلسفة وآداب ولغة وحضارة فى الآداب ، بل ويمكن تدريسها ايضا كاقتصاد وسياسة فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، وكعمارة فى الهندسة ، وكرياضة فى العلوم . فالدراسات الاسلامية جزء من المادة التى تدرس بالجامعات المصرية . وان قطع هذا الجزء منها وجعله مادة لجامعة مستقلة بحجة التفرغ والتخصص والتعمق لا يؤدى الا الى البتر والجمود والسطحية يستحيل من بعدها اضافة الدراسات الحديثة التى تدرس بالجامعات المصرية بحجة التطوير والتجديد والاصلاح ، فلا فرق بين كلية الطب بجامعة القاهرة وكلية الطب بالجامعة الازهرية مثلا . فالطبيب الاول ليس ناقصا فى دينه ولا فى ثقافته . والطبيب الثانى ليس زائدا فى دينه ولا فى ثقافته . حتى اذا كان غرض الجامعة الازهرية هو نوع من التبشير الجديد الاكثر فاعلية فتكفى لذلك الخدمة الانسانية التى يؤديها الطبيب او المهندس او المدرس دون اخذها وسيلة لتبرير زيادة أخرى مفروضة . وما يقال فى كلية الطب يقال أيضا فى سائر الكليات العملية او النظرية ، فالدين اذن ليس مناقصة ولا مزايدة بين جامعتين ، فالجامعة واحدة ، ونظامها واحد . والجامعى مثقف وطنى واحد . فاذا كان توحيد المرحلة العامة فى التعليم قد تم فيجب ايضا ان يتم توحيد التعليم الجامعى . فان ثنائية التعليم العالى من اسباب تشتت الثقافة الوطنية بل والعقلية . وان تأميم التعليم

الخاص او التعليم الاجنبى او على الاقل اشراف الدولة عليها هدفه الأساسى هو وحدة الثقافة الوطنية • وان وحـــدة التعليم الجامعى لها اهميتها بل وضرورتها ليس فقط فى تكوين الشخصية العلمية بل ايضا فى خلق الثقافة الوطنية • فداخل الجامعات الوطنية وخارجها لم تتعد الثقافة بعد مرحلة الترجمة او النشر ، الترجمة الصريحة للاخبـــار والترجمة المقنعة مع ادعاء الخلق والابتكار ، فالجامعات الوطنية ــ بعد عزلها عن كل الاتجاهـــات الفكرية والسياسية ــ تقوم بدور خطابى يتحول فيه الفكر بل ومصالح الامة الى خطاب أهم ما يقصده هـــو تجانسه الذى يرمى الى اثبات براعة كاتبه فى التحليل والتأليف • وكثيرا ما تعالج الموضوعات بطريقة عابرة سطحية بتقليد من هذه المدرسة الفكرية او تلك • بل وكثيرا ما تخرج الموضوعات عن الجدية فهناك المجتمع الاشتراكى ، والفلسفة الاشتراكية ، والقـــانون الاشتراكى ، والعلم الاشتراكى •• الخ • وفى غالب الاحيان لايوجد للخطاب أية فاعلية فى جمهور القراء الذين يعلمون جيدا المقاصد الحقيقية للكتاب وما يرمون اليه • اما فى الاوساط الدينية فيغلب على الدين تفسير مازال يعطى الجانب الالهى اولوية بل افضلية على الجانب الانسانى وكان الدين قد أوحى به اعلاء لقدر الله وليس تأكيدا لقيمة الانسان ، وتفسير يمينى بل اقطاعى ورجعى يؤكد وجود الطبقات الاجتماعية وتفاوتها بحجة الرزق المقدر ، ومازال يرى فى الاشتراكية الحادا وكفرا مما يؤدى الى التحالف مع الرجعية ومع الاستعمار ، وتفسير عائم على التأييد والرضا لا على المبادرة والخلق ، فكلما أتى تيار جديد نادى به المثقفون الثوريون تحقيقا لمصالح الامة قام الدين بالتأييد حتى ولو ايد فى مرتين متتابعتين اتجاهين مختلفين بل ومتضادين • فتاييد الرأسمالية بالامس سابق على تاييد الاشتراكية اليوم • دور الجامعة اذن هو اعاده خلق الثقافة الوطنية الاصيلة القائمة على اساس نظرى محكم وعلى فاعلية حقيقية • والدين جزء منها بل والمحرك لها خاصة فى هذه المرحلة التى مازالت الامية هى الصفة الغالبة على المواطنين بل والذى باستطاعته

اذا تحول الى وعى ثقافى ثورى ان يملا الفراغ الفكرى والسياسى الحالى بالرغم من كثرة القول والتوجيهات .

ثالثا ــ استقلال الجامعة :

واستقلال الجامعة شرط اساسى لوجودها الفعلى وتفادى عزلتها عن الحياة القومية سواء استقلالها الادارى أو الفكرى او السياسى .

ويتمثل الاستقلال الادارى فى الانتخاب الحر المباشر لرؤساء الاقسام ولعمداء الكليات ولمديرى الجامعات دون اى تدخل من الدولة فى تعيين هذا او ذاك والذى يخضع غالبا لاهواء السلطة التنفيذية فى الرضاء او السخط دون اى مقيــاس موضوعى آخر يتمثل فى القدرة الذاتية او الجدارة العلمية او الاستقلال الفكرى بل غالبا ما كانت هذه المقاييس سببا فى عزل الستاذ داخل كليته ان لــم تكن سببا فى عزله خارج جامعته وتحويله الى مرفق اخر . ويتمثل الاستقلال الأدارى ثانيا فى الغاء نظم الحراسة الجامعية فى كل صوره . فان كان قد تم الغاء نظام الحرس الجامعى الرسمى حول الجامعة فيجب ايضا الغاء نظام الحراسة المدنى داخل الجامعة والذى يسبب كثيرا من القلق فى نفوس الطلبة بل وفى ممارستهم لمهمتهم كجامعيين فى صراحتهم الفكرية والتزامهم السياسى والذى من شأنه الغاء هــذا « الجلاد الابدى » الذىيعيش فى نفس كل مواطن والذى يتخذ وسيلة لتخويف البعض والى سلبية البعض الاخر . ويتمثل الاستقلال الادارى ثالثا فى تعاون مدير الجامعة مع محافظة المدينة التى بهــا الجــامعة لتخطيط المدينة وتهيئتها وامدادها وفقا لمشاكل الجامعة واحتياجاتها .

والاستقلال الفكرى للجامعة شرط اساسى للقيام بمهمتها العلمية والسياسية . وذلك لان الحرية الفكرية التى يحرص عليها الاســتاذ الملتزم والتى يمارسها الطالب ترفض اساسا وكمبدأ كل مذهب فكرى او اتجاه سياسى مفروض عليه من الخارج . فالاستاذ ليس « قالبا » تصنعه الدولة لصب اساتذة المستقبل بل مفكر حر يرى ، يبحث مع

طلبته وامامهم • وكثيرا ما تضيع الاتجاهات الفكرية والنظم السياسية ؛ وتفقد جدتها — والتى فى الغالب ما تكون هى الحل الوحيد للمرحلة الحالية التى يمر بها المجتمع — عندما تفرضها الدولة بعد تبنيها لها ، خاصة بعد تعيين مفكرين يفكرون للاخرين وموجهين سياسيين يرشدونهم بل ويقاس كل فكر وكل سلوك على هؤلاء الموظفين • فالاستقلال الفكرى للجامعة شرط لمناقشة كافة الاتجاهات الفكرية والسياسية دون اى نظر لتقييم الدولة خطأ او صوابا فعن طريق المناقشة والتفكير والاقتناع الشخصى يتم تكوين المثقف الواعى أولا داخل الجامعة الذى لا يمكن تكوينه عند تبنى تيار فكرى معين وقمع كل التيارات الاخرى اما بالتخويف او الفصل او العزل النهائى • وان المعارضة السرية لأخطر فكريا وسياسيا من المعارضة الصريحة العلنية • وغالبا ما تنقلب المعارضة السرية الى محاولات انقلاب بل والى مؤامرات ان لم يسمح لها بالمعارضة الصريحه • وان أول عهد بالمعارضة السرية قد يؤثر على طبيعة الفكر والممارسة السياسية مما يظهرها بشكل عدوانى ، وذلك ما يمكن تلافيه عن طريق تجمع كل القوى الفكرية الثورية وكل الاتجاهات السياسية التقدميه فى نطاق المناقشة الصريحة والعمل الجماعى • وبالرغم من توجيه الضربات الى معظم الاتجاهات الفكرية والسياسية مرة الى هذا ومرة الى ذلك فان روح الصراحة الفكرية والالتزام السياسى مازالت موجودة عند المثقفين الثوريين • وما فات ، بعد ثلاثة عشر عاما على قيام الثورة ، يمكن اللحاق به الآن •

والاستقلال السياسى للجامعة نتيجة لاستقلالها الفكرى • فمنذ انشغالها بالبحث والفكر تتعود على النقد الذاتى وبيان ما قد يخفى على الدولة نتيجة لانشغالها الدائم فى البناء • بل ان الجامعة يمكنها التوجيه والقيادة وبيان اسلم الطرق وانفعها لتحقيق اهداف المجتمع • وان تاريخ الجامعة السياسى ليشهد على صراحتها الفكرية وعلى التزامها السياسى • فقد كانت الجامعة الطليعة الواعية للقيادات الوطنية وللمشاركة الفعلية فى التحرر وفى مقاومة الاحتلال كما حدث فى حرب القنال فى ١٩٥١ • وان الدراسة النقدية لتاريخ الثورة الاخيرة ، وتلمس اوجه الخط

لا يتم الا عن طريق التفكير النقدى الذى يمكن للجامعة ان تقوم به • ويقوم النقد الذاتى على حرية البدأ فى العمل دون انتظار توجيهات او تعليمات تجعل من الانسان وطنيا او مفكرا او ناقدا • فبدل ان تأخذ الجامعة موقف المتفرج انتظارا لاشارة النقد يمكنها ان تبادر الى ذلك من نفسها • ولا يتم ذلك الا من خلال تنظيم عمل جماعى داخل الجامعة يتمثل فى تكوين تنظيم سياسى يجمع طليعة المثقفين الثوريين • فداخل الجامعة يتم تكوين المثقف لا المفكر فحسب بل السياسى ايضا ، اذ ان مهمة الجامعة فى التكوين السياسى لا تقل عن مهمتها فى التكوين العلمى • فالمواطن هو المثقف الثورى • وان الوعى السياسى يغلب فى بعض الجامعات على المستوى العلمى ، ويغلب الطابع الثورى للمثقف على مهمته العلمية • والتنظيمات السياسية الموجودة الآن داخل الجامعات المصرية ان هى الا صورة مصغرة لنفس التنظيمات الموجودة خارجها فى الشكل العام للدولة • اذ انها نظم مفروضة تجمع كل الطلبة بلا استثناء ولا قيد تحت اسم واحد هو شعار يطلق على الرأسمالى والاشتراكى ، على الرجعى وعلى التقدمى ، على السلبى والايجابى بل على الخائن والوطنى فى وقت واحد • وذلك قد يسبب القضاء النهائى على كل تنظيم سياسى ، اذ انه قائم على استحالة وجود وحدة فى النظرية بل وفى الهدف والقصد • وهذا من شأنه ضياع الجهد وتهبيط العزيمة والقضاء على كل عمل ايجابى للعناصر الوطنية التقدمية سواء داخل الجامعة ام خارجها ، اصبحت التنظيمات السياسية داخل الجامعة لا تغرى السياسى الملتزم والعامل الجاد بل اصبحت تعيب الجامعة اكثر ما تشرفها •

ويمكن للجامعات ان تقوم بمهمتها السياسية الفعلية فى تكوين طليعة المثقفين الثوريين الذين باستطاعتهم تكوين القاعدة الشعبية — ممثلة فى الاتحاد الاشتراكى العربى — بعد عزل جميع العناصر الاقطاعية والرجعية والسلبية — والمحافظة على الاتجاه التقدمى وهو الطابع الغالب الآن ، والدفاع عما انجز منه والمناداة بخطوات اوسع

نحو الاشتراكية . ويمكن لها ايضا القيام بتحقيق وحدة العمل العربى فى الاتصال بالمثقفين الثوريين بالجامعات العربية الاخرى وذلك لان تحقيق الوحدة العربية لا يتم الا عن طريق توحيد كل الاتجاهات التقدمية الثورية فى العالم العربى . والمثقفون الثوريون فى الطليعة لا عن طريق سياسة مؤتمرات القمة ومهادنة قوى الرجعية والاستعمار فى المنطقة . وقد ظهرت المانيا كدولة واحدة اولا داخل الجامعات الالمانية . ويمكن للجامعات ايضا المساهمة فى وضع اساس نظرى لحركات التحرر فى العالم الثالث بل وضع أسس لفلسفات فى التاريخ تضمن له استمراره ووجوده الفعلى .

واخيرا فان تحليلا لتاريخ الجامعة هو احدى الوسائل لايجادها . فالجامعة هى تاريخها الممثل فى مدارسها الفكرية والسياسية ، والممثل فى مهمتها فى خلق الثقافة الوطنية ، وتحقيق الاهداف القومية ، وهو ممثل أيضا فى تقاليدها . وجامعاتنا حديثة العهد ، ومازال تاريخها يمكن سرده عن طريق الشفاه . تاريخها مرتبط بصفوة المجتمع الأولى خاصة عندما كانت اهلية ثم بالنضال القومى بعد تبنى الدولة لها . والآن ومنذ قيام الثورة تعكس جامعتنا حال المثقفين وشكل الثقافة فى المرحلة الحالية ، بل وقد عرفت التيارات الفكرية والسياسية عن طريق الجامعات التى نشأت بها ، فهناك مدرسة ماربورج فى الفلسفة ، ومدرسة توبنجن فى التفسير ونقد الكتب المقدسة ، ومدرسة هيدلبرج فى التربية الدينية ، وندوة فينا فى المنطق . ويمكن للمطابع الجامعية المساهمة فى خلق ذلك التاريخ اما عن طريق نشر مجموعات من المطبوعات باسم الجامعة اما فى التاليف او الترجمة او النشر كما هو الحال مع طبعات اكسفورد فى الدراسات الادبية او عن طريق نشر مؤلفات الاساتذة وتبنى الجامعة للمؤلفات التى لها تيارات فكرية واضحة . يمكن اذن تطوير المطابع الجامعية بالدرجة التى تصبح من اهم وانشط دور النشر . وما يقال فى المطابع الجامعية يمكن ان يقال ايضا فى قاعاتها خاصة قاعة الاحتفالات التى يمكن ان تساهم كموعد لقاء للتيارات الفكرية والمنظمات

السياسيه كما حدث اخيرا بشأن منظمة الوحدة الافريقية ومؤتمرات عدم الانحياز • وان قسما يطلقه طلبة الجامعة وقت انتسابهم اليها وساعة تخرجهم منها ــ كما هو الحال فى كلية الطب ــ يمكن به تذكرة الجامعيين بمهمتهم فى الصراحــة الفكرية والتزامهم السياسى داخل الجامعة وخارجها •

تلك قضايا عامة يفكر فيها جمهرة المثقفين بشأن جامعاتهم ان لم تعرض بشكل اعادة النظر فى اللوائح والقوانين فعلى الاقل تمس المفهوم الاساسى للجامعة ، وعلاقة الدولة بها • وهذا ما يعنية المثقفون بالاصلاح الجامعى •

الجامعـــــة والوطـــــن

لم تكن الجامعـــات فى تاريخهـــا الطويل فى الغرب والشرق على السواء نبتا مزروعا من الخارج على نحو مصطنع باعتبـــارها احدى مقومات الدولة الحديثة وأحد مظاهرها مثل العلم والنشيـــد الوطنى والمقعد فى الامم المتحدة بل كانت جزءا من تاريخ الشعوب ، وأحـــد مصادر حركتها الثقافية . لذلك ارتبطت اسماؤها باســـماء البلدان أو العواصم أو المدن أو الأقاليم الجغرافية مثل : الجامعة السورية ، الجامعة الأردنية ، الجامعة التونســـية ، الجامعة الامريكية ، جامعة باريس ، جامعة برلين ، جامعة القاهرة ، جامعة صنعـــاء ، جامعة الجزائر ، جامعة بغداد ، جامعة الكويت ، جامعة قطر ، جامعة الخليج ، جامعة الامارات .. الخ . ونظرا لارتباط الأمة الاســـلامية بدينهـــا وتراثها فقد نشأت الجامعات فيها منتسبة الى الاســـلام وليس الى الجغرافيا ، فنشأت الجامعات الاسلامية قديما فى القاهرة ، والقيروان ، وفاس ، لنشر الثقافة والعلوم الاســـلامية . فكانت جامعة الأزهر . وجامعة الزيتونة ، وجامعة القرويين .. الخ . كما نشأت الجامعات الاسلامية حديثا فى الرياض ، وجدة ، ومكة ، والمدينة المنورة تجمع بين الثقافة الاسلامية وجغرافية المدن[1] .

وكان التعليم الجامعى كله يدور حول الفنون الحرة الســـبعة ، النحو والبلاغة والأدب فى مجموعة ثلاثيـــة ، والحســـاب والهندســـة والموسيقى والفلك فى مجموعة رباعية من أجل تخريج أدباء أو علماء .

كتب هذا البحث فى مايو ١٩٨٥ أثناء وجودى بجامعة الامارات العربية المتحدة اســـتاذا زائرا فى الفصل الدراسى الثانى وكمقدمة نظرية للبحث الميدانى الذى أجرته الجمعية الاجتماعية من « الجامعة والمجتمع » والذى اشرف عليه د. حسن همام من كلية الخدمة الاجتماعية . وبعد التخفيف من بعض عباراته امام عديد من الاساتذة الوطنيين او المعارين تم نشره . والفقرات المحذوفة من الادارة الجامعية موضوعة بين قوسين كادلة على عقلية الرقيب ، ونشر فى يوليو ١٩٨٥ .

(١) تعتبر اقدم جامعة فى العالم هى جامعة الأزهر التى أنشئت فى القرن الثالث الهجرى تلتها جامعة الزيتونة وجامعة القيروان . واقدم جامعة أوربية هى جامعـــة بولونيا فى أواخر القرن الثانى عشر .

وكانت كليات الآداب نواة الجامعات . لذلك تسمى اليوم « كلية الآداب والعلوم الانسانية » ابرازا لدورها الأساسى وهو دراسة الانسانيات . وكان من الطبيعى أن تصاحب نشأة الجامعات نشأة الاتجاهات الانسانية فى الآداب والعلوم والفنون . ثم أضيفت كليات الحقوق والطب بعد ذلك لتدعيم الدراسات الانسانية سواء فى علاقة الانسان بغيره ونشأة القانون أو فى علاقة الانسان ببدنه من أجل المحافظة على الصحة والوقاية من الأمراض .

وكانت الجامعات فى نشأتها فى مدن صغيرة من أجل الاعتكاف والتأمل ، وطلبا لحياة الراحة والهدوء بعيدا عن صخب المدن الكبيرة وضجة العواصم . هكذا كانت اكسفورد وكمبردج وهارفارد وجوتنجن وتوبنجن وهيدلبرج وهاله وفريبورج . وكانت فى معظمها جامعات خاصة تقوم على الهبات والأوقاف أو من مصروفات الطلاب . ولكن بعد عصر القوميات فى الغرب ، وسيطرة الدولة على المؤسسات التعليمية ، نشأت الجامعات فى المدن الكبرى وفى العواصم تلبية لحاجات الدولة الزراعية والصناعية والتجارية . نشأت جامعات العواصم الكبرى تدعمها الدولة ماليا وفى نفس الوقت تسيطر عليها وتوجهها تعليميا . وكلا الاختيارين قائمان حتى الآن : الجامعة الخاصة فى المدينة الصغيرة والجامعة الحكومية فى المدينة الكبيرة . وان اختيار موقع جامعة الامارات فى مدينة العين يلبى مطالب الراحة والهدوء ولكنه فى نفس الوقت يبعدها عن التجمعات السكانية ومراكز النشاط الثقافى والعلمى للمدن الكبرى .

والجامعة موضوع مشترك بين الفلسفة والتربية والاجتماع . تطرق اليه معظم الفلاسفة من حيث تصور الجامعة وتنازع كلياتها فيما بينها لدراسة الانسان من وجهة نظرها ، ودورها فى نشر الثقافة وتقوية وعى الأمة ، ومدى تعبيرها عن روحها وتاريخها ، وأهمية حرياتها الأكاديمية واستقلالها(٢) . وبعد اشتداد الأزمة الحضارية فى

---

(٢) مثال ذلك ، كانط : الصراع بين الكليات الجامعية (أنظر عرضنا لهذا المؤلف فى =

الغرب زاد التوجه نحو الجامعات بحثا عن الحلول فى مفاهيم جديدة عن الانسان والعالم وتصورات جديدة للحياة والكون . كما تناولته علوم التربية من حيث اعداد الخريجين ومناهج التعليم وطرق البحث العلمى فى اطار تصور أضيق يجعل الجـامعة مرتبطة بتأهيل الكوادر كمعلمين ومدرسين أو موظفين أكفاء[٣] . لذلك كانت الجـامعة هى الكلية الجامعية ، وكانت كلية الآداب هى كلية التربية . والحقيقة أن الجامعة أكثر من معهد عال للتربية ، وان كان اعـداد المعلمين أحـد وظائفهـا . وهـو موضـوع رئيسى لعـلم الاجتمـاع لدراسـة وضع المؤسسة التعليمية فى المجتمع ، وظهور البنية الاجتماعية فيها . فالجامعة تعكس الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وتبين درجة التطور الاجتماعى ، وتكشف عن الأهداف القومية للأمة ، وتحدد دور الأجيال : ترسيخ الثبات الاجتماعى أو دفع الحراك الاجتماعى[١] .

وكاطار نظرى لبحث الجامعة والمجتمع يمكن أولا معرفـة الدور الذى قامت به الجامعات الأوربية فى احداث النهضة الأوربية ، وثانيا الدور الذى قامت به الجامعـات العربيـة فى نهضة الوطن العربى ، وثالثا الدور الذى انيط بجامعة الامارات العربية المتحدة . والهدف من هذه الدوائر الثلاث المتداخلة ، الدائرة العامة ثم الدائرة الخاصة ثم الدائرة الأخص هو معرفة الاتصال بينها وتمركزها حول نقطة واحدة هى رسالة الجامعة * .

= « الفكر العربى » ، ١٩٨٠ ، معهد الاتحاد العربى ، بيروت ، وأيضا سدنى هوك : الحريات الاكاديمية ، عثمان امين : نحو جامعات افضل ، د. محمد منير موسى : التعليم الجامعى ، قضاياه واتجاهاته ، وايضا مقالاتنا : رسالة الجامعة ، برنامج شباب اعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية ، مناهج التدريس والعلاقات الداخلية فى جامعاتنا ، الطلبة والعمل فى قضايا معاصرة (١) فى فكرنا المعاصر .

(٣) مثال ذلك د. محمد عبد العليم مرسى : ابراهيم عصمت مطاوع : التخطيط للتعليم العالى .

(١) مثال ذلك ، د. محمد جواد رضا : الاصلاح الجامعى فى الخليج العربى

* فى البحث المنشور تمت اضافة « ولا يخفى ان جامعة الامارات جامعة وليدة عمرها لم يتجاوز العشر سنوات استفادت من تجارب الجامعـات الاخرى غربية وعربيـة واسلامية وهى فى اتصالها الدائم بهذه المعاقل تأخذ منها وتحاول أن تطوع ما تأخذه بما يتفق وقيمنا وديننا وأصالة تجمعنا العربى » ، الجامعة والمجتمع ص ١١ ، وهذه أول مرة يزيد فيها الرقيب نصوصا من عنده ولا يكتفى بالحذف !

أولا : الجامعات الأوربية :

ان وصف نشأة الجامعات الأوربية وتطورها ليبين كيف تحولت مراكز العلم التقليدية ودور العبادة الى جامعات ، وكيف ارتبطت الجامعات بالثقافات الوطنية لشعوبها ، وكيف ساهمت فى صياغة المشاريع القومية للدول التى قامت فيها • كما يبين كيف كانت المكان الطبيعى للبحث العلمى ، وأداة لترشيد المجتمع ، ووعاء للنقد الذاتى الذى يقوم به الوعى القومى بين الحين والأخر خاصة فى لحظات الانكسار • وقد نشأت الجامعات الاسلامية أيضا مواكبة لنشأة الدول اعتمادا على الثقافة الاسلامية وتأسيسا للعلوم الاسلامية ، سواء كان ذلك حين نشأة الأزهر قديما أو نشأة الجامعات الاسلامية حديثا • وقد تضع جامعات الخليج ، ومنها جامعة الامارات العربية المتحدة ، نمطا جديدا وهو نشأة الجامعة المواكب لنشأة الدولة • وبالتالى تصبح الجامعة احدى مقومات الدولة الحديثة واحدى ركائزها الأساسية لاتقل أهمية عن المؤسسات الدستورية • فالجامعة انما نشأت لتدعيم الدولة وتأسيسها • وعليها أن تقوم بهذا الدور الفريد الذى يعطى نمطا جديدا خلاف النمط الأوربى أو الاسلامى القديم • فبدلا من أن تأتى الدولة لتدعيم الجامعة تأتى الجامعة لتدعيم الدولة • والمتتبع لنشأة الجامعات الأوربية ومدارسها يلاحظ الآتى :

١ ــ **تحول دور العبادة الى جامعات :** نشأت الجامعات الأوربية فى عصر تحولت فيه الثقافة من القديم الى الجديد ، وانتقل فيه العلم من دور العبادة الى المدارس والمعاهد • فالجامعة تحول طبيعى من نمط تقليدى فى التعليم الى نمط آخر ، حل فيها العلم محل الدين ، وأخذ البحث مكان التسليم ، وقام العقل بدوره بدلا من النقل • فتوارى دور الصوامع والأديرة وبرز دور الجامعات والمدارس • ومهما حاولت المؤسسات القديمة الحد من سلطة الجامعات الجديدة والنيل من العلم ، والتشكك فى البحث ، واضعاف سلطان العقل بأسم الدفاع عن القديم والتمسك بتراث الأباء والاجداد حماية له من

انحرافات المحدثين الا أن مسار التاريخ وتقدم العلم كان باستمرار فى صف الجامعات حتى انتصرت الجامعة الجديدة على دور العبادة القديمة . ولما بانت أهمية البحث العلمى ، عاودت الدور القديمة ولحقت بمناهج البحث العلمى مستفيدة من دور الجامعات الجديدة لتأييد العقيدة بطريقة اكثر عقلانية وعلمية وترسيخ قواعد الايمان .

هذا هو تاريخ جامعات السربون واكسفورد وكمبردج من القرن الثالث عشر الميلادى . ونشأت جامعة هارفارد فى القرن السابع عشر لتحقيق الهدفين معا : تقدم العلم ، واعداد الطلاب للوظائف الدينية . ثم أصبحت بعد ذلك معهد علم فحسب بعد أن ورث العلم الدين ، وقام فهم الدين على أساس العلم[1] . فطبقا لهذا النمط الغربى يمكن تقسيم المجتمعات الى نوعين بالنسبة لدرجة تطوره بالنسبة للعلم . الأول المجتمع الدينى الذى يعتمد على حجة السلطة ، سلطة الكتاب أو النقل والثانى المجتمع العلمى الذى يعتمد على البرهان وعلى حجة العقل ، العقل البرهانى أو العقل العلمى الطبيعى . فتؤكد تجربة الغرب أن التقدم البشرى هو فى الحقيقة انتقال من المجتمع الدينى الأول الى المجتمع العلمى الثانى .

وقد أعطت جامعاتنا الاسلامية القديمة نمطا مخالفا هو تطور طبيعى للمجتمع الدينى الى المجتمع العلمى ، فهما ليسا نقيضان . ففى المساجد نشأت حلقات البحث ، وبعقلية التوحيد نشأت العلوم الرياضية والطبيعية . فالمسلم عالم ، والعالم مسلم ، وليس أحدهما ببديل عن الآخر أو بنقيض له . وعلماؤنا الأجلاء البيرونى فى التاريخ ، وابن الهيثم فى المناظر ، وجابر بن حيان فى الكيمياء ، والخوارزمى والطوسى فى الرياضيات ، وابن سينا وابن رشيد فى الطب ، وابن خلدون فى الاجتماع خير شهداء على ذلك .

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر ، د. محمد منير موسى : التعليم الجامعى المعاصر ، قضاياه واتجاهاته ص ٧ ــ ٩ ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، وايضا ابراهيم عصمت مطاوع : التخطيط للتعليم العالى ، ص ٢٦٥ ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٣ .

٢ - **تجسيد الجامعات للثقافات الوطنية** : وقد ارتبطت الجامعات بالثقافات الوطنية لمختلف الشعوب ، وبرزت فيها روح الأمم ، وظهر فى مفكريها روح العصر ، ومسار التاريخ • فبعد انتهاء عصر الامبراطوريات الكبرى فى العصور الوسطى وابان العصور الحديثة ، وبروز القوميات المستقلة فى الغرب ، الالمانية والايطالية والفرنسية والبريطانية والأمريكية ، قامت الجامعات وساهمت فى بلورة مفاهيم روح الأمة او شخصية الشعب ، والتاريخ الوطنى ، والتراث الحى من أجل تأسيس القومية الجديدة كتصور أو روح • وقد نجحت الجامعات فى ذلك فاستطاعت كل قومية أن تكتشف ذاتها من خلال مفكريها وأدبائها فى جامعاتها • والأمثلة على ذلك كثيرة •

فقد حملت الجامعات البريطانية لواء الفلسفة الانجلوسكسونية منذ فرنسيس بيكون حتى برتراندرسل ، ولم يخرج عن هذا التيار الا دوائر منعزلة صغيرة مثل أفلاطونيو كمبردج فى القرن الثامن عشر • عبرت الجامعات البريطانية عن الروح البريطانية التى تتمثل فى الاعتماد على الحس والتجربة ، والاعتراف بالعالم الخارجى ، وتحليل العقل باعتباره مخزونا للمحسوسات ، ورفض الأفكار الأولية والمبادىء العقلية ، [والاعتماد فى القانون على الحالات السابقة ، والشواهد الجزئية ، والقرائن الحسية دون القاعدة الفقهية أو القانون العقلى][1] •

وارتبطت الجامعات الالمانية سواء عند هيجل أو شلنج أو فشته بالفلسفة الميتافيزيقية ، وبمفهوم الوحدة بين الطبيعة والروح أو بين الله والعالم مما كان له أبلغ الأثر فى تحقيق الوحدة الالمانية • فلولا فلسفات الوحدة كتعبير عن روح الشعب لظلت الوحدة الالمانية مطلبا عسير المنال • وبروسيا وحدها كشقيقة كبرى ما كانت تستطيع توحيد شقيقاتها الصغرى ، بافاريا ، وستفاليا •• الخ • ولا كانت زعامةبسمارك قادرة على تحقيق الوحدة دون ميتافيزيقا الوحدة التى عبر عنها الفلاسفة الالمان • وبعد احتلال نابليون لالمانيا استطاع فشتة صياغة

---

(١) تتضح هنا عقلية الرقيب الذى يرى استحالة القانون دون قاعدة فقهية .

فلسفة فى المقاومة لطرد المحتل دفاعا عن استقلال البلاد ، « أنا أقاوم فانا أذن موجود » فالمقاومة تعبير عن الحرية ، والاقتصاد القومى الموجه تأكيد للاستقلال ورفض للتبعية ، والسعادة تكون فى تحقيق رسالة الانسان فى الحياة ، والمثل الأعلى فى التاريخ وليست فى حياة البذخ والترف وملذات الجسد الحسية .

أما الجامعات الفرنسية فقد زواجت بين الروح البريطانية والروح الالمانية ، وجمعت بين الحس والعقل . فكلاهما نشاطان متكاملان للنفس وأصبح المنهج الفرنسى فى الفكر منهجا عقلانيا يبدأ بتحليل تجربة نفسية مثل الجهد (مين دى بيران) أو العادة (رافيسون) أو الزمان (برجسون) أو الادراك (ميرلوبونتى) أو الخيال (سارتر) . أصبح هدف الثقافة الفرنسية التوحيد بين المثال والواقع ، بين الروح والطبيعة ، بين النفس والبدن ابتداء من تحليل التجارب النفسية . ومادامت النفس هى البداية فما أسهل بعد ذلك أن تنمو نموا روحيا فتقترب من التصوف النفسى وتصبح الفلسفة روحية خالصة كما جسدتها عمليا جان دارك .

وارتبطت الجامعات السوفيتية بالحركة السلافية المدافعة عن الثقافة السلافية باعتبارها الثقافة الوطنية ضد أنصار التغريب الداعين الى تقليد الثقافة الغربية ، ألمانية أو فرنسية . وارتبطت الثقافة بمفاهيم الأرض ـــ الأم ، والشعب ، وروسيا المحروسة التى لايقهرها عدو ، موطن الأرثوذكسية والفلاح الطيب ، وهى الثقافة التى عبر عنها الأدباء والفلاسفة الروس وعلى رأسهم دستويفسكى وتولستوى .

كما ارتبطت الجامعات الامريكية فى بدايتها بروح وثيقة الاعلان عن الاستقلال التى ترتكز أساسا على حرية الفكر والحفاظ على الوحدة الفيدرالية . وقد طالب جورج واشنطن وتوماس جيفرسون باقامة جامعات فيدرالية تتولى حراسة مفاهيم الوحدة الامريكية فى ضمائر الاجيال الأمريكية . ثم ارتبطت الجامعات الأمريكية فيما بعد بالفلسفات

الذرائعية والعملية من أجل تحقيق اكبر قدر ممكن من النفع واحداث اكبر قدر ممكن من التأثير فى العالم[1] •

وارتبطت الجامعات الاسلامية القديمة بالعلوم الاسلامية النقلية أو العقلية أو النقلية العقلية ، وكانت وعاء للحضارة الاسلامية سواء ما يتعلق بالعقيدة أو بالشريعة واننا حتى اليوم ندين لهذه الجامعات وعلمائها بتصوراتنا للعالم وبدوافعنا على السلوك • أما جامعاتنا الحديثة فلم تواصل تراث الجامعات القديمة ولا هى أحسنت تبنى نظم الجامعات العربية القائمة على البحث الحر والرؤى العلمية ، واقتصرت مهمتها على النقل ، اما النقل من الماضى بدعوى الأصالة أو من الغرب بدعوى المعاصرة •

٣ ـ **صياغة الجامعات للمشاريع القومية** : كانت الابحاث العلمية فى الجامعات مرتبطة أشد الارتباط بالمشاريع القومية للدول التى نشأت فيها • وأشهر مثل على ذلك هو الاستشراق • فقد نشأ فى الجامعات الأوربية ابان التفوق العسكرى الأوربى والسيطرة الاستعمارية على الشعوب الاسيوية والافريقية وابان نظريات التفوق العنصرى الأوربى • وقد كان الهدف منه جمع اكبر قدر ممكن من المعلومات عن الشعوب المستعمرة من أجل السيطرة عليها واخضاعها ليس فقط عسكريا بل أيضا ثقافيا وحضاريا • ارتبط الاستشراق الفرنسى بشمال افريقيا ، تونس والجزائر والمغرب ، وبالشام ، سوريا ولبنان • وتوجه الاستشراق الهولندى الى أندونيسيا والملايو والفلبين • وعكف الاستشرق البريطانى على مصر والسودان والعراق وفلسطين والجزائر العربية •

---

(١) يرى دريفر ان الجامعات لم تعد واحات وقراقة هادئة تقوم على خدمة صفوة من المتعلمين ينشدون الحقيقة ويتجملون بالمعرفة بل هى غدت جزءا من نهر الحياة العام . لقد طولبت هذه الاؤسسات العلمية ان تلعب دورا غير مسبوق لها فى الحياة واداء وظائف جديدة ، وكانت هذه الوظائف الجديدة فى المجتمعات النامية تكبر وتعظم لتبلغ حد بناء الامم .
Driver, CH : The exploring university, Bobs-merill, Indianpolis, Indiana, USA, 1972

نقلا عن : د. محمد جواد رضا :
الاصلاح الجامعى فى الخليج العربى ، شركة الربيعات للنشر والتوزيع ، الكويت ١٩٨٤ .

ولما ورثت العلوم الاجتماعية الحديثة ، وفى مقدمتها الانثروبولوجيا الثقافية ، الاستشراق القديم ، وبرزت الولايـات المتحـدة كأكبر قوة استعمارية حديثة عسكرية واقتصادية وثقافية من أجل الهيمنة الشاملة على العالم ، ازدهرت هذه العلوم ، وارتبطت مراكز الابحاث والمعاهـد والجامعات بأجهزة الاستخبارات الامريكية والبنتاجون ، كما أصبحت مراكز جمع المعلومات كلها فى مراكز اصدار القرار الامريكية . بل ان كثيرا من هذه الاجهزة تقوم بتمويل بعض الابحاث الاجتماعية فى عدد من الجامعات .

ولم يختلف الحال فى الشرق عنه فى الغرب . فقد ارتبطت الجامعات السوفيتيةايضا بالبحوث الاقتصادية والتاريخية حول حركات الشعوب ومكونات القوميات من أجل اعادة كتابة تاريخ للعـالم من وجهة نظر الابنية الاقتصادية وانماط الانتاج ووسائله ، ملكية خاصة أو عامة . كما عكفت جامعات اليابان منذ نهضتها فى القرن الماضى على القيـام بأضخم مشروع قومى لترجمة العلم الغربى ونقله الى اللغـة اليابانية من اجل بناء الدولة الحديثة وبداية عصر الصناعة . وما أن مر جيلان حتى بدأ الابداع العلمى اليابانى متفوقا على العلم الغربى وأساليب الصناعة فيه . كما توجهت جامعات الصين الى دراسة ثقافاتها الوطنية وتراثها العلمى ، وتقدمت فى علوم الطب وفى الفنون . ولا يتم بحث علمى الآن الا فى اطار الخصوصية الحضارية لكل شعب . فالعلوم خاصة العلوم الانسانية ، هى بالضرورة علوم قومية .

وفى العالم الثالث ، بعد عصر التحرر من الاسـتعمار والهيمنة الغربية قامت الجامعات فى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية باعادة دراسة تراثها الوطنى وصياغة مشاريعها القومية . وابرز مثال على ذلك جامعات المكسيك وكولومبيا وشيلى ومحاولاتها انشاء علوم اجتماعية وطنية فى مقابل العلوم الاجتماعية الغربية . فوضعت مناهج ومفاهيم جديدة بدلا من المسلمات القديمة عن الريف والحضر ، التعليم والأمية ، الزراعة والصناعة ، انماط التحـديث ، القوى الاجتمـاعية ، التراث والتغير

الاجتماعى .. الخ . فالتحرر الثقافى والعلمى لايقل أهمية عن التحرر السياسى والاقتصادى .

ومنذ فجر النهضة العربية الحديثة قام الجيل الأول بصياغة أضخم مشروع قومى فى عصر محمد على من أجل ارسال البعثات الى الغرب ، وترجمة أمهات المراجع العلمية والأدبية واعداد كوادر فنية من أجل النهضة الحديثة فى الزراعة والصناعة ، وانشاء المدارس الفنية والمعاهد العليا من أجل تأسيس الدولة الحديثة . ولما تكاتفت القوى الاستعمارية على ضرب التجربة وكسرها عادت صياغته من جديد فى جيلنا الحالى ابان الثورة المصرية ، فأرسلت البعثات ، وانشئت الصناعات ، وتأسست المعاهد والجامعات العلمية فى اطار مشروع قومى جديد لتوحيد الامة ونهضتها وتحررها واعادة توزيع دخلها بما يحقق اكبر قدر ممكن من العدالة والمساواة ويقوم على استقلال الارادة الوطنية . وان النهضة الاسلامية العاصرة ، وهى التجربة الثالثة فى جيلنا لتواجه هذا التحدى من جديد ، صياغة مشروع قومى اسلامى لنهضة مرتقبة تتعلم من التجربتين السابقتين ، وتكون أسعد حظا منهما . وامامها المشروع الاسلامى الأول الذى قام به المسلمون منذ القرن الثانى الهجرى وبعد قيام الدولة الاسلامية ، ترجمة كتب الأوائل ونقل تراثهم الى العربية . وما أن حل القرن الثالث حتى بدأ الابداع الاسلامى بتأسيس كل العلوم الاسلامية وتأسيس مجتمع علمى رشيد .

٤ — **ريادة البحث العلمى** : ومنذ انتصار العلم فى عصر النهضة تصدرت الجامعات قضية البحث العلمى ، وخرجت معظم الاكتشافات العلمية الحديثة من أروقة الجامعات منذ جامعات بالرمو وبادوا فى ايطاليا تحت أثر ترجمات العلوم الاسلامية من العربية الى اللاتينية خاصه فى العلوم الطبيعية وعلوم الحياة الى الجامعات الحديثة التى منها خرجت النظرية النسبية لاينشتين ونظرية الكوانتم للوى دى بروى .. الخ[١] .

---

(١) والامثلة على ذلك كثيرة مثل انتاج علماء برنستون الطاقة بطريق الانصهار النووى باستخدام مادة اولية غير قابلة للنفاذ وهى الماء ، وقيام اساتذة جامعة كاليفورنيا — ديفنز =

ونشأت داخل الجامعات مراكز الابحاث المتخصصة والمعامل المتقدمة واجريت فيها التجارب العلمية العديدة • لذلك ارتبطت الجامعات بتطور الغرب وبنهضته العلمية الحديثة • ونشأت فيها عمادات بأكملها للدراسات العليا والبحوث العلمية • وصدرت من الجامعات وأقسامها ومعاهدها ومراكزها المتخصصة المجلات العلمية ، وتبادلت خبراتها فيما بينها • وفى اليابان قامت مراكز الابحاث داخل الشركات الصناعية الكبرى بتدعيم الصناعات بما تحتاجه من أبحاث واختراعات ، بل أقامت كل شركة مراكز ابحاثها حتى تلغى المسافة بين النظرية والتطبيق ، بين الجامعة والمصنع ، بين العلم والحياة •

لم تقم الجامعات اذن على التلقين ونقل المعلومات • فقد كان ذلك من مهام دور العبادة والأديرة فى العصور الوسطى حفاظا على تراث الآباء والأجداد والذى لا يتغير بتغير العصور والذى يعبر عن حقيقة مطلقة أبدية وكان البشر لايخطئون ، وكأن الواقع لايتغير ، وكأن رؤية الكون وتفسيرات الطبيعة ثابتة • فالتقليد ليس منهجا علميا ولا طريقا للمعرفة • ونقل المعلومات ليس علما • العلم هو مايستنبط من المعلومات وما يستنتج منها ، وما يخلق كمعلومات جديدة بناء على تجارب أو مشاهدات • والراوى ليس عالما ، وناقل العلم ليس بعالم ، والحافظ ليس عالما • لاتعمل الذاكرة عمل العقل • مهمة الذاكرة الحفظ والاختزان ومهمة العقل التفكير والابداع • فلا الذاكرة تفكر ، ولا العقل يحفظ •

ولا يكفى أن تبدع الجامعات الأوربية وتنقل الجامعات الأخرى عنها ، والا كانت حضارة واحدة هى المبدعة وباقى الحضارات هى المستهلكة • وقد كان لكل حضارة فى التاريخ دورها المبدع ، فى الصين والهند وفارس ومصر القديمة وبلاد ما بين النهرين وفينيقيا واليونان والعالم الاسلامى قبل أن يصب ذلك كله فى الحضارة الغربية الحديثة •

- باستنبات نبات يشبه الطماطم يروى بماء البحر ، وكذلم تجارب جامعة اريزونا على انتاج الشعير بماء البحر . د. محمد عبد العليم موسى : التعليم العالى ومسؤولياته فى تنمية دول الخليج العربى ، دراسة تحليلية تربوية لاعمال الندوة الفكرية الاولى لرؤساء ومديرى الجامعات الخليجية ٩ — ١٢ ربيع الاول ١٤٠٢ هـ ، ٤ — ٧ يناير ١٩٨٢ ، البحرين ، مكتبة التربية العربى لدول الخليج ، الرياض ١٤٠٥ — ١٩٨٥ ■

٥ ـ دور الجامعات فى ترشيد المجتمع : لم يقتصر العلم على أن يكون بحوثا ودراسات داخل مراكز الابحاث أو مطبقا فى الصناعات بل تحول الى أسلوب حياة وأداة لترشيد المجتمع . فتحول المجتمع العفوى الى مجتمع علمى ، وأصبحت الجامعات هى مراكز اصدار القرارات . فلا يصدر قرار اقتصادى أو سياسى الا اذا قام على دراسة علمية رشيدة . وبالتالى أمكن توفير الجهد والوقت وتفادى النكوص والفشل والعود على بدأ ، والبداية باستمرار من الصفر [١] . العلم اذن هو الوسيلة لتحويل المجتمع التقليدى وأنماطه الفكرية السائدة كالعفوية والمزاجية الى مجتمع العلم والعقل ، ومن مجتمع العلاقات الفردية والمواجهة الشخصية والامزجة والانفعالات الى مجتمع يسوده القانون ويحكمه الفكر ويسير طبقا للمبادىء ، ومن مجتمع العفوية والمصلحة الآنية الى مجتمع الترشيد والتخطيط * . لذلك استطاع المجتمع العلمى الرشيد التنبؤ بوقوع الظواهر بعد معرفة قوانينها ، وتوقع المشاكل والاعداد لها قبل وقوعها ، واكتشاف حلولها قبل تفاقمها وتحولها الى أزمات لاحل لها . لايوجد «تابو» فى العلم أو فى المجتمع ، فى الفكر أو فى النظم الاجتماعية . يضع العلم كل شىء موضع البحث بما فى ذلك العادات والأعراف والتقاليد وكل مظاهر الموروث الذى كثيرا ما يختلط فى أذهان الناس مع المقدس . وطالما ظل هناك موضوع خارج البحث العلمى باعتباره سرا أو مقدسا فانه سرعان مايتحول الى « تابو » ويصبح مصدرا للخرافة والجهل أو أداة للقهر والطغيان . حينئذ يستحيل الترشيد القائم على العقل كما تستحيل المبادرة التى تتطلب الحرية . وسيظل الغرب يزهو باستمرار بأنه مجتمع العقل والعلم وبأنه وحده هو القادر على التنظيم « وعقلنة » العالم ، وأنه هو وحده الذى اكتشف الانسان الحر العاقل القادر طالما أن المجتمعات غير الأوربية مازالت قاصرة غير رشيدة لاتعتمد على العقل ،

---

(١) استطاع طلبة واساتذة جامعة اكسفورد مثلا حل الشفرة السرية الالمانية اثناء الحرب العالمية الثانية .

* كانت العبارة فى الأصل : العلم اذن هو الوسيلة لتحويل مجتمع الخرافة والتدرية الى مجتمع العلم والعقل ومن مجتمع القبلية والعلاقات الفردية ...

ولا تقوم على الاختيار الحر . ومازالت تقبل الوصايا عليها من « التابو » أو ممن يستعمله كأداة للسيطرة . ان القصور الذاتى ليس قانونا للتاريخ بل هو مجرد استمرار لفعل مضى وبدأ فى التراخى والذبول . والمجتمعات التى تعيش بالقصور الذاتى سرعان ما تذبل وتموت . ومن ثم فلا بديل عن المبادرة الحرة وترشيد المجتمع حتى يمكن تدريجيا الاستغناء عن الخبرات الأجنبية وحتى يقوم بالترشيد الباحثون المواطنون فهم اقدر على معرفة حاجات المجتمع وأذواق الناس . وطالما بقيت الجامعة فى جانب تقصر مهمتها على محو الأمية الثقافية أو اخراج مدرسين أو موظفين أو اداريين وتترك ترشيد المجتمع للخبرة الاجنبية كلما اشتدت غربة الناس عن عالمهم وكلما اتسعت الهوة بين ثقافتهم وبين عصرهم .

٦ — **قدرة الجامعات على النقد الذاتى** : لا يقتصر دور الجامعات على البحث العلمى وترشيد المجتمع بل انها بالاضافة الى ذلك تتمتع بقدرة فائقة على النقد الذاتى . تقوم الجامعات اذن بدور طليعى فى نشأة الأفكار الجديدة التى تنادى بالاصلاح وتهدف الى التغيير نحو الأفضل . ظهرت من داخل الجامعات التيارات الجديدة التى تتجاوز الأوضاع الاجتماعية الحالية ، وقامت بدور النقد الذاتى لمجتمعاتها ونظمها وخرجت منها المذاهب الجديدة لاعادة بناء المجتمعات . والأمثلة على ذلك كثيرة . ففى الستينات عندما بدا الاستعمار عاتيا ممثلا فى حرب فيتنام نشأت الحركات المناهضة للحرب داخل الجامعات ، وتكونت حركات السلام داعية لايقاف الحرب ، ومطالبة باستقلال الشعوب وبحقها فى تقرير المصير . قامت الجامعات ، خاصة علماء الانسانيات ، بفضح المركب الصناعى العسكرى الذى يثرى من وراء الحروب وتجارة السلاح وتكون الشعوب هى الضحية . قام مفكرو الجامعات وأساتذتها بمحاكمة أمريكا على جرائمها فى فيتنام مثل محاكمة سارتر ورسل ، ومحاكمة اسرائيل على جرائمها فى صبرا وشاتيلا التى قام بها ايتاجاكى فى اليابان .

* كان العنوان فى الأصل : تعبير الجامعات عن أصوات المعارضة .

وأيضا من داخل الجامعات ، بـدأت حركات المطالبة بالحقوق المدنية للأقليات ضد التفرقة العنصرية فى الولايات المتحدة الامريكية . كما تكونت فى الجامعات لجان للدفاع عن حقوق المستهلكين ضد استغلال شركات الغذاء الكبرى التى همها الكسب دون المحافظة على صحة الناس . فاستعملت كل الوسائل المصطنعة للانتاج الكمى للغذاء من المواد المركبة ، والتدخل الاصطناعى فى نمو النبات والطيور والحيوان ، وهو أحـد الاسباب الرئيسية لانتشار السرطان فى اكثر من ثلث المجتمع الامريكى . ومن داخل الجامعات أيضا تكونت « الحركة الخضراء » للدفاع عن البيئة ضد التلوث بعد أن عجزت قوانين الدولة عن الحـد من مخـاطر نفايا المصانع التى ترغب فى مزيد من الكسب بصرف النظر عن صحة الناس . كما تكونت داخل الجامعات الأوربية حركات السلام ضد انتشار الاسلحة الذرية والصواريخ النووية العابرة للقارات دفاعـا عن حق الشـعوب فى العيش فى سلام . وقام علماء الطبيعة أنفسهم بالوقوف أمام مشاريع حرب الكواكب لما تجره على الانسانية من خراب ودمار . وعندما شعر البعض بضرورة العودة الى الدين لحل مشـاكل المجتمع الصناعى المتقدم ظهرت الجماعات الدينية فى حرم الجامعات الأوربيـة ترقص وتغنى ، تطبل وتزمر ، تحلق الرؤوس ، وتلبس المسوح ، داعية للخلاص ، فالمسيح يعود من جديد ، وكرشنا منقذ البشر ، وبراهما طريق الطمأنينة والسلام !

ولما بدأت حركات الرفض لمثل المجتمع كلها ولقيم الطبقة المترفة فيه نشأت حركات « الهيبيز » داخل الجامعات فى أوربا وفى الولايات المتحدة الامريكية . وظهر « الجينز » المهلهل الأرجل بلا خياطة أو صناعـة ، والعلم الامريكى فى الخلف أو على الحذاء ، وشاع النوم فى الطرقات بدلا من القصور ، وظهرت عادة اطالة اللحى والشعور بدلا من التزين والتجميل ، ورفض الاستحمام والعطور باعتبارها قيما للحياة الناعمة ، وايثار الحياة البؤس والشقاء ، وعم الغناء فى الطرقات بدلا من المسارح . ظهرت « الخنافس » بدلا عن القطط السمان ، فحياة الشعوب أصدق من حياة المترفين (*) .

(*) العبارة فى الاصل : وقبل مراجعة الاساتذة (الرقابة الداخلية) فحياة الشـعوب اصدق من حياة الأمراء .

وقد اكتمل ذلك كله فى مظاهرات الشباب فى مايو ١٩٦٨ من داخل الحرم الجامعية تنادى بمثل جديدة ، وقيم جديدة ، وتعليم جديد ، ومناهج جديدة . ونالت بعض ما أرادت فى الاشتراك فى الادارة الجامعية ، وتغيير مناهج التعليم من العلم المفروض الى الحوار المفتوح ، ومن المحاضرة العامة الى المناقشة الحرة[١] . وظهر مفكرون اساتذة مثل هربرت ماركيوز وطلابا مثل انجلاديفيز يضعون فلسفة جديدة للشباب اشباعا لرغباته المكبوتة وتأكيدا لذاته الضائعة ، وتحقيقا لغاياته ومثله التى تعبر عن حاجاته بدلا من الحرمان والاحباط هدرا للطاقات واجهاضا للعقول . ان الجامعة هى المكان الطبيعى لممارسة الحرية والقيام بدور النقد الذاتى حتى لا تقع الأمة فى الازدواجية بين حياتها الخاصة وحياتها العامة ، بين السر والعلن ، الهمس والصياح ، الكلام بين الاصدقاء والحديث الرسمى ، حديث القلب ، وتمتمات الشفاه وحركات اللسان .

ثانيا : الجامعات العربية .

وان كانت الجامعات العربية ، باستثناء الجامعات الاسلامية التاريخية ، اكثر حداثة من الجامعات الأوربية الا أنها أيضا ارتبطت بتاريخ الشعوب العربية وبنهضتها الحديثة . ارتبطت بحركاتها الوطنية والاجتماعية ، وقامت بدور رئيسى فى تحقيق الاستقلال الوطنى واحداث التغير الاجتماعى . كانت منبرا للدفاع عن حقوق الانسان الطبيعية فى الحريات العامة وتأسيس مجتمع ديمقراطى يقوم على الشورى والنصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . كما دافعت عن استقلالها الأكاديمى ، وساهمت فى الابداع الفكرى ، ومدت الجيوش الوطنية بكوادر علمية مؤهلة قادرة على تحقيق النصر كما حدث فى

---

(١) بدأت مظاهرات الشباب فى نوفمبر ١٩٦٧ باحتلال الطلاب حرم جامعة تورينو بايطاليا . وبلغت ذروتها فى مايو ١٩٦٨ فتحولت الى ثورة للطلاب ضد نظم الجامعة وابنية المجتمع وسيادة التقاليد فى كل الجامعات الاوربية ، فى مدرسة الاقتصاد فى جامعة لندن وجامعة منشستر . ثم انتشرت فى المانيا واسبانيا وهولندا وامريكا واليابان بل وعمت ايضا جامعات الدول الاشتراكية فى بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر . وقد تزعم الحركة طلاب الجامعات الفرنسية ، وكانوا من منظريها الاوائل ، د. محمد منير موسى : التعليم الجامعى المعاصر ، قضاياه واتجاهاته ، ص ١٨ — ١٩ .

اكتوبر ١٩٧٣ . والمتتبع لحركة الجامعات العربية ، نشـأة وتطورا ، والدارس لدورها الاجتماعى يمكنه ملاحظة الآتى :

١ ــ ارتباط تاريخ الجامعة بالحركة الوطنية* : فى البـلاد النامية بوجه عام ارتبطت الجامعـات بتاريخ الحركة الوطنية . فاذا اخذنا الجامعة المصرية مثالا على ذلك ، وهى أقدم الجامعات العربية ، لوجدنا أنها ارتبطت منذ نشأتها بتاريخ الحركة الوطنية المصرية منذ أن كانت جامعة أهلية عام ١٩٠٨ الى أن اصبحت جامعة وطنية فى ١٩٢٥ . فقد شهدت الثورة الوطنية فى الاربعينات . وفيها تكونت لجنـة الطلبة والعمال عام ١٩٤٦ . وقام شبابهـا بتكوين حركة الفدائيين فى القناة عام ١٩٥١ . ثم هبت الجامعة دفاعا عن الحرية والديمقراطية فى ١٩٥٤ . وقامت المظاهرات ضد أحـكام الطيران عام ١٩٦٨ ترفض الهزيمة ، وتطالب بمحاكمة المسؤولين عنها . وعندمـا ظهرت الثورة المضادة فى السبعينات حملت الجامعة لواء المعـارضة منذ ١٩٧١ حتى ١٩٧٦ . وليس بغريب أن يكون النصب التذكارى للشهداء على مدخل الجامعة وأن يكون على الناحية الأخرى من طريق الجامعة تمثال نهضة مصر ، والجامعة والمثال مختار كلاهما من حصاد ثورة ١٩١٩ . لقـد حملت الجامعة الامانى الوطنية ، ونادت بالاستقلال التام أو الموت الزؤام ، ورفعت شعار وحدة وادى النيل ، وهتفت بسقوط الملك ، ونادت بالوحدة الاسلامية . وقامت جامعة الأزهـر بنفس الدور منذ الوقوف أمـام نابليون ، ومقاومة الفرنسـيين ، وتنصيب محمد على واليا على مصر . ثم حملت لواء المقاومة للانجليز ، ورفضت الاحتلال الصهيونى للقدس . وقامت جامعات مصر كلها محتلة فى اتحاد نوادى أعضاء هيئة التدريس برفض تطبيع العلاقات مع العدو الصهيونى ، والارتماء فى احضان الغرب ، وسياسة الانفتاح الاقتصادى ، والمناورات العسـكرية المشتركة ، والقوانين المقيدة للحريات ، والعزلة عن العالم العربى . ولقد كان نصرا كبيرا قبيل الثورة المصرية اقرار مجـانية التعليم ، فالتعليم كالماء

* العنوان فى الاصل : تاريخ فى الحركة الوطنية .

والهواء • ولقد تم الغاء المصروفات من المدارس الثانوية عام ١٩٥٠ • وبعد الثورة أصبح التعليم حقا طبيعيا للمواطن • وتم الغاء المصروفات من التعليم الجامعى عام ١٩٦٢ • وكانت جامعة الاسكندرية التى تأسست عام ١٩٤١ أول من أيدت الثورة فى ١٩٥٢[1] • وكان ناديها أول من عارض الثورة المضادة حتى أصبح أحد دعائم الوعى القومى •

وقامت الجامعات العربية بنفس الدور الوطنى • فقامت الجامعة التونسية والجامعة المغربية بدور الطليعة فى التعبير عن مطالب الجماهير التونسية الوطنية والاجتماعية • كما قامت جامعات السودان ، والخرطوم وأم درمان وجامعة القاهرة (الفرع) بمعارضة كافة نظم القهر دفاعا عن الحريات وتأكيدا على حقوق الشعب السودانى • وحمل نادى اتحاد الخريجين لواء وحدة وادى النيل ثم الدعوة الى استقلال السودان • وقامت الجامعات فى الشام والعراق بدور رئيسى فى معارضة الاحتلال الاجنبى وفى مقدمتها جامعة دمشق التى تأسست عام ١٩٢٣ • وتقوم حاليا جامعة بيزرت فى الارض المحتلة بمقاومة الاحتلال الصهيونى والتعبير عن مطالب الجماهير الفلسطينية فى الأرض المحتلة • وبالرغم من هجرة العقول ونزيف الجامعات العربية الذى يتم منذ عقدين من الزمان كون الاساتذة العرب فى الجامعات الامريكية رابطة من أجل الدفاع عن حقوق الشعوب العربية وفى مقدمتها حقوق شعب فلسطين من أجل التأثير فى الرأى العام الأمريكى وتكوين جماعة ضغط على مجلس النواب ومجلس الشيوخ الامريكيين فى مقابل جماعات الضغط الصهيونى • واذا كانت الجامعات العربية الحديثة مثل جامعات الخليج قد نشأت بعد الاستقلال فان دورها يظل فى المحافظة على هذا الاستقلال ، وبداية تكوين حركة وطنية تحميه من الانزلاق نحو التبعية[2] • وان ازدهار

---

(١) ابراهيم عصمت مطاوع : التخطيط للتعليم العالى ، ص ٢٤ .

(٢) وقد كان هذا التقليد متبعا فى تاريخنا عندما كان القادة يعرضون على العلماء ادارة الشؤون العلمية للدولة . فقد عهد هولاكو للشيخ نصر الدين الطوسى هذا الأمر ، واتخذ تيمورلنك ابن خلدون ناصحا . د. محمد جواد رضا : الاصلاح الجامعى فى الخليج العربى ، ص ٢٥ .

الجمعيات الطلابية فى الحرم الجامعى وتناولها لقضايا الأمة عامة وقضية فلسطين خاصة ، ومهرجاناتها واحتفالاتها بيوم القدس ويوم الأرض ويوم الشهيد ، وذكرى وعد بلفور وضياع فلسطين هو فى حد ذاته احدى المؤشرات الايجابية عن ارتباط الجامعة بقضايا الأمة المصيرية .

٢ ــ **دور الجامعة فى التغير الاجتماعى** : وقد كان للجامعات العربية عامة والمصرية خاصة دور كبير فى حركة التغير الاجتماعى حتى قبل الثورات العربية الحديثة . فقد حملت لواء الفكر العقلانى المستنير من أجل ارساء قواعد النهضة المعاصرة . وظهرت كتابات طه حسين وأحمد أمين وخلف الله وغيرهم من ثنايا الجامعة . كما ساهمت الجامعات فى ذيوع أفكار المساواة والعدالة الاجتماعية وعرض قضايا الغنى والفقر وحقوق العمال والفلاحين * . وبعد الثورات العربية الحديثة تشبع شباب الجامعات بالاشتراكية العربية ** وتمسكوا بمثل الحرية والاشتراكية والوحدة التى أصبحت مثلا للأمة العربية فى الستينات وذروة الثورة العربية قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧ . وبصرف النظر عن بعض مناهج التبرير ، وغياب النقد ، واساليب الخطابة دون البرهان فقد حمل نادى الفكر الناصرى لواء المعارضة للثورة المضادة داخل الجامعات فى السبعينات . كما شاركت الجامعات فى الانتفاضة الشعبية فى يناير ١٩٧٧ ضد قرارات ارتفاع الأسعار . وكانت الجامعات الاقليمية عوامل تحديث فى الريف بعد أن ظهر العلم بجوار الحقول ووسط جموع الفلاحين .

وقد شاركت معظم الجامعات العربية فى التغير الاجتماعى . ففى المغرب حملت الجامعات لواء المعارضة ، ونادت بالحريات العامة ، وباعادة توزيع الدخل ، وشاركت فى مظاهرات الخبز فى فبراير ١٩٨٤ . كذلك شاركت الجامعة التونسية ضد قرارات ارتفاع أسعار الخبز والمواد

---

* العبارة فى الاصل : كما حملت الجامعات لواء الفكر الاشتراكى الممثل فى الطليعة الوفدية او باقى الاتجاهات الاشتراكية اسلامية او علمانية .

** العبارة فى الاصل : بالفكر الاشتراكى .

الأولية فى يناير ١٩٨٤ وسط جموع الشعب ، واستعادت حقوقه فيما يتعلق بدعم الخبز • ومن الجامعات العربية فى سوريا ولبنان خرجت معظم اتجاهات النهضة العربية الحالية فى اللغة والادب والثقافة • فالجامعة صدى للمجتمع وتعبير عن قضاياه • ودون هذه الوحدة ينقسم الطالب بل والاستاذ الى قسمين ، طالب علم فى الجامعة ، ومواطن مهموم بقضاياه لا يعرف كيف يتناولها خارج الجامعة • وتكون النتيجة أن ينفر الطالب من العلم الذى لا نفع فيه ، ويعجز عن تغيير وضعه فستسلم للأمر الواقع ويفقد قدرته على التغيير • وسواء كان هذا التغير تدريجيا أو جذريا فكلاهما منهجان فى التغيير : الاصلاح والثورة ، وكلاهما مطروحان فى فكرنا الحديث ، الأول عند محمد عبده والثانى عند الأفغانى[1] •

٣ ــ دفاع الجامعة عن الحرية والديمقراطية* : لما كان البحث العلمى يقوم أساسا على حرية الفكر ، وعدم التسليم بشىء على أنه حق ان لم يثبت بالدليل أنه كذلك فان روح البحث العلمى هذه تنمو ويتحول الذهن الحر الى الطالب الحر والاستاذ الحر ، وتتحول الجامعة بأكملها الى حصن للدفاع عن الحرية • فالحرية الفردية والديمقراطية السياسية تعبير عن العقل وتجسيد لحق الفرد الطبيعى وأساس العقد الاجتماعى • الجامعة هو المكان الطبيعى الذى فتأكد فيه الحريات العامة وتثبت فيه دعائم الديموقراطية • وقد دخلت الجامعات العربية فى هذا الميدان كل

(١) يقول د. محمد منير موسى : « الجامعة اليوم هى جامعة المجتمع تعيش من اجله وتعمل على رفاهيته ، ولها دور هام فى تذويب الفوارق الطبقية والحراك الاجتماعى من خلال دورها التربوى ودورها فى تغيير الأصول الاجتماعية للطلاب ... وعلى الجامعة ان تتحسس آمال المجتمع وآماله لتكون معبرة عنها واعية لها مستجيبة لها متعاطفة معها » ، التعليم الجامعى المعاصر ، ص ٣٢ ، يقول ايضا « ان فلسفة التغير التربوى والاجتماعى تستند الى عنصرى المحافظة والتجديد ، وهما طرف معادلة صعبة قد تبدو أحيانا أنهما متناقضان ولكن الواقع ان التغير التربوى المتزن يقوم على اساس التوازن الدقيق بين طرفى هذه المعادلة . ففى الوقت الذى يستند التغيير فيه على الاساس المحافظ يخطو الى الامام فى ثقة ونظام واستقرار تميزه عن التغير الجذرى الراديكالى الذى يقتص الجذور التقليدية ويبدأ من جديد . وهو يسمى أحيانا بالتغير الثورى » المصدر السابق ، ص ٢٢ ــ ٢٣ .

* العنوان فى الأصل : نضال الجامعة من اجل الحرية والديموقراطية . والمجيب ان الرقيب قد حذف هنا صفحات بأكملها تتعرض لدفاع الجامعة عن الحرية والديموقراطية وعن حق الجامعة فى الاستقلال الاكاديمى .

حسب طاقتها وفى مقدمتها الجامعات المصرية . فمنذ الصدام بين الجامعة والضباط الأحرار فى مصر فى أزمة مارس ١٩٥٤ أصبح استقلال الجامعات فى خطر . وتحولت الجامعة الى احدى مؤسسات الدولة ، يعين رؤساؤها وعمداؤها ورؤساء أقسامها ففقدت الجامعة حق انتخاب ادارتها . وأصبحت الادارة الجامعية ممثلة للدولة أى للنظام السياسى القائم عند الجامعيين وليست ممثلة للجامعيين عند الدولة . كما خفت أصوات النقد الذاتى والآراء الحرة ، وتحول الفكر الجامعى الوطنى فى معظمه الى فكر تبريرى خالص . وقد انعكس ذلك على مستوى التعليم فغاب الصدق فى التعبير كما قل الابداع الفكرى نظرا لغياب المدارس الفكرية ونقص الحوار بين الآراء المختلفة والنظريات المتباينة . وظهرت نوعيات جديدة من الاساتذة تنقل العلم ولا تبدعه ، تعرضه ولا تتمثله ، لا تأخذ مواقف ولا تبدى رأيا . كما انعكس ذلك أيضا على الطلاب فجاءت نوعية مماثلة حافظة للعلم وناقلة له ، لاتبدى رأيا ولا تأخذ موقفا . واتفق الطرفان على مصلحة واحدة ، الكتاب المقرر أو المذكرة المطبوعة . فالاستاذ ينشر والطالب ينجح ، وتضمن الجامعة حسن سير النظام ونقل المعلومات . وكبل الطالب بنظام الفصلين حتى يظل يلهث وراء الامتحانات فى منتصف العام وفى آخر العام بصرف النظر عن التحصيل . ثم تكرر نفس الشىء فى مذبحة الجامعات المصرية فى ١٩٨١ بفصل سبعة وستين استاذا من المعارضين لاتفاقيات الصلح مع اسرائيل والرافضين لسياسات الانفتاح الاقتصادى ، والارتماء فى أحضان الغرب ، والعزلة عن العالم العربى ، والمناهضين للقوانين المقيدة للحريات . ثم عادوا بحكم قضائى من مجلس الدولة مؤكدا استقلال الجامعات وعدم جواز النيل منها بفصل أستاذ معارض أو تعيين أستاذ مؤيد حتى ولو كان من رئيس الدولة .

وسارت الجامعات العربية كلها على نفس الطريق ، فاصبحت الجامعات المغربية قلعة الدفاع عن الحريات العامة بالرغم من اضطهاد اتحاد طلابها واعتقال أعضائه . وقامت الجامعة

التونسية بنفس الدور وكذلك الجامعة السودانيه ، ولم تتخل بعض الجامعات الحديثة نسبيا مثل جامعة الكويت عن القيام بدورها المنوط بها . فحرية البحث العلمي في النهاية جزء من الحريات العامة .

٤ ــ حق الجامعة في الاستقلال الأكاديمي : كنمط مثالي ورؤية ما ينبغي أن يكون فان الجامعة لا تستطيع أن تؤدي دورها الريادي في البحث العلمي والحركة الوطنية الا باستقلالها الأكاديمي الذي يشمل حرية البحث العلمي والاستقلال الاداري أي الحريات الأكاديمية وانتخاب الادارة الجامعية ، ورؤساء الجامعة وعمدائها ورؤساء أقسامها واتحادات طلابها[١] . فلا توجد جامعة تابعة لهيئة أخرى تسيطر عليها بما في ذلك الدولة حتى ولو كانت هي التي تمدها بميزانيتها * . فالاعتماد المالي لا يعني التبعية الفكرية أو الادارية للدولة كنظام سياسي . لذلك سمى فناء الجامعة الرئيسي في وسطها « الحرم الجامعي » . ومن دخل الحرم الجامعي كان آمنا . ولا يجوز لأجهزة الدولة أن تدخل الحرم الجامعي . فرئيس الجامعة المنتخب هو المسؤول أمام المجالس الجامعية عن أمنها بحرس جامعي مستقل تابع له . والاستقلال الجامعي استقلال تام ، وان كل محاولة لوضعه في اطار نظام الدولة أو مشروط بضمانات أو مستثنى بحالات فانها تقضى عليه من الأساس . اذ سرعان ما يصبح الاستثناء قاعدة ، ويصبح كل بحث وكل رأى يمثل خطرا على نظام الدولة . وبالتالي تفرض الرقابة على الجامعات من خارجها وتصبح تابعة للنظام السياسي في حين أن الثابت لا يتبع المتغير . فالجامعة تمثل البحث العلمي وهو الثابت في حين أن نظام الدولة متغير تبعا لتوازن القوى الاجتماعية وصراعاتها . ان الضمان الوحيد للجامعة لا يأتي الا من خلال المجالس الجامعية وبالنقاش الحر

---

(١) وقد أكدت ندوة « التعليم العالي ومسؤولياته في تنمية الخليج العربي » على الاستقلالية الذاتية للجامعة في ادارتها وبرامجها ، ص ٢٠٧ ، ويقول د. محمد منير موسى » « ان الجامعة اذ فقد استقلالها فقدت معه طابعها الجامعي . وهكذا يعتبر استقلال الجامعة مطلبا رئيسيا للمناخ الطبيعي لنمو الجامعة » . التعيم الجامعي المعاصر ، ص ٣٤ .

* العبارة في الأصل : فلا توجد جامعة تابعة للسلطة أي للنظام السياسي حتى ولو كانت ماليا معتمد عليها .

بين العلماء وبمناهج البحث العلمى[1] • وأول مظهر للاستقلال الجامعى هى الحريات الأكاديمية ليس فقط فى اختيار مجالسها وممثليها وأساتذتها وهيئاتها بل فى البحث العلمى دون قيد بالنسبة لموضوعات أو مناهج لا ترضى عنها النظم السياسية التى تتبناها الدولة فى أحد مراحل تطورها • فالبحث العلمى لا يقوم كما قيل من قبل على التسليم بالمنوعات « تابو » بل يضع كل شىء موضع البحث • وايمان عن برهان خير من ايمان عن تقليد • لذلك كانت أحد قواعد العقائد الاسلامية أن ايمان المقلد لا يجوز • ان البحث عن الحقيقة وليس الوصول اليها هو أساس الجامعة والغاية من انشائها ، ولا يتوفر البحث العلمى الا فى اطار عام من الحريات • فلا بحث عن الحقيقة والباحث عنها خائف مهدد • وتكون الدولة فى النهاية هى الخاسرة ، ويكون الوطن هو الضائع • وان أسوأ ما يضر بالجامعة لهو التعصب للأفكار المسبقة والمسلمات التى لم تخضع بعد لأصول البرهان[2] • بل ان المجتمعات

---

(١) « ومن اخطر الدعاوى التى تثار عادة وتغلف بعبارات فضفاضة مايقال أحيانا عن ضرورة وضع ضمانات للاستقلال الاكاديمى للجامعة حتى يستطيع المجتمع أن يمارس حقه الطبيعى فى الرقابة على الجامعات ، وهى دعوى خطيرة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب .. فكيف تستقيم الدعوة بفرض رقابة على الاستقلال الاكاديمى للجامعة نفسها دون أى وصاية خارجية والا فقدت الجامعة المغزى الحقيقى لوجودها وحياتها . ان الجامعات فى بلاد العالم لم تتعرض للانتقاص من حرياتها الأكاديمية الا فى أشد العصور ظلاما . وان الحرية الأكاديمية لشرط لتوفير المناخ الفكرى المناسب للتقدم العلمى والثقاف فى الجامعة . » د. محمد منير مرسى ، التعليم الجامعى المعاصر ، ص ٣٧ .

(٢) « يعنى الاستقلال الاكاديمى أول ما يعنى حرية الجامعة فى اختيار نظمها وبرامجها ومناهجها وطرائق التدريس واختيار هيئة التدريس بها . كما يعنى أيضا الحرية الاكاديمية ، وتعنى عدم وضع قيود على ما تدرسه الجامعة وما يقوله او ينشره أساتذتها أو ما يعبرون عنه من آراء علمية او اكاديمية داخل الجامعة . ولهذا فان الحرية الأكاديمية لتتطلب الى جانب اشياء اخرى توفير الضمانات الكافية للاساتذة ضد الضغط والارهاب او التهديد بالفصل أو الطرد او العقوبة . ان الجامعة منظمة اكاديمية وجدت من أجل الفكر كما أشرنا . وهى لهذا يجب ان تلتزم بالحقيقة كل الحقيقة . وبصرف النظر عما يقال من نسبية الحقيقة فان هذا لايغير شيئا من كون الحقيقة عقلانية لا تقوم على الزيف والخلل . ان الروح الجامعية الحقة تقوم على روح الحقيقة والشمول المعرفى . واذا حادت الجامعة من جانبها عن هذه الروح فانه لا يكون لها من الجامعة الا اسمها فقط . وبهذا المعنى وحده تتمايز الجامعات » . المصدر السابق ص ٣٥ ، « وتعتبر الحرية الأكاديمية سمة مميزة للجامعات على طول تاريخها الطويل ، وتعنى هذه الحرية الأكاديمية ببساطة ان هيئة التدريس فى الجامعة تتمتع بحق تدريس ما تعتبره صحيحا ، وانه ليس هناك قيود على ما يقوله الاستاذ او ما يكتبه او ما ينشره . ويرتكز هذا =

العامية التى تنتقل من مرحلة التقليد الى مرحلة البرهان لهى أولى بالتمسك بالحريات الأكاديمية واعادة بحث تراثها الماضى ونظمها الحاضرة بحثا علميا دقيقا دون تعصب أو تسليم • وان الوعى السياسى والدينى ضرورى للطلاب نظرا لأن الدين هو الروح والسياسة هو البدن ولا غناء لأحدهما عن الآخر • لاغناء للماضى عن الحاضر ولا للأصالة عن المعاصرة ، ولا للتراث عن التجديد • ان الوعى بكلا المطلبين يمنع من تحالف المحافظة الدينية مع القهر السياسى أو أن يغذى كلا منهما الآخر فى حين أن مسار التاريخ هو باستمرار من المحافظة الى التحرر ، ومن التقليد الى الاجتهاد[1] •

٥ ــ اسهام الجامعة فى الابداع الفكرى : لقد كانت الجامعات العربية مصدرا للابداع الفكرى • وتخرج منها العلماء والمفكرون والأدباء والشعراء • أسسوا مراكز البحث العلمى سواء فى العلوم الطبيعية أو الرياضية ، وكان لهم اسهاماتهم فى تقدم العلم وحل مشاكل مجتمعاتهم وبيئتهم • كما درسوا بيئاتهم الجغرافية ، ومسحوا أوطانهم العربية ، ودرسوا تاريخهم السياسى والاجتماعى والأدبى ، ووضعوا

= الحق على قدسية الحقيقة من ناحية ومسؤولية الدارس فى معرفة هذه الحقيقة دون أى قيود من ناحية أخرى . لقد نشأت الحرية الأكاديمية قديما عن محاكمة سقراط وادانته فى أثينا مع أن السوفسطائيين لم تكن لهم اية أخوة أكاديمية تربط بينهم فى ذلك الوقت . ومع أن سقراط لم يطالب بالحرية الأكاديمية فانه أعطى خير نموذج لها ، وطالب الانسان اتباع أوامر ضميره » . المصدر السابق ، ص ١٢ .

(١) « ... والجامعات الايديولوجية أو العقائدية قد تمتهن الحقيقة ، وقد تحرفها أو تزيفا لخدمة أغراض السلطات السياسية الحاكمة . والجامعة الحقة يجب أن تبتعد عن التعصب لأن التعصب الفكرى يتناقى مع الروح الحقيقية للفكر الجامعى الموضوعى المتفتح الواعى . ان على الجامعة أن تنشد الحقيقة وعليها أن تنمى روح البحث والخلق والابتكار واكتشاف آفاق جديدة للمعرفة الانسانية » المصدر السابق ، ص ٣٥ ، « ان الوعى السياسى والدينى ضروريان أيضا لطالب الجامعة ، ولن يتسنى لطلاب الجامعة أن يخدموا وطنهم بدون أن تكون لديهم البصيرة والادراك الكافى بنظم بلدهم السياسية ومعتقدات ذويهم الدينية ... وقد تبدو هذه المهمة شاقة وعسيرة بالنسبة للجامعات العربية نظرا لما قد تتعرض له من ضغوط سياسية من جانب السلطات السياسية فى البلاد وضغوط دينية أيضا . واذا ما استسلمت الجامعة لهذه الضغوط وتشيعت لجانب معين فقدت استقلالها وشخصيتها . واصبحت بوقا للدعاية . وقد يترتب على ذلك ابتعاد الطلاب عن العمل الجامعى وانغماسهم فى الخلافات السياسية والدينية . ومثل هذا الجو يساعد على ظهور الانتهازيين والباحثين عن الامجاد الشخصية من بين الطلبة والاساتذة على السواء » ، المصدر السابق ، ص ٣٦ .

موسوعات ضخمة اشتهر بها العرب عامة والمصريون خاصة • كما نشروا تراثهم القديم بعد أن حافظوا عليه فى المساجد والبيوت • وساهموا فى دراسة اللغة وتبسيط قواعدها ، ووضع معاجم حديثة لمصطلحاتها الفنية • ونشأت لذلك المجامع اللغوية الحديثة واتحاد المجامع العربية • ودخلوا فى المعارك الفكرية والأدبية حول الشعر والأدب ، القديم والجديد ، وساهموا فى صياغة مفاهيم التقدم والنهضة • لم يكتفوا بنقل المعلومات من القدماء أو من المحدثين بل أبدعوا بعد التحصيل . وخلقوا بعد التعلم • وقد كان الابداع شيمة القدماء بعد ما نقلوا عن الغير وتعلموا منهم ثم أضافوا عليهم من اكتشافاتهم وابداعهم • فالنقل وسيلة وليس غاية ، والتعلم ما هو الا أولى مراحل الابداع •

وشرط الابداع بالنسبة للباحث العربى طالبا واستاذا ثلاث : الأول ، الوعى بتراثه القديم ، بظروفه التى كانت وراء نشأته ، وباتجاهاته المختلفة والبدائل الممكنة ، مع الوعى بظروفه الحالية والقدرة على اعادة الاختيار بين البدائل بما يحقق صالح الأمة • والثانى ، أخذ موقف من التراث الغربى ، ورده الى حدوده الطبيعية لاتساع المجال للابداع الذاتى للشعوب واكتشاف قدراتها المحلية • والثالث ، الوعى بقضايا الواقع وتحدياته الرئيسية التى فيها يصب التراثان القديم والمعاصر ، والقدرة على ايجاد حلول لها بصرف النظر عن المداخل والأطر النظرية •

٦ ــ كوادر الجامعة فى الجيش الوطنى : لقد استطاعت الجامعات تدعيم الجيوش الوطنية ومدها بكفاءات عالية ، بجنود جامعيين ، جنود قادرين على التعامل مع الاسلحة الحديثة والدخول فى أعقد الحاسبات الالكترونية ، مضافا الى ذلك الوعى النظرى الذى يكفل لهم فهم العدو ، والوقوف فى مواجهة الصهيونية استيطانا وتوسعا • وقد انتصر هؤلاء الجنود الجامعيون فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ بفضل هذا الجمع بين العلم والحرب ، بين الدراية والشجاعة • لقد كان العلم قديما وسيلة للاعفاء من الجندية • فلا يجند العلماء ، وهم أولى بالجهاد ، حتى

لا يتحول الشيخ الى مجاهد أو المجاهد الى شيخ من نوع عمر المختار أو عبد الله النديم أو جمال الدين الأفغانى أو السنوسى أو المهدى ، رجل علم وعمل ، يجمع بين القول والفعل* • وبعد ذلك أنشىء نظام ضباط الاحتياط ليتعلم الجامعيون أثناء عطلة الصيف على مدى ثلاث سنوات العلوم العسكرية ، ويتخرجون ضباطا لا جنـودا ، ينقصهم التدريب ، وينفصلون عن الجنود • وقد كان هذا النظام بالفعل أحـد أسباب هزيمة ١٩٦٧ بوضع الضباط الاحتياط كمقاتلين فى الجبهة • ثم أنشئت الأكاديمية العسكرية وأسلحة المهندسين والاطباء والصواريخ بكافة أنواعهـا على أكتاف الجامعيين ، وطوروا الاسـلحة الحديثة ، واخترعوا أخرى جديدة • لقد كان أحد أسباب ضياع الاندلس قديما الاعتماد على الجنود المرتزقة • وقد يكون أحد أسباب خسائرنا المعاصرة عدم تكوين جيوش وطنية تقوم بآداء الخدمة العسكرية كواجب وطنى بكوادروطنية وضباط وطنيين • فالجيش ليس حرفة أو مهنة بل هـو واجب مقدس للدفاع عن البلاد ولا يقوم به الا الجنود الوطنيون • [ولا يتكون من مرتزقة للدفاع عن اشخاص الحكام بل من مواطنين للدفاع عن التراب الوطنى •]

ثالثا : جامعة الامارات العربية المتحدة •

كان الهدف من عرض الاوضاع العامة فى الجامعات الأوربية ثم فى الجامعات العربية وضع الاطار الجامعى العام الذى تدخل فيه جامعة الامارات العربيـة المتحـدة التى هى موضوع هذه الدراسـة التطبيقية حول كفاءة خريجيها من ١٩٨١ ــ ١٩٨٤ • فجامعة الامارات ليست بدعا بين الجامعات • انما يسهل تصورها ووصفها بناء على هذا الاطار الجامعى العام • ما الهدف من انشائها ؟ مـاهى نوعيـة الاساتذة بها ؟ ما هو التكوين النفسى لطلابها ؟ ماهى مناهج التدريس المتبعـة فيهـا ؟ ما هى طبيعيـة الادارة الجامعيـة التى هى مركز

---

* العبارة فى الاصل : ويظل رجل الدين رجل علم يظهر فى الكلام ولا يظهر فى العمل .

اصدار القرارات فيها ؟ وهل هناك فرق بين الاهداف المعلنة والوسائل المتبعة ، بين ما ينبغى أن يكون وما هو كائن ؟

١ ــ الهدف تكوين المواطن والباحث : جامعة الامارات العربية جامعة حديثة العهد • فمنذ تأسست دولة الامــارات العربية المتحدة فى ديسمبر ١٩٧١ بدأت فكرة الجامعة بعدها بعام كجزء من التصورات العامة لمؤسسات الدولة وكأحد مقوماتها • وتقلص التصور من جامعة موحدة للخليج اعلانا عن وحدته البيئية والثقــافية والحضــارية الى جامعة موحدة ذات فروع فى مختلف دول الخليج وامراته الى جــامعة الامارات فى أكبر الامارات ولمجموع الامارات * • [فمنــذ البداية انتصرت الاقليمية على القومية ، والتصور المحلى على التصور العام] واستقبلت أول القادمين فى ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ ، وكانت أول دفعة فى ١٩٨١ ــ ١٩٨٢ وقد تحــددت أهــداف الجامعة ومهمتها الرئيسية فى القانون الاتحادى رقم (٤) لسنة ١٩٧٦ بانشاء وتنظيم جامعة الامارات العربية المتحدة ولائحته التنفيذية بناء على التفاعل مع مجتمعها وتعبيرها عن مشاكله وقضاياه والتى تتمثل فى أربعة أهداف : الأول ، تقدم المعرفة ونشرها وحسن تطبيقها • والثانى ، بث الأخلاق الفاضلة وترسيخها والتمسك بها فى السلوك • والثالث ، الاستناد الى الاسلام فى أصوله وقيمة ومبادئه وشرائعه •والرابع ، تنمية الثروة البشرية وتطوير المجتمع والمساهمة فى تقدم الأمة العربية[1] • أما الأهداف الخاصة أو الجزئية فهى خمسة : التعليم والبحث العلمى ، اعداد الكفايات من المتخصصين ،

---

(١) « أهداف الجامعة ومهماتها الرئيسية : تنطلق الجامعة من التفاعل مع مجتمعها وتهدف الى :

١ ــ تقدم المعرفة ونشرها وحسن تطبيقها .

٢ ــ بث الأخلاق الفاضلة وترسيخها والتمسك بها فى السلوك .

٣ــ الاستناد الى الاسلام فى اصوله وقيمه السامية والدعــوة الى مبادئه وشرائعه كنظام متكامل يرقى بالانسان الى أعلى المراتب ، ويحقق له الحياة الحرة الكريمة .

٤ ــ تنمية الثروة البشرية وتطوير المجتمع والمساهمة فى تقدم الامة العربية ، اضواء على جامعة الامارات العربية المتحدة ، ص ١١ ، ادارة العلاقات العامة والاسكان ، قسم الاعلام ، صوت الخليج ، الشارقة ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

* أضاف الرقيب « المكونة للدولة الحديثة » .

تنمية الدراسات المتعلقة بالحضارة العربية الاسـلامية ، العناية بالعلم الحديث ، تنمية الاتجاهات والاساليب العلمية الحديثة فى التربية والتعليم استنادا الى الأصالة وبهدف الابداع[1] • ولذلك فالجامعة هيئة علميـة مستقلة ، ذات شخصية معنوية عامة تتمتع بالحريات الأكاديمية • وهى فى بيئة عربية اسلامية لها تراثها العربى الاسلامى الذى مازال موجهـا للسلوك الاجتماعى • وهى فى نفس الوقت حضارة للفكر الانسانى وعلى اتصال بباقى مراكز البحث العلمى العربية والاجنبية[2] • واضح اذن من

---

(١) والجامعة فى سعيها لتحقيق هذه الاهداف العامة تؤكد على المهام الرئيسية التالية المترتبة عليها :

(أ) القيام بالوظائف الجامعية الرئيسية : التعـليم والبحث العلمى وخدمة المجتمع بما يكفل التنسيق بينها وتكاملها وبما يتلاءم مع حاجات البلاد ومطالب تقدمها .

(ب) اعداد الكفايات من المتخصصين ، وتنمية شخصياتهم وخصائص القيادة فيهم لتولى مهماتها فى قطاعات الانتاج المختلفة .

(جـ) تنمية الدراسات المتعلقة بالحضارة العربية الاسلامية وبأحوال شبه الجزيرة العربية والخليج العربى احياء للتراث ووصلا له بمطالب الحاضر والمستقبل ، ومعالجة لشكلاتها .

(د) العناية بالعلم الحديث منهجا ومحتوى وتطبيقا . والاعتماد عليه فى اعداد كفايات المتخصصين وفى مواجهة المشكلات بالبحث العلمى .

(هـ) تنمية الاتجاهات والاساليب العلمية المدنية فى التربية والتعليم والعمل على تنمية الشخصية الانسانية بين طلابها مستندة الى الاصالة الاسلامية العربية ، وتمكنهم من الكفاية الانتاجية والابداع والابتكار وتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات ومعاهد التعليم ومراكز البحوث العربية والاجنبية » . المصدر السابق ، ص ١١ — ١٢

(٢) « الباب الأول انشاء الجامعة وتكوينها واهدافها :

مادة (١) تنشأ فى دولة الامارات العربية المتحدة جامعة عربية اسلامية يطلق عليها « جامعة الامارات العربية المتحدة » وتكون هيئة مستقلة ذات شخصية معنوية عامة .

مادة (٢) جامعة الامارات العربية المتحدة منارة للفكر الانسانى ، ومركز رائد لتنمية الثروة البشرية ونشر الثقافة وتعميق جذورها وتطوير المجتمع مع الحفاظ على عناصره الأصلية وتجلية تراثه .

مادة (٣) أ — تعنى الجامعة بالثقافة والدراسات الجامعية فى فروع الآداب والعلوم والفنون ، وتعمل على اعداد المتخصصين والفنيين فى هذه الفروع وغيرها من نواحى المعرفة . كما تعمل على تكوين الشخصية العلمية الانسانيـة مرتكزة فى ذلك على القيم الاسـلامية والأصالة العربية والتطور العلمى .

ب — تقوم الجامعة على رعاية البحوث العلمية وتشجيعها بغية خدمة المجتمع وتحقيق التطور العلمى ، ويجوز تكليفها القيام بدراسات او بحوث معينة تحقيقا لذلك .

جـ — تولى الجامعة دراسات الحضارة العربية الاسلامية وشبه الجزيرة العربيـة والخليج العربى عناية خاصة .

د — تعمل الجامعة على توثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات ومعاهد =

أهداف الجامعة العامة والخاصة أن مهمة الجامعة ليست تخريج مدرسين أو موظفين أو مهنيين فتلك مهمة المدارس التطبيقية أو المعاهد العليا أو المدارس المهنية التى لاتقل أهمية عن الجامعات من حيث رسالتها وغايتها وتلبيتها لحاجات المجتمع • وان عدم الاعتناء بها فى العالم العربى لهو السبب فى زيادة العمالة غير المتخصصة وندرة العمالة المتخصصة • [لذلك لم تؤد الجامعة دورها ولم تحقق الهدف المنوط بها وهو تخريج مواطنين باحثين أو باحثين مواطنين بل خرجت كتبة وموظفين • بل أنها لم تخرج الكوادر الفنية اللازمة للتشييد والتصنيع ولاحتى الادارة المتخصصة • ومازال الاعتماد على الخبرة الاجنبية فى الانتاج والادارة ، وللمواطن رأس المال • ليست مهمة الجامعة اعطاء صك مرور اجتماعى للوجاهة الاجتماعية أو للادارة الحكوية بل مهمتها الأساسية تكوين المواطن والباحث ، والبداية بالمواطن لأنه لابحث بلا مواطنة • والباحث الذى لاينتمى الى وطن يكون أجيرا يسعى وراء من يدفع اكثر حتى ولو كان عدو وطنه • وان دولة حديثة مثل دولة الامارات قادرة على استدعاء كوادر عليا وعلماء متخصصين ، وتعانى من قضية ديموغرافية بالنسبة للعمالة الأجنبية التى تكون ٨٠٪ من مجموع العمالة ، ووافدين اسيويين يكونون ٦٠٪ من مجموع السكان تكون الجامعة فيها أكثر حرصا على تكوين الباحث المواطن الذى هو دعامة البناء الاجتماعى وأساس الولاء الوطنى •]

٢ — **الاساتذة علماء ذو رسالة*** : تقوم الجامعة على دعائم ثلاث : الاستاذ ، والطالب ، ومناهج التدريس • ولكى تحقق الجامعة هدفها الأول وهو تكوين المواطن والباحث فان أهم دعامة فى ذلك هو الاستاذ الذى يرجع له الفضل فى التكوين والاعداد • فالاستاذ مهندس للبشر ، وصانع للأذهان • [ليست المواصفات المطلوبة

= التعليم العليا ويجوز لها عقد اتفاقات معها لتسهيل التبادل العلمى والمساعدات بينها فى حدود ما يقع ضمن اغراضها ، القانون الاتحادى رقم (٤) لسنة ١٩٧٦ بانشاء وتنظيم جامعة الامارات العربية المتحدة ولائحته التنفيذية ، ص ٧ — ٨ .

* العبارة فى الاصل : الاساتذة علماء لا اجراء .

فى الاستاذ الجامعى هى الطاعة والولاء للادارة الجامعية لتنفيذ مخططها وتصوراتها بل اتباع ما يمليه عليه ضميره العلمى والواجب الوطنى • وان تهديد الاستاذ فى رزقه بفسخ عقده يجعل بعض الاساتذة تحت ظروف الحياة القاسية يفضل التغاضى عن الحق والتنازل عن الواجب • بل لقد غالى البعض منهم فى اظهار الولاء وأصبح ملكيا أكثر من الملك ، ويكثر من المزايدة تملقا للأذواق دفاعا عن المنصب وحرصا على الرزق وطلبا للحظوة عند أولى الأمر • ان] *الاستاذ مدرسة فكرية ورأى علمى [ووجهة نظر مستقلة •] وبتعداد الاساتذة تصبح جميع المدارس الفكرية والآراء العلمية والمناهج البحثية ممثلة امام الطلاب [بحيث يمكنهم الاختيار الحر بعد المفاضلة بينهما دون تكفير مدرسة لأخرى أو تخطئة رأى لآخر • فالاساتذة علماء لا أجراء • يقومون بواجبهم الوطنى والعلمى ، وهو تكوين المواطن والباحث • ولا رقيب عليهم الا ضميرهم العلمى وحسهم الوطنى • أما أن يكون تصور الاستاذ أنه أجير عقلى مثل الاجير اليدوى ، الوافد العربى مثل الوافد الاسيوى يحتاج الى كفيل يضمنه فى وجوده وسلوكه وتحركاته فانه فرض للوصايا على العلماء ، وهم ورثة الانبياء • وأيهما أفضل للجامعة الاستاذ الضعيف او المتوسط الخائف من الاعلان عن الرأى حتى ولو سأله طالب ، والحريص على لقمة العيش أم الاستاذ العالم الذى يقول الحق ويجاهر به حتى يكون نموذجا للطلاب فى القول والعمل ؟ وأيهما اكثر تمثلا للقيم الاسلامية فى الجهر بالحق وان الساكت عن الحق شيطان أخرس ؟ ان القضاء على استقلال العلماء منذ الغاء الأوقاف وتحويلهم الى موظفين وكتبة فى الدولة كان اكبر خسارة للعلم وللوطن على حد سواء • فقد العالم دوره وضاعت ثقة الناس فيه ولم يهابه الحكام ، وفقد الشجاعة والاحترام بينه وبين نفسه •] **

---

* العبارة فى الاصل : بل لقد غالى البعض فى اظهار الولاء بتملق تصور الجامعة لذى الادارة والمزايدة عليها دفاعا عن المنصب ، وحرصا على الرزق ، ومزايدة على اصحاب رؤوس الاموال كى ينال الحظوة .

** وضع الرقيب بدلا من هذه الفترة الطويلة المحذوفة التى تصف الواقع فى مجتمع الامارات عبارة قصيرة عامة لا تشير الى شىء وهى « وحتى يعطى الاستاذ كان من الواجب تامينه » الجامعة والمجتمع ، ص ٣١ .

٣ – **الطلاب ومواطنون أصحاب قضية*** : والطـالب هو العنصر الأساسى الثانى فى البنية الاجتماعية بعد الاستاذ وقبل مناهج التدريس والمكتبات العامة والادارة الجامعية . الطالب هو أساسا الطالب المواطن صاحب القضية ، الملتزم بموقف والذى ينتسـب الى شـعب وينتمى الى أمة ، وليس اللاشىء أو اللاوجـود ، من يأتى لمجـرد الشـهادة أو الحصول على وثيقة تأهيل اجتماعى للزواج أو للحياة المهنية العامة . وهو أيضا الطالب الباحث الذى يؤرقه موضوع يريد بحثه . تشغله فكرة ويريد التحقيق من صدقها . الطالب الجامعى هو الذى ارتضى أن يكون العلم رسالة له ، وأن يكون البحث العلمى طريقـه . وان أهم شىء فى التعلم هو الدافع أو الباعث على التعليم . فهو الذى يحرك الطالب ويجعله حريصا على العلم ومواظبا على الحضور . والعلم اختيـار حر وليس فرضا على أحد . ولايمكن أن يكون العلم رسالة للطالب دون أن يكتشف الطالب رسالته . ولا يكتشف الطالب رسالته الا بعد انتمائه الى شعب أو الى أمة أو الى وطن حتى يمكنه أن يحقق رسالته فى موقف وفى لحظة تاريخية بعينها وفى مجتمع بعينه . [اما الطالب الذى لا وطن له ولا أرض ولا ينتسب الى أمة أو الى شعب وانما يدين بالولاء الى رأس المال نقدا أو بضاعة أو الى قبيلة محكومة أو حاكمة فانه لا هوية له . رأس المال لا وطن له . والقبيلة مجرد نسب بلا أرض ، وعرف بلا دولة . وان الدراسات الانسانية اكثر من باقى فروع المعرفة لتعانى من هذا الطالب اللامنتمى المغترب فى العـالم والغريب على نفسه .]

والعلم نوع من الجهاد . والطالب عادة مـا يصارع من أجل المسكن والمأكل والملبس والمكتبة ، وبالتالى يكون التعليم مكسبا له وامتيازا لتفوقه . ينال بالجهد ، ويتطلب العرق ، ويستلزم التضحية . وقد يكون تسهيل كل شىء للطالب وتلبية كل احتياجاته عاملا سلبيا لأنه يحصل على غاية بلا وسيلة ، وينال النتيجة بلا مقدمة ، ويحصل على العلم

* العنوان فى الأصل : الطلاب مواطنون لا رعايا .

بلا جهد ، ويأكل الطعام بلا نار توقد • وقد نشأت الجامعات فقيرة فى بدايتها سواء فى العصور الوسطى فى الجامعات الأوربية أو فى العالم الاسلامى الممثل فى الجامعة الأزهرية • كان الطالب مجاورا أى مجرد قاطن بالمسجد ، يعيش على الكفاف ، ولكن يعكف ليل نهار على الكتب القديمة يقرأ ويتعلم سنوات وسنوات ، ولا سبيل أمامه لأى صعود اجتماعى الا بالعلم • فلا نسب ولا غنى ، اللهم الا المثابرة والجلد •

٤ ــ **مناهج التدريس ابداع لاتلقين** : اذا كان الاستاذ والطالب هما العنصران الرئيسيان فى الجامعة فان مناهج التدريس والحياة الجامعية والادارة هو العنصر الثالث • ويحدد القانون الاتحادى هذه المناهج بتحديده الوسائل المتبعة لتحقيق أهداف الجامعة وهى ثلاثة : التحديث أى اتباع الاساليب الحديثة فى التعليم ، التميز أى الملائمة مع خصائص المجتمع وحاجاته ، والمشاركة أى المشاركة بين الطلبة والاساتذة[1] • لذلك فان أسوأ ما يضر بالتعليم الجامعى هى طرق التلقين والكتاب المقرر والمذكرات المطبوعة والمحفوظة • فالاستاذ يبغى اضعف الايمان ، يريد السلامة لنفسه ، ابقاء على وظيفته • والطالب لا يتحمس لشىء ، يريد المعلومات ليحفظها وينقلها ويضعها بدوره فى الامتحان ثم ينساها ويخرج من الجامعة كما دخل •

كما تعتمد مناهج التدريس أساسا على النقد الفكرى والاجتماعى وعلى عدم التسليم بشىء على أنه حق ان لم يثبت بالبرهان أنه كذلك • فالعقل هو أعدل الاشياء قسمة بين الناس • ليست مهمة الاستاذ المزايدة

---

(١) « والجامعة فى سعيها لتحقيق هذه الاهداف العامة والمهمات الرئيسية تؤكد على الاتجاهات العامة فى اساليبها :

١ ــ **التحديث** : باتباع الاساليب الحديثة فى التنظيم والتخطيط وفى الطرائق والاساليب والوسائل التعليمية .

٢ ــ **التميز** : بالتاكيد على الملائمة مع خصائص المجتمع وحاجاته .

٣ ــ **المشاركة** : اعتماد مبدا المشاركة بين الطلبة واعضاء هيئة التدريس والعاملين بالجامعة » . انسواء على جامعة الامارات العربية المتحدة ، ص ١٢ ، وايضا الدليل الدراسى العام ، ص ١٢ ، ١٤٠٢ ــ ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٢ ــ ١٩٨٣ م .

فى الايمان بالتقاليد والدفاع عنها لأن الجامعة أساسا هو طرح الاسئلة ونقد الواقع • ان دور الجامعة هو تفتيح العقول ، وتنشيط الأذهان • ومهمة الاستاذ تفتيح الموضوعات ، واثارة التساؤلات ، وايجاد البدائل ، وتحويل اليقين الخارجى الى يقين داخلى ، اليقين النقلى الى يقين عقلى • وهذا ما يتطلب الانفتاح على ثقافات العصر كلها بلا تميز أو حكم مسبق ، وعدم الخوف من أى مذهب أو اتجاه أو منهج • فعلم ثابت يقينى برهانى خير من علم مزعزع يقوم على الخوف والحكم المسبق والتعصب[1] •

ونظام المساقات نظام أمريكى صرف ، الغاية منه الاسراع فى التعليم واعطاء العلم بالساعات نقلا للمعلومات • وهو نظام مكلف يتطلب أن يحاضر أكثر من أستاذ فى موضوع واحد وهو ما يستحيل عمليا نظرا لنقص أعضاء هيئة التدريس • ويقوم على الابحاث المستمرة والعروض الاسبوعية ، وهو ما لا يتوافر بمنهج النقل • بل ان ميزته الوحيدة وهى حرية الطالب فى الاختيار تتقلص بسوء الارشاد • [وليس عجبا ان ينقل نظام الساعات المعتمدة فى جامعات الخليج كلها حيث تتركز المصالح الأمريكية[2] •]

---

(١) الانفتاح على الآخرين احد سمات الجامعة ، فكما درست العلوم العربية طيلة العصور الوسطى فى الجامعات الاوربية فلماذا لا ندرس كل شىء الآن ! « التعليم الجامعى المعاصر ، ص ٧ » ، « والجامعة ايضا تربى طلابها على حب الخير والانسانية وعدم التعصب الاعمى » ، المصدر السابق ، ص ٣١ .

(٢) جامعات الخليج ثلاث عشرة جامعة ، سبعة فى السعودية ، وثلاثة فى البحرين ، وواحدة فى كل من الكويت وقطر والامارات . وهى بحسب تاريخها كالآتى :

١ ـ جامعة الملك سعود (الرياض) ١٩٥٧ .
٢ ـ الجامعة الاسلامية (المدينة المنورة) ١٩٦٠ .
٣ ـ جامعة البترول والمعادن (الظهران) ١٩٦٣ .
٤ ـ جامعة الملك عبد العزيز (جدة) ١٩٦٦ .
٥ ـ جامعة الكويت (الكويت) ١٩٦٦
٦ ـ كلية الخليج التكنولوجية (البحرين) ١٩٦٨ .
٧ ـ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية (الرياض) ١٩٧٤ .
٨ ـ جامعة الملك فيصل (الاحساء) ١٩٧٧ .
٩ ـ جامعة الامارات العربية المتحدة (العين) ١٩٧٧ .
١٠ـ جامعة قطر (الدوحة) ١٩٧٧ .
١١ـ الكلية الجامعية للعلوم والآداب والتربية (البحرين) ١٩٧٨ .
١٢ـ جامعة الخليج العربى (البحرين) ١٩٨٠ .

ومادامت الجامعة تعبيرا عن بيئة معينة فان المواد التى تدرس بها لا تنقل من جـامعة أو من بيئة أخـرى بل تنبع من طبيعـة المجتمع وخصوصيته • وهو ما سمى فى اللائحة باسم « التميز » • وذلك يعنى ارتباط مواد التدريس بالمشروع القومى للبلاد حتى يتحمس لها الباحث المواطن بدلا من هذا الانقطاع النفسى والفصام الوجدانى عما يقدم له من مساقات مجتثة الجذور • ان تاريخ البلاد وجغرافيتها ومواردها وسكانها ولغتها وثقافتها وانماط انتاجها وسياستها تفرض عليها مشروعا قوميا خاصا يأخذ كل هذه العوامل فى الاعتبار • ويبدو ذلك فى موضوعات رئيسية مثل الاستعمار البرتغالى ، الصراع بين الاستعمار الهولندى والبريطانى وحسمه لصالح بريطانيا ، الاقتصاد الذى يقوم على مورد واحد (أبو ظبى تمثل ٨٦٪ من مساحة الدولة وتعتمد فى ٩٨٪ من ايرادتها على النفط) ، البيئة الصحراويـة والبحريـة كمصدر لموارد بديلة فى عصر ما بعد النفط ، الزراعة والصناعة كأنماط انتاج بديلة ، هندسة التعدين والصناعات البتروكيماوية •• الخ • ويمكن صياغة مشروع قومى يتمحور حول عدة موضوعات واتجاهات رئيسية مثل :

١ ــ ماذا تعنى الدولة الحديثة والبحث عن أصل تاريخى لها • فلا توجد أمة بلا عمق تاريخى •

٢ ــ السكان والشعب ومفاهيم الوطن والأمة التى من خلالها يتم تربية المواطن على الانتماء والولاء •

٣ ــ اللغة والثقافـة والآداب الوطنية التى تحمى المواطن من التغريب وتجعله قادرا على الابداع الذاتى •

٤ ــ الدخل القومى ومصادره ، وعائدات النفط ، مكانها وطرق استغلالها وتحويلها الى مشاريع منتجة داخل البلاد دون بقائها كأرصدة خارجها •

١٣ــ جامعة أم القرى (مكة) ١٩٨٠ •
(ويمكن اضافة جامعة السلطان قابوس بعمان) •

٥ ــ انماط الانتاج الأخرى كالزراعة والصناعة لايجاد موارد بديلة فى مرحلة ما بعد النفط ٠

٦ ــ أشكال الوحدة فى الدولة الجديدة ومجلس التعاون الخليجى والبحث عن فلسفة للوحدة توجد فى التوحيد فى التراث القومى للبلاد ٠

٧ ــ الدولة الجديدة فى خضم الصراع بين القوى السياسية الكبرى وتحديد مكان الخطر ومواطنه : شرق آسيا ، شمال غرب آسيا ، أو أوربا الغربية وأمريكا ٠

٨ ــ مسار التغير الاجتماعى ومنطلقاته وقواه ، تعريب السكان ، وتحويلهم الى مواطنين ، ورعاية الخريجين وتكوين الجمعيات الثقافية من أجل تكوين طبقة متوسطة تربط بين الحاكم والمحكوم ٠

٩ ــ تحديد المرحلة التاريخية التى يمر بها المجتمع بالنسبة للمرحلتين السابقة واللاحقة ٠

هذا المشروع القومى المقترح أو غيره ليس فقط أساس صياغة المساقات الجامعية بل هو الذى يحدد رؤية الدولة لحضرها ومستقبلها ٠ وعلى هذا النحو لاينشأ صراع بين مطالب الجامعة وأهدافها من ناحية وبين رؤية الدولة لها ٠

٥ ــ الحياة الجامعية بين الأصالة والمعاصرة* : أن الحياة الجامعية كعيشة مشتركة بين الاساتذة والطلاب لاتقل أهمية عن المواد المقررة والمساقات العامة أو التخصصية ٠ وقد يتعلم الطالب من النشاط الجامعى العام ، من الجمعيات العلمية والثقافية ومن المناقشات الحرة فى الحرم الجامعى اكثر مما يتعلم من المساق ٠ فالنشاط الجامعى حر فى حين أن المساق مفروض عليه ٠ الجامعة أساسا هى الجماعة أى الحياة المشتركة ، الجمع من الناس كما هو الحال فى الجامع أو المسجد ٠ والكلية أصلا هى القراءة المشتركة أو القوة الناتجة عن اشتراك الاساتذة

* العنوان فى الأصل : الحياة الجامعية بين المحافظة والتحرر ٠

والطلاب فى نشاط مشترك[1] • صحيح أن الحياة الجامعية تحتاج حتى ترسى تقاليدها الى وقت طويل • ومع ذلك فالبداية بها جزء من العملية التعليمية[2] • والتقاليد يبدؤها أفراد أو جمعيات ثم تستمر من خلال الممارسة وتصبح كذلك مثل قسم الجامعة تعبيرا عن الولاء لها • والأغانى المميزة للجمعيات والأقسام ، وجرائد الحائط ، والمناقشات العامة ، والموائد المستديرة ، والرأى والرأى الآخر ليس فقط فى موضوعات عامة تهم الآخرين بل فى موضوعات خاصة تهم الفرد • وان « ساعة القهوة » فى جامعة هارفارد الاسبوعية أصبحت أشهر من مساقاتها الرسمية حيث يهرع اليها كل الطلاب والأساتذة لسماع الحوار الاسبوعى • وان « المنبر الاسبوعى » الذى يعقد فى كل قسم فى الجامعات الامريكية حيث يعقد فيه الحوار بين الاساتذة والطلاب لأنفع للجميع من الساعات المعتمدة • وقد كان فى تاريخنا سوق عكاظ يقوم بنفس الدور فى الشعر •

والحقيقة أن جامعة الامارات تأخذ على عاتقها هدفا حضاريا جليلا ألا وهو المحافظة على القيم والتراث ولكن دون تحديد المنهج وترك ذلك للعلماء[3] • والسؤال الآن : هل يكون ذلك بالتلقين والحجر على حرية البحث والتعصب والحنق والغضب والكراهية والعداء أم

---

(١) يعنى اصطلاح Universitas اولا اتحاد اقوى الاسر فى المدينة لممارسة السلطة . ثم اصبح يعنى اجتماع الاساتذة والطلاب فى مقابل Guilds الذى يشير الى الاتحاد الصناعى أو الحرفى . اما اصطلاح College فمشتق من فعل Colegio اى القراءة المشتركة . وقد كانت تعنى اولا فى القرن الثانى عشر الحرفة الواحدة ثم اطلقت فى القرن الثالث عشر فى اكسفور على الطلبة . أما لفظ Faculty فهو مشتق من Facultas الذى يعنى القوة . أطلق اولا على أساتذة الآداب الذين كانوا ينتقلون من جامعة الى جامعة وينضمون الى الاتحاد . وكان رئيس الجامعة Rector منتخبا . اما المستشار .Chancellor فقد كان يمثل الكنيسة ، ويجرى الامتحانات ويمنح الدرجات العلمية ، التعليم الجامعى المعاصر ، ص ١٠ — ١١ .

(٢) « الجامعة الحقيقية لا تقوم بين عشية وضحاها ... بل تقتضى عملا يمتد عشرات السنين » ، لجنة الخبراء الاستشاريين لجامعة الملك عبد العزيز الاهلية ، جدة ١٩٦٦ ، نقلا عن الاصلاح الجامعى ، ص ٣ .

(٣) ان جامعة الامارات العربية تأخذ على عاتقها هدفا دينيا جليلا دون أن تحدد الطريقة الموصلة اليها اما أ — الجدل والاستقصاء فى النظريات الاسلامية فى السياسة والاقتصاد ب — التلقين والحجر على حرية البحث . « وبهذا تتنازل عن مبرر وجودها الاساسى فتفقد ولاء

بالبحث والنظر والاستقصاء والحوار ، وهو تقليد علمائنا الأجلاء في الماضي ؟ وهل اليقين نقلي أم عقلي ، يعتمد على سلطة النقل أم على سلطة العقل ؟ وهل مهمة الجامعة نقل كل علم حديث أم الوعي بالتيارات العاصرة والدراية بمشاكل الواقع ومعرفة قواعد المنهج العلمي ؟ [1]] واذا كان نموذج جامعة الكويت هو النموذج الأول الذي أنشئت عليه جامعة الامارات فان هذا النموذج يعتمد على الضمانات الكافية لحرية الفكر وعلى أن الجامعة هي أساسا مشروع وطني سياسي قبل أن تكون معهدا فنيا • وعلى هذا النحو يمكن للجامعة أن تخرج عن عزلتها وغربتها عن مجتمعها[2] •]

طلابها واعراضهم عنها والتماس التعبير عن ذواتهم فى تنظيمات اجتماعية غير جامعية كالاحزاب السياسية أو الدينية السرى منها والعلنى . وبهذا تبوء الجامعة بخسران مبين ، وتبرهن على عجزها عن أن تكون مرجعا روحيا لطلابها . وقد يقع شىء آخر لم يحسب له حساب فتقود عملية التلقين الى تخريج وعاة دينيين لا سبيل الى التوثق مما يدعو اليه « الاصلاح الجامعى » ص ١٧ — ١٨ ، « اذا كانت الجامعة الدينية ترى ان واجبها يتجسد فى التسليم بصواب ما وضعه السلف من الصيغ الادراكية والتفسيرية للميراث الدينى فان الجامعة العلمية لاتقر بهذا التسليم وهى تشرطه بموافقته للعقل . واذا كان السند أو الرواية أداة الجامعة الدينية فى اثبات الصواب لمــا تنقل عن السلف وتبشر به فان البرهان هو اداة الجامعة العلمية فى اثبات الاصابة والصلاح لما تقول به وتدعو اليه . وبين التوجهين فى النظر الى الحق شأو بعيد ، والجمع بين المنهجين فى التعامل صعب ان لم يكن متعذرا » المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(٢) كان مكتوبا على المدرسة التى أختيرت كمبنى لجامعة الامارات « لقد أثبت العلم الحديث فساد نظرية دارون فى التطور وبطلانها » ، المصدر السابق ، ص ٦٥ ، « من ضمن اهداف جامعةالامارات ربط المجتمع بالتيارات الحضارية المعاصرة واشاعة الفكير العلمى » ، المصدر السابق ، ص ٦٦ ، وان تسييس الجامعة من ضمن أهدافها . فدور الجامعة « اثارة الوعى بمشاكل الواقع » ، المصدر السابق ، ص ٤٠ — ٤١ .

(٢) « لو ان مشروع جامعة الخليج بالكويت جاء فنيا لقبل ولكنه جاء وطنيا سياسيا » ، الاصلاح الجامعى ، ص ٦١ — ٦٢ ، « الدافع لانشاء جامعة الكويت دافع سياسى » ، المصدر السابق ، ص ٦٨ ، « نقد اسقطت الدولة مخاوفها من الجامعة ، وانحازت فى علاقتها بهــا من الريبة الى الثقة اطمئنانا منها الى أن الحرية هى خير وقاية من التآمر السياسى » . ولم تخيب الجامعة ظن الدولة بها خلال ثمانية عشر عاما فبقيت صرحا آمنا للفكر ... سياسيا كان أم غير سياسى ... فهناك باب يظل مفتوحا بين الجامعة والسلطان السياسى الذى تعيش فى ظله . من هذا الباب يمكن النفاذ الى الاتفاق والتفاهم بين الطرفين على التفريق بين التآمر السيئى والتفكير السياسى » ، المصدر السابق ص ٢٤٥ ، « نشفق على الجامعات الخليجية من غربتها فى مجتمعها غربة تجعلها عرضة لاحتمالات التهمة الظالمة لها والظن السىء بهــا والاجتراء فى التقول عليها اذا لم توفر لها الحصانات الضامنة لأمنها وحريتها » المصدر السابق ، ص ٥١ — ٥٢ .

٦ — **الادارة الجامعية للجامعيين*** : ان الادارة الجامعيـــة هى الحامل لتصور الجامعة ، والمحرك لها ، والمنفذ لسياساتها • [وان اسمى الأهداف لتنقلب الى ضدها لسوء الادارة وغياب ولائها للجامعة ، وان أسوء ادارة هى التى يتغلب فيهـا الولاء الايديولوجى على الولاء الجامعى • ففى هذه الحالة تنتهى الجامعة ، وتنتهى الايديولوجية معا • فالولاء الايديولوجى المستنير لا ينتشر الا فى جو جامعى صحيح بالاقناع والحوار • والولاء الجامعى هو فى حقيقة الامر تأسيس لايديولوجيه وطنية تقوم على البحث العلمى والحوار الحر والنقاش المفتوح] ** •

[ولقد مرت على جامعة الامارات ثلاث ادارات تعطى الأولوية كلها للولاء الايديولوجى على اختلاف اتجاهاته على الولاء الجامعى • كانت الادارة الأولى قومية • ظهر ولاؤها الايديولوجى فى اختيار الاداريين ابتداء من مدير الجامعة حتى موظفيها • وانعكس ذلك على الاساتذة والطلاب ومناهج التدريس والحياة الجامعية • ونظرا لخطورة الولاء القومى على الكيانات الصغيرة المستقلة وعلى الدول الحـديثة اتت الادارة الثانية اسلامية • فالاسلام تدعيم للكيان الجديد وفى نفس الوقت أمان من الذوبان فى أممية أوسع • فالوحدة الاســلامية أصعب منالا وأصعب تحقيقا من الوحدة العربية • وانعكس ذلك أيضا على

---

* العنوان فى الأصل : الادارة الجامعية لا الايديولوجية .

** استبدلت بهذه الفقرة المحذوفة فقرة أخرى من وضع الرقيب وهى « ولا شك أن ولاء الادارة للمجتمع الذى تقوم فيه الجامعة ضرورة أولى تتقدم ما عداها ، وذلك لان الولاء الجامعى هو فى حقيقة الأمر تأسيس لايديولوجية وطنية تقوم على البحث العلمى والحوار الحر والنقاش المفتوح بهدف تأصيل هذا الانتماء وتجسيده أمام الهيئة التدريســية والعاملين على اختلاف جنسياتهم وعرقياتهم وبما يعود على الطلاب من نفع وفائدة . كلما ترسخت القيم الجامعية ولم يعلق بها شوائب كلما كان المسار صحيحا ، وتحققت الاهداف التى من أجلها وجدت هذه الجامعة فى هذا المجتمع الذى وطد العزم على الأخذ بالاسلوب العلمى وكان نبراسه تنمية شاملة بشرية وغير بشرية يحوطه سياج من الدين الاسلامى يحميه ولا يهدده أو يبـدد طاقاته ، ويصد عنه التقلبات ويحافظ على كينونته ويؤكد على ديمومته حتى يتمكن أبناء هـذا الوطن من الامساك بأموره وتولى شؤونه عن أدراك ووعى بعد أن يكونوا قد تسلحوا بالعلم ووجد منهم الكوادر القادرة المهيأة للقيام بهذه المهمات بعد مرورها بالخبرة العلمية الكافية والتجربة التى تمكنها من أن تحسن الاداء . وبذلك تتحقق مقولة تنمو رئيس الدولة « ثروة الرجال لا ثروة المال » الجامعة والمجتمع ، ٣٧ .

الادارة والاساتذة والطلاب والمناهج والقررات . ولما كان الاسلام المحافظ هو السائد حاليا ويتمتع برصيد ضخم عند الناس نظرا لفشل الحركات العلمانية للتحديث فى مجتمعاتنا المعاصرة ، وفى نفس الوقت تمتد جذوره الى الف عام فقد دخل فى صراع مع المنهج الجامعى الذى يقوم على البحث الحر ومناقشة الآراء ، الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان بالاعتماد على سلطة العقل وحدة . وقد وصل الصراع الى حد تكفير كل اجتهاد واستبعاد كل رأى لايتفق مع الاسلام المحافظ ، والتفتيش فى الضمائر ، وجعل قضية الحجاب والاختلاط قضيـــة محورية يصنف الناس طبقا لها الى مؤمن وكافر ! وجاءت الادارة الثالثة اقليمية فى تصورها تبغى دورا متواضعا للجامعة ، ولاتخرج بها عن اطار المهنة التعليمية أو التحديث الغربى . والحقيقة أن الادارة الجامعية يكون ولاؤها الأول والأخير للجامعة بصرف النظر على الولاء الايديولوجى . وان كان هناك مثل هذا الولاء الأخير فانه يكون بالدرجة الثانية لا بالدرجة الأولى . ويكشف عنه صراحة ، ويعرض على بساط البحث ، ويدخل فى حوار متكافىء مع باقى التيارات والمذاهب . فالجامعة للجامعيين ، ادارة وموضوعا ومنهجا .] *

وقد تبدو حدود الادارة الجامعية ومواطن ضعفها فى مظاهر أخرى

---

* استبدلت بهذه الفترة الخاصة فترة أخرى عامة هى « وقد تولى زمام الأمور فى الجامعة ثلاثة مديرين منذ انشائها رغم عمرها الزمنى القصير ، قدموا ما استطاعوا ، وحاولوا تقديم ما يمكنهم وان كان لكل منهم منهجه وأسلوبه فى الادارة ولكل توجهاته ولكل معاونيه بل لا نجاوز الحقيقة اذا قلنا أنه كان لكل منهم ترشيحاته لاتجاهات معينة وصل بعضها الى حد الفرض رغم أن الهدف الأول المفترض أن يكون هو الولاء والانتماء للمجتمع الذى توجد فيه هذه الجامعة والذى لن يتأتى الا بترسيخ وزرع القيم الجامعية الأكاديمية الصحيحة والمتعارف عليها بغض النظر عن جنسية هذه الادارة أو تلك ، وتمهد هذه القيم وضمان استمراريتها أمن وأمان لعضو الهيئة التدريسية والعاملين فى مختلف المواقع الادارية فى الجامعة ، ومثل صالح للطالب الجامعى يحتذى به ولا يجعله يحس بانه يتخبط أو يتعرض لهزات ووساوس واشاعات واقاويل الكثير منها غير صحيح ويصل الى المسامع محرفا لأن النور خافت باهت ، والغموض يكتنف الكثير من الجوانب ، والقرارات غير واضحة . وقد يحلو لبعض المعاونين التعتيم الذى هو ليس فى صالح مجتمع الجامعة بكلياتها المختلفة الأمر الذى يؤدى الى الهمس . والخوف كل الخوف من أن هذا الهمس سلبى فى كل جوانبه ويؤدى الى الظنون ، وبعض الظن اثم ؛ ونهايته انعكاس بالسلب على الاساتذة والطلاب ومناهج التدريس والحياة الجامعية بصـــفة عامة » ، الجامعة والمجتمع ص ٣٧ — ٣٨ .

يلمسها الجميع مثل العمـالة الزائدة التى تتخللهـا بعض التوترات الاقليمية ، [وأوجه الانفاق التى تسرف فى نشاطات رياضية واحتفالية وتقتر فى نشاطات علمية وبحثية . كما يتم انجاز الأمور فى آخر اللحظات دون اعداد مسبق وحسن استعمال الزمن . كما تبدو فى الادارة بعض مظاهر العداء للاساتذة كمنافسـين لهم على بعض المصالح أو الذين تنعكس عليهم كذلك بعض الولاءلت الاقليمية . وقد يتجه بعض الموظفين الى تملق الادارة العليا حرصا على بعض المكاسب الشخصية أو أداء لخدمات غير جامعية . وكثيرا ما تصدر الادارة قراراتهـا بطريقـة الاتصالات الشخصية والضغوط الادبية اكثر منها بناء على قوانين ونظم جامعية . فالوحدة الأولى فى الجامعة هو القسم ، يتلوه مجلس الكلية ، ثم مجلس الجامعة . واحترام القرارات الجامعية بنـاء على تدرج المجالس جزء من التقاليد الديموقراطية فى الجامعة . والقرار الفوقى انما يعبر فى حقيقة الأمر عن بنيه المجتمع السلطوى اكثر مما يعبر عن مصالح الجامعة]*

---

* استبدلت بهذه الفقرة فقرة خطابية طويلة أخرى هى « يقابلها قصور فى مواقع أخرى هى بحاجة الى هذه العمالة ، وبغياب التنسيق والتخطيط يحدث الخلل وعدم الاستقرار كذلك نجد أوجه الانفاق باسراف فى نشاطات رياضية واحتفالية مظهرية يقابلها تقييد فى نشـاطات علمية وبحثية . ومظهر ثالث لقصور الادارة هو انجاز الأمور فى آخر اللحظات دون اعداد مسبق أو دراسة متأنية وحسن استعمال الزمن . كما تبدو فى الادارة بعض مظاهر العـداء لقطاع من الاساتذة كمنافسين لهم على بعض المصـالح أو الذين تنعكس عليهم كذلك بعض الولاءات الاقليمية . وقد يتجه البعض من الموظفين الى تملق الادارة العليا حرصا على بعض المكاسب الشخصية أو أداء لخدمات غير جامعية وفى بعض الاحيان قد تصدر الادارة قراراتها بطريقة الاتصالات الشخصية والضغوط الادبية أكثر منها بناء على قوانين ونظم جامعية .

ومن هنا فان الادارة الجامعية الموضوعية والتى تهمها المصلحة العامة والتى تضع مصلحة الوطن فوق كل اعتبار والتى تنأى بنفسـها عن الذاتية والمصالح الشخصية عن الادارة التى تضع فى اعتبارها الأول ان الوحدة الأولى فى بناء الجامعة وجسمها هو (مجلس القسم) فعلا وعملا قولا ومظهرا ، يتلوه (مجلس الكلية) ثم مجلس الجامعـة ولجـانه المتخصصة وهى الادارة التى تحترم القرارات الجامعية بناء على تدرج المجالس وان هذا الاحترام جزء أصيل من التقاليد الديمقراطية فى الجامعة وأساس صالح للسير فى الطريق السوى ، وان البعد ما أمكن عن القرارات الفوقية تكون دائما فى صالح الجامعة ومسيرتها الصحيحة لتحقيق الاهداف المبتغاة . ان بناء اللوائح الداخلية لكل كلية من كليات الجامعة ضرورة لاغنى عنها تحدد فيهـا الواجبـات والحقـوق وأسـلوب العمـل السليم ، ويكون كل عامل على اختلاف تخصصة سواء أكان عضو هيئة تدريس أو ادارى أو فنى ايا كان موقعه على بينة بنظام العمل عارفا بحدوده فلا يتخطاها ، ملتزما بقوانين الجامعة ونظمها . وليست العبرة بوجود هذه =

هذه افكار الثلاثة عن الجامعة الأوربيـــة ، والجامعات العربية ، وجامعة الامارات بمثابة أفكار رئيسية لخدمة البحث الميدانى • وهى مجرد افتراضات نظرية تعتمد على شواهد تاريخية قد يتم التحقق من صحة بعضها بعد تحليل البيانات • قد يكون البعض منها بعيدا عن ايجاد صلة مباشرة بينه وبين الكفاية الانتاجية لخريجى الجامعة ودورهم فى المجتمع • ولكن قراءات البيانات والتعمق فى نتائج التحليلات قد تؤيد بعض هذه الافتراضات الأوليـــة • فالجامعة قبل أن تكون مؤسسة تعليمية هى تصور وهدف وممارسة • وان صعب ايجاد علاقة مباشرة بين هذا الاطار النظرى والبحث الميدانى المحدد وباستمارة استطلاع الرأى ونوعية اسئلتها فان هذا الاطار النظرى يكون بمثابة مرآة تعكس الاوضاع العامة فى جامعة الامارات • وبالتالى يمكن قياس المسافة بين هذا الاطار النظرى وبين جامعة الامارات ، بين ماينبغى أن يكون وما هو كائن •

= اللوائح فقط بل بالممارسة الواعية والمدركة بغير تعصب بما يضمن انسيابية العمل فى سهولة ويسر ، وبحيث لا تكون هناك هزات او عقبات على الطريق ، وبما يدفع المسيرة نحو الاتجاه الصحيح ، ويؤدى الى استقرارية الاوضاع الجامعية فى تعاون وتكامل . وفى اعتقادنا ان فرصة مراجعة عمليات التطوير لايجب ان تكون قاصرة على المناهج الدراسية فحسب بل هى مراجعة شاملة لكافة النواحى أكاديمية وادارية ومعاونة ، وقفة نلتقط فيها الانفاس ، ونعيد تقييم حساباتنا نحو غد مشرق اتجاها صـــوب الافضل دائما ، الجامعة والمجتمع ، ص ٣٨ — ٣٩ .

ويبد أن الرقيب قد تدخل فى الخاتمة وغير المقصد من البحث كله وذلك عن طريق عـــدم الاشارة الى اى واقع والاقتصار على الكلمات العامة الفضفاضة التى تقول كل شىء ولا شىء وهو عكس ما قصده قدماء الاصوليين بتحقيق المناط وتخريج المناط وتنقيح المناط فى مباحث العلة . فلا نص بدون دافع ، ولا خطاب بدون عالم ، ولا كلمات بدون أشياء . ومع ذلك فات على الرقيب الشىء الكثير ! ويبد ايضا عدم اتساق الرقيب مع نفسه وعدم التزامه بمبدأ واحـــد وبعقلية واضحة منشقة يحذف ويزيد تبعا للهوى والمزاج واللحظة والعبـــارة فيترك مثلا التوحيد بين الله والعالم عند الفلاسفة الالمان ، وتحول دور العبادة الى جامعات . فالتخلف ليس فقط فى دور الرقيب بل أيضا فى ممارسة الرقابة على نحو عشوائى وغياب مقاييس منسقة مثل الدين أو السياسة . وقد تدخل الرقيب فى الخاتمة التى تبين مقصد البحث كله .

(أ) المستور والمفضوح :

ان أهم مكون فى حياتنا اليومية هى القوالب الشعورية التى نفكر من خلالها ونسلك طبقا لها • وان أى تقدم نعمل على تحقيقه لا يتأتى الا بتحليل هذه القوالب وعرضها على بساط البحث ومعرفة أيها أصلح للتقدم فتبقيه وأيهما ضار فتستبعده • والبحث عن هذه القوالب هو جزء من بناء الثقافة الوطنية التى مازالت غائبة عن وجداننا مع أنها هى حامل نظرياتنا السياسية وأساس تكويننا الأيديولوجى •

وهنام قالبان يعيشان فى شعورنا ، يحددان تفكيرنا ، ويوجهان سلوكنا ، وهما « المستور والمفضوح » وأعنى بالمستور نطاق الخفاء ، ومنطقة المحرمات • نصب فيه كل ما نخشى الحديث عنه ، وكل ما نخشى أن يسمعنا الناس فيه • وهو غالبا مستور اجتماعى وسياسى فى صورة سلوك نعيشه ولكن لاترضى عنه القيم الاجتماعية السـائدة أو احكام ورؤى لا تتفق والاوضاع السياسية القائمة • ويظل المستور خافتا يحركنا ويدفعنا • الكل يعلم بوجوده ولا أحد يعلن عنه • ويكون أشبه بالتنظيم السرى ولكن على مستوى الوجدان • لذلك تسرى الشائعات ، وتكثر الهمسات ، ونرهف السمع ، ونطرق الآذان عسى أن نتلمس حركة المستور ثم يحدث فجأة أن يتحول المستور الى مفضوح ، وينكشف الأمر ، وينزاح الستار ، ويسقط الحجاب ، فتحدث الفرقعة فى قيمنا ، والدهشة فى حياتنا ، وينقلب التنظيم السرى الشعورى الى أفعال فاضحة علنيـة • فمن التكفير والهجـرة الى قتل الدكتور الذهبى ، ومن صمت الوفد على مدى ربـع قرن الى خطاب فـؤاد سراج الدين فى نقابة المحامين ، ومن انسحاب اسرائيل من مصر فى ١٩٥٦ الى معرفتنا

كتب هذا المقال ابان صدور « الاهالى » الاولى ١٩٧٨ . وبعد فتور « الاهالى » من أمثال هذه المقالات وعدم نشرها بانتظام توقفت . فاعادة بناء الثقافة الوطنية فى حاجة الى حزب يبدأ منها ولا يبدأ من الثقافة الغربية حتى ولو كانت منتقاة من أيديولوجياتها ومذاهبها التقدمية . وهذه صياغة كتبت فى خريف ١٩٨٧ من تلك العناصر الاولى دون أدنى تغيير .

بعدم انسحابها من مضايق تيران فى ١٩٦٧ ، ومن عدم السماح بمقالات صحفى مشهور الى الرد عليه فجأة وكأنه قد بعث من جديد • ومن يدرى ماذا يخبىء المستور لنا ؟ وكلنا نترقب ماذا سنسمع ونرى فى القريب العاجل فننتقل من النقيض الى النقيض ، وكأن مصير المستور بالضرورة أن يتحول الى مفضوح ، وأن الذى نحاول استرقاق سمعه الآن يصبح علنا مذاعا فيما بعد •

وأحيانا نعيش القضية معكوسة فنبدأ بالمفضوح فيرهبنا لحظة ثم يتحول الى مستور حتى لا نخشاه • فكثيرا ما تنشر صحافتنا اخبارا مثيرة عن وقائع شاذة نسمع بها يوما ما ثم تختفى بعد ذلك ولا نتابعها بعد أن تهوى فى بحر المستور ، وتستقر فى قرار مكين خاصة اذا كانت الوقائع تخص بعضا من عليه القوم أو تمس الوضع القائم كما حظرنا الرسول من التستر على جرائم الشرفاء وفضح الفقراء ! وننسى المفضوح فى خضم الحياة • وما اكثر الوقائع الفاضحة التى تحولت فيما بعد الى تيار المستور خاصة فيما يتعلق بسرقات المال العام والاعلان عنها يوما ثم نسيانها فى اليوم التالى ، ومثل حوادث الطريق الناشئة عن الاهمال ، وانهيار المنازل الآيلة للسقوط ، وسقوط العشرات من الضحايا •

وهكذا ننقلب مرة من الداخل الى الخارج ، ومرة من الخارج الى الداخل ، مرة من السر الى العلن ، ومرة من العلن الى السر ، مرة من المستور الى المفضوح ، ومرة من المفضوح الى المستور • تعودنا على هذا الانتقال المزدوج حتى أصبح شيئا عاديا فى حياتنا اليومية • وهو وضع وجدانى شاذ لأنه يفقدنا توازننا الفكرى واستقرارنا الوجدانى ، ويسبب لنا القلق فى حياتنا الاجتماعية والاضطراب فى حياتنا السياسية • ولا نعلم بعد ذلك ما نسبة الاشاعة الى الحقيقة ، وما نسبة الكذب الى الصدق •

لذلك فان علينا مهمة اعادة التوازن لوجداننا القومى ، والقضاء على هذا التذبذب بين النقيضين ، من نقيض الى نقيض ، واكتشاف

مقولة ثالثة نعيد بناء حياتنا الوجدانية ، وهى مقولة « المكشوف » أو « الواضح » . فلا حياء فى الدين ، وبالتالى يمكن عرض كل ما يحدث لنا من مشاكل بلا خوف ، والحديث عن كل ما يعنى لنا فى حياتنا بلا خشية . فلا نتحرج من الاعلان عن فضيحة ، ولا نتستر على الفضيحة اذا وقعت . وبالتالى نقضى على سريان الشائعات فى حياتنا ، ويصدقنا الناس ، ونوحد بين مافى قلوبنا وبين ما على لساننا ، ونجمع بين ما نشعر به وما نفكر فيه ، فتكف الهمهمات ، ونعيد الوحدة الى شخصيتنا الوطنية .

(ب) المحرمات الثلاث !

لن نتقدم الا اذا ناضل فكرنا القومى وتحددت معالمه وتأسس بنيانه ، وكان معبرا عن شخصيتنا القومية ، ومطورا لها . ولن نقضى على التخلف ومظاهره فى حياتنا العامة وسلوكنا اليومى الا اذا قضينا على جميع الدوائر المغلقة فى فكرنا القومى التى تركناها حتى الآن تفعل فينا وتؤثر علينا والتى ورثناها منذ تخلفنا الاخير فى القرون السبعة الماضية . وهى الدوائر التى لا يستطيع أحد الاقتراب منها أو الحديث عنها أو تناولها بالبحث أو التحليل ، بل نغلفها ، ونخفيها ، ونتستر عليها حتى تتحول الى « تابو » أو محرمات بكل ما تشير اليه هذه الكلمة من دلالة على التخلف الاجتماعى والحضارى .

ففى فكرنا القومى محرمات ثلاث : الدين والسلطة والجنس ، لا يمكننا أن نتناولها بالتحليل أو بالفهم فهى دوائر مغلقة لا يجوز الاقتراب منها ، وبالتالى تتحول الى مقدسات لا يجوز أن نخضع لعمل العقل أو أن تصبح موضوعا للعلم بل نثنى عليها ، ونطريها ونمدحها ، ونناجيها ، وأحيانا نتملقها ، ونتقرب اليها ، ونستجديها .

الجمهورية ١٩٧٦/٦/٩ . وقد غير الرقيب لفظ السلطان ووضع محله لفظ السلطة . كما وضع تعبير أوامر الدين بدلا من أوامر الله ! كما حذف العبارة الأخيرة « وماذا نخشى من تحويل المحرمات الى محللات ؟ » .

وتنشأ هذه المحرمات من الخوف ، عندما يخشى الانسان الاقتراب من بعض مظاهر الطبيعة والتى يشعر بأثرها فيه وتوجيهها لسلوكه .

والخوف نقص فى المعرفة ، وضعف فى الارادة ، وبمجرد استبطان هذه المحرمات الثلاث فى الوجدان تتحول بدورها الى مصادر للتخويف ، فهى محرمات ، وفى نفس الوقت رقباء ، ومصادر أوامر ونواه وتتوعد بالثواب وبالعقاب .

ولما كانت هذه المحرمات خارج نطاق الفهم النظرى فانها تتحول الى دافع للسلوك ، فتطاع أوامر الدين ونواهيه ، وتطاع أوامر السلطة ، وتطاع العادات والتقاليد الخاصة بالجنس .

ولما كانت للانسان ارادة مستقلة وعقل مستقل يقوم بتوجيه قراراته وتأسيسها على التجربة البشرية فيتم عصيان الاوامر والنواهى الدينية ، وأوامر السلطة ، ويتم الخروج على العادات والتقاليد الخاصة بالجنس .

ولما كانت المحرمات الثلاث مصدرا للخوف ، فان الخروج سيتم عن طريق السر دون العلن ، ومن ثم تنشأ ممارسة المحرمات ، وتنشط الجماعات السرية ضد السلطة ، ويتم التمتع بالجنس فى الخفاء .

ولما كانت النظم الاجتماعية تقوم على المحافظة على النظام فانه يتم التظاهر باطاعة الاوامر والنواهى الدينية ببناء المساجد وعمرتها ، والنداء بالآذان للصلوات ، « والتطرح » بالبياض ، وتطبيق قانون العقوبات ، ويحدث الفصم بين الظاهر والباطن ، ويتحول الايمان الى نفاق ، وتنقلب الصراحة الى تملق ، ويعيش كل منا على مستويين ، وهو راض بنعم الدنيا وحسن العاقبة .

ولما كانت هذه المحرمات الثلاث غير خاضعة للعقل أو الفهم فانها كثيرا ما تتحول الى غيبيات وتكون مرتعا خصبا لفعل الاساطير ، وتدخل فى دوائر الاسرار ، وينشأ السحر والخرافة والكهانة والعرافة والشعوذة لتغطية النقص النظرى [ولاعطاء الانسان الامان .]

وتأتى السلطة وتستغل كل ذلك لحسابها ما دامت قد دخلت فى هذا النطاق ، فلا يستطيع أحد الحديث عنها أو تناولها بالتعليق أو النقد ، فتدعو الناس الى الايمان بالمقدسات ، وتزيد فى مظاهر

تحريم الجنس ، وتدعو للفضيلة ، وتقوى قواعد النظام ـ وحرمة بغلة السلطان ـ حتى تقوى السلطة ، وتعظم هيبتها ، وتزداد فى علاها وتحكم هذه الدوائر المغلقة ، وتزيد من أغلاقها حتى لا يفلت أحد منها .

والحقيقة ان هذه المحرمات الثلاث نتيجة للتخلف الاجتماعى ، فالدين ليس موضوعا للتحريم بل هو مصدر الوحى الذى فيه رعاية لمصالح الناس ، وشريعة تمنع الظلم والقهر ، وتقوم على العدل والمساواة . والسلطة ليست موضوعا للتحريم فقد أتت بيعة الناس لها لتنفيذ نظام الوحى ، فهى سلطة تنفيذية فقط وليست سلطة تشريعية أو قضائية ، وتظل الناس رقيبة عليها اذا ما خرجت عن وظيفتها خرج عليها الناس ، وبايع غيرها . والجنس ليس موضوعا للتحريم ، فقد تحدث القرآن عنه ونظمه ، وتناولته السنة بالتفصيل ، وتحدثت عنه السيدة عائشة ، فلا حياء فى الدين ، ومن ثم كان التعليم الجنسى واجبا من واجبات الدين .

فاذا اخرجنا هذه المحرمات الثلاث الى نطاق المحللات تتحقق وحدة الشخصية القومية ، ويصبح الانسان قادرا على تنظيم شؤون حياته على أسس عقلية لا مجال فيها للايهام والايحاء أو التأثير والخداع .

(ج) شفيقة ومتولى :

عادت مسرحية ـ شفيقة ومتولى ـ من جديد فى وكالة الغورى ، واستطاعت المخرجة د. ليلى أبو سيف الحفاظ على الطابع الشعبى للموال فى أسلوب فنى معاصر فقللت حجم الميلودراما التقليدية خاصة فى مواقف الحب العذرى بين دياب وشفيقة فى البداية وفى رواية شفيقة

الجمهورية ٣١ يوليو ١٩٧٩ .

لاخيها عن سقوطها ، واستبدلت بها مواقف حاسمة وواضحة كما يفعل برشت .

واستبدلت بالرواية التقليدية العجوز بذقنه البيضاء الشبيه بصورة التاريخ والذى ينقلنا الى مكان وزمان الحدث راويا معاصرا شابا ينقل الحدث الينا فيبدو قريبا منا .

وتدور الاحداث على نحو طبيعى تلقائى ، وبحركة مسرحية حاضرة تملأ فناء الوكالة ، وتبلغ القمة فى ليلة المولـــد حيث تدور فــرق الذكر فى كل ركن بالوقوف كما يدور المنشد الدينى فى الشرفات ، ويتم التوحيد بين الحب الالهى فى حلقات الذكر والحب الانسانى وراء الســتار . ويدور الفصل الاول على خشبتين وسط ستارة بيضـــاء تمثل العذرية وعليها بقع الدماء الملطخة توحى بان هناك جريمة ثمنا للحب المحرم .

ويدور الفصل الثانى على خشبة ثالثة وراء الجمهور فيملأ الحدث المكان بالرغم من الاحساس بقصر العرض الناتج عن اندماج الجمهور الكلى فى الحدث المسرحى .

ونجحت المخرجة فى التعبير من خلال الموال الشعبى عن رؤية نسائية عصرية عن مأساة المرأة فى مجتمع الرجال . فالمتفرج يتعاطف منذ البداية مع شفيقة فتاة العصر التى غرر بها دياب ثم رفض الزواج منها ، فابن العمدة لا يتزوج من ابنة نفر فى الكفر ، فاحاط بها الذئاب من الرجال حتى عملت أخيرا مع نبوية العالمة بعد ان انسدت امامها جميع الطرق .

ومع ذلك تأبى أن يمس أحد اباها واخاها متولى زينة الرجــال ودون أن نعلم عن امها شيئا ، وكأن الابنة ترجع فى اصلها الى الاب ، والمرأة الى الرجل . تفخر باصلها الطيب ، ولكن الظروف الاجتماعية : عدم تعلمها ، عدم وجود عمل شريف لهــا ، ترك الرجل بلا عقــاب أو مسئولية ثم عدم قبول توبتها الصادقة وعودتها الى اهلها ، كل ذلك لم يشفع لها . فالتقاليد لم تكسر بعد .

وتم ذبحها طبقا لشعائر الشرف فى المجتمع التقليدى على يد الاخ

وبلدياته حتى يسير هو مرفوع الرأس ، وكأن كرامة الرجل يدفع ثمنها ذبح المرأة بل انه لا يتكلم فى بداية محاكمته ، ولا يكلف نفسه عناء الدفاع عن نفسه .

وقد اتقن الممثلون الشبان ادوارهم بالرغم من قصر البعض منها مثل ابراهيم الباز الذى قام بدور الدفاع وصبى المقهى باتقان بالغ . وجمال الذى قام بدور الشاويش . كما اتقن على حتة دور الاب المأساوى بحركاته المرتعشة وصوته المتهدل ، وجسد الصراع بين حبه لابنته وتقاليد القرية .

وقد برزت البطلات الثلاث سميحة ابراهيم فى دور شفيقة فقد اجادت دور الفلاحة البريئة الساذجة بلهجتها الريفية ثم دور الغازية برقصها ودلالها وأخيرا دور الضحية المدانة ظلما ، وايمان ابراهيم فى دور بدرية كاتمة سر شفيقة وصديقتها .والتى تقترح عليها الهرب من القرية لا المواجهة والصمود وفى دور نبوية العالمة بصوتها وقوة حركتها على خشبة المسرح .

ولا تقل هويدا عن سميحة فى اداء الدورين احيانا . وأحمد عبد المجيد فى دور متولى . فقد استطاع ابراز حديث النفس الباطنى وان يعبر عن مأساة الاخ الذى تفرض عليه التقاليد مسح العار عن نفسه وأسرته . ومع ذلك يعذر شفيقة ويسامحها فقد كان حنونا عليها ، ولكن بعد ذبحها . ويظهر فيه عجز الرجال عن كسر التقاليد ، وتحويل الاقتناع الداخلى الى مواجهة خارجية ضدها . ويذكرنا بالادوار الانطوائية المشهورة لجيمس دين وجيرار فيليب .

وبتعاون الجميع استطاع عشرون ممثلا وممثلة وعشرة فنيين وكلهم من الشبان طلبة اكاديمية الفنون وأهالى الحى انجاح المسرحية بالرغم من قلة الامكانيات وعملهم متطوعين بلا ميزانية بالاضافة الى الجهود المضنية التى بذلتها د. ليلى أبو سيف وما انفقته من مالها الخاص ، واصرارها على اخراج عمل فنى بالوكالة بالرغم من رفض هيئة المسرح

اخراجها مسرحيات يعقوب صنوع الثلاث التى أجازتها الرقابة والتى استغرق العمل فيها شهرين .

ولقد اخرجت د. ليلى أبو سيف هذه المسرحية نفسها لحساب هيئة المسرح منذ أربع سنوات ، وقد اعادت اخراجها باسلوب جديد ورؤية نسائية عصرية .

وقد اعتادت وزارة الثقافة اعطاء اعانات مالية فى مثل هذه الحالات . ولكن مما يدعو للدهشة ان مدير الوكالة طالبها بخمسمائة جنيه تأمين وايجار الوكالة وهددها بالطرد .

اننا نهيب بهيئات وزارة الثقافة ان ترعى جهود هذا المسرح الطليعى ونشكر السيد وزير الدولة لشؤون الثقافة على تدخله الحاسم والسريع من أجل اعفائها من التأمين والايجار حتى يستمر العرض الفنى . يكفى مساندة حى الحسين لها وللفرقة بالاضافة الى تبرعات جمهور المشاهدين . فهل ستكون هيئات وزارة الثقافة أقل مساندة من أبناء الحى ومن جمهور المشاهدين ومن السيد الوزير ؟

(د) العلم قضية :

لقد سعد الطلاب والاساتذة بوجه خاص ، والمثقفون والمواطنون بوجه عام بظهور « الجامعة » التى تجمع بحق فكر الأمة ، وتوجهه من الخاصة الى العامة ، ومن كتب الوزارة الى واقع المجتمع . فالعلم فيها ليس مهنة أو تجارة بل قضية . فطالما سئم الطلاب العلم المحفوظ ومل الأساتذة المواد المقررة ، فما أصعب على النفس تقرير مواد أى فرضها ، وما أسهل عليها أن تنبع منها ، بحرية واختيار . وهنا تخرج « الجامعة » لتحليل العلم « فى الرأس لا فى الكراس » كما يقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وتجعله علما حيا لا علما ميتا كما يقول الصوفية فى ردهم على الفقهاء .

الجامعة ، الدار البيضاء ١٩٨٣/٢/٤ .

فقد تحولت فى « الجامعة » مواد المقرر ، خاصة المواد الانسانية ، مثل الفلسفة والتاريخ ، الى علوم ناطقة بعد ان كانت صامتة ، تحدث الطالب بما يفهم بل وبما يشعر به . ارتبط العلم بعقل الطالب وبوجدانه ، انتقل من ماضيه الى حاضره ، ومن تراث السلف الى أزمة الخلف ، وسمع الطلاب صوت التاريخ فانكشف فيهم « الوعى التاريخى » وهو ما ينقصنا فى جيلنا . وارتبط الأساتذة بالطلاب فى قضية واحدة هى قضية « العلم والوطن » بعد ان كانا منفصلين متباعدين وربما متعاديين . ربط العلم بين الأجيال فى حلقة متصلة مقابل مفهوم « القطيعة المعرفية » الوارد من الحى اللاتينى والذى أصبح رائجا فى بعض الدوائر فى الثقافة المغربية المعاصرة . قطيعة بين من ومن ؟ وقطيعة لصالح من ؟ انفصل العلم عن الاستشراق ، أصبح العلم قضية . لم يعد الاصلاح الدينى حركة ماضية ننظر اليها وكأنها تاريخ بل أصبحت جزءا منا ، ونحن ورثتها ، وعلينا تطويرها . فعليها تعيش أنظمتنا السياسية ، ومنها تتكون ثقافاتنا الحالية . وتحولت النهضة العربية المعاصرة فى المشرق والمغرب الى مرآة ، تعكس وحدة الأمة ، وحركة تحررها الحديثة ، ويستطيع القارىء أن يدرك بنفسه تعثرها فى جيلنا ومصيرها الذى آلت اليه .

وهنا أيضا يتحرر الطالب من رهبة الامتحان . فالامتحان ليس شبحا أو عذابا ، بل فرصة « تاريخية» يعبر فيها الطالب عن نفسه ، ويعرض فيها قضيته ، ويدافع عنوجوده ، ويحلل فيها أزمته ، ويكتب بيانا للناس ، وأن يسمع القاصى والدانى رأيه . وهى لحظة تاريخية أخرى للاستاذ يتعرف فيها على شباب الجيل ، ويعى فيها أزمته ، وهو المربى الفاضل، فيزداد احساسا بالطالب ، بحاجاته ومتطلعاته . الامتحان لحظة لايرهبها الطالب بل يتمناها حيث يعبر عن نفسه بحرية تامة حيث تندر لحظات حرية التعبير فى عالمنا هذا . هى لحظة ظهور « الخلود فى الزمان » على مايقول الفلاسفة ، أو على الأقل لحظة ظهور أكبر قدر ممكنمن الزمان وهو عمر الطالب ووعيه ومدى استيعابه على

مدى عام دراسى كامل فى أقل قدر ممكن من الزمان ، ساعات محدودة . الامتحان تماما مثل الصلاة حيث يناجى فيها الانسان فى لحظات محدودة الأبدية كلها .

فتحية للجامعة ، ودعما للقائمين عليها ، ومرحبا بالتجربة ، وشكرا من قرائها .

(هـ) رسالة الطالب :

مما لاشك فيه أن للطالب رسالة مزدوجة فى تكوينه كباحث وكمواطن . فليست الغاية من التعليم تكوين موظفين أو كتبة لأن الأعمال الحرة فى هذه الحالة اكثر ربحا وأدرمالا . بل الغاية تكوين الباحث العلمى والمواطن الحر . وهما فى الحقيقة شخصية واحدة تتمثل فى الطالب . فالبحث العلمى الذى لايرتبط بقضايا الوطن العلم فيه حرفة ومهنة وكسب قوت . والوطنية لا تتحقق بنضال سياسى لا يقوم على أساس البحث العلمى وتحليل الواقع ومناهج التغير الاجتماعى والا كانت شعارات جوفاء . وحماس شباب لا يغير من الواقع شيئا ، مجرد تبرئة ذمة أمام النفس .

والبحث العلمى ومتطلباته يقوم على ثلاثة محاور : الطالب ، والاستاذ ، والكتاب . الطالب هو الباحث المتكون . والاستاذ هو الباحث الذى حصل على قدر اكبر من التكوين وله باع أطول فى الممارسة . والكتاب هو المرجع الذى حوى نتائج العلم من جهود السابقين .

كتب هذا المقال فى سبتمبر عام ١٩٨٣ فى مدينة فاس بالمغرب كنداء عام لطلاب كلية الآداب بجامعة سيدى محمد بن عبد الله بعد عام حافل بالاضرابات والمظاهرات العامة أدى الى تعطيل الدراسة معظم العام الدراسى ١٩٨٢/٨٣ كنوع من التحية للطلاب فى العام الدراسى الجديد ١٩٨٣/٨٤ . وهذه صياغة ثانية للمقال من المسودة الاولى دون أدنى تغيير كتبت فى خريف ١٩٨٧ . ولنا رسالة مشابهة لطلاب مصر كمساهمة منى فى مجلات الحائط فى كلية الآداب جامعة القاهرة كتبت عام ١٩٧٦/٧٧ وهى السنوات التى تمت فيها تصفية نادى الفكر الناصرى وكافة التنظيمات الطلابية التقدمية وزيادة نفوذ الجماعات الاسلامية . ولكنها مفقودة ولا مسودات لها . ولايختلف مضمونها عن هذه الرسالة لطلاب المغرب : التأكيد على رسالة الطالب المزدوجة كباحث وكمواطن وعلى دوره فى البحث العلمى وفى الالتزام بقضايا الوطن .

ولا يتكون الطالب كباحث الا فى جو علمى صرف مع ما يتطلبه من هدوء وتفرغ وتقاليد جامعية ، واحترام للمؤسسات العلمية ، والتمسك بحق الطالب فى التعلم ، وضرورة وجود الاستاذ ، وتوافر خزانة عامة كاملة ، ووضع برامج علمية يجد فيها الطالب ذاته ، وتحقق مطالب الجماعة . لايتكون الطالب كباحث الا بالتوجه نحو العمق والتأصيل ، والتسلح بشتى المناهج من أجل البحث والاستقصاء ، وتحليل الظواهر من أجل معرفة قوانينها . وأضر ما يكون بالعلم المذهبية والقطعية (الدجماطيقية) والاحكام المسبقة ، والمواقف المتشنجة . ان شرط تقـدم العلم هـو باستمرار مراجعة الأحكام المسبقة ، والمواقف المتشنجة . ان شرط تقدم العلم هو باستمرار مراجعة الأحكام المسبقة واعادة النظر فى النتائج الموروثة . وكيف يبدأ الطالب بحثه العلمى وهو يعلم النتائج من قبل ؟ كلما كانت قراءة الطالب متنوعة ، ومعرفته بالمناهج متعددة ، وعلمه شاملا وغزيرا كان أقدر على البحث العلمى والابداع المستقبلى فيه . ومن ثم كانت قضية « المقروء والمقرر » قضية وهمية تجعل مهمة الطالب الحصول على الشهادة بأى ثمن كان وكأن الغاية من العلم هو اعطاء الدرجات والنجاح بلا تكوين . ان المقروء والمقرر كليهما يدخلان تحت مفهوم أعم وهو تاريخ العلم . وكلما كان الطالب عالما به كان أقدر على البحث واكثر ابداعا فيه . ان تمسك الاستاذ بالمقرر ليس عداوة للطالب بل ينبع من حرصه على تكوين الطالب العلمى . ولكن المقرر ليس كتابا من وضع الاستاذ بل موضوع يقرأ فيه الطالب كتاب الاستاذ وكتب غيره من الاساتذة الأموات منهم قبل الاحياء .

ان نضال الطالب من اجل شروط أفضل للبحث العلمى لجزء من رسالته من أجل تقييم أفضل فى الامتحانات العامة ، ونضاله من أجل ضرورة تكوين الأطر ، واستكمال الدراسات العليا بكل مراحلهـا ، ونضاله من أجل المنح الدراسية وتوفير أساليب كريمة للعيش ، ومن أجل خزانة عامة تتوافر فيها المراجع الاساسية ، ومن أجل نشـاط ثقـافى وعملى بالجامعة خارج البرامج المقررة حتى يعيش الطالب العلم كحياة

وليس فقط كمعمل أو مخبار ، ومن أجل تهيئة مستقبل أفضل ، ومن أجل تقاليد جامعية أرسخ : يوم لاستقبال الطلبة الجدد ، ويوم للخريجين ، وانشاء المسابقات والجوائز العلمية .. الخ ، كل ذلك يجعل الطالب يشعر بأن سنوات الجامعة أفضل سنوات عمره ، ويكون نضاله أيضا من أجل فتح آفاق جديدة لممارسة العلم وتحقيق نتائجه فى الحياة العامة بدلا من البطالة الصريحة أو المقنعة ، ومن أجل حضور الجامعة فى المدينة ، وربط البحث العلمى بمطالبها ، فالطالب ابن للشعب وخادم له ، ومن أجل تكوين ثقافة وطنية عامة تجد فيها الجماعة نفسها وتحقق فيها وحدة الشخصية الوطنية درءا لمخاطر التجزئة .

ان نضال الطالب من أجل شروط أفضل للبحث العلمى هو فى حقيقة الأمر تأسيس له من أجل النضال الوطنى العام . فقضايا التغير الاجتماعى والسياسى هو الميدان الأخير الذى يحقق فيه الطالب ما تعلم ، ويمارس مناهجه التى تعود عليها ، ويطبق نظرياته التى أصلها وان كبار القادة فى كل وطن انما كانوا من خريجى كليات الآداب والعلوم الانسانية خاصة والكليات النظرية عامة . فطالب اللغة والأدب مهمته التعرف على فنون الأمة وادابها ومواطن الابداع فيها . وطالب الفلسفة مهمته التعرف على المكونات الثقافية للأمة ، ما يؤثر فيها من مفاهيم ، وما يحركها من عقائد . وطالب علم الاجتماع يتجه نحو تحليل الواقع الاجتماعى ومعرفة البيئة الاجتماعية وطبيعة الصراعات وموازين القوى . وطالب علم النفس يحلل سمات الشخصية القومية ومعرفة أعماقها ومستوياتها المتعددة حرصا على الشخصية فى العمق . وطالب التاريخ يحاول ادراك قانون لتطور تاريخ مجتمعه حتى لا يقفز به الى مرحلة لم يتهيأ لها بعد أو يرجعه الى مرحلة مر بها من قبل . ودارس الجغرافيا يتعرف على المكونات البيئية للشخصية القومية . وطالب الدراسات الاسلامية ليست مهمته استعمال الثقافة الاسلامية لايقاف حركات التغير الاجتماعى ولتفريغ العلوم الانسانية الأخرى من مضمونها بل مهمته التعرف على تراث الأمة

وروحها ورافدها الثقافى الأول حتى تصبح الثقافة الاسلامية مرادفة للثقافة الوطنية وليست بمعزل عنها أو ضدها .

ان الطالب عضو فى أسرة واحدة هى أسرة الجامعة مع الاستاذ . وليس للادارة أى كيان مستقل أو غاية مختلفة عن رسالة الطالب . الادارة مجرد وسيلة للتنظيم وأداة للتنسيق . ولا شك أن الاتحاد الوطنى لطلاب المغرب لهو المعبر عن مصالح الطلاب والممثل لهم لدى الادارة ، وجزء من هذه الأسرة الواحدة . وان الحوار المتبادل بين أعضاء الأسرة لهو خير وسيلة للاتفاق على الصالح العام . وان الفهم الدقيق لرسالة الطالب هو السبيل الى تأسيس العملية التعليمية من بدايتها . ومن الذى سيقوم بدور الطالب ان تخلى هو عنه أو قام بدور غيره أو قام غيره بدوره ؟

لقد مر هذا العام بأحزانه والى اللقاء فى عام قادم اكثر خصبا فى العلم واكثر وعيا بقضايا الوطن .

(و) وعلماؤنا بالداخل أيضا :

انه لرائع حقا ان يعود علماؤنا بالخارج للارتباط بوطنهم بعد أن شاءت الظروف الاقتصادية والعلمية والسياسية بعدهم عنه ، طوعا أو كرها ، وأن تستفيد منهم مصر بعد أن تربوا فى كنفها ، وتعلموا من مواردها ، وأن يدلوها على آخر ما وصل اليه العلم فى أوربا وأمريكا من انجازات تستفيد منها البلاد فى تنميتها واعادة بناء خريطتها خاصة وقد أصبح منهم صاحب الشهرة ، وصاحب المركز المرموق ، وصاحب الجاه ، وصاحب المال .

كتب هذا المقال ابان اصدار « الاهالى » الاولى عام ١٩٧٨ ، وبعد عقد اول مؤتمر لعلمائنا بالخارج داخل الوطن وكمية التهليل والتكبير والتعظيم لهم والاشادة بهم التى امتلات بها أجهزة الاعلام مما احرج علماءنا بالداخل الصامدين فى المواقع دون ان يذكرهم احد بتحية . لم تنشره الاهالى . وهذه صياغة ثانية طبق الاصل من المسودة الاولى كتبت بعد ذلك بعشر سنوات فى خريف ١٩٨٧ .

وانه لرائع أيضا أن تستقبلهم الدولة استقبال الفاتحين العائدين وأن تعقد معهم المؤتمرات العلمية والسياسية ، وأن تنظم لهم الرحلات السياحية حتى لا يعيشوا منعزلين فى الخارج ، وحتى يكونوا على اطلاع بآخر التطورات فى بلادهم من حيث السياحة والتعمير والبناء والتخطيط ، فيتحمسون لاستثمار مواردهم فى البلاد ، ويضعوا خبرتهم فى خدمة الوطن . وربما عادوا كلية الى معاهدهم وجامعاتهم لتطويرها وتحديثها واطلاعها على آخر ما وصل اليه العلم الحديث .

ونظرا لطبيعة المجتمعين ، المجتمع المصرى العربى الذى نزح منه العلماء والمجتمع الأوربى الامريكى الذى نزحوا اليه يلاحظ أن شهرة علمائنا فى الخارج انما ترجع الى عدة عوامل موضوعية وليست نتيجة عبقرية فريدة لأفراد أو جماعات نادرة الوقوع ولا مثيل لها فى العالم . هذه العوامل الموضوعية يمكن اجمالها فى الآتى :

١ ــ يتعلم علماؤنا بأقل الامكانيات المتاحة مما اضطرهم الى الاعتماد على العقول ، والتفكير المستمر ، وشحذالهمم ، وبذل أقصى الجهد ، والرغبة فى البحث والاستقصاء . فلما نزحوا الى الخارج استمرت هذه الخصال فيهم بعد أن أصبحت جزءا من طبيعتهم ، ففاقوا زملاءهم الأوربيين والامريكيين الذين يعتمدون على امكانيات لا حدود لها فى وسائل البحث العلمى ، وتوفير كل متطلباته . وبالتالى قل الاعتماد على المعقول ، وفترت همة البحث والتحصيل الا بناء على منحة أو اعانة أو ثمن .

٢ ــ تخصص علماؤنا فى نواحى كثيرة تفتقر اليها مراكز البحث العلمى فى الخارج فسرعان ما تم ادماجهم فيها . وذلك لان علماءنا فى مصر يغطون تخصصات نظرية لا حدود لها حتى ولو لم تنشأ لها حاجة فى واقعنا بعد . فالعلم للعلم . نعمل على مستوى العالم بصرف النظر عن حاجات واقعنا المحلى من موضوعات بعينها لها أولوية على موضوعات أخرى .

٣ ــ كثرة المعاهد ومراكز البحث العلمى فى الخارج جعلت وجود عالم أو اثنين فى كل معهد أو جامعة أمرا ملحوظا فى حين أن تكديسنا فى مصر يجعلنا جميعا لا يرانا أحد • فما أسهل ما يحصل الانسان على رئاسة قسم أو معهد فى بلد به المئات منه •

٤ ــ ظهور الأجانب فى مجتمع عنصرى شىء طبيعى • فالانسان فى المجتمع الأوربى والامريكى قبل أن يكون علمه أو ابداعه أو ذكاءه هو لون بشرته وموطنه وأصله ودينه وثقافته على الرغم مما يقال عن حقوق الانسان ومساواة الجميع فى الحقوق والواجبات بصرف النظر عن الاجناس والقوميات •

٥ ــ كثرة المؤتمرات العلمية فى الخارج ومعرفة العلماء بعضهم لبعض وكثرة المجلات العلمية التى سرعان ما تنتشر الأبحاث من خلالها كل ذلك يجعل الشهرة العلمية سهلة المنال بعكس مجتمعاتنا التى تقتصر الشهرة فيها على رجال الفن والاعلام أولا ثم الساسة ورجال الدين ثانيا •

٦ ــ الاعتماد على الشباب ، وعدم دخول الأقدمية بالعمر أو بالزمن وحدها فى تقييم الكفاءة العلمية • فسرعان ما يظهر العلمـاء بأفكارهم ونظرياتهم ويعرفون بانجازاتهم دون انتظار للترقيات الجامعية التى يتنافس عليها المتنافسون •

٧ ــ تسهيل وسائل البحث العلمى والاعلان عنها بأجهزة أعلام سريعة الاتصال والانتشار كل ذلك ليس ابرازا لعبقرية العلماء الأجانب بل تقوية لمراكز الابحاث الغربية واسـتفادة من نتائجهم لصالحهم الخاص وربما ضد أوطان العلماء المهاجرين وفى أقل الحالات بدرايتهم على اختلاف مستوياتها والوعى بها والقصد منها •

وفى نفس الوقت هناك جنود مجهولون ، هم علماؤنا بالداخل ، لا أحد يتحدث عنهم ، ولا يسترشد بآرائهم ، ولا يعمل حسـابهم • لا ينظم لهم المؤتمرات أو الرحـلات فى ربوع الوطن • وهم الذين يقومون بعبأ التنمية ، وبتربية الكوادر المؤهلة ، أصحـاب الأفواه

الصامتة التى رضيت بوضعها الاقتصادى وبامكانياتها العلمية وبأنظمتها السياسية • تعمل فى صمت وتفجر من الصخر ماء ، وتفعل المستحيل • بوفون للمواطن حقه بما أخذوه منه ، ويكونون شاهدين على عصرهم • لا أقول ذلك عن حسد أو غيرة لعلمائنا فى الخارج ، اكثر الله منهم ، وأوسع أرازقهم ، وأنفعنا بهم ولكن فقط أود ذكر بعض خصال هذا الجند المجهول ، علماؤنا بالداخل ، أوجوزها فى الآتى :

١ — ينحتون فى العلم بالرغم من قلة الامكانيات ، ويبحثون عن المراجع ، ويستقصون عن الأجهزة ، ويشتمون المؤتمرات • ويبذل الواحد منهم جهدا فى العلم يكفى لخلق عشرة علماء • يعلم أن هذا هو مجتمعه ، وهذه هى امكانياته ، وهذا هو قدره • لايستسلم أو يرضخ أو يضجر بل يقاوم وينقد ويحصل على مايريد بجديته ومثابرته •

٢ — يصبرون على وضعهم الاقتصادى ، ويحاولون أن يعيشوا بقدر الامكان بالرغم مما قد يحاوله البعض من وسائل غير جامعية للاثراء مثل الكتب المقررة أو الدروس الخصوصية فى بعض الكليات العملية خاصة والنظرية عامة أو الانتدابات الكثيرة أو الاستشارات الصورية • ولكنهم فى مجموعهم يجاهدون ويصابرون وراضون • فهذه هى مصر ، وذاك هو دخلها ، ومستوى المعيشة فيها •

٣ — يعانون مما قد ينالهم من اضطهاد فكرى أو خلاف نظرى أو ضغط سياسى • ويعملون ، خاصة فى الكليات النظرية ، فى جو مشحون بالتوجيه الفكرى تسيطر عليه التقاليد الاجتماعية ويهيمن عليه العرف ، وتملؤه النظريات السياسية القائمة فى مجتمع لم يألف المعارضة الفكرية والحوار الخصب بين كافة الاتجاهات الفكرية والسياسية •

٤ — يعملون بالرغم من ضيق الأماكن ، وكثرة التنافس على المناصب الشاغرة ، وشدة الزحام على المناصب خارج الجامعة • ومع ذلك يساهمون فى تعمير البلاد راضين بأداء الواجب الوطنى الذى لا يعادله أجر ولا تجزيه مكافأة •

٥ — يقاومون الاغراء ، ويحرصون على عدم تفريغ الجامعات ومراكز البحث العلمى من الباحثين الوطنيين حتى لا تتحول البلاد كلها الى مرتع للخبرات الاجنبية التى تدين بالولاء لأوطانها .

٦ — يظلون شهداء على عصرهم ، ومؤشرات لطلبتهم ، ومنارة لمجتمعهم . اذ لا يستطيع الجميع أن ينزح الى مجتمعات أفضل . ومن الذى سيبنى هذا المجتمع ؟ وهل يشعر الخبراء الاجانب بمشاكل البلاد كما يحس بها مواطنوها من العلماء ؟

٧ — يشعرون أن وجودهم فى تاريخ مجتمعاتهم ، وأن ذكراهم داخل أوطانهم ، وأن أوسمتهم وجوائزهم فى استمرار تقاليدهم ، وعملهم فى طلبتهم وفى جامعاتهم . ولا يوجد أقسى من الغربة عن الاوطان ، ولا يوجد أعذب من العودة الى الوطن .

ونحن فى غمرة الحفاوة بعلمائنا فى الخارج فلا ننسى أن علماءنا بالداخل أيضا ! فتحية للصامدين !

(ز) بدلا من الخواء الفكرى :

بعد انقطاع دام أكثر من عشرين عاما ، هو عمر الثورة المصرية ، أعيد انشاء الجمعية الفلسفية المصرية أسوة بالجمعية التاريخية والجمعية الجغرافية والجمعية المصرية للاقتصاد والتشريع .. الخ حتى يمكن لاهل الفكر فى مصر ان يروا بعضهم بعضا ، وان يجتمعوا معا على الفكر الذى يوحدهم ، وأن يتدارسوا القضايا المصيرية للبلاد . وأمام الجمعية مهام محددة نلخصها فى الآتى :

١ — انشاء مناخ فكرى فى مصر يتربى فيه الشباب بدلا من هذا الخواء الفكرى التام الذى ساد البلاد فى الربع قرن الاخير ، حيث لم يمارس الشباب الا الدعاية الفكرية أو حفظ الشعارات أو ترديد المذاهب القديمة والحديثة أو حيث تحول الشباب الى

الجمهورية ، ١٩٧٦ . وقد اعيد احياء الجمعية الفلسفية المصرية من جديد فى ١٩٨٨ .

تطلعاتهم نحو الهجرة أو الكسب الداخلى والاثراء على حساب الاخرين ، وهو ما قدمه لهم مجتمعهم من مثل ودوافع للسلوك •

٢ ــ خلق مدارس فكرية فى مصر تتحاور فيما بينها وتتصارع حتى ينشأ الشباب وقد وجد أمامه المجال مهيئا للاختيار فيما بينها ، وتحديد موقفه الفكرى منها اذ أننا قد عانينا الامرين من عدم قدرة الشباب على أخذ المواقف الفكرية ، والانتساب الى مذاهب ، ومعارضة مذهب اخر ، فالجرأة على الفكر هى شرط الجرأة فى الواقع • وقد كان تاريخ مصر فى أوائل القرن زاخرا بالتيارات الفكرية والأدبية التى أخذت فى الانحسار حتى وصلنا الى ما نحن فيه من فراغ وتسطيح •

٣ ــ اجتماع أهل الفكر فى مصر ، ورؤية بعضهم البعض • فنحن قوم يعيش كل منا فى عالم منفرد ، وفى ركن منعزل ، لا يكاد يرى صاحبه الا عرضا ، على سلم مؤسسة أو فى اجتماع رسمى تدعو اليه السلطة ، وكنا لا نجتمع فيما بيننا الا اذا شرفنا مفكر اجنبى فيرى بعضنا بعضا على موائده • فنلتف حول « الخواجة » نحاوره ويحاورنا دون أن نتحاور فيما بيننا • فاذا غادر الزائر الكريم ، ونحن اكرم ، انفض الجمع ، وانفرط العقد • وكنا نرى بعضنا بعضا فى المؤتمرات الاجنبية خارج البلاد ، ونكون كالغرباء ، والاشقاء الاعداء ثم نرجع الى البلاد وينزوى كل منا فى ركن ننتظر المفكر الاجنبى التالى أو الدعوة الى مؤتمر قادم •

٤ ــ لقد آن الأوان للفكر فى مصر أن يبرز فى مؤسسة بدل أن يترك بلا قاعدة ، فى جمعية لها اجتماعاتها الدورية ، وندواتها ، ومؤتمراتها ، وتقاليدها ، وفى مجلة متخصصة أو عامة يقرؤها الشباب ، وفى مؤتمرات داخلية عن القضايا المصيرية مثل أزمة الفكر فى مصر ، الايديولوجية العربية المعاصرة ، التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم ، موقفنا من التراث الغربى ، نظرية التفسير ، اليمين واليسار فى الفكر •• الخ •

٥ — تكون مهمة الجمعية الاساسية هي تناول قضية الفكر ، وتحليل أزمة الفكر فى مصر ، وتشجيعها ، ووضع وسائل حلها ، والتى تتلخص فى الحصار بين الموروث القديم والمنقول المعاصر أو التوفيق بينهما لحساب احدهما . وطالما لم نحدد بوضوح موقفنا الحضارى وفى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش ستظل خططنا القومية عشوائية غير قائمة على تصور حضارى واضح المعالم يكون فى الحقيقة هو نقطة البداية فى فكرنا القومى .

٦ — وكثيرا ما تخرج المؤلفات الجيدة ، والبعض منها يرقى الى أرفع المستويات ، ولكن لا يجد له صدى عند القراء ، ولا يتناوله أحد بالتعليق أو التحليل .

٧ — واذا كنا نعانى من غياب خطة محكمة لأبحاثنا العلمية ودراساتنا العليا فان مهمة الجمعية تكون فى وضع هذه الخطة للتأليف والترجمة والنشر وربطهما باحتياجات البلاد القوميه بدلا من هذا التبعثر والتشتت أحيانا ، والتكرار والمزاوجة أحيانا أخرى ، والجدب العلمى التام فى بعض الميادين أحيانا ثالثة ، ونكون أشبه بالمجلس القومى المتخصص فى مجال الفكر .

٨ — واذا كنا نعانى من غياب مجلاتنا الثقافية الجادة ودورياتنا العلمية المتخصصة واستمرارها فان مجلة الجمعية الفلسفية المصرية يمكنها سد هذا النقص وذلك بمقالاتها المتخصصة أو العامة وتسجيل ندواتها .

٩ — لقد نشأت فى البلاد العربية الشقيقة الجمعيات الفلسفية الوطنية ، فهناك الجمعية الفلسفية المغربية ، والجمعية الفلسفية العراقية .. الخ ، ومصر التى تزخر بالمفكرين وأهل الرأى تأتى فى نهاية المطاف . وكيف تتم الوحدة العربية ان لم يتوحد أهل الرأى والفكر فيما بينهم ! فوحدة الفكر هى التى تخلق وحدة الارض ، ووحدة الشعب ، ووحدة النظم والمؤسسات . وقد قامت الوحدة الألمانية على يد مفكريها من أساتذة الجامعات .

١٠ ـ وقد كان لمصر مكانتها الفكرية قديما ، وصورتها فى الضمير العالمى هى الفكر والحضارة والتاريخ ، وتمثل جميع الدول فى المؤتمرات العالمية الفلسفية الا مصر ، وبالتالى تكون مهمة الجمعية الفلسفية المصرية ابراز دور مصر على الصعيد العالمى على مستوى الفكر . وفى اللحظة التى نبادر فيها الأن بأخذ زمام المبادرة الدولية ، فان مكانة مصر وتراثها وتاريخها يؤهلها ايضا للريادة الفكرية ومن ثم يكون حاضر مصر امتدادا لماضيها .

أ ـ الموقف الحضارى العربى :

* موقفنا من الواقع ليس الاحباط أو التمرد .

* حل أزمة الموقف الحضارى فى نقل الموقف من المستوى الخطابى الى المستوى العلى .

* علينا أن ننظر للغرب على أنه أحد مراحل تاريخ الوعى الانسانى وليس المسار الحضارى الأوحد .

* لا فكر الا من واقع ولا ثقافة الا من شعب .

اننا لا نستطيع القول ان لدينا فلاسفة ، رغم اننا انشأنا جامعاتنا الحديثة منذ أكثر من نصف قرن ، وجامعاتنا موجودة منذ أكثر من ألف عام ، وفى الحياة العامة بدأنا الترجمة منذ أكثر من قرن ونصف ونحن حتى الآن لا زلنا نترجم . لقد تحول المفكرون لدينا الى وكلاء حضاريين لمذاهب غربية عن بيئتنا نظرا لريادة الغرب وغزوه الثقافى .

وقد يبدو ما فى هذا البحث تكرارا لما هو موجود سلفا ولكن الاصرار على ضرورة المشروع الحضارى القومى هو رسالة لابد من تبليغها .

الموقف الحضارى : موقفنا الحضارى اليوم ذو ثلاثة ابعاد لا يمكن تغييرها ولا تغافلها والا كانت الفلسفة بغير موضوع وبغير وطن . الأول ، هو موقفنا من التراث القديم . والثانى ، موقفنا من التراث الغربى . والثالث ، موقفنا من الواقع . وعادة ما يكون هذا الموقف الحضارى المثلث الأبعاد غير متوازن ، فقد يرتكز على التراث ومن هنا تنشأ ثقافة دينية وسلفية ، وقد يرتكز على الغرب ، ومنه تنشأ ثقافة علمانية وتحديثية ، وقد يرتكز على الواقع ومنه تنشأ ثقافة شعبية

على هامش المؤتمر الفلسفى العربى ، عرض وفاء احمد ، جريدة صوت الشعب ، ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٣ ، عمان . والعبارات الاربعة الاولى من تلخيصها .

وحركات تغيير اجتماعى ، وفقدان الاتزان فى الموقف الحضارى هــو سبب تضارب الثقافات ومناهج التعليم والمذاهب السياسية ويقضى على الوحدة الوطنية .

وقد تتداخل هذه الابعاد فيكون للوعى الفردى موقف ايجابى من التراث يسبب موقفا سلبيا من التراث الغربى وقد يحدث العكس ، وعادة ما يكون هذان الموقفان المتعارضان سلبيين بالنسبة للواقع لأن المدخل الحضارى يكون بديلا عن الواقع المعاش ، اما الذى يأخذ موقفا ايجابيا واعيا من الواقع فانه يكون فى العادة ايجابيا فى موقفيه الحضاريين الأولين .

أزمة الموقف الحضارى : تتجلى أزمة الموقف الحضارى فى موقفنا من كل بعد فيه :

١ ــ كان أقصى ما نفعله تجاهتراثنا هو نشر المخطوطات دون تغيير أو تطوير ، وكأن التراث جسم ميت نقلبــه بلا واقع أو تاريخ ، ثم يخرج الطلاب من جامعاتنا وهم منفصلون عنه نفسيا فيتوجهون الى الثقافة المعاصرة حيث يجدون أنفسهم فيــزداد شعورهم بالقطيعة مع التراث ، مما يجعل بعضهم يقوم برد فعل فيتمسك بالقديم كله ويرفض المعاصرة . ثم نقلنا ذلك كله الصالح والضار منه . عممنا الاشعرية ، ودرسنا الاشراقية ، وشرحنا المحبة والفناء ، ودعونا الى التخلى عن العالم فى مجتمع مهزوم أسطورى ، ودرسنا ان مستقبل الانسان خارج العالم ، وان السياسة كلها مركزة حول شروط الامام وصفاته الحميدة وقضينا بأيدينا على كل احتمال التغيير ، وبينا ان للكواكب أرواحا ونفوسا فوجه وعينا القومى علل ظواهره فى السماء وليس على الارض ، وتساءلنا : ما حكم وصية يكتبها رجل بين انياب الأسد ؟ وكأن مظــاهر المجتمع المتخلف وموضوعاته هى التى فرضت اختيار ثقافته ، اما فقه الثورة وفقه العدالة الاجتماعية وفقه التحرر من الظلم فليس أساسا للاختيار .

٢ ــ لقد فعلنــا نفس الشىء فى التراث الغربى ، فالمحــافظون يختارون المثالية ، والتقدميون الواقعية ، وينشأ الخلاف بيننا . والصراع

فى ظاهرة غربى وفى حقيقته يكتشف عن موقف حضارى خاص بنا وهو ان المثالية وريث طبيعى للمحافظة ، والواقعية هى التطور الطبيعى للدين • المثالى هو الأكثر قدرة على الدفاع عن حياة الناس ومصالح الشعوب • وفى حقيقة الأمر فان المذاهب الغربية وليدة بيئتها •

٣ ـ لقد تحولت الفلسفة لدينا الى نقل وغاب التنظير المباشر للواقع وأصبحت الثقافة فى جانب والواقع فى جانب آخر ، ثقافة غربية وواقع غير مفهوم ، مجرد وعى صورى بلا مادة •

ان عدم التعود على المنهج الاجتماعى فى دراسة الأفكار أو نشأتها وتكونها من الوضع الاجتماعى يجعل الباحثين يستسهلون عرض الأفكار ، فلم يعد الطالب يبدع نصا فلسفيا بل صار مجرد شارح للنصوص ، هذا بالاضافة الى الجو العام لاجهاض العقول ، فليس فى صالح المصالح الكبرى ان يبدع العقل الذى هو بطبيعته تمسك بالحريات ودفاع عن المصالح العامة • واذا ما حاول أحدهم الخروج على المألوف والتمسك بحقه فى البحث الحر اتهم بالالحاد ، ويصبح شريدا مطاردا لا وطن له ، فلا يبقى له الا الهجرة الى الخارج ، أو الهجرة الى الداخل همـا وكمدا حتى يصاب بالجنون ، أو يعمل عن وعى تاريخى طويل ، من خلال الحركات السرية التى سرعان ما يتم انكشافها فيصبح دخيل سجون •

فالواقع يفرض ان يكون موقفنا من التراث القديم موقف الناقد والمطور ، وان يكون موقفنا من التراث الغربى كذلك ، نقده ورده الى حدوده الطبيعية والقضاء على أسطورة عالمية لافساح المجال للابداع الذاتى للشعوب •

والموقف من الواقع ليس بالعزلة التى تتبدى فى النفس احباطا أو تتبدى فى الخارج معارضة أو تمردا ، الموقف من الواقع هو فهمه أولا وسبر مكوناته (الثقافة الوطنية ، الجماهير الشعبية) حتى يمكن تفجير طاقاته القادرة على الوقوف أمام الأبنية الاجتماعية والنظم السياسية التى تقوم على التصورات السلطوية الموروثـة ، حـل أزمة الموقف الحضارى اذن فى نقل الموقف من مستواه الخطابى الى مستواه العلمى •

التراث القديم : ان تراث القدماء المحفوظ المدون فى الكتب القديمة هو مواقف السلطة من حلول المعارضة ، فقد ساد تراث القوة الغالبة على تراث القوة المغلوبة ، كما ان القول بأن المعاد خارج العالم هو من أجل أن يؤسس الانسان ملكوته خارج العالم ويعد له بعد الموت ، اما داخل العالم وقبل الموت فهو حق السلطة القائمة لا ينازعها فيه احد .

كان الخطر قديما على التوحيد كتصور فى عصر الفتوح وأصبح الخطر الآن على الأرض فى عصر الهزائم ،والواحد يتجلى فى الدفاع عن وحدة الأمة ضد تجزئتها . وبما يكون الاصلح الآن هو حرية الاختيار عند المعتزلة وليس الكسب الاشعرى ، واثبات استقلال العقل والارادة وليس تبعيتهما . وقد تكون مهمة الحكيم اليوم التخلص من الاشراقيات القديمة دفاعا عن العقل ، ومع النظر الى الطبيعة نظرة علمية خالصة ، واختيار منطق حسى طبيعى تجريبى كاختيار الأصوليين .

هناك امكانية لتغيير العالم واقامة ملكوت على الأرض ، وتحويل الوحى الى نظام مثالى للعالم : الجماهير حاضرة ، والطلائع متشوقة ، والغضب والاحساس بالظلم يعم الجميع .

ان علوم التفسير قد خضعت فى حقيقة الأمر لباقى العلوم الأخرى كعلوم اللغة أو التاريخ أو الحكمة أو الكلام أو التصوف فخرجت تفسيرات لغوية وتاريخية وكلامية . ولم يظهر التفسير الاجتماعى الا مؤخرا فى حركات الاصلاح ، كما لم يظهر التفسير النفسى — الاجتماعى أيضا الا مؤخرا عندما دعت الحاجة الى اعادة الوحى الى قلوب الناس وشعور الأمة . ان علينا اضافة التفسير السياسى للمساهمة فى حل اشكال العصر وتمزقه بين المحافظة الدينية وبين التقدمية العلمانية . كذلك على الفقيه اليوم اعادة الاختيار من أجل تأسيس فقه المعاملات كما تأسس فقه العبادات من قبل ، من أجل اعطاء الأولوية للمسائل العملية الواقعية على المسائل النظرية .

قد تكون مهمة الباحث اليوم هى اعادة المحاور والبؤر واكتشاف الانسان والتاريخ ، اذ ترسل الينا لجان الأمم المتحدة لدراسة أوضاعنا بالنسبة الى حقوق الانسان • كما اننا خارج التاريخ ، وليس لدينا تراكم تاريخى •

بهذا الموقف من التراث يمكن تحقيق عدة فوائد منها نزع سلاح التراث من أيدى الخصوم فى الداخل وفى الخارج ، ومن ثم القضاء على أهم معوقات التقدم ، كذلك ابراز تراث الشعب ، وبالتالى يمكن تقوية نضال الجماهير باعطائهم تراثا ثوريا من خلال تثوير ثقافتها الوطنية ، والقضاء على الازدواجية فى الشخصية القومية ، ومحو التفرقة بين ثقافة الوطنية الخاصة وبين ثقافة العامة ، وبالتالى تتوحد اللغة ، ويعاد بناء الثقافة بروح العصر ولغته ، ثم تجنيد الجماهير فتنزل بثقلها الى الساحة وتأخذ مصائرها بأيديها •

ان التغيير الاجتماعى بلا تغيير مواز فى الثقافة ، والعمل السياسى دون منظور تاريخى مجرد ضرب فى الهواء •

التراث الغربى : ان موقفنا من التراث الغربى لا يعنى الانغلاق ، بل ان فترة التلمذة قد طالت وما زالت مرحلة الابداع بعيدة عن الأفق ، حيث ان التعلم من الغير وسيلة لا غاية ، ونظرا لطول المـ دة ، انقلب الانفتاح الى الضد وهو التقليد والتبعية ، فنشأت ظاهرة التغريب فى حياتنا الثقافية وفى وعينا القومى والتى تبدو فى الآتى :

١ ــ اعتبار الغرب النمط الأوحد لكل تقدم حضارى ، وهذا أدى الى الغاء خصوصيات كل شعب ، واحتكار الغرب حق الابداع •

٢ ــ اعتبار الغرب ممثل الانسانية ، فتاريخها هو تاريخ الغرب •

٣ ــ اعتبار الغرب المعلم الأبدى واللاغرب التلميذ الأبدى •

٤ ــ رد كل ابداع لدى الشعوب الى الغرب ، فكل دعوة الى العقل ديكارتية ، وكل دعوة الى الحرية ليبرالية غربية ، وكل نضال من

أجل العدالة ماركسية ، حتى أصبح الغرب هو الاطار المرجعى الأول والأخير •

٥ ــ أثر العقلية الأوربيــة على انماط التفكير العامة ، بحيث تضع كل طرفى معادلة فى علاقة تضاد : مثالية أو واقعية ، فردية أو اجتماعية •• وقد نقلنا انصاف الحقائق هذه وجعلنا أنفسنا أطرافا فى معركة لم نخضها •

٦ ــ تحول ثقافتنا الى وكالات حضارية للمذاهب الغربية ، حتى لم يعد أحد قادرا على أن يكون مفكرا أو عالما أو حتى مثقفا ان لم يكن له مذهب •

٧ ــ احساس الآخرين بالنقص أمام الغرب ، مما قد ينقلب الى احساس « وهمى » بالعظمة كما هــو الحال فى بعض الجمــاعات الاسلامية المعاصرة ، وفى الثورة الاسلامية فى ايران •

ويشمل تطور الوعى الأوربى فى نشأته : الأصل اليونانى الرومانى والأصل اليهودى والمسيحى والبيئة الأوربية • وبالرغم من التباين فى جوهر كل من اليهودية والمسيحية ، الا ان الأصل اليهودى المسيحى قد جمع بينهما ابتداء من الكتاب المقدس ، ونظرا للتآلف الطائفى العنصرى بينهما ضد الحضارات الأخرى : اسلامية أو بدائية ، فقــد أصبحتا مصدرا واحدا •

اذن حتى نأخذ موقفا من التراث الغربى علينا أن ندرس الوعى الأوربى على أنه تاريخ وليس خارجه ، أى على انه مرحلة من مراحل تاريخ الوعى الانسانى وليس على أنه المسار الحضارى الأوحد ، وبداية فلسفة جديدة للتاريخ تبدأ من الشرق ، واكتشاف خصوصيات الشعوب ، بما فيه افساح المجال للابداع الذاتى للشعوب غير الأوربية ، واعادة كتابة التاريخ بما يحقق أكبر قدر من المساواة فى حق الشعوب بدلا من النهب الأوربى لثقافات العالم ، وتكوين الباحثين الوطنيين الذين يدرسون حضاراتهم من منظور وطنى •

الموقف من الواقع : ان كلا الموقفين من التراث أو من الغرب ، هما فى حقيقة الأمر مصدر واحد من مصادر المعرفة وهو النقل ، بصرف النظر عن مصدر النقل من الماضى أو من الحاضر . والحقيقة ان الواقع لم يكن غائبـا فى كلا الموقفين ، حيث كنا نرد كلا الموقفين الى الواقع ونأخذ ما اتفق معه ، فالواقع حاضر فى قلب الحضارة . اذ بدون البعد الواقعى يظل الموقفان الأولان مجرد معلومات فى كتب (صـفراء أو بيضاء) ، اذن لابد من احصاء دقيق لمشاكل الواقع ومتطلباته التى يمكن أن تكون مقياسا يعاد وفقه بناء التراث القديم والجديد .

ويمكن احصاء متطلبات الواقع على النحو الآتى :

تحرير الأرض من الاحتلال وهى القضية الأولى فى واقعنا القومى ، لقد قامت حركاتنا الاصلاحية الحديثة دفاعا عن الأرض ضـد المحتل الأجنبى أو الاقطاعى الداخلى . وقد احتلت الصهيونية الأرض بعقيدة أرض الميعاد وأرضنة الله THE ENLANDISENT OF GOD . كذلك اعادة توزيع الثروات والاصلاح الاجتماعى وتحقيق العـدالة ، والديمقراطية فى مواجهـة الطغيان ، فالفلسفة ليس لهـا موضـوع الا الحرية ، كذلك تحقيق الوحدة فى مواجهة التجزئة ، وتحقيق الهوية فى مواجهة التغريب حيث ان أهم قضايانا التى نثيرها باسم الاصـالة والمعاصرة هى كيف يمكن مواجهة ثقافات العصر دون الوقوع فى مخاطر التبعية ؟ كذلك تحقيق التقدم فى مواجهة التخلف ، وتجنيد الجماهير ضد السلبية واللامبالاة ، فليس المفكر فكره فقط بل جمهوره ، وليس نظرياته فقط بل أمته التى يتحدث اليها ويعمل من أجلها ، فلا فكر الا من واقع ولا ثقافة الا من شعب ، وبدون هذا الموقف الحضارى ستظل الفلسفة فى جامعاتنا نباتا بلا غرس وهواء بلا طير وكتابة بلا مداد .

قد لا يحتوى هذاالبحث الا على عموميات يعرفها الجميع منـذ أجيال ، وقد يكون فيه نوع من تغريب النفس ولكنه يبقى على أية حال صراخ يوحنا المعمدان على تلال عمان .

على هامش المؤتمر الفلسفى العربى ، أجرى اللقاء وفاء احمد ، صوت الشعب ، ١٢ كانون (ديسمبر) ١٩٨٣ ، عمان . والعبارتان الاوليان من تلخيصها .

ب ـ الوعى شرط الابداع :

* شرط الابداع هو الوعى بمشاكل العصر والدخول فى تحدياته الأساسية .

* التخلص من التبعية هو التخلى عن مناهج النقل سـواء عن القدماء أو الغرب .

ـ من خلال خبراتك العميقة ما هى الاشكالات التى يعانى منها الوعى العربى حضاريا ؟

● اشكال الوعى العربى يظهر فى ثلاثة ابعاد : فمنذ مئتى عام وحتى الآن لم نجد حلا بعد للقضية الاولى ، وهى قضية الموقف من التراث القديم الذى ما زال حاضرا وجاثما فى الوعى العـربى وفى الاذهان والنفوس ، يحدد السلوك للأفراد وللجماعات . ونظرا لأن التراث القديم السائد كان تراث السلطة بعد محاصرة تراث المعارضـة واندثاره أو تدوينه من خلال مؤرخى السلطة منذ عام ، فان ثقل المحافظة يجعله كتيار تاريخى من الصعب التهرب منه ، ويعطى للمحافظـة شرعيـة تاريخية ، حاول البعض الهجوم عليها ، والدعوة الى الانفصال عنها ، مما سبب رد فعل أعنف فى الدفاع عنها والتشبث بها ، وهذا هو الاشكال ، حيث لم يحاول أحد حتى الآن ان يأخذ موقفا نقديا منها ليخفف من حدتها كى يمنع عوائق التقدم أو يساهم فيه على الاقل على نحو سلبى . والاشكال الثانى هو الموقف من الغرب . فمنذ مائتى عام ننقل ونترجم ونعرض ، لكن معدل انتاج الغرب أسرع بكثير من معدل الترجمـة ، وبالتالى تتسع الهوة ونصاب بالصدمة الحضارية ، ويصبح الغرب هو

صدرت الصحيفة حديثها بالفقرة الآتية :

الدكتور حسن حنفى ذو باع طويل فى التنظير للمجتمع العربى من خلال خبراته الطويلة فى مصر وغيرها مع الاتجاهات التى تكون تنوعات هذا المجتمع الممتد من اليمين الى اليسار . ومع ان الدكتور حنفى يدرس فى الجامعات الاكاديمية « هو الآن يدرس فى كلية الآداب والعلوم والمجتمعات بحضرها وقراها وبدوها . والأهم من ذلك تلك الخبرة الطويلة بحاجات الفرد العربى الحضارية التى تجمع بين متطلبات العصر الحديث المتغير وبين الارث الثقافى الاسلامى والقومى .

« المعلم الأبدى » ونحن « التلميذ الأبدى » ويكون دورنا باستمرار هو استهلاك الثقافة لا ابداعها ، فقد حاول البعض الترويج للثقافة الغربية باعتبارها ثقافة عالمية لا وطن لها ولا زمان ولا مكان ، مما سبب ظاهرة التغريب فى الفكر والسلوك . وقد سبب ذلك ردود فعل كرفض التغريب والدعوة الى الانغلاق على الذات ، ولكن لم يحاول أحد — حتى الآن — أن يأخذ موقفا نقديا منه بدلا من الدفاع عنه أو الهجوم عليه ، أى لم يحاول أحد تحجيم الغرب ورده الى حدوده الطبيعية وارجاعه الى ظروفه التى نشأ فيها والقضاء على اسطورة الثقافة العالمية واعتبار الغرب ممثلا للانسانية جمعاء .

والموقف الثالث هو موقفنا من الواقع الذى ما زال بعيدا عن أن يكون مصدرا لفكر جديد لم يحاول أحد أن ينظره تنظيرا مباشرا . لذلك انعزل التياران السابقان عنه ولم يعد هناك فرق بين من يقول : قال ابن تيمية أو قال ماركس . لم يحاول أحد أن يعيد بناء التراثين معا القديم والغربى بناء على حاجات العصر .

هذا هو الاشكال الرئيسى فى الوعى العربى المعاصر هناك ثلاث جبهات ولا أحد يدخل فيها مرة واحدة ولكن يصارع بعضها بعضا .

— من خلال هذه الاشكاليات المختلفة ، هل تتطلعون الى الوصول الى فلسفة عربية موحدة فى هذا المؤتمر ؟

● لا يوجد شىء اسمه فلسفة واحدة عربية أو يونانية أو غربية فالفلسفة تعدد وجهات نظر وصراع آراء ولا يوجد فيها رأى صحيح والآخر باطل كما يروج عادة فى حديث « الفرقة الناجية » ، كل رأى يعبر عن جانب من الحقيقة ، وكل عصر يعبر عن روحه ومن ثم تقوم الفلسفة أساسا على التعددية ، وفى الوقت الذى تتحول فيه الفلسفة الى رأى واحد ينتهى الفكر .

لقد قامت حضارتنا القديمة فى عصرها الذهبى حتى القرن الرابع الهجرى على التعددية ، وفى الوقت الذى تحوت فيه الى فلسفة واحدة

بعد ضرب الغزالى للعلوم العقلية ، وحدث نفس الشىء فى العقيدة عندما تحولت الاشعرية الى عقيدة رسمية للدولة وازدوجت الاشعرية والتصوف ابان الحكم العثمانى ، انتهى الرأى الاخر وتوقف الابداع •

ولما كان فى علم الاصول الحق النظرى متعدد وان كان السلوك العملى واحد ، فانه يمكن حاليا تعدد الاطر النظرية ، والاتفاق على برنامج عربى موحد • سيان أن تتحرر فلسطين — مثلا — باسم الدين أو باسم القومية أو باسم الوطنية أو باسم الاشتراكية أو باسم البروليتاريا العالمية •• لا يهم • فلا يمكن آن تتوحد الاطر النظرية فى حين أنه يمكن الاتفاق على برنامج وطنى سياسى اجتماعى واحد ، وهذا هو الدرس المستفاد من الجبهة المتحدة •

— لكن بعض هذه الاطر الثقافية والفكرية التى ذكرت لا تسلم من التبعية لغير المناهج العربية الاصيلة •

● ان شرط تخلص الفكر الوطنى من التبعية هو التخلى عن مناهج النقل سواء عن القدماء أو عن الغرب • واذا كانت بلادنا قد قامت بحركات تحرر وطنى على مدى جيلين فانه لم يواكب هذه الحركة حركة أخرى للتحرر من التبعية وهيمنة الآخر • شرط الابداع اذن هو الوعى بمشاكل العصر والدخول فى تحدياته الاساسية واعادة بناء الثقافة الوطنية للجماهير بناء على هذه الحاجات والتحديات •

فالتطوير من الداخل أكثر بقاء وأدوم من التطوير من الخارج ، فكل ما يحتاجه الوعى العربى حاليا من عقلانية وحرية وانسانية وطبيعية ومساواة انما يمكن ان يتحقق باكتشاف جذور هذه المفاهيم فى التيارات المشابهة فى ثقافة الناس الشعبية الممتدة جذورها فى التاريخ خير من نقل هذه التيارات من ثقافة أخرى لا يمكن فهمها الا للنخبة المثقفة والتى يسهل حصارها وعزلتها •

ان شرط الابداع هو الاعتماد على القوة الذاتية وعدم اليأس سواء بهجرة العقول الى الخارج أو باجهاضها من الداخل ، وتأسيس

مفهوم الاستقلال ليس فقط الوطنى ولكن كمفهوم أصيل فى الذهن تربى عليه الجماهير بحيث يصبح الانسان قادرا على أن يتعامل مع الموقف ، هو من طرف والطبيعة من طرف آخر ، تظهر حريته فى التحدى مع ثقة بالنفس وقدرة على صنع تاريخ لم يتحدد بعد •

ــ لكن الفكر العربى المعاصر لم يتخلص من تبعيته للفكر الاسلامى العربى العربى القديم ، فالى أى مدى تغلغل التراث وانعكس فى اثارنا الفكرية ؟

● بطبيعة الحال الأصولية الحديثة لها ما يبررها ، فهى تعى حقائق التاريخ ، وترى ان الاسلام فى مد قادم يماثل المد الاول فى القرون السبعة الاولى ، وسيكون قادرا على تجاوز مرحلة الانهيار فى القرون السبعة الاولى كما انه سيحاول تجاوز كبوة الاصلاح التى حدثت فى جيلنا من الافغانى الى محمد عبده الى رشيد رضا الى الحركة السلفية المعاصرة ، بفعالية أكثر وبتجنيد للجماهير • كما انها تعبر عن رد فعل رفضها ابان الثورات العربية المعاصرة التى استولت على السلطة دون شرعية من عقد اجتماعى أو دستور حيث لم يسمح لها بالعمل العلنى على مدى ثلاثين عاما لانها منافسة على السلطة ومن ثم فان حضورها الفعال حاليا انما هو تعبير عن كبت جيل بأكمله • ونظرا للفشل النسبى لايديولوجيات التحديث العلمانية من ليبرالية وقومية وماركسية فقد احتلت مزيد من الاراضى وزادت الهوة بين الفقراء والاغنياء وازدادت قوانين القهر ومنع الحريات ، وازداد التفتت والتجزئة ، وازداد التغريب •

لكل هذه الاسباب تقدم الاصولية المعاصرة لنفسها كبديل عن التجارب التى سارت فى حياتنا المعاصرة •

ــ أخيرا ، هل سيقوم فلاسفتنا من خلال هذا المؤتمر بتقديم تصورات توفيقية كالعادة ؟

● التوفيق له معنيات : معنى سلبى ومعنى ايجابى • المعنى السلبى هو ان تأتى باجزاء متناثرة لا رابط بينها وتكون منها بناء كليا

سرعان ما يتفكك ويقوم على نفاق وتظاهر ، كمن يأخذ بالتحديث كمضمون ويترك الاشكال الخارجية للتراث أو بين من يأخذ بآخر نتاجات العلم وفى نفس الوقت تسود حياته اليومية الخرافة أو فى النظم السياسية والاجتماعية .. الى آخر كل ما يقال باسم الاشتراكية العربية الى آخره .

وهناك معنى ايجابى للتوفيق ، وهو استيفاء حاجتين اصيلتين شرعيتين كالتراث والتجديد والاصالة والمعاصرة . فمما لا شك فيه ان المجتمعات منها تراثية كما هو الحال فى مجتمعاتنا ، ولا يمكن عمل أى تحديث الا من خلال التواصل والاحداث انقطاع فى تاريخ المجتمع كما هو الحال فى تركيا وبولندا مما يسبب رد فعل عكسى بعد عدة أجيال .

لا سبيل اذن فى هذه المجتمعات الا التحديث من خلال التواصل وفى نفس الوقت قبول تحديات العصر ، وعدم الانعزال عنها ، وايجاد حلول أصيلة ابداعية لها دون نقل حلول جاهزة من تلك النظرية أو غيرها ، لانه فى هذه الحالة لا يكون ذلك توفيقا بل حرصا على وحدة الواقع وتجانسه فى التاريخ بهذا المعنى ايضا يكون التوفيق ايثارا للكل على الجزء ، للشمول على التفتت كما فعل الفارابى قديما فى الجمع بين افلاطون وارسطو ، وكما نفعل نحن فى الجمع بين المثال والواقع بين الاصالة والمعاصرة .

جـ ـ أزمة الفكر العربى :

* الفيلسوف هو الذى يساهم فى خلق نهضة جديدة ويحاول نقل المجتمع من مرحلة الى أخرى .
* يجب على المفكر تطهير رؤيتنا للواقع من آثار الفكر الغربى وان يخلص الثقافة الوطنية من القيم السلبية للتراث .
* النهضة الجديدة انقلبت الى ضدها لانها لم تنشأ على نحو جذرى .

* للمفكر العربى دوران أساسيان فى تربية الكوادر العلمية والنضال الاجتماعى .

س ـ تتنوع المدارس الفلسفية والفكرية فى العالم الغربى وقد تجد هذه المدارس اصداء لها ومفكرين وفلاسفة خارج العالم الغربى وبالنسبة لواقعنا العربى المعاصر . هل يوجد فلاسفة عرب ؟

ج ـ فى الحقيقة ان هذا يتوقف على تعريف الفيلسوف فعادة عندما يطرح هذا السؤال يتبادر الى الذهن معنى الفيلسوف فى الفلسفة الغربية وهو صاحب النظرية أو واضع المذهب او مؤسس الاتجاه لانه حدث فى الغرب بعد الاصلاح الدينى وفى عصر النهضة رفض للقديم ورفض للعقائد ولكل الغطاء النظرى للواقع واضطر المفكر الاوربى ان يجد البديل النظرى وبدأ يضع نظريات واتجاهات وآراء فأصبح الفيلسوف بهذا المعنى فيلسوفا مثاليا مثل ديكارت وكانط وهيجل او واقعى مثل هوبز ولوك وميل وبيكون او فيلسوف وجودى مثل الفلاسفة الوجوديين المعاصرين .

اما بالنسبة لنا فلم يحدث وحتى الان ان اسقطنا الغطاء النظرى القديم . ومازالت العقائد تفسر لنا العالم . ومازال الموروث القديم يمثل لنا غطاء نظريات للواقع . وبالتالى لا يمكن أن ينشأ فيلسوف

جريدة الراى ، ١٩٨٤/١٢/١٠ ، عمان . وهذه العبارات الاربعة من اختيار الجريدة . وقد قامت بالتصدير الاتى :

الدكتور / حسن حنفى هو واحد من ابرز المفكرين العرب واكثرهم جراة فى تناول قضية التراث واعادة طرح مفاهيمها فى صورة تلائم العصر وتطمح الى استشراف آفاق المستقبل من خلال اكتشاف مخزون الماضى الحى فى وجدان الجماهير . انه مفكر اصيل وله سعى دؤوب لاكتشاف وتجديد الفكر الاسلامى وتنقيته من الشوائب واعادة طرحه كنظرية ثورية وقوة دائمة لحركة الشعوب العربية . وقدم رؤيته النظرية فى كتابه الهام « التراث والتجديد » وكتابه « من العقيدة الى الثورة » .

واذا كان هناك خلاف مع الدكتور حسن حنفى فهذا الخلاف ليس فى مضمون النضال من اجل نهضة شاملة لشعوبنا ولكن حجم اللقاء والاتفاق من اجل الثورة والتقدم اقوى من اى خلافات شكلية او فكرية .

وفى اللقاء يحدد دكتور حسن حنفى رأيه فى مشكلات الفكر العربى والنقاش الدائر حول الفلسفة العربية المعاصرة ودور الفكر العربى .

لان الفيلسوف هــو الذى يجد البــديل عن المرفوض ونحن لم نرفض بعد • ولكن أى مفكر يحاول قدر الامكان ان ينقد القديم وأن يؤسس نهضة جديدة بناء على نقــد القديم وتبنى الجــديد هو الفيلسوف • ومن ثم كان الافغانى فيلسوفا لانه ينقد التراث القــديم ويؤسس نهضة جديدة فى الحركة الاصلاحية • وكان محمد عبده ومحمد اقبال ورفاعة الطهطاوى فلاسفة لتنظيرهم لنهضة جديدة • وكان شبلى شميل فيلسوفا لانه ينقد القديم ويدعو الى تأسيس العلم • واذن لدينا فلاسفة بهذا المعنى أى المصلحون المجددون الذين يســاهمون فى خلق نهضة جديدة ، الذين يتوجهون بذهنهم وجهودهم الى نقد الموروث ، الذين يحاولون نقل المجتمع من مرحلة الى أخرى • وهذا هو المعنى الثانى للفيلسوف ولدينا الكثير منهم •

س ــ وبهذا المعنى يمكن ان نقول هناك فلاسفة عرب فى الوقت الحاضر ؟

ج ــ يعنى كل من يدخل فى هذا التيار ، فى الحركة الاصلاحية مثل الافغانى ومحمد عبده والكواكبى والسنوسى والمهدى ورشيد رضا وسيد قطب وكل هذا التيار الذى يدخل ضمن الاصلاح الدينى ، وكذلك التيار العلمى الذى بدأه شبلى شميل وصار فيه يعقوب صنوع ونقولا حداد واسماعيل مظهر وزكى نجيب محمود وسلامة موسى وفؤاد زكريا ، هؤلاء أيضا فلاسفة ، والتيار الليبرالى الذى بدأه الطهطاوى وسار فيه لطفى السيد والعقاد وطه حسين • فلا فرق بين الفيلسوف والمفــكر وصاحب الرأى الذى يحاول أن يؤصل تيارا يخدم به قضية اجتماعية أو سياسية أو ثقافية • وبهذا المعنى لكلمة المفكر هى التى نقصــدها عندما نقول لدينا فلاسفة •

س ــ على هذا الاساس من التعريف فان اسهام المفكرين العرب غير واردة فيكف نقيم مساهمة المفكرين العرب فى التيارات الفــكرية المعاصرة ؟

ج ــ هذا صحيح • فعندما نقول فلاسفة عرب معاصرين فأننا نعنى بهم ممثلين لروافد التيار الغربى •فلدينا مثلا فلاسفة ماركسيين وجوديين

مثالين بنائيين ، وكلهم يمثلون مذاهب فى الفلسفة الغربية واقرب الى الوكلاء فى الفلسفة الغربية ومن ثم لا أسمى هؤلاء فلاسفة بل ولا حتى مذاهب غربية فى واقعنا ، فلا هى مؤصلة فى القديم ولا هى نابعة من مجتمعهم • والفيلسوف هو كل الذى يحاول أن يطور تيارا قديما لدينا فى فكرنا المعاصر أو الذى يحاول أن يجدد أصول الفقه أو التصوف أو أصول الدين ، فكل الذى يحاول أن يتحد بالواقع وأن يعيش تجربته وأن ينظره هؤلاء أيضا مفكرون كل هؤلاء الذين ينقذون الغرب ، لا الذين ينشرون ثقافة الغرب الذين يأخذون موقفا نقديا من الغرب ويدرسون الفلسفة الغربية داخل اطار البيئة • وانا ارى ان الفيلسوف المعاصر لدينا عليه ثلاث مهام رئيسية هى اولا : موقف من القديم وتطويره ثانيا : موقف من الغرب ونقده • ثالثا : موقف من الواقع وتنظيره •

س ـ لكن كيف تنشأ العلاقة الصحيحة ما بين المفكر وواقعه من ناحية مع عدم انفصاله او تبعيته للفكر الغربى او التراث ؟

ج ـ اذا كان المقصود هو حماية الواقع من اى تشويه نظرى له سواء من القدماء او المحدثين من اجل افساح المجال للمفكر العربى فى الاتحاد بالواقع وتنظيره ، فيجب على المفكر تطهير رؤيتنا للواقع من آثار الفكر الغربى بتحجيم الغرب ، رده الى داخل حدوده ، رفع كل الأغطية النظرية التى أتتنا من الغرب لتفسير واقعنا • ولا نحاول أن نفهم واقعنا من منظور رأسمالى ، اشتراكى ، علمى ، وضعى ، مثالى ، ماركسى ، هيجلى ، كل تلك فرضيات نظريات غربية عن الواقع وبالتالى تكون العلاقة هى تطهير العلاقة من هذه الاسقاطات • ونفس الشيء بالنسبة للقديم فمهمة المفكر الكشف عن المخزون النفسى فى واقع الناس حاليا الذى رسب لديهم من التراث القديم وتصفية ما يشكل عائقا للتقدم من هذا المخزون وابراز ما يدفع على التقدم والتغيير • وسأعطى بعض الامثلة فأذا كنا قد ورثنا من التصوف القديم بعض قيم الزهد والرضا والتوكل والقناعة مثل (الصبر مفتاح الفرج) ، (القناعة كنز لا يفنى) كل هذه الاشياء تمنع الناس أحيانا من التقدم والتغير • وظيفة المفكر

ان يخلص الثقافة الوطنية من هذه القيم السلبية ودفع قيم اخرى تدعو الى الثورة والتمرد والغضب حتى تستطيع المجتمعات أن تتحرك وتتقدم . ومثال اخر فى علم العقائد ، فنظرا لضياع الارض واستيلاء الصهيونية على الارض ربما أركز على صلة الله بالارض كما هو واضح فى القرآن الكريم (اله السموات والارض) و (رب السموات والارض) حتى استطيع أن أضع الأرض كجزء من وعى الأمة وثقافتها . وهكذا أقول ان مهمة المفكر هو بالنسبة للتراث القضاء على مايعوق تقدمنا وتغييرنا للواقع مع دفع العناصر المخزونة فى التراث القديم والتى تساهم فى قضايا التغيير والثورة الاجتماعية .

س ـ تثار الان وبشكل واسع جدا مسألة أزمة الفكر العربى المعاصر فما رأيكم فيما يثار وما هى اسباب تلك الأزمة ؟

جـ ـ ما يقال عن أزمة الفكر العربى هو تجن . صحيح أن الشجاعة مطلوبة ولكن فرق بين نقد الذات وتعذيب الذات . فنحن فى فترة انتقال بين القديم الى الجديد ، ومن التخلف الى التقدم . ولطبيعة هذه المرحلة التاريخية هناك ما يسمى بالأزمة وتتلخص فى ان النهضة التى بدأت منذ قرنين من الزمان بدأت تتلاشى وبدأ القوس فى الانهيار فمن الافغانى الى محمد عبده ورشيد رضا الى حسن البنا ، القوس صعد لكى ينزل . ومن الطهطاوى الى لطفى السيد الى طه حسين الى التغييب الحالى ونقد الليبرالية والقضاء على الحريات ، هنا أيضا القوس نزل بمجرد أن صعد . وكذلك أيضا من شبلى شميل ويعقوب صروف ونقولا حداد وسلامة موسى واسماعيل مظهر وزكى نجيب محمود الى ما يسمى بالعلم والايمان وان العلم لابد وان يهدف الى خدمة الايمان . ومن ثم فان فترة النهضة الحالية التى عشناها من قرن انقلبت الى ضدها كما ان الثورة المصرية انقلبت الى ضدها أيضا . وكأن كل نهضة وكل ثورة تحتوى على عناصر النهضة والنهضة المضادة . هذه هى أزمة حقيقة ويكون السؤال : ما هو السبب فى ان هذه النهضة سرعان ما ولدت نهضة مضادة وترسبت ؟ ربما لان النهضة لم تنشأ بشكل

جذرى وان الاصلاح الدينى كان نسبيا • كان فى التعليم والمؤسسات ولم يتناول اسس العقائد التى ما زالت راسخة فى اذهان الناس ، كذلك النهضة عنــد الليبراليين والعلمانيين ربما كانت تعبيرا عن مواقف مشابهة فى الغرب ولم تكن نابعة من الذات • وبما لان النهضة لم تنقــد القديم بشكل كاف •واذا كان أهم ما يميز عصر النهضة فى الغرب هو موقفه من القديم ورفض اى مصادر مسبقة للمعرفة واعتبار الحس والعقل هما مصدران للمعرفة والتى تنشأ من خلال جهد الانسان الخاص وليس مصدرها السلطة الكنيسة وأرسطو فنحن لم نمر بمرحلة نقد الموروث ، وما زلنا نعتمد على التقاليد ونقول قال الرئيس •• قال الوزير •• الخ • ولم نأخذ علمنا من مصادر الطبيعة ككتاب مفتوح للعقل والحس • وطالما اننا لم نتوجه الى نقد القديم فلن يبدأ الجديد ولن ينشأ الفكر •

وسبب اخر هو غلبة مناهج النقل علينــا • وبصرف النظر عن الايديولوجية فالسلفى ينقل من الفقه القــديم والماركسى ينقل من الماركسية التقليدية الاوربية ، والليبرالية تنقل عن جون سيتوارت مل وهكذا ، ولم يحاول أحد ان يبدع • وسبب اخير هو اننا لم نأخذ الواقع كمصدر للمعرفة ، فمعرفتنا تبدأ بنظريات مسبقة ولكن لكى ننظر للواقع فلابد من معايشة الواقع والمجتمع وتحليله ثم بعد ذلك محاولة الابداع والتنظير للفكر والاتجاه •

س ــ الى أى حد يؤثر التضييق على حريات المفكرين والبحوث العلمية فى أزمة الفكر العربى ؟

ج ــ أسباب أزمة الفكر العربى ليس فى الجامعة فقط بل يمتد الأمر الى المدارس وأجهزة الاعلام والى الأسرة •• الخ • ولا يوجد تعليم منفصل عن ما يســمى مشروع قومى يعنى ان الأمة تصوغ مشروعا قوميا ذا مراحل يتحقق جيلا بعد جيل أو ان يكون هنا هدف قومى • فالتعليم ليس مجرد معرفة بل معرفة مرتبطة بقضايا مصيرية ، والعلم الخالص الذى لا وطن له ولا هدف له لا وجود له • ومن ثم فــاذا كانت قضايانا المصيرية الحــالية تتركز فى أربــع قضــايا ،

تحرير الارض التي ما زالت محتلة ، القضاء على الفقر والتفاوت بين ما يملكون ومن لا يملكون ، قضايا الحرية والديمقراطية فى مواجهة النظم الدكتاتورية والتسلطية ، وقضية توحيد الأمة بدلا من هـذا التفتيت والتشرذم والاختلاف والتضارب والتقاتل والصراع ، وربما كانت هناك قضية أخرى هى تجنيد الجماهير وتحويل هذا الكم الهائل من الملايين الى كيف . ونحن نعلم ان ٣ ملايين يستطيعون ان يضعوا مليون تحت السلاح فى ٤٨ ساعة ونحن أكثر من ١٨٠ مليون عربى وحتى الآن لم يتحول هذا الكم الى كيف . وبينما كان يجب أن ترتبط مناهج التعليم حتى العلوم الطبيعية بهذه القضايا حدث العكس . جردنا العلم وقطعناه عن هـذه القضايا القوميـة ومن ثم تحـول الى علم ميت بلا وطن ، واتبعنا منهج الحفظ والتلقين ، وبحشو الطالب فى ذهنه بمعلومات غير مرتبطة بقضاياه المصرية . وبمجرد أن يتخرج ويحصل على شهادة يتحول الى موظف وينسى كل شىء أو قد يهاجر ليكسب أكثر . والكل رضى بذلك . الدولة لان بها أكبر قدر من خريجى الجامعة . والجامعة رضيت لان العام الدراسى مر بدون مظاهرات . والاساتذة راضون لانهم باعوا الكتب المقررة . والطلبة راضون لانهم حصلوا على الشهادة . وبالتالى فهناك نوع من الاتفـاق العـام . ولا طرف يهتم بابداع العلم ، الطالب لانه سيجهد عقله فى جو لا يساعد على الاجتهاد وسيضايق الجامعة لانه ما دام الطالب قد فكر وأبدع فقد يتعرض لقضايا مصيرية وهو سوف تراه الدولة مصدر قلق وتهديد لنظامها . ومن ثم فهناك ارتباط وثيق بين العلم والقضايا المصيرية بما يجعل منهج الابداع ضروريا ، وترك الطالب يختار بين عدد من القضايا وطرح كل البدائل امامه ومساعدته على الاختيار بالاضافة الى وجود اتحادات طلابية حرة يستطيع الطالب من خلالها ان يمارس حياته خارج المدرج ويمارس حياته العلمية فى مدرج الجامعة .

س ــ الى أى حد تظهر تلك الازمة فى اقسام الفلسفة ؟

جـ ــ قسم الفلسفة لا يختلف عن قسـم التاريخ والاجتمـاع

فالقضية واحدة بغض النظر عن الاقسام ، هي قضية الدولة نفسها والمجتمع ككل . فلماذا البكاء على الجامعة وعلى ضياعها والدولة كلها قد ضاعت والامة نفسها قد ضاعت ، والمشروع القومي نفسه قد ضاع من كيان الامة .

س ــ سؤال أخير ، عن دور الفكر العربى فى الوقت الراهن فى قضايا أمته ومجتمعه المصيرية ؟

ج ــ للمفكر الطليعى دوران ، علمى بمعنى ان يحاول قــدر الامكان ان يرى دائرة صغيرة ، جماعة علمية قادرة على ان تستمر فى العلم وهذه مهمة الدراسات العليا ، المدارس الفكرية ، مراكز البحوث العلمية ، لبناء كوادر علمية فى كل فرع حتى نستطيع أن نؤسس فيما بعد الدولة على أسس علمية . والدور الثانى هو النضال الاجتماعى ، بأن يتحول الدور العلمى من البحث الى رســالة اجتماعية فى قالب عام جماهيرى ، وبمخاطبة الجمهور العريض الواسع والمســاهمة فى زيادة وعيه العلمى . فالعلم المرتبط بالقضايا المصيرية هو علم اجتماعى وطنى وبالتالى كان على الفكر ان يخاطب الجماهير من خلال المجلات وأجهزة الاعلام والصحف والمنتديات العامة والمحاضرات الشعبية حتى يستطيع أن ينمى الوعى العلمى المرتبط بالوعى الوطنى وحتى لا يقال ان الفكر يعيش فى برج عاجى أو صومعة ولكن ان يكون له دور أساسى فيما يتعلق بزيادة الوعى العلمى والوطنى للمجتمع . بالاضافة لذلك يجب أن يكون المفكر قدوة فى الامانة والشرف مع الالتزام بقضايا المجتمع وان يرفض أن يكون فى ركاب السلطان ، عليه أن يكون فى المقدمة ، ان ينير الطريق لا ان يبرر ، يرشد لا ان يصفق . ويعبر عن الارادة الجماهيرية والوعى الشعبى العام أكثر مما يعبر عن الحكام .

د ــ أين الفلاسفة العرب ؟

ــ هل يوجد ، حاليا ، فلاسفة عرب ؟

● هذا يتوقف على تعريف الفيلسوف . عندما يطرح هذا السؤال

يتبادر الى الذهن فورا معنى الفيلسوف فى الفلسفة الغربية ، أى صاحب النظرية وواضع المذهب أو مؤسس الاتجاه • ذلك انه حدث فى أوربا عصر النهضة رفض للقيم القديمة واستبدلت بنظريات وآراء ، وأصبح الفيلسوف ، فى هذا الاتجاه ، فيلسوفا مثاليا مثل ديكارت وكانط وهيجل أو فيلسوفا وجوديا مثل كيركجارد وهيدجر وسارتر •

أما بالنسبة الينا ، فلم يحدث حتى الآن ان اسقطنا الغطاء النظرى القديم • وما زالت العقائد الموروثة تفسر لنا العالم وتقدم أجوبة الى الواقع المعاش • نتيجة لذلك ، لا يمكن ان ينشأ عندنا فيلسوف ، لأنه هو الذى يجد بديلا عن المرفوض من الموروث ، ونحن لم نرفض بعد • ولكن ، كل مفكر ، فى رأيى ، يحاول أن ينقد القديم يساهم فى انشاء نهضة فكرية جديدة ، وهو لذلك يدعى الفيلسوف • على هذا الأساس يمكن اعتبار الافغانى فيلسوفا لأنه نقد التراث القديم وأسس الحركة الاصلاحية • وكان محمد عبده ومحمد اقبال ورفاعة الطهطاوى فلاسفة لأنهم نظروا لحركة فكرية جديدة • ولا ننسى شبلى شميل الذى دعا الى فلسفة العلم • جميع هؤلاء هم فلاسفة لأنهم مصلحون ومجددون فى الفكر العربى فى القرن التاسع عشر • انهم حاولوا نقل المجتمع من حالة الى أخرى ، وهذا هو المعنى الحقيقى للقب فيلسوف •

ـــ بناء على ما تقول ، هل يمكن العثور على فلاسفة عرب فى الوقت الراهن ؟

● نعم اذا اعتبرنا كل من ينتمى الى الحركة الاصلاحية فيلسوفا مثل الأفغانى والكواكبى ومحمد عبده والسنوسى والمهدى ورشيد رضا

الوطن العربى ، العدد ٣٦٨ ، وقد صدر المواسل الحديث بالفقرة الاتية :

د. حسن حنفى من ابرز المفكرين المصريين الداعين الى تجديد الفكر العربى ، عن طريق الموروث والنظر فى التراث . وهو لا يرى نهضة جديدة فى فكرنا الراهن من دون أن نتخطى النظريات الفلسفية الغربية والتى اثبت الزمن عدم جديتها فى النظر الى مجتمعاتنا العربية ة

فى حديثه من « الوطن العربى » يتناول تعريف الفيلسوف وحاجة الفكر العربى اليه ، كما يتكلم على دور المفكر العربى فى تخطى الازمة الحالية .

وسيد قطب ، أى كل من يدخل تيار الاصلاح الدينى • ويعتبر فيلسوفا كل من ينتمى الى التيار العلمى الذى بدأه شبلى شميل وتابعه يعقوب صروف ونقولا حداد واسماعيل مظهر وزكى نجيب وسلامة موسى وفؤاد زكريا • أو من ينتمى أيضا الى التيار الليبرالى الذى بدأه الطهطاوى وساء فيه لطفى السيد وعباس محمود العقاد وطه حسين • لا فرق ، اذن ، بين الفيلسوف والمفكر وصاحب الرأى الذى يحاول أن يوصل تيارا يخدم به قضية اجتماعية أو سياسية أو ثقافية • الفيلسوف عندنا هو المفكر •

ــ كيف يمكن الكلام على اسهام المفكرين العرب فى التيارات الفلسفية المعاصرة ، وهم ينتمون الى الفكر الغربى أكثر مما ينتمون الى الفكر العربى ؟

● هذا صحيح ، فحين نقول فلاسفة عربا معاصرين ، فاننا نعنى بهم ممثلين لروافد التيار الغربى لدينا مثلا فلاسفة ماركسيين ومثاليين ووجوديين ، وجميعهم يمثلون مذاهب الفلسفة الغربية • انهم أقرب الى وكلاء الفلسفة أو كلاء الغرب ، وأنا لا أسميهم فلاسفة بالمعنى الحقيقى • الفيلسوف ، فى رأيى ، من يحاول أن يطور تيارا قديما فى فكرنا العربى ، أو الذى يحاول أن يجدد أصول الفقه أو التصوف أو أصول الدين • من هنا فان الفيلسوف العربى المعاصر من يتخذ موقفا من القديم العربى ويطوره ، وموقفا من الفكر الغربى وينقذه ، وموقفا ثالثا من الواقع المعاش فينظر له •

ــ كيف تتصور علاقة المفكر العربى بمجتمعه من غير ان يقع فى تبعية الغرب ؟

● اذا كان المقصود حماية الواقع العربى من أى تشويه نظرى ، فيجب على المفكر ان يطهر رؤيته مبتعدا عن تأثيرات الفكر الغربى • يجب رفع كل الأغطية النظرية التى أتتنا من الغرب وفسرنا من خلالها واقعنا • ذلك انه لا يمكن فهم الواقع العربى من خلال المنظور الرأسمالى أو الاشتراكى أو العلمى أو الوضعى أو المثالى ••• الخ •

وفى المستوى نفسه ، يجب نقد الموروث ، واظهار ما فيه من حسنات تسهم فى تطوير خياتنا ، والتخلى عن سيئاته التى باتت عبئا يمنع تقدم مجتمعاتنا • من هذه السيئات بعض الأفكار المتوارثة مثل « الصبر مفتاح الفرج » ، و « القناعة كنز لا يفنى » ••• الخ • هذه الأفكار وسواها كثير تمنع الناس من التقدم • ووظيفة المفكر ان يخلص الثقافة العربية من القيم السلبية ، بغية ابراز قيم أخرى تدعو الى الثورة والتمرد لكى تستطيع المجتمعات أن تتحرك وتطو الى الأمام •

ـ تثار حاليا مسألة أزمة الفكر العربى ، ما هى أسباب الأزمة فى رأيك ؟

● اننا نعيش فترة انتقالية من القديم الى الجديد ، والأزمة هى فى طبيعة هذه المرحلة التاريخية ، التى تتلخص فى ان النهضة العربية التى بدأت قبل قرنين باتت فى حكم التلاشى • كأن كل نهضة تحتوى على عناصر مضادة تتحول فيما بعد الى أزمة • لماذا هذا التلاشى ؟ ربما لأن النهضة لم تتأسس جذريا ، والاصلاح الدينى كان نسبيا ، فلم يتناول أسس العقائد التى ما زالت راسخة فى أذهان الناس ، والفلاسفة الليبراليون والعلمانيون لم تكن افكارهم نابعة من الذات ولا هم انتقدوا الموروث نقدا كافيا • واذا كان أهم ما يميز عصر النهضة الاوربية هو الرفض لأى مصدر من مصادر المعرفة المسبقة ، واعتبار العقل مصدرا وحيدا للمعرفة ، فنحن لم نمر بعد بمرحلة نقد الموروث وما زلنا نعتمد على التقاليد • وطالما لم نتوجه الى نقد القديم فلن يبدأ الجديد وبالتالى لن ينشأ فكر جديد •

ـ ما هو دور المفكر العربى فى تخطى هذه الأزمة ؟

● للمفكر العربى الطليعى دوران : الأول أكاديمى يسهم فى تطوير مناهج التدريس وارساء قواعد للمدارس الفكرية ومراكز للبحوث العلمية تسهم فى نهضة وطنية • والدور الثانى هو فى التوجه الى الجمهور العريض بغية توفير الوعى العلمى والفكرى لدى رجل الشارع وربط هذا الوعى بالقضايا المصيرية • ولا يتم هذا بمعزل عن استخدام وسائل

الاعلام السمعية ــ البصرية والمقروءة • بذلك ننقذ الفكر من برجه العاجى ، ويصبح المفكر قدوة فى الشجاعة والوطنية والالتزام بقضايا أمته ووطنه ومجتمعه •

هـ ــ التجسس العلمى فى مصر :

الهدف : اعادة تشكيل العقل المصرى حسب احتياجات أمريكا وضرب الباحثين الوطنيين •

لماذا الاسلام ؟ يعلل الاهتمام الغربى فى مجال البحوث المشتركة بالاسلام والتيارات الدينية بالآتى : منذ بدايات انحسار الثورة العربية خاصة بعد هزيمة ١٩٦٧ ، والنجاح النسبى أو الفشل الذى لاقته حركات التحديث العلمانية مثل الشيوعية فى محيط التقاليد الليبرالية، ومنذ حصار الاحزاب والعقائد الموروثة بحيث جعل تحركها صعبا ، وفى نفس الوقت اضطهاد الجماعات الاسلامية فى شتى انحاء العالم الاسلامى من الفلبين شرقا الى المغرب غربا ، ومن تركيا شمالا الى السودان جنوبا ، تكاتفت كل هذه العوامل لطرح سؤال : ما العمل ؟ وما البديل ؟ وبعد اندلاع الثورة الاسلامية فى ايران التى أخذت الغرب غرة ، وازدياد نشاط الجماعات الاسلامية فى كل مكان ، والرغبة الشعبية العارمة للعثور على ملجأ وملاذ يجدونه فى الدين وفى التراث ، بدأ الدين وكأنه القوة المحركة للشعوب مهما كان ما يبدو على السطح من تحديث علمانى غريب يدل على خلاف ذلك • رأى الاستعمار الذى نجح فى اجهاض الثورة العربية فى الستينات وتحويلها الى ثورة مضادة فى السبعينات أن يتصدى لاحتمال اقالة الكبوة عن طريق اللجوء الى الدين خاصة ان مقومات نجاحه بادية مثل التحامه بالثقافة الوطنية للناس ، مقاومة العلمانية ، وجود جماعات نشطة مدنية وعسكرية ، جو عام من السخط على الهزائم المتكررة ومظاهر الانحلال • ويقوم الغرب الآن بعدة محاولات لاحتواء هذا المد الاسلامى الجديد منها •

تحقيق عن التجسس العلمى فى مصر اجراه رفعت سيد احمد بجريدة الشعب ، ١٩٨٤/٩/١١ القاهرة . والعبارة الاولى من اختيار المحرر .

١ ــ اعطائه طابعا محافظا تقليديا (صعوديا) حتى تأمن مخاطره كحركة تغيير اجتماعى قادمة .

٢ ــ اتهام الحركة الاسلامية الرافضة للاسلام المحافظ بالشيوعية أو الخومينية .

٣ ــ تقديم الطائفية كبديل للمد الاسلامى ، فليس المد المسيحى أو اليهودى أو الدرزى أو العلوى بأقل أهمية من المد الاسلامى العام . لذلك يحاول الغرب مع العالم الاسلامى كله لمعرفة المقومات الرئيسية للحركات الاسلامية المعاصرة ومستقبلها حتى لا يؤخذ على غرة كما حدث فى ايران وحادث المنصة ، خاصة ان المد الاسلامى هذه المرة قــد يعيد الحياة لمشروع الثورة العربية المجهضة .

انهم يخترقون مصر : بالرغم من توافر الكثير من المعلومات الدقيقة فى الغرب ومراكز بحوثه وأقماره الصناعية وجميع وسائل استخباراته الحديثة الموجهة نحو المناطق الساخنة فى العالم (امريكا اللاتينية ــ المنطقة العربية ، آسيا) الا انها تحليلات كمية صرفة لا تستطيع أن تكون رؤية محلية خاصة بكل المنطقة ، وبالتالى تخرج مفاجآت بين الحين والآخر تبين حدود التحليلات الكمية للمعلومات (الثورة الاسلامية فى ايران ، حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، حادث المنصة أكتوبر ١٩٨١) لذلك كان اللجوء الى الباحثين المحليين وبوجه خاص الوطنيين الذين فى نفس الوقت على مستوى عال من الكفاءة العلمية ، ويشعرون بنبض الشارع ولهم رؤية مستقبلية للأحداث . ولما كان هؤلاء الباحثون لا يعلمون بكل طاقاتهم فى مراكز ابحاثهم والجامعات والمعاهد أو حتى فى الاحزاب التقدمية فى البلاد ، وتحت ضرورات الحياة ومتطلباتها الملحة ، وربما ايضا طلبا لمزيد من التسهيلات فى البحث العلمى وتوافر المعلومات فى الداخل والخارج لم ير الباحثون الوطنيون حرجا فى التعامل مع مراكز الابحاث الاجنبية ، وقبول ما يعقد عليهم من عقود . ويمكن تفادى ذلك بسهولة عن طريق اقامة مراكز بحوث وطنية تكون مصبا لخبرات الباحثين مع اعطائهم كافة التسهيلات والامكانيات للاطلاع على المعلومات

والوثائق المطلوبة أسوة بالباحثين الاجانب الذين تفتح لهم البلاد ذراعيها ومجازاتهم بمكافآت يستعينون بها على ضرورات الحياة • وذلك فى اطار مشروع وطني عام من أجل اقامة مجتمع جديد على أساس البحث العلمي والدراسات الجادة •

و ـ أصـــــلاح الجامعـــــة :

* « لا سياسة فى الجامعة » شـــعار غريب على تاريخ الجامعه المصرية •
* لم يكن أمام الطلاب الا التصوف أو الدخول فى التيار المركسى أو الوقوف موقف المتفرج •
* الحلم المجهض فى قضايا المجتمع •

الجامعة المصرية نشأت على انها جامعة رأى وليست جامعة حفظ وتلقين • وهذه حقيقة تاريخية لا يمكن أن يخفيها أحد • ولكن هـــذا الدور الأســـاسى انعـــكس فى الآونـــة الأخيرة • فلقـــد نشـــأت الجامعة بعـــد ثورة ١٩١٩ • وكان ذلك بأكتتـــاب عـــام من خـــلال الحزب الوطنى ومن خـــلال مدرســـة الحقوق سنة ١٩١٧ • وتحولت الى جامعة وطنية سنة ١٩٢٥ • وأمام جامعة القاهرة النصب التذكارى لذكرى الشهداء ، ومن الناحية الأخرى يربض تمثال نهضة مصر ، أى أن نهضة مصر مرتبطة بذكرى الشـــهداء • اذن محـــاولة تحجيم الجامعة فى دور البحث العلمى الضيق ، ووضع شعار لا جامعة فى السياسة ولا سياسة فى الجامعة غريب عن تاريخ الجامعة المصرية التى قامت أساسا من خصم ، ومن تحت الحركة الوطنية •

حوار مع ماجدة الجندى ، صباح الخير ، العدد ١٣٦٢ بتاريخ ١٩٨٢/٢/١١ ، القاهرة . والعبارات الثلاث من المحررة . وقد صدرت الحديث بالاتى :

عاد الدكتور حسن حنفى أستاذ الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة الى مكانه الطبيعى .. أستاذا فى الجامعة . والدكتور حسن حنفى من المؤمنين بأهمية دور الجامعة فى أى مجتمع ولذلك كان الحوار معه مثيرا حول هذا الموضوع .

والجامعة المصرية وكل الجامعات فى الدول النامية لها دوران أساسيان :

- الأول قيادة الحركة الوطنية

- والثانى هو البحث العلمى التخصصى وهذا وحده ترف لا يمكن أن ننعم به بل أنه عبارة عن نقل لصورة الجامعات الأوربية التى كانت فى فترات مشابهة لفتراتنا أى أبان عصر النهضة وفى بداية نشأة القوميات الأوربية تقوم بنفس الدور • وحدث أكبر اضطهاد للمفكرين والعلماء فى جامعات كمبريدج والسربون وغيرهما نظرا لانشغالهم بقضايا التحرر وقضايا النهضة بوجه عام • وعندما حصلت هذه الدول على استقلالها وحصلت على حريتها وأصبحت حرية الفكر كالماء والهواء وليست محو الأمية فقط ، وبعد القضاء على الأمية اللغوية ثم مرحلة أخرى للقضاء على الأمية الفكرية الحضارية بعد ذلك بدأ البحث العلمى الدقيق المهنى الذى يتحول فيه الأستاذ الى عالم متفرغ نتيجة لعملية أخرى هى عملية قيادة حرية الرأى وحركة الفكر وقيادة عملية التغيير والنقد الاجتماعى •

والجامعة المصرية بدأت طريقها بالشكل الصحيح ، كانت جامعة وطنية تدافع عن حرية الرأى • وبعد الحصول على الاستقلال بدأت تأخذ دورها كجامعة رأى • ورينا طه حسين يخرج بكتابه «فى الشعر الجاهلى» ناقدا كل التقاليد والأوضاع القديمة ، يسانده لطفى السيد عندما هدد بالاستقالة بعد ما كثرت الضغوط حول طه حسين ، ولكن للأسف لم يجد أساتذة الجامعة المنقولون فى حركة سبتمبر الماضى من يقف بجوارهم بالرغم من أن قانون الجامعات المصرية لا يسمح بنقل عضو هيئة التدريس بغير الطريق التأديبى • وكان على وزير التعليم أن يستقيل وقتها ولكن لسوء الحظ نموذج طه حسين ونموذج لطفى السيد لم يكن بيننا • أقول ان الجامعة كان لها دور فى الاربعينات والخمسينات • كانت جامعة رأى • وفى الستينات كانت تقود البناء الاشتراكى ولو أن ذلك كان بتوجيه من السلطة وليس نابعا من داخل الجامعة • والدليل أنه بعد

أن تحولت مصر عن الخط الاشتراكى فى بداية السبعينات لم نسمع عن هؤلاء الاشتراكيين وعن قياداتهم لمعارك الاشتراكية • ولكن الكل آثر الانزواء أو الخوف واما اعادة العمل والتبرير والتاييد لما سمى فيما بعد بالاشتراكية الديموقراطية •

أن الجامعة حدث بها أخيرا نوع من التخلى عن قيادتها الوطنية وأصبحت خاوية تماما من أى نشاط طلابى يستطيع من خلاله الطالب أن يعبر عن نفسه • ثم بعد ذلك نشكو من مشاكل الشباب ، لأن الجامعة طوال الأربع سنوات لم تقدم للطالب شيئا • لا اتحاد طلاب حـر ولا أساتذة أحرار ولا نقاش و لاعرض لجميع القضايا التى تشغل بال الشباب • واكتفت الجامعة بمجرد تحويل الطلاب الى كتبة وحفاظ كتب مقررة ، الكل يجد نوعا من السهولة • الطالب يحفظ وينجح ، والأستاذ يكتب ويبيع • وفيه نوع من المصالحة العامة أى أن كل واحد مصالحه محققة ولكن فى النهاية البلد هى الخاسرة !

فالجامعة لم تعط الطالب الوسيلة لكى يتربى كمواطن فيخرج الطالب وليس أمامه الا ثلاثة سـبل : اما الاغراق فى الدين وذلك بدخـول الجامعات الاسلامية التى انتشرت ووجدت وتربت فى أحضان السلطة فى بداية السبعينيات • والسبيل الثانى التيارات الناصرية والاشتراكية • والثالث الوقوف موقف المتفرج وهو ما تفعله الأغلبية من الطلاب ! والطالب المخلص الذى كان يريد أن يهب نفسه لقضية لم يكن أمامه الا التيارين وبعد ذلك نشكو من مشاكل الشباب •

هذا هو جوهر مشكلة الجامعة والعلاج سـهل وبسـيط ولكن أين الأطباء ؟! الروشتة تقول استقلال الجامعة والحريات الأكاديمية ورئيس الجامعة لابد أن يتم اختياره بالانتخاب ليس فقط من الأساتذة ولكن أتحاد الطلاب ، والعميد يكون بالانتخاب ليس فقط من الأساتذة ولكن

استمرار الحوار مع عزت الشامى بصباح الخير العدد ١٣٦٣ بتاريخ ١٨/٢/١٩٨٢ ، القاهرة .

من ممثلى الطلاب حتى يمكن تمثيل الجامعة لدى الحكومة تمثيلا ديمقراطيا ولكن الذى يحدث الان هو العكس الحكومة هى التى تمثل الجامعة !

ولابد من حرية تكوين اتحادات الطلاب ، فمبنى الاتحاد الطلابى فى أى جامعة من جامعات العالم هو مبنى النشاط الطلاب نجد فيه كل شىء من نشاط سياسى وثقافى وفنى ورياضى واجتماعى ، والطالب بالفعل يتكون من خلال ممارسة النشاط العام أفضل من تكوينه عن طريق محاضرة • لا يوجد شىء اسمه لا سياسة فى الجامعة فالطالب يتلقى العلم صحيح ولكنه ايضا مواطن وبالتالى لابد أن يتكون على حرية الرأى وعلى احترام الرأى الاخر والتعرض للقضايا الوطنية ولا يخشى شيئا لأنه سيسأل بعد ذلك فى موقعه الانتخابى ليبدى رأيه • فكيف ينتخب اذا لم تعلمه الجامعة ما هى القضايا الوطنية العامة للبلاد ؟

وطالما أن الجامعة لاتعلم الطالب كيف يفكر وكيف يستدل وكيف يحلل الواقع تحليلا مباشرا وكيف يستقى معلوماته من الواقع بشكل مباشر فان رسالتها الأساسية ستضيع وهى تربية المواطن • فالعلم هو تسليح الطالب بمنهج علمى تحليلى ، واعطاء الطالب أكبر قدر ممكن من الجرأة على نقد القيم والتقاليد • فلا توجد قيم ثابتة ولا يوجد شىء أسمه محكمة القيم ولا يوجد شىء اسمه الدفاع عن القيم الثابتة فوظيفة الجامعة هى تغيير القيم ونقد القيم ، فالقيم هى نبت اوضاعنا الاجتماعية • فاذا كنا مجتمعا يرجو التنمية والتغير الاجتماعى فلا يمكن أن يتم ذلك بالدفاع عن القيم القديمة وهى بنت المجتمع القديم • ولكن لابد للجامعة أيضا ألا تفصل القضية العامة عن القضية الخاصة أى قضية تربية المواطن عن قضية البحث العلمى حتى لانشكو بعد ذلك من المشاكل الشباب وعلى حد قول أحد الفلاسفة أننا نثير الغبار ثم نشتكى بعد ذلك من عدم الرؤيا !

من الضرورى الانتساب لقضية الوحدة الوطنية وهى ليست بالمعنى الضيق أى المصالحة بين الأقباط والمسلمين ولكنها قضايا

التنمية والبناء الاشتراكي • ولو تأملنا الفترة من سنة ٦١ الى ١٩٦٤! وهي الفترة التي كانت البلد كلها مجندة في المشروع الاشتراكي لم نشهد أي حادثة طائفية • وبالتالي عندما يغيب المشروع القومي ، وينتهي الصراع ضد الصهيونية والتخلف وعندما تصبح قضايا الحرب والسلام القضية الرئيسية وقضايا الغنى والفقر وعروبة ومصر وقضية الحرية عندما تصبح هذه القضايا حكرا لا يجوز لاى مواطن التعرض اليهـ والانسان بطبيعته لابد أن ينتسب الى قضية فلا يجد أمامه الا عدة أشياء : أنا صعيدى بحراوى •• أنا مسلم قبطى •• أنا أهلاوى زملكاوى •• أى التعصب لمبدأ معين وهو ما يسمى بالتعصب المرضى الذى ينشأ لغياب الأحزاب السياسية ، وهذا حقه الطبيعى مادامت الطاقة غير مصرفة تصريفا طبيعيا فى الرأى المضاد من أجل قضية عامة •

أن البـاب لابـد أن يفتح على مصـراعيه أمـام المواطنين والجامعة بصـفة خاصـة للتحدث والنقاش فى قضـايا مصرية مثل : قضية الوحدة الوطنية وان هـذا البلد بلد الجميع وليس بلد فئة ، قضايا الحرب والسلام ، قضايا الغنى والفقر أن الشارع الذى أسكن فيه أصبح فيه عشرون مليونيرا لانهم يبنون عمارات لا يقل ثمن الواحدة منها عن ٢ مليون جنيه ، قضية الحرية ، قضايا الانحياز ، قضـية عروبة مصر ، كل ذلك أهم من قضايا الاسكان والمجارى • صحيح أن هذه القضايا مهمة ولكن المواطن أساسا بثقافته الوطنية واتجاهاته الوطنية لابد أن يبنى • ومصر مستعدة لأن تربط الحزام من جديد فى سبيل مشروع قومى • باشوات مصـر فى أيام الخـديو اسماعيل ذهبوا لاسماعيل وقالوا له لاتنزعج من الدين نحن مستعدون لدفع دين مصر فى سبيل الحفاظ على استقلال مصر • ولكن ياللأسف باشوات هـذه الايام مستعدون لبيع مصر من أجل المال ونحن نسمع يوميا عن عمليات التهريب والتجارة والأطعمة الفاسدة من أجل حفنة ملايين !

ولكن أقولها حقيقة منذ أكتوبر الماضى أشاهد يقظة للوعى القومى • وهناك حماس حتى من المصريين المقيمين فى الخارج استعدادا للعودة

والبدء مرة أخرى فى بنـــاء مصر وعلى اســتعداد للتضحية فقط مع العودة الى المشروع الوطنى الذى حـــدده جمال عبد الناصر مرتبطا ارتباطا شديدا بتراث مصر .

ز ـ الوحـــدة العربيـــة :

للوحدة أساسان : أساس مادى واساس عقائدى . الاول دون الثانى يكون مجرد تبادل مصالح وعادة ماتكون الانظمة الحاكمة والثانى دون الاول يكون مجرد شعار بلا مضمون . الوحدة جسد وروح ولا بقاء لاحدهما دون الثانى والا كان الموت فى الدنيا قبل المعاد فى الاخرة .

ويتمثل الاساس المادى للوحدة فى حرية انتقال المواطن العربى من بلد عربى الى اخر بلا تأشيرات دخول أو تحويلات للعملة أو صكوك براءة أو توصية من ملك أو امير ، ودون الوقوف بالساعات بل والايام على الحدود تحت شعار أمة عربية واحدة فى يافطة مكتوبة وكأن المواطن مهرب حشيش أو عملة ، وكأنه مجرم يبغى القتل وسفك الدماء . كما يتمثل ايضا فى رفع كل الحواجز والقوانين التى تمنع من حرية تبادل المصالح بين الشعوب ، تبادل البضائع والمنتجات علنا بدل التهريب ودون خوف من انتقال الثروة من مكان الى مكان ، فالحسن أخو الحسين ، بالاضافة الى المصاهـرة والتزاوج القـائم على الحـب والاحترام والتقدير . هكذا انتشر العرب القدماء ، وخرجوا من الجزيرة العربية الى آسيا شرقا وأفريقيا غربا ، عبر البحار والفيافى من أجل التجارة التى تبعتها المصاهرة واختلاط الدماء وتداخل الانســاب . انتقلوا من مكان واستقروا فى مكان آخر ، ولدوا بمنطقة وماتوا فى أخرى ، حملوا معهم عقيدة التوحيد . ويظهر الاساس المادى ايضا فى حرية تبادل الكتب والصحف والمجلات بلا قيد وشرط او رقيب او مراجع وكأن الكلمة مدفع والعبارة مصفحة يخشى منهما على النظم القـائمة . ان نشر الافكار واجراء الحوار المتبادل حول قضايا الوطنية لهو الســبيل

طرابلس ، ١٩٨٣ .

للعثور على وحدة الاشكال ووحدة الحلول ، ووحدة الرؤية والتصور ٠ فتضيع المخاوف وتتبدد الشكوك وتعلم الانظمة انه ليس فى حرية الفكر خطر على الايمان أو سلامة الدولة بل ان القضاء على حرية الفكر فيه تهديد للايمان ولسلامة الدولة ذاتها ٠ ويضم الى ذلك ربط العواصم العربية ومرافئها ومدنها بشبكة من الطرق السريعة والاتصالات السلكية واللاسلكية حتى يتمكن ان ينطلق المواطن من عاصمة الى عاصمة اخرى فى يومها بل ساعتها وأن يطلب من المشرق اخاه فى المغرب من الهاتف فى منزله مباشرة دون انتظار الساعات الطوال يكفر الانسان بعدها بالوحدة ٠

بلادنا من المحيط الى الخليج متكاملة تتركز القوى البشرية فى بلد ، والأراضى الزراعية فى بلد آخر ، والأموال والاستثمارات فى بلد ثالث ٠ فالمال وحده بلا ارض وبشر ينفق على موائد القمار ويودع فى البنوك الأجنبية لتعمير الغرب واسرائيل ٠ والقوى البشرية وحدها تهاجر بحثا عن الرزق فى البلدان العربية كغرباء وفى البلدان الأوربية كاجراء ٠ والاراضى الزراعية وحدها بلا زرع أو حرث يصبح خواء بورا ٠ حياة المنطقة اذن فى وحدتها وموتها فى تجزئتها ٠

ولا خوف على النظم من ذلك ، فليحكم من يشاء باى نظام يريد ولتتعارك النظم فيما بينها ولكن مصالح الشعوب ووحدة الامة تظل خارج الخصومات الوقتية والنزاعات السياسية ٠ بهذه الطريقة تصنع الوحدة ، وحدة المصالح والاتصال بين الشعوب ٠ أما التفكير فى الوحدة السياسية وحدة العلم والنشيد والنظام السياسى والمقعد فى الأمم المتحدة فذلك وضع للعربة امام الحصان ٠

وفى نفس الوقت الذى فيه يتحقق هذا الاساس المادى للوحدة يتم اعداد الشعب بمفاهيم الوحدة وفى مقدمتها « التوحيد » ، فالوحدة ليست مفهوما عرقيا بل هو مفهوم لغوى انسانى ٠ العروبة هى اللسان ٠ والقرآن عربى ، والأمة عربية ، والوحدة مبدأ انسانى يحرر الوجدان الانسانى بفعل الشهادة من الخوف والنفاق والازدواجية ، ويحرر

المجتمع الانسانى من الطبقة والتفاوت فى الدخول ، ويحرر الانسانية كلها من شتى مظاهر التفرقة العنصرية وويلات الحروب • فالبشر جميعا أمام المبدأ الواحد سواء • ولما كانت الجماهير عربية اللسان توحيدية العقيدة تنعكس لديها وحدانية الله فى وحدة المجتمع ، « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » ، « وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » فلاتحتاج الجماهير الى قلب فى مفاهيمها واستلاب لثقافتها واغراق لها فى متاهات التحديد النظرى لمفاهيم القومية التى يختلف عليها المنظرون غربا وشرقا • جماهيرنا وحدوية بثقافتها كما هى وحدوية بمصالحها •

فهرس الموضوعات

الـــدين والثقـــافة الوطنيـــــة

الموضوع	الصفحة

لنفس المؤلف

أولا ــ تحقيق وتقديم وتعليق

١ ــ أبو الحسين البصرى : المعتمد فى أصول الفقه ، جزءان . المعهد الفرنسى بدمشق ١٩٦٤ ــ ١٩٦٥ .

٢ ــ الحكومة الاسلامية للامام الخمينى ، القاهرة ١٩٧٩ .

٣ ــ جهاد النفس او الجهاد الأكبر للامام الخمينى . القاهرة ١٩٨٠ .

ثانيا ــ اعداد واشراف ونشر :

١ ــ اليسار الاسلامى ، كتابات فى النهضة الاسلامية ، العدد الاول ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ١٩٨١ .

ثالثا ــ ترجمة وتقديم وتعليق :

١ ــ نماذج من الفلسفة المسيحية (المعلم لأوغسطين ، الايمان باحث عن العقل لانسليم ، الوجود والماهية لتوما الاكوينى) ، الطبعة الاولى ، دار الكتب الجامعية ، الاسكندرية ١٩٦٨ ، الطبعة الثانية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، الطبعة الثالثة ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ .

٢ ــ **اسبينوزا** : رسالة فى اللاهوت والسياسة ، الطبعة الأولى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، الطبعة الثانية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٨ ، الطبعة الثالثة ، دار الطليعة ، بيروت

٣ ــ لسنج : تربية الجنس البشرى وأعمال اخرى ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ .

٤ ــ جان بول سارتر : تعالى الأنا موجود ، الطبعة الاولى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٨٧ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير بيروت ١٩٨٢ .

رابعا ــ مؤلفات بالعربية :

١ ــ قضايا معاصرة ، الجزء الأول ، فى فكرنا المعاصر ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٦ ، الطبعة الثانية . دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٧ .

٢ ـــ قضايا معاصرة ، الجزء الثانى ، فى الفكر الغربى المعاصر ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، الطبعة الثانية دار التنوير ، بيروت ١٩٨٢ ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٨ .

٣ ـــ التراث والتجديد ، موقفنا من التراث القديم ، الطبعة الأولى المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ ، الطبعة الثالثة ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٧ .

٤ ـــ دراسات اسلامية ، الطبعة الأولى ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨١ ، الطبعة الثانية ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٢ .

٥ ـــ من العقيدة الى الثورة ، محاولة لاعادة بناء علم أصول الدين ، (خمسة مجلدات) الطبعة الاولى ، مدبدلى ، القاهرة ١٩٨٨ . الثقافة الوطنية ، الجزء الثانى ، فى اليسار الدينى ، دار مدبولى ، القاهرة ١٩٨٨ .

٧ ـــ دراسات فلسفية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨ .

خامسا ـــ مؤلفات بالفرنسية والانجليزية :

1. Les Méthodes d'EXégésc, essai sur la science des fondements de la Compréhension, ilm usul al-Fiqh, Le Caire, 1965.
2. L'exégèse de la phénoménologie, l'Etat actuel de la méthode phénomtnologique et son application au phénomène religieux (Paris, 1965). Le Caire, 1980.
3. La Phénoménologie de l'Exégèse, essai d'une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament, (Paris, 1966), Le Caire, 1988 (sous-press).
4. Religious Dialogue and Revolution, essays on Judaism, Christianity and Islam, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo, 1977.
5. Dialogue Religieux et Révolution Vol. II, Anglo-Egyptian Bookshop, Le Caire, 1988 (sous-presse).
6. Religion, Ideology and Development, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo, 1988 (In print).

رقم الايداع ـــ ٨٨/٧٢٩٩

ترقيم دولى ٥ ـــ ١٠٣ ـــ ١٣٣ ـــ ٩٧٧